الرواية المرشحة لجائزة البوكر الروسية 2015

فريق متميزون
E-BOOK

في انتظار الطوفان

رومان سينشين

ترجمة: رنا سيد

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

في انتظار الطوفان

الرواية المُرشحة لجائزة البوكر الروسية ٢٠١٥

رواية مترجمة..

الكاتب: رومان سينشين.
ترجمة: رنا سيد

عن الرواية..

تبدأ الرواية بمكالمة تليفونية بين أحد المسؤولين الروس يتحدثان في إمكانية استكمال محطة طاقة كهرومائية كان قد بدأ إنشاؤها وتوقفت في التسعينيات في بعض قرى سيبيريا. وعندما تقرر استكمالها، يصطدم أهالي القرى هناك بأنهم مضطرون للرحيل من موطنهم الذي صار معرضًا للغرق، ليبدؤوا حياة جديدة تمامًا في المدينة. ومن هنا يظهر صراع ومعاناة أولئك النازحين من الفلاحين البسطاء الذين قد لمسوا في قرى سيبيريا موطنًا صغيرًا يحتضنهم. فكيف يتركون حقولهم وأراضيهم وأكواخهم وحرفهم التي لم يتعلموا غيرها ويبدؤون من الصفر في حياة المدينة؟ وإذا رضوا وأقاموا في شقق المدينة المقدمة لهم من الإسكان، كيف لهم أن يتعايشوا مع حياة الحضر ويختلطوا بأهل المدينة وينخرطوا في حياة لم يعتادوها؟ ناهيك عن كم الذكريات التي سيتركونها لتغرق في القرى ولا يمكن جلبها إلى المدينة، من بيوت وأحباء في القبور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
مكالمة تليفونية

- مرحبًا "فولود"! هل يُمكنك أن تمنحني خمس دقائق من وقتك؟
- نعم، بالطبع.. ماذا حدث؟
- لا شيء، لا شيء، كل شيء على ما يرام.. لقد خطرت لي فكرة رائعة.
- "توليا"، أفكارك دائمًا تُخيفني..
- حسنًا، لا بأس. أنا أقود الآن في إقليم "كراسنويارسك"، وهنا، على ما يبدو، توجد محطة طاقة كهرومائية تحت الإنشاء.
- حسنًا، نحن لدينا، إن لم أكن مخطئًا، أكثر من عشر محطات بهذا الشكل.
- نعم، لكن هذه المحطة مُجهزة بنسبة ستين في المئة تقريبًا. لقد تركوها في بداية التسعينيات. والسد على وشك الانتهاء، وغرف التشغيل أيضًا.. وعلى العموم، فإن وضع اللمسات الأخيرة لهذه المحطة لن يكلفنا الكثير.
- نعم، أنا أعرفُ عباراتك تلك التي تقولها دائمًا: "لن تكلف الكثير".
- لا، "فولود"، الأمر مختلف تمامًا هذه المرة! بالطبع عليك أن تستثمر، لكن ليس بهذه الطريقة..
- لماذا؟ أليس لدينا ما يكفي من الكهرباء؟ فأنت بنفسك تحدثت عن التجهيزات.
- انظر يا "فولود"، إذا انتشرت الإعلانات وانتشرت أشجار عيد الميلاد للاحتفال، يمكننا ذلك، ولكن من الممكن بيع الكهرباء للشركاء الأجانب. على سبيل المثال، الصين ليست بعيدة عنَّا، وأنا واثق تمامًا بأنهم سيهتمون بهذا.
- الصينيون يشيدون في هذه اللحظة ما يقرب من خمسين محطة لتوليد الطاقة الكهربائية.
- حسنًا، أعلم أنهم ليسوا بحاجة إلى الكهرباء؛ لذلك نستطيع أن نزودها بمصنع ألومنيوم. ومن المعروف أن الألومنيوم مطلوب في كل مكان.
- أنت لا يهمك سوى التجارة فقط.
- نعم، فمن دون التجارة لا يوجد سوق، لكن ليس هذا هو محور كل شيء يا "فولود".
- إذن، فيمَ يكمُن الأمر؟
- افهم يا "فولود"! إن انطلاق محطة جديدة قوية وإستراتيجية للطاقة الكهرومائية سيعطي انطباعًا إيجابيًّا! كم من السنوات استغرقتها هذه المحطة ليكتمل بناؤها! لقد دمروا كل شيء، دمروه تمامًا، ونهبوا أموال

الحقبة السوفيتية، والآن في نهاية الأمر استولوا عليها بأنفسهم وشيدوها! بأياديهم! كيف هذا؟
- لا أعرف.. هذا أمر غريب..
- هذا أنت يا "توليا" لن تنصح بشيء سيئ أبدًا.
- أتمنى ذلك..
- حسنًا، هل تفهم الموضوع الآن؟
- إممم، أمور كهذه لا تناقش بهذا الشكل. ليس عبر التليفون..
- لماذا؟ بل بالعكس، بمكالمة تليفونية. فلأجل هذا اخترعوا التليفونات. لقد ظللتُ شهرًا كاملًا أسير على شواطئ نهر "إينسيا".. هيَّا يا "فولود"، سأرسم المخطط، وما عليك سوى التفكير..
- أي مخطط؟
- عن "إجراءات التنمية الاجتماعية والاقتصادية لمقاطعة كراسنويارسك". وسنجعل إطلاق المحطة وبناء مصنع الألومنيوم أهم شيء في المخطط. سيعطي هذا دفعة ملموسة لعملية التنمية.. سنوفِّر العمل للشباب. أمرهم مقلق؛ إنهم يتسكعون طوال الوقت.
- وماذا عن المكان؟ هل ستكون مقاطعة قومية؟
- لا، ستكون الأماكن روسية تمامًا!
- حسنًا، هذا جيد على الأقل. وإلا فالنتائج لنا تحمد عقباها، فنحن نفسد مراعي الرنَّة، وندمر طريقة الحياة التقليدية.
- هذا ما تفعله في أعمالك المتعلقة بالنفط. أما بالنسبة لي، فأنا أعمل في الطاقات النظيفة كالكهرباء. نحن نمتلك السد والبحيرة وهما يقودانا نحو التقدم.
- حسنًا، هل سيتعين علينا إرسال العمال إلى هناك؟
- أين؟
- للبركة. أنا على علم بهذه البحيرات منذ أن كنتُ في سويسرا.
- لقد انتقل بالفعل الجميع في الثمانينيات. وظل هناك خمسة آلاف؛ أي المنبوذون من المجتمع، والمتقاعدون. وقد أرسل مساجين مستعمرة العقاب إلى هناك لإعادة توطينهم وتجهيز الأرض لإنشاء الخزان والسد.
- وكيف تم تجهيزها؟
- لقد أصبح كل شيء جاهزًا تقريبًا. فبالطبع لم أكن لأتحدث معك في مشروع مُربح هكذا. هيَّا يا "فولود"، فلنتقدم معًا.
- ومَن الذي سيتكلف بالأمر؟
- أتقصد الجانب المادي؟
- وهل هناك شيء آخر؟
- جزء سيستثمره مجتمع الكتاب الروس، والجزء الآخر، على ما أظن، علينا أن نُلقيه على "أوليشكا".

- مَن "أوليشكا"؟
- حسنًا، إنه من "بانياسكا" في إيطاليا. يعمل معنا، وأصبح "ملك الألومنيوم". فإذا رغب في المزيد من الألومنيوم، دعه يستثمر.
- سيعاند، لأنه لديه ما يكفيه من المصانع.
- لن يرفض أحد أن يتطور في عمله. لا سيما أنك مددت له يد العون كثيرًا. إن لم يرغب، فليذهب إلى أوروبا لكي يرتاح من العمل، أو يذهب إلى إقليم "كراي زا بايكالسكي" في روسيا ليَخيط الجوارب، أو شيء من هذا القبيل.
- لقد ساعدتُ الكثير..
- نعم، أعلم ذلك. وأنا أيضًا مثلك. بالمناسبة، لقد تخلى عنِّي "أوليشكا" منذ زمن، وقد حان وقت رد الجميل.
- وهل لديك أموال كافية لبناء محطة طاقة كهرومائية؟
- سنبني يا "فولود"، ســنـبـنــي. والجميع سيصبحون سعداء وممتنين. ولن يكون بيننا حمقى! وسنوفر المال..
- نعم، في ميزانية الدولة أم في صندوق استقرار الاقتصاد الروسي؟ "أوليشكا" سيصاب بنوبة غصب.
- أضمن لك أننا لن نقحم أنفسنا في هذا. وفي الحالات القصوى، سنُحسن استخدام القانون الإنجليزي.
- ما هذا؟
- حسنًا، يستغرق الأمر وقتًا كثيرًا للشرح.. إنه مصطلح اقتصادي معقد.
- ها قد بدأت تعبث للتو!
- لا يا "فولود"، لا شيء من هذا القبيل، كما يقولون في "سيبيريا". كل شيء في إطار اقتصاد السوق.. آلو؟
- أفكر.. مَن سيمتلك محطة الطاقة الكهرومائية؟
- ومَن لديه كل شيء يا "فولود"؟ الكل سيأخذ نصيبه. ولن ننسى "ميخائيل إيفانيتش".
- لكن..!
- ماذا؟ نحن جميعًا بشر يا "فولود". وعلينا أن نتعامل بإنسانية معًا، لكن أولًا، وقبل كل شيء، نحن بحاجة إلى التفكير في قضية مشتركة بيننا. فنحن جميعًا نرغب في أن نرى روسيا منخرطة في الساحة العالمية.
- أوه، توقف! في الحقيقة، بالطبع إذا كان كلامك صحيحًا، فإنه مشروع مثير للاهتمام.
- مثير للاهتمام ومُجدٍ. وفي المقام الأول سيعود بالنفع عليك يا "فولود". وستدخل تاريخ روسيا من أوسع أبوابه.. آلو، "فولود"؟ أين ذهبت؟
- حسنًا، فلنجرب.

- يجب أن تختفي كلمة "تجربة" من قاموسك. عليك أن تصبح أكثر حزمًا. مثل "قررنا"، "سنفعل"، "سنحقق"!

- حسنًا، فلتصمت. وإلا سيؤلمني رأسي.

- على العموم، أنا أكتب الآن دراسة جدوى للثروة السمكية. فلتتحدث مع ذلك الرجل من "بانياسكا". دعه يجتهد!

- هل يمكننا تبادل النصيحة وجمع الخبراء؟

- ولماذا يجب أن نفعل ذلك؟! لقد انهارت السلطة السوفيتية بالفعل قبل عشر سنوات، وأنت لا تزال ترغب في طلب النصيحة. قل لي إنك ترغب أيضًا في طلب العون من المكتب السياسي أيضًا. يتعين علينا العمل يا "فولود"، وليس طلب النصح من الآخرين.

- "توليا"، لقد سئمتُ من الاستماع إليك. افعل ما تراه مناسبًا!

- شكرًا، إلى اللقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني
إلى الأرض الغريبة

تُوفيت "ناتاليا سيرجيفنا بريفاليخينا" في الأيام الأولى من شهر سبتمبر.

قضت الصيف تحفُر في الحديقة، وتحصد المحاصيل جميعها قبل حلول الصقيع، عدا الكرنب، فقد أخذته، وجففته، ثم أضافت إليه بعض السُّكر، والملح. ونزلت إلى القبو، ثم سقطت فجأة على الدرج. وظلت لفترة طويلة على الأرض، ثم استجمعت قواها، وتساءلت إن كان عليها أن تذهب إلى الكوخ أو المكان القابع وراء السور. بالطبع من الأفضل أن تذهب إلى الكوخ حتى تستلقي على فراشها، لكن ماذا سيحدث إذا لم تتمكن من النهوض الآن؟ سترقد هنا بلا ماء، ويغطي جسدها الطين، فتذهب روحها إلى بارئها، ورائحة الموت ستفوح في هذا القبو المليء بالأموات. الناس لا يعرفون متى يفاجئهم الموت.. على أي حال، سيلاحظ الناس فيما بعد أن السيدة "ناتاليا" قد اختفت منذ فترة طويلة، وسيأتون بحثًا عنها، وسيكتشفون رائحتها.

تنهدت "ناتاليا"، وانحنت متكأة على أيديها، زاحفة نحو الفناء، ثم إلى البوابة. كان الدجاج يراقبها، صاح الديك مُمتعضًا، وهز عنقه.. بعدما وصلت السيدة "ناتاليا" إلى وجهتها، فتحت البوابة، وخرجت إلى الشارع.

لقد كان هذا الجزء من العالم مألوفًا تمامًا بالنسبة لها. كل يوم لأكثر من خمسين عامًا، كانت تخرج من هذا الفناء ذي البوابة الصغيرة، فتارة تذهب لجلب الماء من البئر، وتارة إلى المتجر، وتارة ترعى البقر، وتارة تستدعي أولادها، وأحفادها. وربما لم تكن ترى الأكواخ القابعة على طول الشارع، أو الأسوار، أو البوابات، وكذلك الحشائش، ولكن إذا تغيرت بعض الأشياء الصغيرة، على سبيل المثال، إذا سقط السور الصغير لحديقة منزل "ميرزيلياكوفيخ"، أو تم طلاء واجهة منزل "جوسينج" بلون زاهي، أو أصبحت النباتات قصيرة بطول أحد الأسوار، حينها لكانت الأكواخ واضحة أمام الأعين. انشغل تفكيرها بهذه الأشياء الصغيرة؛ "يجب عليها أن تخبر زوجها أن يهدم هذا السور، ويزيل النباتات.، ولكن لا يجب فعل هذا الآن، لأنهم سيقولون حينها لقد استفاقت ناتاشا، بعدما قام الآخرون بالأمر".

تقف الآن وتتمايل عند البوابة الصغيرة، تمسك في إحدى يديها حافظة أوراق وفي الأخرى صندوق البريد الخشبي (كانت تخشى الاتكاء عليه بثقل جسدها، لأنه سينهار على الفور)، تنظر بشغفٍ إلى الكوخين الموجودين أمامها على الناحية اليُمنى، والأسوار الرمادية، وأوراق الكرز الحمراء في

الفناء الأمامي، وكذلك إلى الأوراق الخضراء الداكنة، وتقريبًا الزرقاء لأشجار الصنوبر على الأراضي المنخفضة، حيث تقع المقبرة.

كان الشارع ينتهي عند النهر؛ حيث العديد من جسور المشاة على الشاطئ. جسور تُهدم بحلول مايو من كل عام، تُدمر بفعل حركة الكتل الجليدية، أو يقوم الرجال بهدمها، ومن دون أي تذمر وكأنه أمر طبيعي يقومون بإصلاحه. كانت النساء ينظفن الملابس عند جسور المشاة، ويأخذن المياه للماشية والاستعمال اليومي، لم تكن هناك وقتها مضخات تدفع الماء في الأنابيب والخراطيم لجميع الساحات تقريبًا، وكذلك للحدائق الصغيرة ولري الخضروات. أما الرجال فكانوا يصطادون بالقرب من الجسور؛ فمن قبل كان الصيد وفيرًا، وأعداد السمك العادي والسمك النهري كانت مهولة. لطالما استمتع الرجال بأنشطة الصيد، وعادة ما يصادفهم سمك السلمون المفترس المسمى "التامين"، فينتهي الأمر باصطيادهم إياه.

وفي قديم الزمان، كانت هناك امرأة عجوز تُدعى "جوسينا"، وهي الآن متوفاة. أما في شبابها فكانت تنظف الملابس، بينما كان الابن البالغ عامًا واحدًا يلعب بالقرب من الشاطئ. ثمة عشب، وشاطئ منحدر، ومياه ضحلة وراكدة. ظلت "جوسينا" تنظف ملابسها، ثم ألقت نظرة على الطفل، لكنها لم تجده، لقد اختفى الطفل فجأة! ركضت "جوسينا"، وظلت تبحث عنه في كل مكان، لكنها لم تعثر عليه. فهرع الرجال بحثًا عن الطفل في النهر حتى حل الظلام، ثم قال العواجيز إن السمك "ابتلعه". لم تشعر "جوسينا" بالطمأنينة، ولكنها هدأت من روعها، نعم، إذا ابتلعته السمكة، فلن يوجد شيء تقوم به. حدث هذا منذ ٥٠ عامًا تقريبًا، لكنه بدا وكأنه وقع منذ ثلاثة أعوام.

شعرت "ناتاليا سيرجيفنا" بأنها تلك الشابة الصغيرة التي هربت من أبويها وتعرفت إلى رجل ما وفقدت طفلها. عندما رأت حزن هذه الفتاة، جارتها، أدركت أنها بحاجة دائمًا إلى أن تكون على حذر، فمن الممكن أن يختفي الطفل أمام والدته، حتى وهو يلعب بهدوء على العشب.

فردت نفسها لكي ترى النهر، لكنها لم تتمكن من رؤيته. في فترة ما، لم يكن عليها سوى فتح البوابة حتى تُبهر بالمياه التي يرسم عليها التيار حراشف لامعة. فإما أن تكون التلة الصغيرة الموجودة في الشارع قد زاد حجمها، وإما أنها هي نفسها قد تقلصت، وانحنى ظهرها لدرجة أنها حاولت أن تفرد نفسها، فلم تعد قادرة على الوقوف.

"ليت أحد يمر الآن" شعرت في قرارة نفسها أن قوتها تنهار مرة أخرى، كانت ساقاها تتمايلان، كادتا ألا تحملاها.

ليس الأمر أن هناك شيئًا ما يؤلمها، أو تهشم، أو انكسر بداخلها، كما علمت أو سمعت ما يحدث قبل الموت لدى العديد من كبار السن. وقد اضطرت أكثر من مرة إلى الجلوس على فراش الأموات، وكانت تنصت

بقلق شديد إلى تجاربهم في الحياة. تجولت في الحديقة، ونظرت، فإذا بشيء ما يبرز ويرتفع، براعم من محصول الجزر في مدينة "ليبيدين". بالأمس لم يكن هناك شيء، أما هنا فهناك الكثير من المحاصيل. حسنًا، انحنت، وحاولت أن تجمع قواها مرة أخرى، لكي تستمر في السير، الذي بات غير مريح في تلك اللحظات.

"شعرتُ بدُوار في رأسي، حتى فقدت القدرة على الرؤية والسمع، وفقدتُ الوعي بعد ذلك. هذا كل ما في الأمر. لا أذكر كيف جلبوني إلى هنا، لقد انتهى كل شيء الآن. وأصبح من المستحيل النهوض، فقد أصابتني اللعنة عندما رغبتُ في رؤية العشب. أو ربما هكذا؛ ها أنا ذا مستلقية على الفراش، لم تصعد الروح بعد من الجسد، ولم يكن هناك ما يجب فعله، لكن كان من الضروري صنفرة خشب الأشجار. فقد أصبح سعر صنفرتها الآن مكلفًا بالنسبة لي. الناس مستلقون على فراشهم مثلي تمامًا..".

لقد شعرت بألم في ظهرها، وركبتيها، ووخزة في رأسها، وصعوبة أيضًا في التنفس، لكن كل هذا كان مألوفًا بالنسبة لها. فيحدث كل هذا لها بين الحين والآخر، لكن المشكلة الكبرى تكمن في شعورها بالضعف.

الضعف كان أمرًا جديدًا، وغير معتاد. كيف جاء إليها هذا الضعف، بعد ما كانت تتحرك لأكثر من سبعين عامًا؟ الآن لا تحملها قدماها ولا تستطيع رفع يديها، وقد أدركت أن حقنة العلاج، التي كانت تأخذها منذ فترة طويلة، ما عادت تجدي نفعًا.

وقفت بين الفناء والشارع لمدة عشر دقائق، أو ساعة. لم تعد قادرة على معرفة كم الساعة في ذلك الوقت. كانت تشعر بدُوار في رأسها، ليس من الأفكار، ولا الذكريات، ولكن نتيجة سقوطها وارتطامها بالأرض. بات من المحزن الآن أنه لم يصبح لديها الوقت لالتقاط الكرنب أو المخلل. لقد حصلت بالفعل على مبشرة، وبرطمان جاهز للتخليل يمكننا فقط غسله، ووضع المخلل بداخله، ثم وضعه تحت الأرض. لقد غسلت دلوين للجزر، والآن لا جدوى منهما. كانت تخشى من التفكير فيما إذا كان يتعين عليها إبلاغ الأطفال والأحفاد وأخيها كي يدفنوها تحت الأرض. فقد وضعت عناوينهم تحت مفرش طاولة المطبخ، يجب على الجيران أن يخمنوا، ويجدوها، فهناك الكثير من الأوراق المهمة تحت مفرش الطاولة. يحتوي التليفون أيضًا على العديد من الأرقام، وضعت التليفون على الخزانة الجانبية. سيعثرون عليه بكل سهولة، ولكن كيف سيقطع الأطفال والأحفاد كل هذه المسافة حتى يصلوا إلى هنا؟ يعيش أخوها بالقرب من هنا، في قرية "كوتاي"، أما الأبناء فهناك ابنة تعيش في "نوفوسيبيرسك"، والأخرى في "تومسك"، والابن ما زال يعيش في "بيرم"، سيأتي الابن مع ابنته الصغرى في شهر يوليو، لكي يقضوا عطلتهم هنا، ويرحلوا مرة أخرى..

لكن أصعب شيء هو أن "ناتاليا سيرجيفنا" لم تكن تعرف أين سترقد. فهناك مقبرة، خلف أسوار الفناءات المقابلة، بها زوجها والأقارب، ولكن هل سيقررون دفنها هناك؟

سمعت "ناتاليا" خُطى، ثم خرج صبي من وراء السياج. لم تعرف "ناتاليا سيرجيفنا" مَن هو. استدار نحوها، وقال: - جدتي "ناتاليا"، مرحبًا!

أرادت أن تخبره أن يتصل بأحد من الكبار، بدلًا من أن يخرج الكلام من حلقها، صدرت حشرجة غير مسموعة تقريبًا، وكأن هناك بقايا هواء تخرج من قارب مطاطي. بقايا الهواء.. قررت أن تسحب يديها من صندوق البريد، لكي تلوح للصبي، وبعد أن قررت ذلك، كان الصبي قد ذهب بعيدًا نحو النهر.

تتبعه "ناتاليا سيرجيفنا" بنظراتها، وتلوح مرة أخرى بيديها، لكي يعود، وتمنت لو أنه يسمعها، وهي تقول إنها مريضة، وإنها بحاجة إلى المساعدة.. لكنه شرع في المشي، واختفى بعد ذلك. كان الشارع هادئًا جدًّا، ونوافذ منزل عائلة "ميرزيلياكوفيخ" مغلقة، وكذلك منزل عائلة "جوسينج" الخالي.. لقد انكسرت ركبتا "ناتاليا سيرجيفنا" كجذع الشجرة القديم، الذي يتهاوى على الأرض بكل سهولة.

لم يمت أحد في القرية منذ فترة كبيرة، فقد رحل المسنون إلى المدينة؛ حيث المستشفيات، وهناك يتوفون. وترك المدينة الشباب الذين اعتادوا على القتال أو السباحة أو المنغمسون بشرب الكحوليات أو قائدو الدراجات النارية.

لكن في مثل ذلك العالم، حيث يغيب الموت والجنائز، كان هناك شيء ما ضد الطبيعة، وبالتالي شعر الجيران بالحزن على "ناتاليا سيرجيفنا"، لكنهم كانوا في غاية اليقظة والنشاط. وتساءلت السيدات العجوز مَن سيقوم بغُسل المتوفاة، وإلباسها. صنع كبار السن تابوتًا للسيدة "ناتاليا". واهتمت النساء بمراسم الجنازة والعزاء.

ذهب ثمانية رجال لحفر الأرض. بشكل عام، كانت القرية بأكملها مشتركة في مراسم الوداع. وكان كل شيء على عجل، حتى وصل أطفال وأحفاد "ناتاليا سيرجيفنا"، وأصبح كل شيء جاهزًا.

تجمع الرجال في الصباح عند بوابة "بريفاليخنسكي"، وحفروا الأرض بفؤوسهم، ودخنوا سيجارة. كانت أصوات النساء ترتفع من الفناء: - ممنوع فتح النوافذ! يجب وضع نباتات هنا!

- أي نوع من النباتات يمكن وضعه هنا؟

- أعتقد نبات الزعتر.. هل تتذكرين أيتها العمة "توني" أنهم كانوا يضعون نبات الزعتر؟

- المهم ألا ينسوا أن يضعوا فروع التنوب. يجب أن نكسر بعض الأفرع.

كان الرجال يسمعون حديثهن ويبتسمون بحزن.

قال "ليشا بريوخانوف"، الذي كان يعمل في محطة الطاقة الكهرومائية لمدة أربعين عامًا:

- نعم، فروع التنوب مهمة جدًّا.

ثم قال العم "فيتيا"، عامل المدرسة:

- غدًا ستكون أفرع شجر التنوب ناضجة بالفعل. ماذا الآن؟ هل سنقوم؟

نهضوا وهم يتنفسون بصعوبة ويئنون قليلًا، كما لو كانوا قد نهضوا بمجهود شاق وزائد، هزوا أنفسهم ليستعيدوا قواهم، ثم عبروا الشارع. توقفوا بعد ذلك عند البئر، ووضعوا الماء في زجاجات بلاستيكية.

كان هناك زقاق يؤدي إلى المقبرة بين منزل عائلة "جوسينج" وعائلة "ميرزلياكوفيخ". خلال المواكب الجنائزية، نسير في الشارع المركزي، نصنع نصف دائرة ونتوقف بالضرورة أمام النهر، وكأننا نسمح لمن كانوا يغادرون هذا العالم بتوديعه. أما الزائرون، فكانوا يذهبون إلى زيارة القبور خلال الأسبوع عن طريق هذا الزقاق.

لكنهم نادرًا ما يذهبون الآن إلى هناك، فعلى ما يبدو أنه اختفى تقريبًا، فقد جف نبات القراص الساحر، الذي ما زال حيًّا، من الصقيع الذي يحيطه يمينًا ويسارًا.

قام "بريوخانوف"، الذي كان يسير إلى الأمام، بكسر جذوع النبات التي تقابله بيديه. أما الآخرون، فمنهم مَن يركلون الطريق بأرجلهم، ومنهم مَن يحاول تنظيف الطريق بالمجارف، فهم على دراية بأن النساء والمسنات سيذهبن اليوم إلى المقبرة. ويخبرن الأقارب أن العمة "ناتاليا" ستأتي إليهم قريبًا.

كانت المقبرة على أرض رملية مليئة بالنباتات وأشجار الصنوبر الطويلة. كانوا يدفنون الناس دون ازدحام داخل أسوار؛ حيث يرقد الأجداد والآباء. لم يكن هناك عدد كبير من شواهد القبور وتماثيلها، وذلك لأن المقابر كانت في مكان آخر حتى الثلاثينيات، تقريبًا في وسط المدينة، وبجوار الكنيسة. وبعد ذلك حُظر دفن الموتى هناك، وفي الخمسينيات، هُدمت الكنيسة، وقاموا بنقل الموتى إلى هنا. وهُدمت المقبرة القديمة، والحديقة العامة، ونُصبت شواهد القبور كنصب تذكاري للحرب هناك. لم يعتنِ بهذه المقابر المظللة بأشجار الصنوبر إلا قلة قليلة من السكان، فليسَ جميعهم على دراية بأسلاف أجدادهم من عشرة أجيال مضت. نُقلت شواهد القبور المغطاة بالنباتات والحشائش إلى هذه المدينة ورقدت. كان موضوعًا على القبور العديد من الصلبان الجرانيتية المدافعة عن نفسها. قام السكان المحليون بتصقيل هذه الصلبان حتى أصبحت لامعة كالمرآة، فلم تستطع الطحالب والأشنيات أن تغطيها.

كانت هذه الشواهد قد صنعت من قبل حرفيين في "ينسيسك"، وقد اشتراه المحليون بأثمان باهظة. كانت ثقيلة جِدًّا ومن الصعب نقلها إلى هنا.

لذا كان يتم نقلها عادة عندما يحل الشتاء، يأخذها السكان، عبر الجليد، أما في الصيف، فكانوا ينقلونها بأن يضعوها على القوارب في النهر.

كانت هناك أسطورة أو قصة حقيقية في قديم الأزل أن هناك رجلًا غنيًا يُدعى "كيباكوف" أقسم أن يضع صليبًا على قبر زوجته في ذكرى وفاتها. لكن انقلب القارب على مقربة من القرية، على منحدرات النهر، وغرق الصليب الجرانيتي. وحاول الناس لفترة طويلة ربطه بالحبال. وظلوا يكافحون لمدة أسبوعين لكيلا يغطس الصليب، حتى مرضوا من الغطس المتكرر، وعندما اتضح بعد ذلك أن الصليب سيظل في القاع، قفز "كيباكوف" في الماء ولم يخرج. لم يبحثوا عنه، يجب أن يكون قد انجرف بواسطة تيار الماء إلى نهر "ينسي" الكبير بـ"سيبيريا" أو علق تحت فرع شجرة وصار طعامًا للسمك.

كانت أشجار الصنوبر تحيط المقبرة بطريقة ما. أهم شيء ألا تدخل الماشية ولا العجول إلى هناك، ولا تلمس أقدامهم الأرض. فقد حدث ذلك في الماضي، راقبوا القبور بعد الدفن، ووجدوا الدببة تتسلق لكي تذهب إلى هناك، مبعثرين التراب. أخرجوا الجزء الأخير من القبر إلى وادٍ رطب، غني بالتوت الأزرق والمشمش. ومن هنا نشأت غابات "التايجا" المظلمة. وفي الآونة الأخيرة، لم تقترب الدببة والحيوانات الأخرى من القرية، كما لو كانوا يعرفون أنه قريبًا لن يكون هناك شيء مُغرٍ للأكل. هناك فقط مياه راكدة وسمك مخطط.

كانت البوابات صلبة وقوية، متكونة من عمودين من الخرسانة. دخل الرجال المقبرة، وظلوا صامتين لوهلة، وألقوا تحية على الموتى.

من كل الجهات، نظرت إليهم وجوه لمسنين، ولشباب، وأحيانًا وجوه لأطفال. وارتسم على المتوفين جميعهم نظرة حزينة، كما لو أنهم تم تصويرهم خصيصًا من أجل النصب التذكاري. وحتى "فيتكا لوجينوف"، الذي كان يبتسم بكثرة في الصورة، ظهرت في عينيه نظرات الحزن، واصطدمت عينا "بريوخانوف" بصورة "فيتكا لوجينوف"، وتذكر أنهما كانا أصدقاء، وتخرجا في المدرسة معًا، ثم التحقا بالتعليم الفني، وتخرجا فيه أيضًا، وشرعا في العمل معًا. صُعق "فيتكا" بالكهرباء، وهو في سن الرابعة والعشرين من عمره أمام عينيه، وتوفي في تلك اللحظة أيضًا. مرت عشرون عامًا تقريبًا منذ ذلك اليوم، شعر "بريوخانوف" بأنه ما زال شابًّا، أما "فيتكا" فقد ذهب منذ فترة طويلة. لم يكن لديه حتى وقت للزواج "علينا الذهاب إلى المقابر، لكي نتعظ".

قال "بريوخانوف" بوقاحة وجمود، وصوتٍ عالٍ:

- حسنًا، أين توجد مقبرة "بريفاليخين"؟ هل يعرف أحد مكانه؟

أجاب النجار "آفاناسي إيفانوفيتش":

- نعم، هناك في هذا الاتجاه، لكن علينا أن نتحدث بهدوءٍ، احترامًا للموتى. المقبرة ليست بعيدة عن البوابة، فهم يرقدون هناك.

كان هناك العديد من عائلة "بريفاليخين" يرقدون هناك. وقد نُقل عم زوج "ناتاليا سيرجيفنا" (المحارب الأحمر) إلى هذه المقبرة. والآن ترقد معه أيضًا زوجته، وإخوته، وأبناؤه، وبناته، وأحفاده، وغدًا ستأتي إليهم "ناتاليا سيرجيفنا"، ربما تكون الأخيرة في هذه المقبرة.

تفرق الرجال بحثًا عن سلم المقبرة، ثم قال العم "فيتيا":

- لقد وجدته!

اجتمعوا مرة أخرى، ووقفوا بصمتٍ في أماكنهم. فلم يكونوا على عجلة من أمرهم، وليس من المستحب أن يهرعوا في المقبرة.

أشعل "آفاناسي إيفانوفيتش" سيجارة. وسرعان ما أشعل الآخرون خلفه أيضًا. نظروا إلى المقابر، والصلبان، والتوابيت، وحاولوا ألا يلقوا نظرة على الموتى بأعينهم.

كانت أشجار الصنوبر طويلة وفريدة من نوعها، وقد ترابطت قمم الأشجار مع بعضها بعضًا تقريبًا، ودائمًا ما كانت الأرض تحتفظ بالظل والبرودة. لا، كان من الممكن أن يكون المكان حارًا جدًا في بعض الأحيان، ولكن من أجل هذا كانت الموجة الحارة ضرورية أيام كثيرة على التوالي. في هذا الوقت، كان الجو حسنًا؛ لأن الحشائش الميتة كانت تفوح منها رائحة منعشة ولذيذة، وكان هناك نسيم خفيف. بالقرب من بعض القبور، كانت تنمو أشجار جبلية وأشجار أعياد الميلاد، التي لا يمكن أن تنمو بأي طريقة دون وجود الشمس. كانت هناك زهور صناعية متعددة الألوان، ومقاعد وطاولات مزخرفة، كحجرة ضخمة، تغطيها قمم أشجار الصنوبر من أعلى.

عم الهدوء الفضاء، هناك فقط صوت نقار خشب يدق في مكان ما، وهذا الصوت الحاد يؤكد الصمت الرهيب في المكان.

شعر "بريوخانوف" بالتوتر فجأة، وألقى عقب السيجارة على الأرض، وضغط عليه بحذائه، ثم قال: - ماذا الآن؟ هيَّا بنا على أي حال..

شعر العم "فيتيا" براحة، لأنه لم يبدأ الحديث، ذهب إلى قبر زوج السيدة "ناتاليا سيرجيفنا"، وقال مؤيدًا حديث "بريوخانوف": - نعم، بالطبع، هيا!

وقفوا أمام قبره، وهم ينظرون إلى صورته، ويقرؤون الكلمات المكتوبة على القبر: ("بريفاليخين دينيس ستيبانوفيتش" 07/09/1935 - 08/11/2002). كانت الكلمات مكتوبة على قالب من الرخام، مثبت على نصب معدني مطلي بالفضة.

تُوفي قبل سبع سنوات. بدا في الآونة الأخيرة عابسًا. كان يذهب إلى فناء منزله من الطريق المطل على النهر، ويصطاد الأسماك. كان حزينًا دائمًا، سواء كانت الحقيبة مليئة بالسمك أم فارغة. يجلس في الجزء الخلفي من

الحديقة، أو يدخن في المساء على مقعد بجانب الحديقة الأمامية. نعم، ما زالت صورته حية في الأذهان، فقد مرَّ على فقدانه سبع سنوات.

ولكن إذا استرجعت الأحداث التي تدور في الرأس، فقد حدثت أشياء كثيرة في تلك الفترة. لما تُوفى زوج "ناتاليا"، كانت القرية قوية، ومزدهرة، ونسيت خطر الموت، الذي امتد في فترة الثمانينيات. الآن، تعلم القرية أنها محكوم عليها بالفناء، ولم يتبقَ لها سوى بضعة أشهر، وفي أحسن الأحوال عام من الوجود.

كانت هناك صورة لـ"دينيس ستيبانوفيتش"، وهو ينظر إلى الفلاحين بمظهره المعتاد الغاضب قليلًا. بدا لهم وكأنه يسأل: "إذن ماذا؟ ماذا ستفعلون؟ هل ستتركوننا وحدنا؟". نعم، وستنهار شواهد القبور والأسوار خلال اثنتي عشرة سنة، وستنمو الشجيرات، وستختفي المقبرة من على وجه الأرض، وكأنها لم تكن.

نقل بعض المقيمين النشيطين رفات أقاربهم قبل خمسة وعشرين عامًا، عندما علموا بأن القرية ستنغمر بمياة الخزان. سعى السكان في نقل عظام الآباء والأجداد. فإذا تجولتَ في المقبرة، ستعثر على آثار القبور المفتوحة.

لكن بعد ذلك، عندما تغير القرار في موسكو، وهُجر المشروع وتركت هنا محطة الطاقة قيد الإنشاء، لم يعد هناك حديث عن تهجير المقيمين في المكان، بل لقد عاد البعض إلى بلدتهم مرة أخرى تاركين المدن الصاخبة التي هاجروا إليها. ثم فجأة، بدأ المشروع من جديد وقرروا استكمال بناء المحطة. كان من المقرر تكملة المشروع، وستقع المجتمعات الريفية في منطقة الفيضان، بما في ذلك قريتهم "بيليفو".

سأل "كوليا كريكاو" أصغر مَن عادوا من الجيش قبل عام مضي:

- أين سنحفر؟ إلى اليمين أم اليسار؟

أجابه العم "فيتيا":

- سترقد الزوجة على يمين زوجها.

اقترب "بريوخانوف"، وألقى نظرة مثل الآخرين، ثم عاد، وأومأ برأسه:

- نعم، سترقد هناك.

- ولكن توجد هناك جذور شجر صنوبر.

- حسنًا، وماذا سنفعل الآن؟ لدينا فأس، يمكننا قطع الجذر الرئيسي، هيَّا بنا لنبدأ.

شارك "بريوخانوف"، الذي كان يعرف الكثير عن حفر القبور، وسرعان ما شرعوا في قطع العشب بالفؤوس. قطع "كوليا كريكاو" العشب بمجرفة، ووضعها جانبًا. جلس الآخرون ينتظرون دورهم للعمل.

ساد كوخ "ناتاليا سيرجيفنا" نشاط هامس وسري. كانت المتوفاة مستلقاة على المنضدة، بعدما قام الناس بغسلها. كانت ترتدي ما صنعته لنفسها. وجد الجيران بسهولة لفافة مِا على الخزانة.

انتظروا التابوت، لذا أخلوا مكانًا له في منتصف الغرفة الكبيرة، ووضعوا مقاعد. قاموا بتغطية المرايات والتليفزيون بشالات سوداء. واشتروا شموعًا من الكنيسة المهدمة في "كوتاي"، لكي يضعوها على الخزانة.

أقيم في الصيف الماضي، في مركز الحي السابق، مراسم عزاء، وسُميت "وداع القرية". يبدو أنهم قالوا وداعًا أيضًا لمنطقة "كوتاي" فقط، وجاء في هذه الاحتفالية العديد من سكان القرى المحيطة، وكذلك الذين يعيشون في المركز الإقليمي الحالي مثل ساكني مدينة "كولبينسك"، و"ينيسك"، و"ليسوسيبيرسك"، و"كراسنويارسك"، وأكثر من ذلك.

كان هناك عروض فولكلورية، وخطابات من مسؤولين محليين ومسؤولي المنطقة وشخصيات من "كوتاي". وعند حلول الغسق، طارت صواريخ التحية في السماء..

جاء كاهن أيضًا في مراسم "وداع القرية"، أقام مراسم تذكارية على أنقاض كنيسة "سباسكاي". جاء المؤمنون، وغير المؤمنين، واشتروا الشموع وبعضًا من قطع جدران الكنيسة الباقية. أخذ البعض الشموع معهم في منازلهم بعد ذلك.

والآن هناك أربع شموع، كانت على الخزانة، ينتظرون إضاءتها في قبر شخص ما. وكما كانت "ناتاليا سيرجيفنا" تأمل، وجد الشباب تليفونها، بل وعثروا أيضًا على أرقام الأولاد. ذهبوا إلى حجرة المكتب، حيث يمكن هناك التحدث بشكل أفضل. وأبلغوا شقيقها في "كوتاي".

صنعوا تابوتًا في المساء، بعد وفاة العمة "ناتاليا" بيوم واحد. غطته النساء بقطعة قماش حمراء اللون، كانت محفوظة منذ الحقبة السوفيتية في النادي. كان لديهم مخزون كبير منه. ضحك كبار السن وهم يشاهدون الألواح الخشبية تختفي تحت القماش الأحمر: - يا له من أمر غريب!

- كل هذه الأقمشة كانت احتياطيًا لعمل الأعلام ذات الشعارات، وقد مرَّ ما يقرب من ثلاثين عامًا وهي تستعمل في تغطية جميع توابيتنا! شكرًا لكِ يا حقبة السوفيت، لقد تركتِ لنا على الأقل شيئًا مفيدًا.

قاطعته "زينيدا"، إحدى النساء المسنات المناضلات في القرية، التي كانت في إحدى الفترات من الناشطات: - نعم، فهناك الكثير من الخير!

- لكنهم لم يستمروا بعد.

أخذت الإبرة من الحفيدة:

- لن يحيك أحد هذا الآن، إذا سأحيكها. لقد حان الوقت لكي ترقد "ناتاشا" وترتاح. أ

تساءلت امرأة عجوز أخرى، تُدعى "فيدوروفنا"، وهي من أكبر عائلات "ماليخوف"، الذين يقطنون ربع القرية تقريبًا: - مَن سيُعد المكرونة؟

- "جالينا" و"فالنتينا لوجينوفا".

عبست "فيدوروفنا"، وتذكرت، ثم قالت بشك:

- أنا لا أعرف ما ستفعلانه، أنا لم آكل المكرونة من أيديهما من قبل.
- المشكلة أنه لا توجد الأربطة التي سننزل بها التابوت، هذه كارثة. يتعين علينا خفض التابوت.
- أليس هناك مثلها في المتجر؟
- لا، هناك فقط أربطة قصيرة وصغيرة الحجم، كالمناديل، وليست كافية لحمل التابوت.
- إذن يمكننا استخدام الحبال.
في كل أكواخ قرية "بيليفو" تقريبًا - حيث بقي في حدود مئة من السكان يعيشون فيها - كان الجميع مشغولين بطريقة أو بأخرى للتحضير لجنازة الغد ووليمتها. البعض كان لديه كُرات من اللحم البارد. وتطوع البعض الآخر ببعض من الديكة (إن طعام الديكة يمحو الحزن والآلام)، وأعلن البعض أيضًا أنهم سيعدون الشمبانيا، والآخرون سيخبزون الفطائر، وهناك أيضًا مَن سيعد طبق الـ"كوتيا" المعروف في الجنازات. كما عرض والد "كوليا كريكاو" لترين من عسل النحل.
كان الناس راضين عن أنفسهم، تشاركوا الأمر مع بعضهم بعضًا. الشيء المهم هو أنه تم استخراج تصريح دفن "ناتاليا سيرجيفنا" في الطابق الأعلى بلا مشاكل. قامت المسعفة بفحصها، وكتبت: "لا حاجة لتشريح الجثة. حيث كانت المتوفاة تعاني من أمراض مزمنة ولا توجد أي علامات لتعرضها للعنف". وعدت أنها ستقوم باستخراج شهادة وفاة في أقرب وقت. لم يكن الملازم يعيش في هذه القرية دائمًا، بل كان يذهب إلى عدة قرى أخرى، ويعيش في "كوتاي". وعندما وصل، لم تكن لديه أي أسئلة "من الواضح أنها كانت امرأة مسنة، ماذا سنفعل.. تعازينا". هذا كل ما في الأمر.
كان رئيس مجلس القرية "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك"، في ذلك الوقت في مستشفى في المدينة، ولم يجرؤ أحد بدلًا منه أن يسأل عن مكان الجنازة. ولو كان موجودًا، فلم يكن على الأرجح أن يحاول أن يقنع القرويين أن ينقلوا الجثة إلى المدينة، أو أن يريد مواجهة الجمع الذي يوحدهم هذا الأمر.
في نهاية المطاف، قام الناس بإحضار النعش. وقاموا بوضع غطائه على السياج حيث كانت فتحة البريد. كانت هناك بقعة حمراء على خلفية رمادية يمكن من خلالها أن يتذكر المارة المتوفاة، وكيف كانت تعيش. وسيكون الأمر كذلك مع الجميع. ليتهم يفعلون ذلك.
قام الجميع بحمل "ناتاليا سيرجيفنا"، ووضعوا الوسادة والغطاء في مكانها. شعر الجميع بالابتهاج أن المتوفاة ثابتة وباردة عند لمسها وهذه علامة حسنة تدل على أنها سعيدة. وبعد ذلك، أزالوا الغطاء عن السرير الذي ماتت عليه.. وضعوه في المكان المخصص للحيوانات، على عشش الطيور. تلك العوارض القديمة الصلبة. كانت العوارض القديمة تصر بشدة.

- ألن تنكسر العوارض الخشبية؟
- ستتحمل. فمن الضروري وضع الغطاء على الحافة، فهذه أفضل طريقة.
- والدجاج سيبقى في مكانه نائمًا.
- دعوا الديك يصيح..
عندما خرجوا في الهواء، قالت العجوز "زينيدا":
- نحن بحاجة لتغطية الملاءة، حتى لا يتجمد الدجاج من البرد.
عثروا في المطبخ المفتوح على غطاء مصنوع بدقة من السيلوفان ذي ثنيات كثيرة معمولة بحرص واضح: - حسنًا، هذا أفضل. إنه بحالة جيدة.
- ربما أرادوا أن يأخذوه.
- يوجد أشياء كثيرة لأخذها. كيف سينقلون كل هذا؟
كانوا يتكلمون عن أولاد "ناتاليا" دون أن يذكروهم بالاسم.
- المهم كيف سيصلون في الوقت المناسب. لا أعرف كيف سيتصرفون. فعلى أي حال، لن يتم تخصيص طائرة هليكوبتر لمثل هذا الشيء، حتى العَبَّارات يمكنها أن تتحرك فقط يوم الخميس..
- لا! هذا كان في الماضي، الآن يمكن أن تحلق الطائرة الهليكوبتر في أي وقت.
افترض الرجل العجوز "ميرزلياكوف" بعد ذلك:
- على الأرجح يمكنهم المجيء بالزوارق. كل الناس يفعلون هذا في المدينة.
- في المدينة؟ هاها! تبلغ المسافة من المدينة إلى النهر خمسة عشر كيلو مترًا!
- حسنًا، على الشاطئ.. لم أذهب هناك أبدًا لأعرف.
كان والد "كوليا كريكاو" يتجول طوال اليوم في الفناء، حيث وضعوا التابوت عند سور مزرعة "بريفاليكينسكي"، ولكنه لم يشارك في العمل مع الشباب، كان يشاهد فقط ما يحدث، ظل صامتًا طوال اليوم، وفي النهاية قال: - هنالك سيختفي كوخ آخر.
قال ذلك وكأن كل شيء تجمد حوله. توقف الجميع لعدة ثوانٍ، كما لو كانوا قد صعقوا بالبرق، ثم شرعوا في التفرق على عجل. ذهب البعض إلى الشرفة، والبعض الآخر إلى البوابة. إلا أن العجوز "ميرزلياكوف" حاول أن يتجادل مع كلمات "كريكاو" المريرة: - لقد أصبح ابن السيدة الراحلة "ناتاليا" بالفعل متقاعدًا. كان يعمل في منطقة الشمال. ربما سيقرر العودة.
قال "كريكاو" ساخرًا، وقد وجد المناسبة التي يعبر فيها عما كان يتحدث عنه منذ الصباح، متجولًا من بيت إلى آخر: - إلى أين سيعود؟! إنهم سيحشروننا في بارجة، ثم وداعًا.
- لا.. لقد مر وقت طويل منذ أن قرروا نقلنا، ها قد مرت ثلاثون عامًا ونحن ما زلنا في أماكننا.

- كيف نعيش على الجمر؟! لقد دُمِّر كل شيء، نحن الآن بلا غابة، وبلا عمل أيضًا.
- والحمد لله! وهكذا أفسدوا كل شيء. أعيش في مزرعتي، ولست بحاجة إلى أي شيء. فلتذهب الغابات إلى الجحيم!
- نعم، لن يكون لديك مزارع قريبًا! وستعيش في مكان متكون من أربعة جدران فقط.
رجلان عجوزان، لكنهما ما زالا قويين، يشبهان أعمدة الشجر المتكتلة، وقفا في ممر ضيق بين قطعان وحطاب، وأخذا يتحدثان مع بعضهما بعضًا بهذه الكلمات الفارغة بأصوات مرتجفة، وفي حقيقة الأمر، كانا يشيطان غضبًا من كل كلمة يتفوهان بها. لقد كانا مستعدين لإلهام بعضهما بعضًا، أما الآن فكل واحد منهما يرى في الآخر عدوًا له. حتى الحيوانات التي قاما باصطيادها، ووضعاها في القفص، سرعان ما تعاركا مع بعضهما بعضًا بشأنها أيضًا.
لكن العقل توقف، واستشاط غضبًا، ذهبا المسنان في طرق مختلفة. اتجه "كريكاو" نحو الشارع، أما "ميرزلياكوف"، فذهب إلى الحديقة، لكيلا يصطدم بـ"كريكاو"، ولكن عندما رأى الأرض، خطر على باله فكرة؛ سيأتي الورثة، وعليَّ أن أعرف خططهم بطريقة ما وبحذر؛ فإذا لم يرغبوا في الاستقرار هنا، فمن الممكن أن أقترح عليهم زراعة الحديقة بالبطاطس. وإذا تركوا الأرض، فمن الممكن زراعة القمح في غضون عامين أو ثلاثة، وستصبح الأرض صالحة للزراعة مرة أخرى، تعود كما لو أنها تربة بكر مرة أخرى.
كانت زراعة البطاطس هي المكسب الرئيسي بالنسبة للسكان المحليين لسنوات عديدة. وكانت السفن تمر عبر النهر وتشتري البطاطس. الآن أصبحت مزرعة "ميرزلياكوف"، المحمية من البرد والحرارة بالقماش، لديها ما يكفي من المحصول. فإذا ظلت الأسعار مثل العام الماضي، فسيصبح ثمنها خمسين ألف روبل روسي تقريبًا.
كانوا يشترون في الماضي الجزر، والبنجر، وكذلك الكرنب، ولكنهم لسبب ما توقفوا عن شرائه الآن. من الممكن التجارة أيضًا في التوت البري، والمكسرات بالطبع. فالأرض هنا صالحة لزراعة الفطر، والعنب البري، وكذلك صناعة الجلود وبيعها. الأرض هنا خصبة، ولا يمكن أن تبور. تجول قليلًا وستجد حبوب الغذاء، ويمكن أن تتاجر بها، وتحصل على حزمة من الأموال.
كان العشب رفيعًا، يصل طوله إلى خمسة أو سبعة سنتيمترات، والرمال غارقة تقريبًا إلى أسفل. وكأن جذور التربة الرطبة غاصت بنفسها، فسقطت التربة الرملية إلى أسفل، لعمق يبلغ نحو متر ونصف المتر، ولذلك خرج العشب ضعيفًا، ورفيعًا.

قال العم "فيتيا"، مشيرًا إلى أن "كوليا كريكاو" كان مستغرقًا في سحق محتويات مجرفة بين أصابعه: - تنبت أشجار الصنوبر من هنا.
- نعم، تنبت مثل أشجار اللوز.. انظر، هناك بعض من بقايا حصى. يقولون إن هذا حصى النهر. يعني أن النهر كان يغطي كل هذا المكان من قبل.
- يبدو ذلك.
ضحك "بريوخانوف":
- هاها، كانت كل الأرض مغطاه بالمياه. ألا تشاهد قناة "أنيمال بلانيت"؟
- حسنًا، نعم.. كان هناك قاع لكل شيء، ولقد شاهدت ذلك في التليفزيون، سواء كان جبلًا أم نهرًا.
- هناك آثار لفيضان عظيم.
هكذا تفلسف "جينادي"، الذي يعمل سائقًا للجرار، الكسول، أو بالأحرى، لا يحب العمل بيديه. جاء الآن بفأس معه لقطع الجذور، لكنه لم يستخدمه، وتركه للآخرين. كان ذكر الفيضان في محله، فقد أومأ الجميع برؤوسهم باحترام. حل الصمت على الجميع، فعلى ما يبدو، كانوا يحاولون تخيل الوقت، الذي كانت فيه الأرض بأكملها، أو ربما معظمها تحت الماء.، لكن "جينادي" خرج من هذا الصمت بنفسه، وقال: - من غير المحتمل أن أشجار الصنوبر تنمو هنا.
- لماذا؟
- لأن الأشجار لديها جذور ضعيفة. وتزحف جذورها على الأرض مثل الكفوف البغيضة.
قال العم "فيتيا":
- هذه جذور أخرى لدعم البنية التحتية للتربة. فهناك جذور أخرى تضخ الماء والغذاء للأشجار.
- ماذا؟
تنهد العم "فيتيا"، واستعد لكي يعبر عما يدور في ذهنه:
- هل رأيت بعضًا من أشجار الصنوبر هنا؟
ضحك "جينكا":
- نعم، وما علاقتها بذلك؟
- سنزيلها بالجرار، وننتزعها من الأرض، ثم نغمر الأرض بالمياه!
تجعد "جينكا"، وقال بصوت متقطع:
- حسنًا، فهمت، ثم ماذا سيحدث؟
- يوجد في الأسفل، جذع شجرة، يشبه ذيل شيء ما، ولكنه قصير. أو قد يشبه شكل المثلث والمتاريس.
- حسنًا.
- تتغذى عليها هذه الجذور الرقيقة.
- حسنًا.

- وهي جذور عميقة جدًّا، لذلك تحب أشجار الصنوبر أن تنمو في الرمال، وتنمو في مناخ دافئ، وتتعمق جذورها.
نادى "ديميتري ميرزلياكوف" من الحفرة، الابن الأصغر للعجوز "ميرزلياكوف"، الذي سيصير هو أيضًا جدًا بعد قليل، فقد أنهت ابنته في هذا العام الصف التاسع، وغادرت إلى "كراسنويارسك"، والتحقت بالكلية، وفي الصيف قالت إنها التقت رجلًا ما، ودعاها للزواج: - يا لها من محاضرة مفيدة! حسنًا، أليس من الأفضل أن تساعدوني فيما أعمل؟
أخذ "بريوخانوف" الفأس، وقال:
- أتريد أن يتبادل معك أحد؟
- الجو بارد هناك، لقد اخترق البرد السُّترة بالفعل.
ضحك الرجال:
- آه يا "ميرزلياكوف" الحران البردان!
نظر العم "فيكتور" إلى القبر:
- هذا يكفي. أقل من مترين تحت الأرض.. القاع متعرج، وهذا أمر طبيعي. ما زال لدينا شيء ما نفعله.
ثم أخرج زجاجة فودكا من حقيبة صيد السمك المغسولة ألف مرة، وصنارة صيد.
صاح "جينكا جلوخيخ" بحماس:
- "فيتيا"، أنت..!
ثم لم يجد الكلمة المناسبة لوصفه فطقطق أصابعه.
سحب "ميرزلياكوف" قارورة من مكان ما تحت سترته، وقال:
- نعم، إنه ليس وحده.
تنهد "جينادي":
- حسنًا يا رفاق، أنتم تجبرون أنفسكم على الشعور بأنكم معتوهون. لقد جئنا إلى هنا بأنفسنا، كالمتطفلين.. لم نفكر في ذلك.
- لا شيء، فهذا يكفي. ليس الهدف أن نسكر، ولكن أن نشرب نخب المتوفاة..
ساعد الرجال "ليشا بريوخانوف" على الخروج، ونظفوا الفأس من الأتربة، ثم وجدوا مكانًا عشبيًا ليس بعيدًا عن الحفرة. جلسوا في دائرة غير مستوية. كان العم "فيتيا" بحوزته ثلاثة أكواب معدنية في حقيبته، والعديد من قطع الخيار الصغيرة الذابلة، وقطع لحم الخنزير المقدد. كان الجميع ممتنًا له وللعم "ميرزلياكوف"، لأنهم لم يكونوا يشربون الخمر مبكرًا هكذا. والآن، بعدما أنهوا عملهم، شرب كل منهم مئة جرام من الفودكا وأكلوا ودردشوا معًا.
سأل "جينكا جلوخيخ"، وهو يفرك يديه:
- من أين نبدأ؟

- من الأفضل أن نبدأ بالمشروبات النقية، وبعدها سنشرب خمر "كيدروفوتشكو".
- هيَّا، صب لنا.
كانت هناك بعض الصعوبات عندما كانوا يصبون المشروب. بتعبير أدق، دارت أحاديث مؤثرة وفعالة تتعلق بالدين لا غنى عنها تقريبًا: - نعم، صب هنا، ولكن لا تصب الكثير.
- كيف سأصبه؟ سيسقط البعض منِّي.
- صب القليل منه.
- "آفاناسي إيفانوفيتش"، أنت لست عجوزًا، لديك فقط بوادر الكبر..
- علينا أن نشرب الفودكا بوقار، لأنها ليست مياه عادية، فمن الممكن أن تعاقبنا بإذهاب العقل.
تنهد العم "فيتيا":
- هذا أمر مؤكد.
- لقد صببت الكثير هنا.. فقط، استمعوا، وسنشرب الفودكا. ولن نتجول اليوم في القرية، سنفعل ذلك لاحقًا، اتفقنا؟ غدًا سيصبح كما ينبغي أن يكون في المساء، ولكن اليوم لسنا بحاجة لفعل شيء.
تمتموا باستياء:
- من الواضح أننا لسنا مخمورين، ما الذي يتوجب علينا أن نفعله؟
قال "جلوخيخ" بسخرية:
- بالطبع أستاذي، يجب علينا أن نتعلم ذلك أيضًا.
- "جينكا"، ليتني كنت مُعلمًا حقيقيًّا، لكنتُ صفعتك على مؤخرة رأسك لمدة شهر، وكنتُ سأقضي عليك.
- نعم، لكنت فعلت ذلك.
- حسنًا، لكنتُ وضعت أصابعك أيضًا تحت المنشار الكهربائي!
سأل العم "بريوخانوف":
- بالمناسبة يا عم "فيتيا"، كيف حال المدرسة؟
- تقول "ناستكا" إنه لا يوجد معلمون لمادة الجغرافيا والكيمياء في هذا العام. ويقولون بشكل عام إنهم ربما يغلقونها. فالكتب في المكتبة كما هي، ولم يقوموا بتسليمها للطلاب بعد.
- حسنًا، سيتعلم الجميع في نهاية المطاف، وسيذهب المعلمون.
رفع "بريوخانوف" الكأس، وقال:
- نعم، نعم.. لنشرب نخب "ناتاليا سيرجيفنا". كانت جيدة، وغير مؤذية.
أشار "ميرزلياكوف":
- ربما غادرت في الوقت المناسب.
رفع "آفاناسي إيفانوفيتش" حاجبيه المتعرقين والشاحبين:
- لماذا؟

- لأنها ستدفن هنا. في مكانها.
- إنها من "كوتاي" العاصمة.
تحدث أكبر الرجال فيهم، ذلك الذي كان صامتًا وعابسًا طوال الوقت، لكنه عامل، ويُدعى "إجناتي أندريفيتش أوليف"، وكانوا يطلقون عليه المطرقة: فدائمًا ما كان يعمل في السياج، ويضرب بالمطرقة، ويذهب بحقيبة الظهر إلى المتجر لشراء المسامير.
ثم قال "ميرزلياكوف":
- يا له من فرق! إنها الأرض نفسها. لكن بالنسبة لنا، لا يعرف سوى الله أين سنتشتت.
أصبح الجميع محرجين بطريقة ما، ويشعرون بعدم الراحة. لم ينظروا إلى بعضهم بعضًا، فمنهم مَن ينظر إلى القبور، والبعض الآخر في الجذوع الحمراء الزاهية لأشجار الصنوبر، وبعضهم لأسفل، في بذور الصنوبر الزاحفة النائمة.. هلع الجميع من كلمات "ميرزلياكوف"، وارتعدوا؛ خوفًا من سماع أمر: "علينا أن نجمع ما يلزم! سننتقل في غضون أسبوع. ومَن لا يطيع الأوامر، فسيستخدم معهم القوة".
لم يسمع أي من الجالسين هنا حتى الآن مثل هذه الأوامر، لكن الغالبية العظمة من الآباء والأجداد سمعوها. فالبعض كان تحت مظلة رئيس الوزراء "بيتر ستوليبين"، والبعض الآخر تحت مظلة "ستالين". وكانوا على يقين من أن ذلك سيحدث لهم عاجلًا أم آجلًا.
كان ذلك قبل ثلاثين عامًا تقريبًا، لكن صوت القائد توقف في اللحظة الأخيرة. وولد جيلان آخران من سكان قريتهم: جيل "كولي كريكاو"، وجيل أولئك الذين يدرسون الآن في المدرسة دون نصف المعلمين، يرون صناديق مجمعة لنقل الأغراض المدرسية. الجميع كان ينتظر أمر التحرك. وإذا سيرحلون، سيتساءلون عما سيأخذونه، وماذا سيتركون. ففي كل يوم كانوا يعذبون بهذا التفكير في صمت، دون مناقشة ذلك.
خرجوا إلى الفناء في الصباح، ونظروا حولهم. أخذوا يفكرون: "ماذا نأخذ؟". وكيف سيختارون، فهنا تحت المظلة، ستتم إعادة ترتيب كل شيء، وهناك الكثير من الأشياء تدور برأسك. يبدو أنه كان هناك الكثير من الأشياء المهمة، ولكن الآن أصبحت غير ضرورية. ومن المؤسف أن تترك كل هذه الأشياء، وأنت تغرق في هذه الوفرة، التي تركها من قبل الآباء والأجداد في الخزائن، والحظائر، وكذلك على الأبراج..
بصقوا في الأرض، وحاولوا ألا يفكروا، ولكن إذا ثرثر شخص ما عن الانتقال، ترتسم على أوجههم ملامح الخوف على الفور، ومن ثم يتعاركون.
شرب أول ثلاثة منهم، وشعروا بالحرج من أنهم يبدون جشعين، ثم شرب وأكل ثلاثة آخرون، ثم اثنان آخران.

ظلوا صامتين، ينصتون إلى كيفية سقوط الشراب في معدتهم؛ حيث يبدأ مشروب الفودكا بالانتشار في الجسم كالشرارة. وسرعان ما يتنفس الجسم بسهولة، وينتعش الدم.. ثم تصل هذه الشرارات إلى الرأس، وتشتعل، بل وتضيء شيئًا مهمًا في الرأس، ثم تخرج، ويدوم تأثيرها للحظات عديدة، ولكنها لا تسبب التسمم.

ثم يتدفق الدم مرة أخرى ببطء وبصعوبة، ويغمر البلغم مرة أخرى أيضًا الصدر، ثم يذهب شيء ما مهم في المخ، ويختفي.

لكن لم يشرب أحد الزجاجة بأكملها، لقد علموا أن هذا لم يكن الوقت المناسب لذلك: فإذا أعطيت لنفسك الفرصة لكي تشرب زجاجة تلو الأخرى، فستفرط في الشرب بعد ذلك لفترة طويلة، وستزعج الآخرين، وتطلب الفودكا.. أشعلوا السيجارة، وانتظروا مَن سيتحدث أولًا. لم أرغب في أن أتحدث أولًا، لكن أصبح من الصعب أن يطول الصمت أكثر من ذلك، قال "جينكا جلوخيخ": - وهل الطبيعة لديها قوانين أخرى؟ أنا لاحظت ذلك..

قاطع "بريوخانوف" حديثه بابتسامة عريضة:

- نعم أنا لاحظت ذلك أيضًا، بعد الصيف يحل الخريف، وبعد الخريف يحل الشتاء.

- انتظر دقيقة، أنا لا أقصد ذلك! لقد لاحظت أن الطبيعة تعد بنفسها الإنسان للموت..

عبس "آفاناسي إيفانوفيتش" مرة أخرى، الذي لم يبتعد بعد عن الحجة القائلة بأن "ناتاليا" غادرت في الوقت المحدد: - ماذا تقصد بأنها تعد بنفسها؟

- حسنًا، تذكر.. ها أنت يا "آفاناسي"، والعم "فيتيا"، و"إجناتي"، هل تتذكرون كيف كانت العمة "ناتاليا" طويلة القامة، وسمينة؟ ألم تكن كذلك؟

- نعم، لماذا؟

- عندما فقدت وزنها، صار كل شيء نحيفًا. لا يبدو أنها مرضت، ولكن.. ليس من المحتمل أن تكون قد منعت نفسها من الطعام.، ولكن الطبيعة أعدتها بنفسها حتى تتمكن من الاستلقاء بسهولة في النعش.

تذمر البعض بشكل لا يصدق، وابتسم آخرون، لكن العم "فيتيا" أوما برأسه فقط قائلًا:

- حسنًا، نعم، نعم..

- العديد من كبار السن يحدث ذلك معهم، يشيبون، ويذبلون..

تنهد "مولوتوتشيوك"، وكسر العصا التي بحوزته إلى قطع قصيرة، وقال:

- إنه لأمر مؤسف أنها لم تمت على فراشها.

- لا، لقد ماتت على فراشها. كما قالوا، حاولت حتى أن تقول شيئًا ما.

قال "آفاناسي إيفانوفيتش":

- لديَّ في كوخي مقعد، يذهب إليه الجد، ويستلقي.. ذات مرة قال لي: "هذا كل شيء، لن أستيقظ مرة أخرى". وبَّختة جدتي ووالدتي، وقاموا بإخافته من الخطيئة، فقلن: "لا تمرض، امنح نفسك الفرصة لكي تعيش". وفي الليل انتهى كل شيء، وتُوفي جدي.. ولم تؤمن الجدة بوفاته ومرضت، ونقلت بعد ذلك للمستشفى، وبعد أسبوع، توفيت، وأعادوها بجانب زوجها.

تذكر "جينادي"، سائق الجرار، شيئًا ما، فقال:

- لكن الجميع لا يموتون بهذه الطريقة، كما قال "جينكا"..

ثم التفت نحو "ميرزلياكوف"، وقال:

- معذرة لك يا "ديمون"، لقد عاش عمك "ميخائيل بتروفيتش" نحو سبعين عامًا، وكان سمينًا كالجبل. كاد أن يكسر ظهور الذين كانوا يحملون نعشه.

تنهد "جينكا":

- نعم، هذا حدث. لقد عاش ومات في صحة جيدة. أتذكر رؤيته جالسًا بجوار بوابته، عجوز جدًا ومتهالك، لكن الانسان يشعر إنها القوة. نعم، هذا يحدث.. وأنا لا أحسب أولئك الذين ماتوا في وقت مبكر أو قتلوا.

أجاب العم "فيتيا":

- نعم، هذا مفهوم. فمن الضروري معرفة طبيعة الموت. على سبيل المثال، البعض يموت من مرض السرطان، ويهلكه في شهر، والبعض الآخر يصرخون من آلامه لسنوات عدة..

قال "آفاناسي إيفانوفيتش":

- لقد أصبح الحديث كئيبًا للغاية. دعونا نأخذ رشفة أخرى.

رد "جينكا"، وهو يسحب كأسه بجوار الإناء:

- لا داعي لتذكيركم أن الظرف ليس في غاية البهجة.

ثم شرع العم "فيتيا" في صب الكوؤس بعناية، وقال:

- أنت على حق في بعض الأحيان، لكن الشيء الرئيسي هو أن الإنسان يتغير من داخله على مر السنين. لقد كنت أفكر هكذا من قبل؛ إن السيدات العجائز ستموت، ولن يكون لدينا المزيد من الأوشحة، والأحذية، والحكايات أيضًا، ولن يظهر القديس "نيكولاي ميرا أوجودنيك" مرة ثانية لأي شخص آخر. وستُنسى كلماتنا، وسنتحدث مثل سكان الحضر.. لقد كنا جميعًا حضريين جدًّا في الستينيات.. لكننا كبرنا، وكل شيء يعيد نفسه مرة أخرى، كملابس أجدادنا وجداتنا، وكانوا يعالجون الإصابات بالأعشاب وحبوب الفاصولياء التي تعطيها لهم "زينيدا" وهي تقول: "هذا من أجل أمراض الروح..".

لم يصدق "كوليا كريكاو":

- حقًّا؟ لم أكن أعرف أنها هكذا.

ضحك الشيوخ، وتذكروا السيدة العجوز "زينيدا"، والعجائز الأخريات، اللاتي تركن الحياة ورحلن.
أومأ العم "فيتيا" برأسه:
- حسنًا، هن السابقات، ونحن اللاحقون.
تذكر "ليشا بريوخانوف"، عندما شربوا في ذكرى المتوفيين وأكلوا ثم ظلوا صامتين:
- وكيف يدفنون الموتى في المدينة؟! لقد ذهبت إلى "كراسنويارسك" منذ نحو ثلاث سنوات لكي أدفن خالتي..
عبس "مولوتشيوك":
- أي واحدة تقصد؟ "فالنتينا" أم مَن؟
- نعم، هي.
- "فالنتينا"، هاهاها.. كانت تحلم منذ الطفولة أن تصبح من أهل الحضر وتغادر. وغادرت بعد سبع سنوات القرية واختفت.
غضب "بريوخانوف"، وقال ساخطًا:
- اختفت! لم تتمكن من السيطرة على حياتها!
قطع حديثه "جينكا جلوخيخ"، وقال:
- هل أصبحت من قُطَّاع الطرق؟
- اسمع، عليك أن تعرف متى تمزح، ومتى..
- حسنًا، يمكنك المزاح أيضًا..
قال العم "فيتيا" لكليهما:
- حسنًا، وما خطبها؟ هل مرت بوقت عصيب؟ وما خطبها؟ هل حدث أمر ما سيئ في الدفنة؟
فكر "بريوخانوف" للحظة، وقال:
- ليس هكذا.
ثم اختار كلماته بدقة أكبر:
- لقد جاء الكثير من الناس، ووضعوا لها أكاليلَ من الزهور. وأخذ الجميع يشربون القهوة.، لكن هناك شيئًا آخر.. لقد قالوا لها وداعًا في المشرحة، فهناك غرفة متخصصة للموتى؛ رمادية اللون، بل وداكنة، ويوجد بها نعش موضوع على قاعدة مثل هذه.. كل شيء سريع ومربك للجميع. ثم أخذوها في سيارة الموتى، وذهبوا إلى المقبرة.. سافرنا لمدة ساعتين، وكان هناك الكثير من الازدحام المروري.. وصلنا أخيرًا إلى المقبرة، ووضعناها بها، وهذا كل شيء.. كان الجميع مذعورين وهم جالسون في العزاء.. هذا ليس جيدًا، بشكل ما..
تنهد "آفاناسي إيفانوفيتش":
- المدينة لا تحب الموتى!
أضاف "مولوتشيوك":

- بل والذين على قيد الحياة أيضًا!
سأل "كوليا":
- حسنًا، وكيف تختلف مراسم الجنازة هناك؟ إذا كانوا يعيشون في الطابق الثاني عشر، كيف يأخذون المتوفى من المنزل إلى المقبرة؟
- يوجد مصعد كهربائي..
- حسنًا، ولكنه لن يسعَ جميع أحجام النعش.
- إممم، بالتأكيد لن يتناسب في بعض الأحيان..
- وإذا كان المبنى يتكون من خمسة طوابق، فلا يوضع به مصعد كهربائي، ويقوم الجميع بحمل النعش، والنزول على الدرج، وإقامة مراسم الجنازة في المنزل..
- لا، ليس من المعتاد أن تُقام مراسم الجنازة في المنزل، فهناك العديد من القاعات المختصة في هذا الأمر..
- هناك محرقة أيضًا..
ظل الرجال صامتين مرة أخرى لفترة طويلة، يحاولون تخيل هذه القاعات وغرفة المشرحة، وكذلك المحرقة، كما يرون في الأفلام، عندما يقوم الناس بإحراق المتوفى أمام أقاربه: يضعون النعش في المحرقة، في النار.. هز "آفاناسي إيفانوفيتش" رأسه قائلًا: - حسنًا، حسنًا. لا أحد يعرف كيف يدفن.
- لماذا؟ ربما عرفت العمة "ناتاليا" إنها ستدفن هنا، بجانب زوجها.
- نحن لسنا بحاجة للحديث عن المتوفاة. ربما أرادت الذهاب إلى المستشفى.
- حسنًا، ربما أردت الذهاب إلى المستشفى، ولكنها بالتأكيد لم ترغب في أن يحرق جسدها في محرقة الموتى.
- إنها لم تكن على دراية بمحرقة الموتى، وتلك الأمور.
- نعم، الجميع يعرف ذلك.
فكر "جينكا جلوخيخ"، ثم قال:
- هذا أمر مثير للاهتمام، ولكن هل توجد محرقة للموتى في مقاطعة "كولبينسك"؟
قال "بريوخانوف":
- ستعرفون قريبًا.
ارتجف "جينكا":
- ماذا؟! هل تريد شيئًا يا "ليخ"؟ أنا لا أفهم.
- أنا أقول إنك ستذهب، وستكتشف الأمر بنفسك.
سرعان ما اختفى شعور العراك لدى "جينكا"، وقال:
- لا، أنا لن أعيش في مقاطعة "كولبينسك". سأظل هنا في مكان ما..
- أين ستعيش هنا؟ فالقرية ستختفي، وسيحل محلها البحر.

- حسنًا، سأعيش في كوخ على الجبل.. أو سأستقر في أحد أكواخ الصيد، فكثير منها مهجور.

حدق العم "فيتيا":

- هل ستتنازل عن الشقة والمرحاض الدافئ؟ مممم.

فكر "جينكا"، وأصبح وجهه متجهمًا، ولوح قائلًا:

- حسنًا، فليقضِ الرب أمرًا كان مفعولًا. لا تغرني!

كانت الشمس تميل نحو غابات "التايجا" الروسية، وتلامست مع قمم أشجار الصنوبر، ثم تلاشت على الفور، وسرعان ما عم الظلام. وبعد حلول نصف ساعة من الغسق، شرعت محركات الديزل لمحطة الطاقة تعمل بكامل طاقتها. الآن الساعة الثالثة تقريبًا، ويعد هذا أفضل وقت، لأنه وقت الراحة والاسترخاء. يمكنك مشاهدة التليفزيون وإنارة المصباح الكهربائي، وارتداء الملابس الشتوية، والتي من دونها لن تتمكن من الخروج من باب المنزل..

كان هناك وقت يتم فيه توفير الكهرباء في جميع أنحاء القرية على مدار الساعة، حتى إنهم فكروا في إمكانية إمداد خط من محطة "أوست إيلمسكي" الكهرومائية. لكنهم وجدوا بعد ذلك أنه أمر غير مربح، ووافقوا على إنشاء مشروع بناء محطة طاقة كهرومائية أخرى، أسفل مجرى النهر، وستغمر الماء خزان "بيليفو". وبعد ذلك، ظهرت مشكلة قلة موارد التمويل.

كان الأمر في غاية الصعوبة، خاصة في شهر نوفمبر، وديسمبر، وكانت الشمس تشرق وتزحف على حافة آبار المياه الجوفية، وتغرب بالفعل عند الساعة الرابعة. ولم تصل الشمس إلى المزارع، بل وأصبحت المنازل مظلمة للغاية. ومن ثم تشعر وكأنك في حفرة ما، أو في وكر.. وفي أواخر التسعينيات، تحسن الوضع قليلًا، فعلى الرغم من أنه لا يمكنك تشغيل التليفزيون في أي لحظة، فإنك ستتمكن من إنارة المنزل في المساء.

لقد كان الجو جيدًا جدًّا في الساعات الأولى من الصباح الباكر. بارد قليلًا، لكنه ليس قارسًا شديد البرودة. يرغب المرء في أن يجلس في هذا الوقت في الشرفة أو المقعد، ويتحدث مع شخص عزيز يعرفه منذ فترة طويلة، ويتذكرون معًا كل ما بينهما من ذكريات. هناك العديد من الأصوات والروائح تصبح أكثر حدة عند الشفق، فالعشب الضحل في الفناء له رائحة نفاذة، ولكنه لطيف أيضًا، مثل فرشاة الرسم. وهناك أصوت دافئة من الماشية، الأبقار الحلوب تتنهد، والخنازير تدق في الجدران، والدجاج يقف على الأعمدة، تارة يتشاجر مع بعضه بعضًا، وتارة يهدأ..

هناك الكثير من الناس في منزل "ناتاليا سيرجيفنا"، يحاولون عدم إثارة الضوضاء في المنزل، ويتحدثون بالهمس، ويأخذون الأشياء بعناية من بعضهم بعضًا دون أن يطلبوها. الغالبية يجلسون أو يتكدسون في المطبخ؛ يناقشون جنازة الغد، في محاولة لحل ما لم يتم حله.. على سبيل المثال، كيفية

توصيل النعش إلى المقبرة، فهناك الكثير من الشاحنات المعطلة. يمكنهم حمل النعش على أيديهم ويذهبون به إلى المقبرة (على الرغم من أن المقبرة ليست بعيدة، ولكنه أمر شاق جدًّا)، أو يمكنهم حمل النعش على سيارة "تويوتا".

كان صاحب السيارة الـ"تويوتا"، "ديميتري أركاديفيتش بريفاليخين"، ابن عم زوج "ناتاليا سيرجيفنا"، ووالد رجل الأعمال الناجح "أوليجا"، الذي كان يُلقب منذ طفولته بالتمساح ليس لأنه مثله، ولكن لأنه يستطيع أن يحصل على كل شيء بسهولة. وقد ذهب "أوليجا" في التسعينيات إلى "كراسنويارسك"، وأصبح ثريًّا وماهرًا في مجال التجارة وأعطى والده سيارة دفع رباعي. ولذلك تطوع "ديميتري أركاديفيتش" في أن يتم حمل النعش إلى المقبرة، وقال: - سأرفع الباب الخلفي، وأدخل النعش وأضعه في صندوق السيارة.

ابتسم الرجل العجوز "ميرزلياكوف" بسخرية، وقال:

- في صندوق السيارة.

- نعم، سيارتي ليست كسيارات الـ"لادا"! لا بد لي من طي المقعد الخلفي، الذي يبلغ طوله مترين!

قالت "فالنتينا لوجينوفا"، أصغر النساء في المنزل، ولكنها مسنة أيضًا، للسيد "ديمتيري" وهي تنذره: - أخفض صوتك!

قال "جينكا جلوخيخ" بعدما جاء من المقبرة، وشرب هناك كأسين صغيرتين:

- إنها سيارة كبيرة، بل وتبدو بالفعل مثل.. مثل عربة نقل الموتى.

- لكنها تتحرك بصعوبة كبيرة.. لقد جئتُ بها بصعوبة، وتتمايل السيارة مع كل خطوة، تارة نحو اليمين، وتارة نحو اليسار.

لقد استخدمتها من قبل السيدة "أوليانا بافلوفنا إجناتوف".. لم تكن تُدعى حقًّا "أوليانا" بل "أولا"، ولم يكن لقب عائلتها "بافلوفنا"، ولكنه هكذا نسبة إلى لقب زوجها "إجناتوف". كانت "أوليانا بافلوفنا" من المنفيين. وهناك كثير من المنفيين يعيشون في القرية، لكن البعض غادر عندما مات الآخرون. وتبقى منهم فقط الصلبان غير الروسية المعلقة على مقابرهم، وكذلك ألقاب عائلاتهم، التي يحملها أبناؤهم وأحفادهم: "كريكاو"، و"شنايدر"، و"هافنر"، و"إكرت"، و"شرو"، و"كايشر". كانت "أوليانا بافلوفنا" آخر سيدة عاشت في "بيليفو"، تتذكر بقاع الأراضي الأخرى النائية، والتي تم نفيها إلى هناك قسرًا. ولدت "أوليانا" في منطقة ما في ليتوانيا أو لاتفيا؛ فهي لم تحب التحدث عن حياتها السابقة، لكن السكان المحليين كانوا يعرفون أن عائلتها جاءت إلى "سيبيريا" بعد الحرب، إما مع الألمان، وإما مع "إخوة الغابة"، إحدى مجموعات القوى العسكرية غير النظامية من إستونيا ولاتفيا ولتوانيا، التي انخرطت في حرب عصابات ضد السوفيت، واستقروا

في "بولشاكوفو"، قرية تبعد عن النهر بسبعين كيلومترًا.. وتزوجت "أوليانا" بعد بضع سنوات من "إجناتوف"، وجاء بها إلى "بيليفو". ومنذ ذلك الحين، عاشت هنا، وأنجبت خمسة أطفال. وفي الثمانينيات، جاء إليها العديد من الشباب من موطنها. تحدثوا عن شيء صعب للغاية، وانتهى الحديث بصراخ زوجها "إجناتوف"، الذي طرد الناس من بوابة منزله، وقال: "هي لن تعود إلى أي مكان! هذا هو منزلها!". غادر الشباب، وتوفي "إجناتوف" بعد ذلك بثلاث سنوات، وغادر أطفالهما القرية قبل أن يموت، وظلت "أوليانا بافلوفنا". شابت "أوليانا"، وكبرت هنا.. ولم تختلف عن السكان المحليين. ربما يتشابهون بأصواتهم، وليس بالعبارات. يقولون في شبابها، إنها كانت تعبث مع العامة وتضحك كثيرًا..و مازال صوتها كما هو .. والشخص الذي لا يراها، يعرفها من صوتها، ويضحك ويقول: "أوليانا بافلوفنا". على الرغم من إرهاق "أوليانا" من المشي، وصعودها درجات الشرفة، فإنها كانت تقول بلطف، وهي تميل على جانب الموقد: - هل يمكنني؟

فتحمست "فالنتينا"، وقالت:

- بالطبع! بدون شك، فلتتفضلي، العمة "أوليا"!

دفعت "أوليانا بافلوفنا" العكاز، وعدلت من شالها الأسود، ووضعت فوقه شالًا رمادي اللون، وعرجت إلى غرفة كبيرة. أشعلت شمعتين تضيئان فوق النعش. كانت الغرفة مظلمة للغاية. وهناك مقاعد على جانبي النعش، وشخصان يجلسان على أحد المقاعد. لم تتمكن "أوليانا بافلوفنا" من معرفة مَن الجالس، فقد كانت الغرفة حالكة، وترى ظلًا فقط. تأرجح هذا الظل أمامها، وانحنى قليلًا نحو المتوفاة، وخفت صوت "فيدوروفنا": - ها قد جاءت "أولا".

عرفت "فيدوروفنا" "أوليا" وهي شابة، وكانت تتحدث اللغة الروسية بصعوبة، ولذلك من حقها أن تنطق اسمها هكذا.

وقال الظل الثاني:

- مرحبًا "أوليانا".

كان صوت ذاك الظل الثاني يرجع إلى السيدة العجوزة "زينيدا". استكملت حديثها:

- فلتجلسي هنا..

اتجهت "أوليانا بافلوفنا" نحو النعش، وتوقفت. أمسكت بأطراف الحذاء لتحافظ على توازنها. ومن ثم ألقت نظرة نحو وجهها المضاء بضوء الشموع. كان وجهها صغيرًا، ومتجعدًا مثل خيوط العنكبوت القوية. وعلى الرغم من ذلك، فإنها لم تسمح للحياة أن تخفي جمالها. ولكنها تُوفيت الآن، وتلفت خطوط العنكبوت. وعلى ما يبدو أن التجاعيد قد أصابت جسدها بالكامل.. والآن ذُهلت "أوليانا بافلوفنا" مما حدث لصديقتها، إنها أصبحت هكذا في

نعش فقط. فهما لم تلتقيا منذ أسابيع قليلة، لأنهما كانتا تعيشان في مناطق مختلفة بالقرية.

استدارت "أوليانا بافلوفنا" بحذرٍ، حتى لا تميل نحو اليسار، ووضعت يدها على المقعد أولًا، ثم تمسكت بظهر المقعد، وجلست تدريجيًا. سألت "فيدوروفنا": - كيف حالكِ أيها المسكينة؟

ثم أضافت على الفور:

- أنا لم أركِ على الإطلاق.. قلنا بالفعل إنه يتعين علينا إرسال شخص ما إليكِ لإبلاغك. ولكن ها قد جئتِ.

ثم أومأت "فيدوروفنا" نحو المتوفاة، واستكملت حديثها:

- لقد كانت في أتم صحة أول أمس كأنها تركض وها هي ترقد الآن هنا.

وكررت العجوز "زينيدا"، وهي منتحبة:

- ارقدي بسلام.

فأجابت "أوليانا بافلوفنا"، وهي ما زالت تنظر إلى وجه الراحلة البيضاوي الشاحب اللون:

- لم أركض منذ فترة طويلة. كل ما أستطيع عمله هو نثر الحبوب للدجاج. أظن أنني سألحق بها في فصل الشتاء أيضًا..

قاطعتها "فيدوروفنا" بشدة:

- لا تقولي ذلك.

ثم رفعت عينيها:

- فقط في السماء من يعرف متى سنموت وأين. ليس لنا الحق في إقرار هذا.

- أنا لا أقرر أنا فقط أقول أظن.

ضحكت العجوز "زينيدا" فجأة بهدوء:

- هاها، وهل سنطلب السيارة ثلاث مرات؟!

- ماذا تقولين؟ لا تتفوهي بهذه الكلمات.

- إنها الحقيقة.

ظلت كل منهما صامتة، تلقيان نظرة على "ناتاليا سيرجيفنا"، وتحاولان تخيل ما إذا كانت ستحب هذه المحادثة أم لا.. نادرًا ما كان لديهما وقت للتحدث في تلك الأمور، فالهموم تضيع الوقت. كانتا تتبادلان الأخبار البسيطة، والأفكار، والنقاشات، والأمر لا يتعدى بعض الكلمات القصيرة في المتجر، أو على رصيف الشاطئ بانتظار القارب، أو العبَّارة، أو في ليالي جنازة أحدهم من العجائز. كان من المؤلم أن نقول وداعًا للصغار، والنساء العجائز كن يدخلن إلى الغرفة، يقفن عدة دقائق، ويبكين، ثم يتنهدن. كن واهنات، وبحوزتهن عصا، ثم يخرجن بعد ذلك إلى الشارع ويذهبن إلى منازلهن.. لم يتوفَ أحد منذ فترة طويلة، فالمدينة أخذت الراحلين.

قالت العجوز "زينيدا":

- نحن بحاجة للنظر إلى بعضنا بعضًا. فنحن سنرحل أيضًا يومًا ما.
تنهدت "فيدوروفنا" بصعوبة:
- نعم، نحن بحاجة إلى ذلك. أنظر كل يوم إلى أحفادي، وأركض معهم ونلعب. أقول: "هيَّا، اركضوا، وانظروا مَن سيختبئ الآن؟ فيلعبون، ويركضون بسعادة قائلين: "لقد اختبأنا"، فأذهب أنا وأحاول الإمساك بهم.
ابتسمت "أوليانا بافلوفنا" بشفتيها المترهلتين، وقالت:
- إذن هم أطفالك. لهذا السبب أسمع ضوضاء شديدة تصدر من خلال النوافذ؟ كنت أعتقد أن ثمة لصوصًا في المنزل.
- لا يوجد لصوص. إن الرجال هم من يشربون الخمر ويسكرون.
أصبح صوت "فيدوروفنا" صارمًا، ارتجفت قليلًا من الخوف:
- أوه يا "زينيدا"، لا تجلبي النحس إلينا! علينا ألا نسمح لهم بأن يشربوا الكحوليات. سنعرف غدًا كل شيء.
توقفت "فيدوروفنا" عن النظر نحوها، ونظرت إلى "ناتاليا سيرجيفنا"، وقد تغير وجهها من كلماتها الأخيرة: - نحن يا "ناتاليا"، نحن لن نسمح لهم بأن يفعلوا ذلك. أنتِ لم تحبي الكحوليات، عليهم أن يظهروا بعض الاحترام لمراسم الجنازة.
أجابت "زينيدا"، بعد أن نسيت بالفعل أنها تحدثت للتو عن أن الرجال نادرًا ما يشربون الآن: - سيغضبون، علينا أن نخفي زجاجات الكحوليات.
قالت "أوليانا بافلوفنا":
- ستتم جنازة "ناتاليا سيرجيفنا" بشكل جيد.
- ليت ذلك يحدث..
- لا أعلم ماذا سيحدث معهم.
- أوه، لقد بدأتِ تقررين للمستقبل!
- بلا شك. سيُرحِّلوننا مرة أخرى الله أعلم أين!
انتبهت "فيدوروفنا" والعجوز "زينيدا" لكلمة "مرة أخرى". إنها ليست كلمة بسيطة نستخدمها في حديثنا عندما نرغب في أن نجعل له قيمة ووزنًا، وإنما تشير إلى شخص قادم من ليتوانيا أو لاتفيا البعيدتين في رحلة استغرقت أسابيع طويلة، ثم سنوات من الترحال والتنقل من مكان إلى آخر. ونتيجة لذلك، لم يكن من السهل الوصول إلى مناطقهم بسهولة في ذلك الوقت، بل ومن الصعب تحديده "إلى الأبد".
وعلى مدى أكثر من ستين عامًا، ورغم أنف الأقارب، الذين سرعان ما قاموا بإعطائها الحرية، عاشت "أوليانا بافلوفنا" هنا، وعثرت على زوجها، وأنجبت منه أطفالًا، والآن سيعيدون توطينها مرة أخرى بالقوة في مكان آخر.
صافحت "فيدوروفنا" يدها، ولكن ليس على الفور، بل بعد دقيقة أو دقيقتين من الذهول الذي أصابها: - لقد وضعوا أساس الخزانِ في الماء، هذا

أمر غير مؤكد. هل تتذكرين عندما قال الجميع: "هيَّا، سنبدأ الآن، وبشكل عاجل!"، ثم لم يفعلوا شيئًا بعدها، وبقي الحال كما هو عليه؟

أكدت العجوز "زينيدا" حديثها، وقالت:

- لقد قالوا هذا الأمر بالفعل في الربيع: "لا تزرعوا الحدائق، فلا فائدة منها. كل شيء سيصبح تحت الماء. ثم ماذا؟ ستذبل المحاصيل، وستذهب هباءً".

- حمدًا للرب أنهم لم يصدقوا حديثهم. الشكر للرب!

- لكن عائلة "شوميلوفي" صدقوهم، ولم يزرعوا البطاطس. ويشترونها الآن من بائع الخضار.

- وعائلة "ماليخي"، الذين يطلق عليهم أيضًا "كومولياتا"، ليس لديهم أموال لكي يشتروا بها.

قالت العجوز "زينيدا":

- أوه! لقد تحول بعض الناس الطيبين إلى مُشردين. إنهم يستنفذون طاقتنا، فهم يحاولون أن ينهوا حياتنا هنا. نعيش في أماكن صغيرة جدًّا في القرية، وهناك الكثير من أبنية السدود على أرضنا. وأصبح كل شيء لهم فقط. لم يبقَ لنا من النهر شيئًا. في بعض الأحيان يكون النهر ضحلًا جدًّا، ونعبره سيرًا على الأقدام. بل ويوجد هناك أيضًا سد في الأعلى، سيتم فتحه أو إغلاقه قريبًا، كما يشاء الرب.

صمتت العجوز مرة واحدة، وأغلقت فمها، ونظرت بتوجسٍ نحو المتوفاة، كما لو كانت تخشى أن تكون قد تحدثت بكلمات كثيرة مريرة أمامها. فالراحلة مُستلقية بهدوءٍ. لا شيء يزعجها بعد الآن، ولن يزعجها شيء، بل ولن يرضيها أيضًا. فهي لن تفتح عينيها بعد الآن، لن تقول أي شيء. جلست "فيدوروفنا" و"أوليانا بافلوفنا" على يمين ويسار العجوز "زينيدا" بلا حراك، مُسالمتين لأمرهما. لم تجادلا، أو توافقا الرأي معها. كن صامتات.

شعرت العجوز "زينيدا" بالخوف؛ حيث لاحظت أن إحدى الشموع قد احترقت تقريبًا، فنهضت، وسحقت الضوء بأصابعها. ووضعت شمعة أخرى بدلًا منها، ولكن هذه الشمعة لم تكن مشتراة من الكنيسة، ولكنها من المتجر الذي يشترون منه لوازم المنزل. ويحتفظون بهذه الشمعات في كل منزل فقط، لكي يستخدموها في جميع الأحوال. تمتمت بعد ذلك وقالت: - لا تقلقي يا "ناتاشا"، لا شيء يستدعي القلق، فستُدفنين بطريقة إنسانية. لقد قام الرجال بحفر القبر بشكل جيد، وبجانب "دينيس ستيبانيش"، لذلك ستكونين معه.

تذكرت "أوليانا بافلوفنا" بقلقٍ:

- هل أبلغوا الأولاد والأقارب؟

- نعم لقد اتصلوا بهم بالأمس، عندما حدث الأمر. والأخوات أيضًا، وقد وعدنا أخوها بأن يأتي صباح الغد.

- هل ما زال في "كوتاي" أيضًا؟
- نعم، في "كوتاي". يقول إنه مريض، لكنه وعدنا بأنه سيأتي غدًا.
طمأنت العجوز "زينيدا" نفسها وصديقاتها:
- سيأتون غدًا، وسيحضرون. كل شيء سيكون كما ينبغي. وسيمر اليوم، وسنتذكره.
قالت "أوليانا بافلوفنا":
- لكنني أفكر، ماذا لو قاموا بطردنا من المدينة، وغادرنا إلى موطننا. لقد كنتُ أخشى حتى من التفكير طوال هذه السنوات في ذلك الأمر، وحتى الآن.. وبعد كل شيء، ما زالوا يدعوننا.. أولادنا جميعهم هنا في روسيا، بل ويحملون الجنسية الروسية أيضًا. وكذلك أنا أصبحت روسية. أفكر فقط، ماذا لو جاؤوا وقالوا: "احزموا أغراضكم!". وصار عليَّ أن أذهب إلى هناك.
ثم بكت المرأة العجوز على الفور، ويخرج من صدرها أصوات خشخشة وحشرجة:
- سأخبر زوجي بأنهم يقودونني مرة أخرى إلى موطني دون محض إرادتي.. ماذا سأفعل في هذا الموقف؟
قالت "فيدوروفنا" بغضبٍ:
- أنتِ على حق يا "أولا"، هذا صحيح، لكن اذهبي إذا كان لديكِ مكان من الممكن الذهاب إليه. إنه موطنكِ على أي حال.. لكنني لا أعتقد أن الأمر سيصل إلى هذا الحد.
- إلى ماذا؟
رفعت رأسها، وتنهدت:
- حسنًا، أن يأتي أحد ويأمرنا بمغادرة مكاننا. لا.
ثم همست:
- فلتسامحني يا الله..
جاءت "فالنتينا لوجينوفا". وقفت كما لو كانت تنتظر إذنًا للجلوس. وسرعان ما جلست على كرسي متطرف. كانت النساء المسنات صامتات، وكأنها قطعت أفكارهم. من الواضح أن "فالنتينا" أرادت أن تقول شيئًا، فسألت: - أين سنعقد جلسة ذكرى الراحلة؟ هنا، أم، ربما في النادي أفضل؟
أجابت العجوز "زينيدا"، وهي غير واثقة:
- يجب أن نكون هنا، في بيتها.
أكدت "فيدوروفنا" حديثها بجرأةٍ:
- بالطبع هنا! ولذلك يتعين علينا ترتيب الغرف والطاولات.
- ربما يمكننا الجلوس في فناء المنزل؟
- لا، هذا ليس حفل زفاف!
أومأت "فالنتينا" برأسها:
- نعم، بالطبع، هذا ليس حفل زفاف.

ثم التفتت إلى المتوفاة:
- لا تغضبي منَّا أيتها العمة "ناتاشا" إذا ارتكبنا خطأ ما. نحن لا نعلم أو نتذكر كل شيء، لذلك من الممكن أن يختلط الأمر لدينا. صدقيني، لقد أحببناكِ.. وما زلنا نحبكِ كثيرًا. ونتذكر كيف قمتِ بمساعدتنا، ونتذكر أيضًا كيف كنتِ تعاملينا.. ونتذكر عندما وقفنا عند بوابة المنزل في يوم العطلة، وقمتِ بإعطاء الأطفال الكعكات الشهية. كم كنتِ لطيفة يا عمتي! وكنتِ دائمًا تتحدثين معنا بكل حبٍ، وطيبةٍ.. خصوصًا لشقيقي "فيتيا"، لطالما كنتِ تخصينه بالذكر.. ستقابلينه قريبًا. إنه ما زال في ريعان شبابه هناك..
استمعت النساء العجائز إلى هذا الحديث الصادق من القلب والضروري، بل ويحمل في طياته أسلوبًا طقوسيًّا أيضًا. لقد أنصتن إليها، وأظهرن أنهن حازمات، ولكنهن كن يشعرن بألم في روحهن. يقلن في أنفسهن: "ليتهن يتحدثن عنِّي هكذا عندما أرحل، فقد فعلت الكثير من الخير أيضًا.، ولكن أين سترثيني السيدة "فالنتينا" بكلماتها الرقيقة؟ بعد ستة أشهر، أم بعد عام أو عامين؟ وأين سيكون الباقون؟".
على الرغم من أنك يمكن أن تكون على يقين بأن كل شيء سيبقى كما كان، فإن العاصفة ستهب يومًا ما. ستهب، وستأتي السفن بما لا تشتهي الأنفس.
نظر الذين اجتمعوا في الجنازة إلى المعاطف الثقيلة، وقرروا ما إذا كانوا سيأخذونها أم لا. ثم خرجوا إلى الفناء ونظروا حولهم؛ ليتفقدوا المناخ. فبالطبع، من الأفضل أن تهطل الأمطار في الجنازة، حتى يمكنك قول: "الطبيعة تبكي بنفسها على المتوفاة!"، ولكن ما زال الأمر مزعجًا، عندما يكون كل شيء حولك رطبًا ومتسخًا.. وهناك متوفاة مغطاة، وأمطار تصل إلى قاع القبر..
وسرعان ما هطلت الأمطار بقطرات كبيرة باردة، ونزلت بقوة على الأسطح، والمدينة، والسيارات القديمة.. وسرعان ما كانت القطرات تهطل أكثر فأكثر، وتهاجم كل ما يقابلها أكثر فأكثر، وسرعان ما نمت تلك الضربات إلى سيول.
لكن الريح، التي طال انتظارها، جاءت ودفعت تلك الغيوم إلى اتجاه آخر. وظهرت الشمس بقوة، كانت عالية. من المرجح أن تجف القرية من هذه السيول بحلول الساعة العاشرة. التقى الناس في الشارع، وكانوا سعداء بحدوث ذلك: - لقد ظننت أن السيول ستدوم لمدة أسبوع!
- ستظل هكذا في الجبال.
- ربما سينزل الثلج هناك أيضًا.
سُمع صوت محرك ما على النهر، وهرع الناس بفارغ الصبر نحو رصيف الشاطئ، لمعرفة مَن. لقد وصل "ديميتري سيرجيفيتش كونداكوف"، الأخ الأصغر للسيدة "ناتاليا". كان كبيرًا في السن، لكن مظهره لا بأس به. طويل

القامة، ذو جسم مستقيم، وشعر رمادي اللون، وكثيف، وبحوزته مظلته. ويرتدي سُترة رمادية اللون، وقميص أسود. كان يعمل سابقًا مسؤولًا عن ورشة في طريق "كوتاي"، لكنه تقاعد منذ فترة طويلة.

لم تكن هناك طرق في "كوتاي" حول المستنقعات، فقد اكتسحتها غابات "التايجا" قبل مئة عام، وفضل المواطنون السفر على طول النهر من مركز المقاطعة إلى "بيليفو"، التي تبعد عنه بعشرة كيلو مترات. وعلاوة على ذلك، ليست هناك حاجة للتجديف، فهناك قوارب. سلم "ديميتري سيرجيفيتش كونداكوف" على الابن. كانت زوجة الابن وإحدى بناتهما، التي تبلغ من العمر عشر سنوات تقريبًا، تقفان في الجوار. كان بحوزتهما بعض من الطعام في سلة كبيرة، وعدة زجاجات.

وبعد أن استقبلوا من "ديميتري سيرجيفيتش كونداكوف" واستمعوا إلى كلمات التعازي، سأل في دهشة: - هل قرروا أن يدفنوها هناك؟

وقد أجابوه باستياء:

- نعم. وهل هناك مكان آخر؟

- نحن ندفن أمواتنا منذ فترة طويلة في "كولبينسك". وعلى ما يبدو، ستغرق المقبرة هنا أيضًا.

هز "جينكا جلوخيخ" أشجار الصنوبر التي تغطي القبور:

- حسنًا، أنتم في الأراضي المنخفضة، ونحن هناك. كان الأجداد أذكياء، واختاروا أن توضع مقابرهم في أماكن مرتفعة.

أومأ "ديميتري سيرجيفيتش" برأسه بحزن، ونظر حوله للتحقق من كيفية تأمين ابنه للقارب، ونزل إلى الشارع، لكي يذهب إلى منزل أخته..

ابتعد القارب، كما لو أنه في عداد المفقودين، بعدما حضر أخو المتوفاة، وسرعان ما جاء الأقارب الآخرون القاطنون في الأماكن البعيدة، ومعارفها القدامى من القرى المجاورة. كان هناك الكثير من الضيوف، لكي يحضروا هذه المراسم الحزينة. فهم لم يجتمعوا منذ زمن.

لم يأتِ الغالبية العظمى منهم إلى هنا لأنهم أرادوا حقًّا أن يودعوا "ناتاليا سيرجيفنا" في رحلتها الأخيرة، أو أن يشعروا بالأسف تجاهها، بل لأنهم لم يحضروا جنازات منذ فترة طويلة في منطقة الفيضان الوشيك. وعندما شاع خبر أن هناك امرأة عجوزًا من عائلة "بريفاليخين" ستدفن في "بيليفو"، لم يصدق الناس في البداية. ظلوا يتساءلون لفترة طويلة، وحاولوا أن يتأكدوا من الأمر مرة أخرى، فقاموا بالاتصال بمعارفهم في "بيليفو". وحتى نهاية الأمر، لم يصدقوا شيئًا، وقاموا بتجهيز بنزين المحركات، وأخذوا بعضًا من الطعام معهم للعزاء، لكيلا يذهبوا وأيديهم فارغة، وشرعوا في الذهاب هناك، لكي ينظروا بأم أعينهم. وبعدما قطعوا نحو عشرة كيلو مترات بطول النهر، رؤوا أناسًا كثيرين تقريبًا مزدحمين على الرصيف، والأطفال يركضون ذهابًا وإيابًا، والبالغون يهرعون.

“بالطبع، سيكون هناك شيء ما حقًّا”. بالطبع إن موت شخص كبير السن، منهك، يعد أمرًا طبيعيًّا. أما بالنسبة لأن تودعه القرية بأكملها في الأرض التي عاش فيها طوال حياته، والتي تخلى عنها بعض من الناس، فهذا أمر مقلق للغاية.. نزل الناس من القوارب وتوجهوا نحو رصيف الشاطئ: - هل ستدفن هنا؟ ألم يحالفها الحظ؟

سرعان ما شعر السكان المحليون بالقلق. وبتعبير أدق، كانوا خائفين منذ البداية من أن الجنازة لن تتم، وبالتالي كانوا يستعدون لها بشكل سري تقريبًا. وأبلغوا الشرطي بالوفاة، لكنهم لم يسألوا كيف سيتم دفن المتوفاة، قامت المسعفة بإبلاغ المنطقة، وبناءً على طلب المواطنين، لم يتحدثوا عن مكان الدفن. وعندما تلقى أولاد “ناتاليا” خبر الوفاة المحزن، لم يطرحوا سؤالًا عما إذا كانوا سيأخذون الجثة بأنفسهم، أم سيتم نقلها من المدينة إلى المقبرة.

لقد أدرك الكثير من الناس أنه من الأفضل ألا تُدفن “ناتاليا سيرجيفنا” هنا في هذا المكان المنكوب، ويفضل دفنها في مكان بعيد عن هنا، لكن لا أحد يريد الوقوف أمام الآخرين، وإخبارهم بذلك، لكيلا يصبح عدوًّا للنساء المسنات اللاتي يحلمن أيضًا بالدفن هنا، بالقرب من القرية، أو عدوًا للرجال الذين شعروا بأهمية النساء لأول مرة في حياتهم، وشعروا أيضًا بأنهم بحاجة إلى بقائهن بجانبهم في المقبرة، أليس عليهم أن يحفروا قبرًا آمنًا لها، ويضعون فيه النعش، ويدفنوها به؟

وكان سكان القرية يرغبون في إقامة هذه الجنائز هنا، لكنهم لم يكونوا على يقين من أن الجنائز ستتم.

صدر صوت صرخة حادة ودقيقة، ولكنه ليس صادرًا من زورق بخاري، ولا يشبه صوت المحركات المعتادة، إنه صوت قارب سريع، قال الناس على الفور: - إنه خاص بأقارب العمة “ناتاليا”.

اهتز الرصيف الذي كان قويًّا عريضًا، وتم تضييقه بطريقة ما أو بأخرى في السنوات الأخيرة؛ وذلك لتكون هناك مساحة كافية لمرور أربع عبارات، حسنًا، لكن الرصيف اليوم ممتلئ بالقوارب البخارية. صاح ركاب القارب السريع ذي الصوت العالي القوي لمنحهم فرصة للوقوف.

خرجت امرأة من الكبينة الصغيرة على سطح القارب، كان السكان المحليون يعرفونها، إنها “إيرينا”، الابنة الكبرى لـ”ناتاليا سيرجيفنا”، التي عاشت في “تومسك”.

وأخيرًا، وقف القارب بجانبهم، وتم ربطه بجوار الرصيف، وكأن القارب يدس أنفه في أوراق الشجر المتحجرة. ثم رمى سائق القارب حبلًا على عمود، ووضع سلمًا، لكي تنزل عليه السيدة “إيرينا”. كان هناك أربعة رجال يرتدون سترات سميكة. قالت “إيرينا” وهي تمسح دموعها وتنظر نحو منزل والدتها: - سأذهب لإحضار أمي.

اجتمع بالفعل جميع السكان المحليين والزوار تقريبًا هناك. كان الناس متكدسين أمام البوابة المفتوحة، جالسين القرفصاء. كانوا يثرثرون مع بعضهم بعضًا حول مَن جاء، ومَن غادر المكان. قاد "ديميتري أركاديفيتش بريفاليخين" سيارته الضخمة الـ"تويوتا". كان هناك أيضًا ذلك الصبي، الذي مرَّ أول أمس بالقرب من السيدة "ناتاليا". شاهد الكبار والمسنين، وحاول أن يكبح جماح نفسه، وحاجته إلى التوجه إلى شخص ما، والاعتراف بأنه رأى المرأة العجوز قبل أن يتم العثور عليها ملقاة عند البوابة، وبدا أنها تريد أن تخبره بشيء.

قال "جينكا جلوخيخ" لـ"إيرينا":

- لقد أعددنا كل شيء هنا. وحفرنا القبر أمس.

- سآخذها. لقد استأجرت قاربًا وعمالًا.

- إلى أين؟ إليكِ أم إلى المدينة؟

- إلى المدينة. ربما إلى المدينة. لقد جهز ابني "رومان" الأوراق هناك.

حاول العم "فيتيا" إقناعها:

- سيكون من الأفضل أن تدفن هنا، فهذا هو مسقط رأسها.

قال أحد الرجال من القارب:

- سيأتي الفيضان، وسيقضي على الأخضر واليابس.

استاء "جينكا"، الذي سئم من سماع كلمة "فيضان" التي ظهرت مؤخرًا، فقال ساخطًا:

- أي غرق تتحدث عنه! المقابر لدينا فوق الجبل.

أصبح صوت الرجل أكثر حدة:

- سيرتفع مستوى الماء مئتي متر، أو أكثر من ذلك. وبالمناسبة، سيزيلون كل شيء في الربيع. أعلم أنك لديك الحق في أن تجعل جثث الأقارب بالقرب من بعضهم بعضًا، ولكن من الضروري كتابة طلب نقل المدافن إلى الإدارة، لكي يتم تخصيص قطعة من الأرض في المدينة.

قال العم "فيتيا":

- نعم، نعلم ذلك.

وقفت "إيرينا"، غير منصتة لحديثهم، ونظرت نحو المنزل. لكنها لم تجرؤ على الذهاب إلى ذلك الازدحام. ثم قال "ليشا بريوخانوف"، بعد أن قاس المسافة من النهر إلى المقبرة مرتجفًا: - انتظر دقيقة! لكن هناك أكثر من مئتي متر. لقد انتقوا مكان الحفر بعيدًا عن منطقة الفيضان بنصف كيلو متر.

ركض العامل ومعه رئيسه، ونظروا من النهر إلى أشجار الصنوبر، ثم ابتسم بازدراء:

- ارتفاع الماء يقاس عموديًّا. تخيل كم تبلغ المسافة عموديًّا. فالمنزل يتكون من تسعة طوابق؛ أي ما يقرب من ثلاثين مترًا. والفيضان يبلغ مئتي متر! لذا ستغرق المقبرة.

دفعت "إيرينا" نفسها لتواصل السير.
كان "جينكا جلوخيخ" يمسك السيجارة في يديه المرتجفتين، ويدخن بشراهة وغضب، وقال له:
- وليكن.. فلتذهب أنت إلى الجحيم!
قال "ميرزلياكوف":
- حسنًا، هذا أفضل من أن نحفر لها في الربيع. فماذا سيحدث لها في الربيع؟ سيأخذونها، وسيدفنونها، ثم سنتبعهم.
خففت هذه الكلمات الرطبة من سخط "جينكا"، وصمت الرجال، وهم يقفون على الرصيف، والآن لا يوجد شيء يُقال. وقد تعين عليهم الصبر فقط، وانتظار ما سيحدث لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث
أمام المحاكم

أصبحت حالات الطلاق شائعة في مستوطنة "بولشاكوف" في مقاطعة "سلافسكي". كان يحدث ذلك لعدة أسباب، بل أكثر من مرة تقريبًا. يبدأ العرس، بحفل زفافٍ صاخبٍ، ومرحٍ، وطاولاتٍ طويلةٍ على الشاطئ في الصيف، أو في نادٍ في فصل الشتاء، وبعد عام، أو اثنين، أو ثلاثة، تنتشر الفضائح، ويطلب كل منهما الطلاق.

وبمجرد طلاقهما، يعاني أقاربهما، ويخجلون من هذا، ثم يكتشفون أنه ليس من الغريب الزواج، ثم طلب الطلاق، بل إنها تجربة مفيدة للحياة المستقبلية. وأطلق علماء النفس لديهم مصطلحًا خاصًّا، وهو "الزواج التجريبي".

ولكن لم يحدث ذلك مع زيجات الشباب فقط، بل مع الكبار والمسنين أيضًا. وعلاوة على ذلك، لم يلجأ الرجال والنساء لحل مشاكلهم بطرق مبسطة، بل كانوا يذهبون إلى الجهة المختصة، ويقدمون طلبًا، ويدفعون رسومًا، وينتظرون شهرًا، ثم يذهبون إلى المحكمة مرة أخرى. وغالبًا ما يحدث الطلاق دون حاجة إلى نشر الفضائح، فقد انتشرت الفضائح بالفعل خلال سنوات حياتهم مع بعضهم بعضًا، ثم يتقاسمون الثروة المكتسبة على الفور، بداية من السجاد، إلى الدلو القذر. هنا لم يكن الجشع هو الذي يقودهم، بل الكراهية لبعضهم بعضًا، والرغبة في عذاب نصفه الآخر المحطم، وكيفية الانتقام من كل شيء، كل شيء.

لم تصل عائلة "ماسلياكوف" إلى ذلك. لقد تم الطلاق بهدوءٍ. حسنًا، بالطبع ليس بهدوءٍ، ولكن دون حدوث مشكلة ما، بل ودون خجل أيضًا. لماذا أنت مُطلق؟ ربما إذا طرحت عليهم هذا السؤال، لن يجيبوا عنك. فهم بأنفسهم لا يعرفون لماذا حدث ذلك. فقد كتبوا في طلب المحكمة سببًا روتينيًا وتافهًا. وبعد الأربعين، أصبحوا غرباء عن بعضهم بعضًا، وهذا كل شيء. من المزعج معرفة أنهم يقولون كيف يأكل الزوج أو الزوجة، وكيف يتحدثان، وكيف يذهبان. ويذكرون النصف الآخر دائمًا بالسوء والقبح.

هذا الاغتراب الذي يثير الدهشة جاء بعد توحيد حقيقي لقلبين، عندما أصبح لكل واحد منهما بحاجة إلى الآخر، وعاشا عامين بمفردهما، وشهدا تجربة واحدة. عندما التحق ابنهما الوحيد بالجيش. وليس فقط في الجيش، بل في الشيشان لمدة نصف عام تقريبًا، لكنه يعود سالمًا وقويًا وناضجًا. ثم يعيش

في المنزل لعدة أشهر ويغادر إلى المدينة للعمل. وقد بدا أن الوالدين قد مزقا ما يربطهما، وما يجبرهما على أن يكونا معًا.

ظلت الزوجة "تاتيانا" في المتجر الذي فتحته مع صديقتها وقت أن انضم ابنها إلى الجيش، وتطلبت الحياة المزيد من المال. لم يكن المتجر في "بولشاكوف"، ولكن بجوار مستعمرة عقاب محلية يعيش فيها المساجين شبه أحرار، يعملون كي يجنوا دخلًا لهم، على بعد نحو عشرة كيلو مترات منها، مما أثار غضب زوجها "يوري". لقد كانت المستعمرات المحلية منبوذة؛ فهؤلاء السجناء شبه الأحرار قد تسببوا في الكثير من المتاعب، وهناك العديد من عمليات السرقة وعراك الآخرين. كانت الزوجة تبيع السجائر، والحلويات، وكذلك الشاي بمبلغ زهيد. ويتأخر "يوري" في عمله في ورشة الخشب، التي يملكها شقيقه. ولذلك لا يهرع إلى المنزل.

لم يتمكنا من التحدث مع بعضهما بعضًا في عطلة نهاية الأسبوع، ولأيام متتالية. وشرعا في النوم في غرف مختلفة. وفي النهاية، وقف "يوري" أمام الشرفة التي كانت دافئة، وظل يفكر، كان هناك موقد أمامه. وبعد شهرين، ذهبا إلى الجهة، وقدما طلبًا للطلاق. حاول الابن أن يوقفهما بالعقل والإقناع، لكن محاولته باءت بالفشل. وبطريقة ما، ذهب كل شيء فجأة دون ضجيج، وبسلاسة؛ فلم يكن هناك شيء يتطلب المغفرة من بعضهم بعضًا، وليس هناك شيء أيضًا يتمسكان به. لم يكن "يوري" سكيرًا، وليس لديه عشيقة، والأمر نفسه لدى "تاتيانا". لقد أصبحا فقط غير قادرين على العيش معًا، وافترقا.

لم يعرف أحد في القرية عن طلاقهما في بداية الأمر، ولكن بعد ذلك لاحظوا أن "يوري" ظل بمفرده، و"تاتيانا" أيضًا بمفردها. حاولوا معرفة الأخبار، وسرعان ما تخلوا عن هذا الأمر. فلم يكن هناك شيء يستدعي المناقشة؛ فقد تصرفت عائلة "ماسلياكوف" بسلام وهدوء، حتى بدا أنهم ودودون (لقد تجولا معًا في الحديقة، وكانا يساعدان بعضهما بعضًا أيضًا)، ولكنهما ظلا منفصلين.

حصل الابن على وظيفة في شركة إنشاءات في المدينة، وأصبح بحاجة إلى شقة. فلم يكن في قريته عمل جاد لفترة طويلة، والجميع هناك يجلسون بجوار أمتعتهم لثلاثة عقود من الزمن، بعد الإعلان الأول لترحيلهم.

بالطبع، لم يكونوا جالسين في تلك الفترة بجوار أمتعتهم، منتظرين شيئًا ما فقط. لقد قدموا الكثير من الإنجازات في هذه الفترة أيضًا؛ فقد قاموا بإصلاح الأكواخ، ووضعوا حظائر جديدة، لكنهم كانوا على يقين دائمًا بأن الوضع لن يستمر هنا إلى الأبد، وأنه في يوم من الأيام سيكون عليهم النهوض والمغادرة من هنا.

وفي الثمانينيات، تصرف بعض من السكان بحكمة، وحصلوا على شقة أو منزل دون حاجة إلى الكثير من الأوراق الروتينية، وحصلوا أيضًا بكل سهولة

على عمل، فلم يكن هناك ما يكفي من الأيدي العاملة في كل مكان.
وفي التسعينيات، أصبحت "بولشاكوف" مثل جزيرة معزولة عن العالم، لم يتوقع السكان أكثر من المدينة ولا من الدولة التي كانت تتفكك وتموت، عاش السكان على منتجاتهم، وعلى "التايجا". كما نسوا مع الوقت السد القريب من "التايجا"، والذي تركوه وهو تحت الإنشاء، وبدا أن الخرسانة على وشك التآكل، وستنجرف مع الوقت بعيدًا.
ها قد حلت أوقات جديدة، وعادت الدولة إلى الحياة مرة أخرى، واستؤنفت المفاوضات المتعلقة بالأهمية القصوى لمحطة الطاقة، وأنه لم يعد هناك شيء متبقٍ قبل بدء التشغيل. ثم وقع حادث في محطة "ساينو شوشينسكي" لتوليد الطاقة الكهرومائية، ولذلك هرعوا لتشغيلها على وجه السرعة! وقد ظلت عبارة "على وجه السرعة" لسنوات عديدة، وإن كان لا مفر من إعادة تشغيلها مرة أخرى، ولكن القرار قد اتخذ وسيطرق على الأبواب.
بحلول صيف ٢٠٠٨، ظهرت مجموعات من المساجين من مستعمرة العقاب في القرية، وشرعوا في قطع أشجار التلال المحيطة بالمنشار.
كان السكان المحليون في البداية ساخطين، هرعوا إلى الورش الخشبية، وأخرج هؤلاء المساجين بطاقة مكتوب عليها: "السد تحت الإنشاء!".
وأضافوا: "قريبًا سيأخذونكم بعيدًا". "إن قريتكم تعد الأقرب إلى السد!".
وبعد أيام قليلة، عُقد اجتماع في النادي. حضر فيه ممثلو الرجال والنساء، وسرعان ما تحدثوا عن حقيقة أن بناء محطة الطاقة الكهرومائية قد وصل أخيرًا للمرحلة النهائية، والوقت قد حان لتوديع القرية ومغادرتها.
سألت المرأة العجوز، التي تجلس في الصف الأول، وهي تنتحب:
- إلى أين؟
فأجابوا:
- لقد قمنا بجمعكم على هذه الطاولة من أجل ذلك. سنستمع لرغباتكم، وسنفعل ما بوسعنا. والآن سيعرفكم السيد "ستانيسلاف بوريسوفيتش" بالأمر.
شرع رجل كبير يرتدي سُترة رمادية اللون، وربطة عنق زرقاء لامعة في الشرح، يبدو أنه رئيسهم. يشبه نوعًا ما من الخلف ضابطًا لوجيستيًّا (دعاه السكان المحليون على الفور المفوض العسكري)، ظل ينظر باستمرار على ورق بحوزته: - إن إعادة التوطين ينظمها قانون إقليم "كراسنويارسك" المعتمد في شهر أكتوبر من العام الماضي. ينص القانون على "شروط وإجراءات توفير السكن للمواطنين الخاضعين لإعادة التوطين من منطقة الفيضانات في "بولشاكوف" ومحطة الطاقة الكهرومائية".
وينص القانون على إحدى عشرة فئة مستفيدة من هذا.
خرج صوت ساخر من القاعة:

- أي فيضان؟ فيضان "أبو شادوف"؟
لم يغضب الرجل حتى، ولكنه كان في حيرة من أمره، وظل يحدق في أولئك الذين يجلسون أدناه، لقد صُعق. قال مساعده الشاب، الذي يرتدي قميصًا ملونًا: - محطة الطاقة الكهرومائية في منطقة "بولشاكوف"، التي ستصبح واحدة من أكبر محطات الطاقة الكهرومائية في روسيا.
ثم تابع المفوض العسكري حديثه:
- إذن، بموجب القانون، هناك 11 فئة من المستفيدين لهم حق الأولوية في الشقق. فهؤلاء بالطبع كانوا الـ"قمحع 2"، ثم..
ضحك البعض في القاعة، وصاح الصوت نفسه مرة أخرى:
- أوه، أيها المفوض!
ارتجف المفوض، ثم نهض من مكانه:
- فلتنصت يا مَن تقف هناك! الـ"قمحع 2" هم قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية، فلا تسخر منهم! سأطردك خارج القاعة بسبب استهزائك بقدامى المحاربين!
ضحك الفتى الساخر الذكي، والمتهالك، كان يُدعى "فيتالكا سينيتسين":
- أوه، لقد بدأت عملية الترحيل بالفعل!
أمر المفوض:
- إذًا، اترك القاعة!
- لماذا؟
- لا أستطيع التحدث بسببك! فلتغادر المكان!
- لكنني إذا غادرت القاعة لن أعرف حينها. ربما أنا مستفيد من ذلك الأمر أم لا، فمصيري سيتقرر هنا.
قالت امرأة تشبه حاكم "سان بطرسبرج":
- لكن في حقيقة الأمر، لا يمكنك أيها الشاب أن تتصرف هكذا. فأنت لا تسمح للناس بالتركيز لفهم المعلومات المهمة. أما أنت أيها المفوض، ألا يمكنك ألَّا تقول كلمات غير إنسانية؟
- عن أي كلمة تتحدثين؟
- فيضان "أبو شادوف" و"قمحع 2".. الذي بسببه سنُطرد من هنا بالقانون.
- لا أحد سيطردكم. نحن نولي اهتمامنا في المقام الأول لتنظيم إعادة التوطين بطريقة حضارية.
لم يترك "فيتالكا" الحديث يجري من دونه، وقال:
- مَن؟ نحن؟
- هنا يوجد ممثل تابع لوزارة الاستثمار السياسي وممثل عن مديرية تحضير السد وإدارة المنطقة..
تنهد "فيتالكا" قائلًا:

- حسنًا، من الواضح أن هناك أشخاصًا ذوي شأن سيشرفون على المشروع. ولذلك ليس لديَّ المزيد من الأسئلة بعد.
ثم ظل صامتًا بالفعل لفترة طويلة.
بعدها، أعلن المفوض عن الفئات الإحدى عشرة من المستفيدين، ابتهج القرويون؛ جميع العائلات تندرج تقريبًا في إحدى الفئات، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي من قدامى المحاربين، بل العديد من عمال البناء، ومعوقين، وكذلك عائلات لديهم أطفال صغار وكبار السن، ومتقاعدون.
أبدى أهالي "بولشاكوف" موافقتهم على الأماكن التي يريدون الانتقال إليها.
ثم ظهر مخادع جديد بدلًا من "فيتالكا"، لكنهم أسكتوه سريعًا:
- حسنًا، أريد أن أذهب إلى موسكو.
فقال حاكم يجلس بالقرب من المفوض:
- أيها الرفاق، على الرغم من أن الاختيار أمر عظيم، فإنه مقيَّد بمنطقتنا وبجمهورية "خقاسيا" الفيدرالية الروسية.
- وما علاقة "خقاسيا" بالأمر؟
- إنهم جيراننا، ومستعدون لتوفير السكن لنا في مناطقهم. بالإضافة إلى ذلك، هم شركاؤنا.
- آها، سيضعوننا تحت قبعة واحدة حتى يتخلصوا منا جميعًا!
- دعونا نتحدث بجدية!
يبدو أن الاختيار أمر صعب ومخيف. كانت الغالبية العظمى من المدن والبلدان المدرجة في القائمة للسكان المحليين، مجهولة. ولم يعرفها أو يزرها أحد على الإطلاق.
لم تساعد الخريطة التفصيلية للمنطقة، التي تم وضعها على الطاولة، سوى بالقليل. نظروا إليها، محاولين معرفة ما بها. قال المسؤول: - ها هي قريتكم "بولشاكوف". وهذا مركز حي، مدينة "كولبينسك".
- حسنًا، أنا أعرف ذلك.
- هنا، يوجد في الجنوب "كانسك" و"زاوزيرني". أما هنا "أتشينسك" و"شاريبوفو" و"أباكان".
- إنها بعيدة.
- هناك مناخ أكثر اعتدالًا من قريتنا، كما يُزرع المشمش أيضًا.
- لماذا نحن بحاجة إلى المشمش؟
- أقصد المناخ.
- نعم، سنكون بالقرب من النهر.
- ويوجد هناك "ينيسي" في "أباكان".
- سأكون على مقربة من..

- حسنًا، هنا "كولبينسك". سيتم تطويرها ديناميكيًّا. وستكون قريبة منكم جدًّا.
ثم تدخل طرف ثالث في هذه المناقشة البطيئة.
- آها، لكن لن نصل من "كولبينسك" إلى النهر سيرًا على الأقدام.
سرعان ما بدأ المسؤول يفقد صبره:
- هنا "بوجتشاني"، إنها قرية جميلة. و"موتيجينو"..
- هنا يريدون بناء محطة لتوليد الطاقة الكهرومائية. ولذلك سيكون عليهم التنقل مرة أخرى.
- هل هذا صحيح؟
اعترف المسؤول على مضضٍ:
- نعم، هناك خطط لذلك.
- حسنًا، وماذا سيتبقى بجانب النهر؟
في تلك اللحظة، قدم عدد قليل من الأشخاص، بل معظمهم طلب لاختيار الأماكن التي يعيش فيها الأقارب أو الأصدقاء.
لم يتسرع المسؤول، خاصة أنه كان لديهم التباس في القوائم. توجد قوائم مختلفة عن التي معه، قوائم من المجلس الإقليمي، ومجلس المقاطعة، ومنطقة ثالثة هي مجلس القرية.
تجعدت جبهته، محاولًا فهم الشخص الذي أطلق عليه السكان المحليون المفوض العسكري: - لماذا تنظم الأمر هكذا؟ إن هذا مستحيل. يوجد في قائمتكم أكثر من خمسين شخصًا زيادة عن القائمة التي معي؟
هزَّ المفوض القائمة التي بحوزته، وقال:
- لقد قمنا بالتوزيع حسب القائمة التي أرسلتموها من قبل!
أجاب رئيس مجلس القرية:
- ولكن ذلك حدث منذ نحو عامين. ومنذ ذلك الحين، تم تعديل القائمة، وإضافة آخرين. فالجميع لن يظلوا في أماكنهم بلا حراك.
- ماذا؟! كيف تم تعديلها؟
- القانون يسمح بذلك.
أصبح الرجل، الذي يشبه الضابط القوي، مضطربًا:
- نعم إنه كذلك.
تحدث الشاب "ستانيسلاف بوريسوفيتش"، الذي يرتدي قميصًا ملونًا، بهدوء، ولكن بصوت مسموع: - لا يحظر القانون التعديل في منطقة الفيضانات.
فرك المفوض العسكري رقبته، ثم نظر بغضبٍ في الأوراق:
- نعم، لا يحظر هذا. حسنًا، حسنًا، حسنًا، سنراجع مَن سجل هنا.
- مَن؟ طبقًا للدستور، تعديل القائمة من حق مواطني روسيا، وليس الصينيين.

هز المفوض العسكري رأسه الكبير وهو ينظر أمامه في القاعة، ويفكر في الحياة المستقبلية لأهالي "بولشاكوف"، ويقول في قرارة نفسه: "ماذا، لو كان لدينا هذا الدستور، فلن ننتقل أبدًا"، ثم قال للمسؤولة: - فلتعدلِي طبقًا للقانون، سأتوقف الآن عن التسجيل. فأنتِ تابعة للوزارة، ولست أنا.

قالت المسؤولة التي تشبه المحافظ:

- إذن أيها السادة، دعونا نناقش هذا الأمر في مكان آخر. فلم يحضر جميعنا هذا الاجتماع.

ثم جاء "يوري ماسلياكوف" إلى النادي، وبحوزته وثائق مطبوعة بشروط إعادة التوطين.

- لديَّ سؤال.

التفت المسؤولون إليه على الفور، وصمت الجميع، أملًا أن يسمعوا شيئًا مهمًّا: - نعم، تفضل.

- مكتوب هنا بدقة أن الشقق سيتم توفيرها طبقًا للتسجيل.

- نعم، بالطبع.

- أي إنني سأمكث مع زوجتي "تاتيانا". ونحن الآن مطلقان.

أومأ الشاب، الذي يرتدي القميص الملون برأسه، وظل يفكر، مثل التلميذ النجيب، الذي يواجه مسألة صعبة: - هكذا.

- وماذا سنفعل؟

- عفوًا، هل أنتم مسجلون في العنوان نفسه؟

- نعم. لقد قمنا بالطلاق منذ عشر سنوات. لكل شخص حجرته، ولكن هنا..

- نحن نتفهم مشكلتك، ولكن طبقًا للقانون، من المفترض أن يكون لديكما أنتما الاثنان شقة واحدة.

- حسنًا، وماذا لو لم نمكث معًا؟

- لكنكما كنتما تمكثان معًا بطريقة أو بأخرى. والآن ما زلتما تعيشان معًا.

كان "يوري ماسلياكوف" محرجًا على الإطلاق من شرح ما يحدث في حياتهما:

- هنا الأمر يختلف تمامًا. نحن هنا لدينا كوخ. على سبيل المثال، أنا أعيش في ملحق الكوخ، وهو مكان مناسب جدًا للمعيشة، وقد تمر أسابيع دون أن نرى بعضنا على الإطلاق. أما في شقة.. فهذا أمر آخر.

شرعت المسؤولة كأنها تشاركهم سرًا خاصًا:

- كما تعلم، حرية السوق قد تمنحك فرصة التصرف في الشقة التي ستحصل عليها. يمكنك أن تبيعها، ويمكنك أن تشتري لنفسك أيضًا شقة منفصلة.

- أشترى؟ إممم، أجل، لديَّ ملايين من الأموال في جيبي! وأي نوع من الشقق سنحصل عليه؟

- أنتما الاثنان؟

صرخت "تاتيانا"، التي كانت تنصت للمحادثة بتملص:
- نحن لدينا ابن! "آندري"، ابني!
- هل يعيش معكِ؟
- لا، إنه في المدينة.
قال "يوري":
- لكنه مسجل معنا.
بحثت الفتاة المسؤولة في السجل عن عائلة "ماسلياكوف":
- ها قد وجدتهم، عائلة مكونة من ثلاثة أفراد، بينهم ابن بالغ، مسجلين في عنوان واحد.
ثم أجابت، بعدما نظرت إلى السجل، وبدت وكأنها حاكمة:
- حسنًا، من المفترض أن يكون لديكم شقة مريحة مكونة من غرفتين.
ثم ابتسم "ماسلياكوف" ابتسامة ساخرة:
- شقة مكونة من غرفتين! لقد كان لدينا كوخ مكون من ثلاث غرف، ومطبخ كبير، و..
قاطعته "تاتيانا":
- وابننا، الذي كان ملتحقًا بالجيش، ومشاركًا في العمليات العسكرية الحربية! ماذا سيحدث معه؟
- نحن بحاجة لفهم هذه المشكلة. على الأرجح، ستكون الأولوية لدينا هي إعادة التوطين بالترتيب. وبحلول شهر مايو، يجب أن تكون أراضيكم جاهزة لـ ..
قاطعها الشاب، الذي يرتدي قميصًا ملونًا:
- إممم، يجب أن تتوافق مع المعايير الصحية.
غادر المسؤولون في تلك اللحظة، لكن أهل "بولشاكوف" ناقشوا لفترة طويلة فيما بينهم أين سينتقلون، وبأي شروط، وماذا يجب أن يأخذوا معهم، وماذا سيتركون.
وفي المساء، ذهبوا إلى تلك الأماكن، حيث يتم هناك التقاط شبكة الاتصالات التليفونية بشكل أفضل، ولفترة طويلة. صاحوا، وتحدثوا مع الأطفال، والأقارب، والمعارف، الذين يعيشون في المدن وقرى أخرى، يسألون عن أحوالهم هناك. وكانت الورش الخشبية تكتظ بأشجار البتولا والصنوبر. وفي اليوم التالي بعد الاجتماع، قرر "يوري" و"تاتيانا" للمرة الأولى منذ سنوات عديدة أن يحلوا قضية مشتركة، بل ومهمة وصعبة، ألا وهي الانتقال.
كان السكان يقومون دون مناقشة وبصمتٍ بحرث الحديقة، وزراعة البطاطس، وحطب الوقود. أما الآن فقد اختلف الوضع، فهم بحاجة للتحدث، ربما سيؤدي بهم إلى القرار الصائب.

جلست "تاتيانا" و"يوري" على طاولة واسعة في المطبخ. هزَّت "تاتيانا" رأسها قائلةً: - انتظر وسيجعلوننا نجلس بين أربعة حوائط، وسنغضب من بعضنا بعضًا كثيرًا.

ابتسم "يوري":

- لقد لاحظت أنهم يشكون أننا طلبنا الطلاق خصيصًا كي نحصل على شقتين.

لكنه سرعان ما أدرك ما قالته زوجته السابقة، ورفع صوته:

- ولكن إلى أين سأذهب؟ هذا هو منزلي أيضًا. لقد بناه والدي وجدي.

- نعم، بالطبع، أعلم ذلك. ومَن لا يعرف هذا؟

ربما فكرت "تاتيانا" في تلك اللحظة عبثًا أنه عندما انفصلت قبل اثني عشر عامًا، لم تعد إلى بلدها في "بروكلوفو"، أو أنها لم تذهب إلى الأحوال المدنية لتسجيلها في هذا العنوان وقامت بتسجيله بطريقة أخرى. وكانت المنازل في تلك الفترة باخسة الثمن، ولا تساوي فلسًا واحدًا. ليتها قامت بشراء منزل آخر، فلن تكون الآن بحاجة إلى التفكير فيما سيحدث لها، أو لابنها الذي يعيش في المدينة. حسنًا، ولكن، مَن كان يعرف في ذلك الوقت ما سيحدث الآن؟ مَن تنبأ بذلك؟ ها قد قُضي الأمر، وأدرك مئات السكان الآن أنهم محاصرون. و"ماسلياكوف" هو المخرج الخفي لهذه المشكلة.

قالت "تاتيانا": - ليتك تتمكن من تقسيم الشقة إلى شقتين، تتكون كل واحدة منهما من غرفة واحدة. ما زال "آندري" يعيش مستقلًا في المدينة، وعندما يموت أحدنا، تُضم الشقتين، وتُترك له.

- حسنًا، نعم، نعم، ولكن مَن سيأخذ أولئك الاثنين؟ أقصد الحمام والمطبخ. هاهاها.

نظرت "تاتيانا" إلى "يوري" كطفل بالغ غبي، دون غضب، بل بإحباط، قالت:

- نحن بحاجة للاتصال بـ"آندري". ربما سيقول لك شيئًا مهمًّا. خاصة أنه في المدينة. ويعرف ما يحدث.

وافقها "يوري" وهو محبط:

- حسنًا، نعم، لا بد لي أن أتحدث معه.

كان جارهم الذي يقطن بعدهم بثلاثة أكواخ لديه كثير من المتطلبات. إنه "فيتالكا سينيتسين"، ذلك الذي كان يتحدث بجرأة في الاجتماع، كان في حيرة وبلا دفاع. جلس على مقعد أمام الموقد، ودخن السجائر واحدة تلو الأخرى، منصتًا إلى ما يتحدث عنه الأشخاص العشرة الذين يسكنون معه في الكوخ. حاول بعد ذلك الخروج من المحادثة، التي بدت وكأنها عاصفة سيهب منها الرياح، ومن الممكن الخروج منها بفكرة تتناسب مع الجميع. ظلت هذه المحادثة المثيرة لفترة طويلة، ثم توقفت فجأة، وغادر الجميع، قانعين، مطمئنين، وذهبوا إلى أعمالهم.

سألت الأم الباكية "ناديجدا بافلوفنا"، وهي تعبث في القائمة المطبوعة الخاصة بمسكنهم المستقبلي: - كيف سنعيش هناك؟ كيف؟ نحن كثيرون؛ فهم لم يضعوا "كاتيا" و"نيكيتا" في الحسبان. كيف سنعيش جميعنا في شقة واحدة؟! هناك أربع عائلات، كيف سيعيشون في شقة واحدة؟!

قام الأخ الأكبر لـ"فيتالكا"، يُدعى "ليخا"، وهو أب لطفلين، بقطع حديثها وهو يضحك: - أربع عائلات بحاجة إلى أربع غرف!

ضغطت الأم بقبضتي يديها على الطاولة، وقالت:

- كُف عن الضحك! ها هم يضحكون بسببك الآن..

- نعم، يجب ألا يضحك أحد. فلترفضوا الانتقال وتظلوا هنا.

أجاب الأخ الأوسط، "آرتيوم":

- سينقلوننا بالقهر.

كانت الأم لديها ثلاثة أبناء، وابنة تُدعى "كاتيا". الجميع مسجلون على هذا الكوخ. وبتعبير أدق، لقد كان هناك منزلان: واحد قديم عاش فيه الزوج مع زوجته "ناديجدا" بحب وراحة، وهذا المنزل الجديد الذي كان "آرتيوم" يعيش فيه مع زوجته وابنته، و"ليخا" مع عائلته. لذا رتب الجميع على أن كل عائلة لديها مدخلها الخاص إلى الفناء، بل ومطابخها الخاصة أيضًا. وبشكل عام، لم يتدخلوا مع بعضهم بعضًا. كانت "كاتيا" تعيش مع زوجها "نيكيتا أكولوف"، وقد تزوجها في العام السابق. كان من الضروري تغيير تصريح الإقامة، ولكنهما لم يضعا ذلك في الحسبان، وشعرا أنه شيء تافه، وليس مهمًا. ولم ينظرا لعدة شهور إلى جواز سفرهما، الذي يضعانه في الخزانة، في صندوق من الصفيح؛ حيث يرقد وينام هناك بهدوء. ولكن، اتضح أن القدر يعتمد على جواز سفرهما. فقد أدرجت "كاتيا" في السجل على أنها تعيش مع والديها وأخواتها، وليس زوجها.

شارك في هذا الحديث والدا "نيكيتا" وابنهما الثاني "سانيا"، البالغ من العمر عشرين عامًا، والذي كان على وشك الزواج من فتاة محلية. أراد والدا الفتاة الانتقال إلى "آتشينسك"، في حين قرر والدا "نيكيتا" البقاء في قريتهما. قال العجوز "أكولوف"، والد "نيكيتا": - سنذهب في أسوأ الحالات إلى "كولبينسك"، لكن من الأفضل أن نذهب إلى "تايجني". لقد علمت أن قريتهم لن تتعرض للغرق بعد. فكل شيء هناك منذ القرن السابع عشر.

ارتفع صوت زوجته "تمارا":

- ليقرر الرب المصير بنفسه!

هز "فيتالكا" رأسه:

- ها قد بدأت العاصفة من جديد! وما مصيرنا؟

- أنتم معي. ما زال الأمر باستطاعتنا.

- لن أذهب إلى "تايجني"! لا أرغب في الذهاب إلى "كولبينسك "، لا أريد حقًّا.

حدق "أكولوف" في زوجته، وهو في حيرة من أمره. يبدو أنها لأول مرة تسمح لنفسها بالصراخ أمامه، لذلك كان الأمر مختلفًا عنده كثيرًا. كان "أكولوف" رجلًا رياضيًّا، يبلغ من العمر خمسين عامًا، وقد عاش في مزرعته، يصطاد الأسماك لفترة طويلة. لديه الكثير من الماشية، ويبيع منتجاتها. يقوم بتسمين الماشية دائمًا، لذلك كان لديه الكثير من المال. وقد ساعدته الزوجة والأبناء في ذلك الأمر على مر السنين بحبٍ وود، ولكن الزوجة تتمرد الآن، بل وإنها تتمرد عليه في منزل غريب.

- لقد كانت هناك فرصة للعيش مثل الناس، لكنه أحمق! هنا يقول الناس في "مينوسينسك"، و"سوسنوفوبورسك" أن "أباكان" أصبحت من أجمل المدن.

سأل "أكولوف"، دون أن يرفع صوته، ولكنه كان متجهمًا:

- وماذا تريدين في هذه المدينة؟

- سأعيش بشكل طبيعي، حتى ولو سأجلس فقط في المرحاض.

دعم "فيتالكا" بطريقة غير متوقعة والده:

- لا بالطبع. من الضروري الذهاب إلى المدينة، لكنني أصر فقط على ألا نكون جميعًا في شقة واحدة.

تذكرت الأم، وهي تنظر إليهما، وهما يمسكان أيدي بعضهما بعضًا، كما لو كانا سيفترقان من اليوم إلى الأبد. أخذت تنتحب: - وماذا سيحدث مع "كاتيا" و"نيكيتا"؟ هذا ليس عملًا إنسانيًّا!

لقد أمضى "نيكيتا" و"كاتيا" ما يقرب من عامين بمفردهما في كوخ ملحق لكوخ العائلة بمفردهما، واعتادا على الاستقلال، لكن تبين الآن أنهما طفلان عالقان مع والديهما؛ فقد اعتمد "نيكيتا" على أموال والديه، و"كاتيا" معه. قالت الأم، وهي تبكي، وتنظر إلى "فيتالكا": - علينا أن نذهب إلى هناك، ونرى ما سيقدمه لنا القدر.

فهي الآن أصبحت كبيرة جدًّا في السن، وبائسة، و"فيتالكا" مَن بيده الأمر. نظر إلى أشقائه، الفلاحين الأقوياء المتزوجين، ومعهم زوجاتهم وأولادهم. لكنهم أصبحوا الآن جميعهم، مثل "نيكيتا" و"كاتيا"، وبدوا مثل الأطفال الصغار الخائفين، لقد خاف الجميع من احتمالية وجودهم في مساحة ضيقة، بل وفي شقة معًا، بالقرب من موقدٍ واحد، ومرحاض واحد، بل وغسالة واحدة. جلس الأحفاد جنبًا إلى جنب، وهم يتهامسون، وكأنهم يشبهون أشبالًا، يجلسون في جحر ما. اقترب الأجداد المسنون، والآباء لهؤلاء، الذين تتراوح أعمارهم من خمس إلى سبع سنوات، فهم أطفال أقوياء، وأصحاء، ويعرفون كيف يعيشون هنا في القرية، لكنهم أصبحوا الآن مرتبكين، بل وعاجزين. وأراد "فيتالكا" الذهاب إلى المدينة وسيشرح هناك كل شيء بقوة، وبإيجاز لأولئك الذين سينتقلون. سيأخذ والداه شقة منفصلة، والأمر نفسه مع عائلة "نيكيتا"، وأخواته أيضًا، وكذلك "سانيا" مع عروسه أيضًا. شقق عادية تحتوي

على غرفتين أو ثلاث غرف، لأولئك الذين ليس لديهم أطفال أيضًا، فحتمًا سيكون لديهم أطفال.
وصل "آندري"، ابن "يوري ماسلياكوف". سأل دون ازدراء، ولكنه تحدث كما يتحدث المحارب مع جنوده: - حسنًا، ما الأمر معكما؟
شعر "يوري" بالإهانة من لهجة ابنه، ولكنه حاول ألا يظهر ذلك. فقد جاء ابنه من زوجته السابقة الآن. تفاجأ "آندري"، وفرح كثيرًا، وقال: - هل ستظلان معًا حتى الآن؟ أحسنتما!
تفاجأ "يوري" بكلمة "أحسنتما"، إنه أمر لا يصدقه عقل، فقال:
- انتظر!
ثم سألته "تاتيانا" بحرارة:
- بني، أتود شرب الشاي؟ هل ستأكل الآن؟
جلس الابن، ونظر إلى المطبخ الواسع، وقال:
- حسنًا، أريد كوبًا من الشاي. عليَّ أن أذهب إلى العمل سريعًا. إنهم سيهدمون قريتنا. وقد حاولوا تجنيدنا لتطهير المكان، لكن السكان المحليين رفضوا.
قالت "تاتيانا"، وهي تنتحب:
- لقد كان هناك اجتماع أول من أمس، سألوا مَن سيذهب وإلى أين. وكان بحوزتهم قوائم وقالوا إنهم سيعطوننا شقة بها غرفتان. وقلنا إننا لدينا ابن بالغ..
قاطعها "آندري"، وقال:
- نعم، هذا أنا.
ثم استكملت حديثها:
- .. لدينا ابن بالغ، ونحن مطلقان. وكلٌ منا يعيش حياة منفصلة، ولكننا نعيش في المنزل نفسه.
تدخل "يوري" في الحديث:
- ثم قالوا طبقًا للقانون، بما أننا نعيش في المكان نفسه، إذن سيعطوننا شقة واحدة. وكما تعلم في كثير من الأحيان، من الممكن أن يعيش عشرة أفراد هنا في العنوان نفسه، مثل عائلة "سينيتسين".
صاحت "تاتيانا" بيديها:
- وما علاقتنا بعائلة "سينيتسين"؟! نحن بحاجة فقط إلى التفكير في أنفسنا. ماذا سيحدث معنا؟
ابتسم "آندري" قائلًا:
- حسنًا، ربما تكون هذه علامة من القدر!
- أي علامة تقصد؟
- أن يجمع الله بينكما. بعد كل ما حدث، إنه أمر مثير للسخرية بالفعل، لقد مرت سنوات عديدة على طلاقكما، ولكن ما زالت هناك سياج واحدة تحيط

بكما، وما زلتما معًا..
أصبح صوت "تاتيانا" جافًّا وحادًّا في لحظة:
- نحن نعيش ونتعايش فقط. ومَن يدري بما في قلوبنا؟ نحن لا نشكو لأحد، ولكن عليك أن تتخيل أننا في زنزانة واحدة. فكيف سيكون حالنا نحن الثلاثة؟!
- أردت أن أخبركما أنني سأستمر في الاستئجار. وخاصة أنني أرتبط الآن بفتاة. وربما سأتزوجها قريبًا.
- مَن؟ هل هي "داشا"؟
- لا، إنها واحدة أخرى. سأعرفكِ إليها فيما بعد.
ثم قال "يوري":
- أنصت! لقد قلنا للجنة إنك جندي.
صححت "تاتيانا" حديث "يوري"، وكأن هذا التوضيح مهم للغاية، وقالت:
- يقصد أنك مشارك في العمليات الحربية العسكرية.
- حسنًا، نعم. وقالوا إن الأولوية هي إعادة التوطين للسكان.
قالت "تاتيانا":
- لقد اعترضنا.. أقصد: أبوك اعترض.. ولكن بلا جدوى.
أراد "آندري" الرد على حديثهما، ولكنه سكت وغَيَّر رأيه. ثم حدق إليهما، كما لو أنه يتألم من داخله، ويفرك ذقنه براحة يده.
أصدرت الغلاية الكهربائية صوتًا، نهضت "تاتيانا" سريعًا، وصبت كوبًا من الشاي. ثم فكرت، وسكبت اثنين آخرين. ثم وضعتهم على طاولة الطعام، ووضعت قطعًا من السكر، والحلوى بجانبهم. وقفت أمام الطاولة، وكأنها تحاول أن تتذكر شيئًا ما، وجلست بعد ذلك. تنهد الابن، وقال: - حسنًا، هناك الكثير من الأشخاص مثلي، وإذا حدث ذلك، سنرتب أمرنا. أهم شيء ألا توقعوا على أي من الأوراق حتى الآن. فلندعهم يقرروا ماذا سيحدث لنا.
أجاب "يوري":
- بالطبع، لن نوقع على أي شيء. من غير المرجح أن نصبح معًا مرة أخرى، ولكنني لا أعتقد أنهم سيعطوننا ثلاث شقق.
قالت "تاتيانا":
- وإذا فعلوا ذلك، فعندئذ سنقسم الشقة إلى شقتين، كل منهما تتكون من غرفة واحدة، حتى لا نتقابل.
ثم التفتت إلى ابنها:
- وأنت بحاجة إلى ترتيب حياتك. فقد أصبح لديك اثنان وثلاثون عامًا وما زلت تعيش وحيدًا في غرفة للإيجار!
- ليست غرفة للإيجار، ولست وحيدًا.
- هذا ما تظنه. ماذا لو طلبوا منك الرحيل في نهاية الأسبوع؟ هل ستؤجر غرفة أخرى؟ ماذا ستفعل؟ أنتِ بحاجة إلى مسكنك الخاص، نعم، مسكنك

الخاص! فسيكون لديك أسرة وأطفال.
وبعد ذلك، شرعت "تاتيانا" في التخطيط لكيفية ترتيب حياة ابنها وحياتها في مكان جديد: - ربما يمكننا نقل البيت ككل. لم يكن هناك حديث عن هذا في الاجتماع، ولكن ربما يمكننا ذلك، فإذا فعلنا ذلك، سيسعد الجميع.
تمتم "يوري":
- باستثناء أخذ الأشجار معنا. ولكن سيتعين علينا تفكيك كل شيء، وفصل الجص، والألواح. ثم من سيعطينا الأرض لنقيم عليه المنزل؟
قالت "تاتيانا" باقتناع:
- سيفعلون هذا. علينا أن نكتب هذا في طلب رسمي، وبذلك سنحصل على ثلاث غرف مثل القصور، وشرفة، ومطبخ، وحمام. أو..
فكرت في حل آخر:
ـ ربما علينا أن نشتري مكانًا إضافيًا. فأنا بحوزتي سبعون ألفًا، وربما لدى والدي أيضًا بعض من الأموال.
ثم قال "يوري" على عجلة من أمره:
- أنا بحوزتي ثلاثين.
- وأنت يا بني. من المؤكد أنك تمتلك ما تضيفه لنا.
ابتسم "آندري":
- هذه ليست نقود. نحن بحاجة إلى نصف مليون على الأقل. أو يمكننا أن نقترض أموالًا.
- لا، لا أحب القروض. لقد سمعت أشياء سيئة كثيرًا عنها.
تابع الابن حديثه قائلًا:
- إنهم يقدمون قرضًا مقابل شيء ما، ولن يعطوا لأحد الأموال إلا بتلك الطريقة. هل بإمكانكما أن تأخذا قرضًا معًا؟
نظر "يوري"، الذي كان حتى ذلك الحين قد أبقى رأسه منخفضًا ونادرًا ما رفع عينيه لمن يتكلم، إلى "تاتيانا" لفترة طويلة. بدا له الآن - على وجه التحديد بعد كلمات "آندري" - أن زوجته السابقة أصبحت جذابة، وجميلة، بل وقريبة إليه. كما لو أنه يرغب في أن ينسى تلك الكلمات المهينة التي قالتها له منذ سنوات عديدة، والتي وخزت قلبه، ولم تُرِح صدره أبدًا. وسرعان ما نسيا تلك الكلمات السيئة، التي قالاها لبعضهما بعضًا من قبل، وكأنهما لم ينفصلا من قبل، فهم حقًا لم ينفصلا. إذن فلماذا لا يبقى كل منهما معًا الآن ويكونا معًا دائمًا؟ فعلى الرغم من أنهما سينتقلان من هنا، فإن ابنهما سيظل معهما. قال: - أنا، من حيث المبدأ، لا أمانع.
بدت "تاتيانا" متوترة، لقد كانت تنتظر رد "يوري" على كلمات ابنهما، وسرعان ما تحولت ملامحها إلى غضب وألم: - موافق؟
لم تصرخ وهي تتحدث، فهي نادرًا ما صرخت، ولكنها كانت تلفظ بكلمات تضيق صدره: - حقًّا، ألا تمانع؟ لماذا؟

قال "آندري":
- أمي، ماذا؟
- ماذا؟ ماذا به؟ لقد رغبت في الخلاص منِّي، أما الآن لأنه في احتياج لي فإنه يرجع.
أجاب "يوري":
- لم أهرب منكِ. لقد رغبتِ في الطلاق.
- نعم، بالطبع! إذا كنت في أصعب الأوقات قد خنتني ببساطة.
يكره "يوري" أن يشرح علاقته لأحد، ولذلك كان يذهب في كثير من الأحيان للعيش في كوخ لفترة مؤقتة، حتى لا يشرح لأحد ما يحدث له، ويهرب من كل شيء.
- كيف خنتكِ؟
اشتعلت النيران في صدر "تاتيانا"، وقالت:
- نعم، لقد فعلت ذلك عندما اختفيت. فبدلًا من أن تكون داعمًا، كنت تضع رأسك في التراب مثل النعام! كيف أدعو فعلتك هذه؟ فالشيء الوحيد الذي يمكننك فعله هو إحضار زجاجة وقول: "دعونا نأمل في الأفضل!" أليس كذلك؟!
- متى شربت أنا؟!
- لن أقول إنك كنت تشرب كثيرًا، لكنك لم تفعل شيئًا. لقد ظللت هنا دون أي "كوبييك" أو أي مال، دون أي شيء، عندما كان ابني هناك، في الشيشان، وحياته معرضة للخطر.
قال "آندري":
- أمي، لقد حدث ذلك منذ زمن. لقد عاش كثير من الأزواج ما هو أسوأ من ذلك.
- أليس هذا بسوءٍ؟! في السابق، كان من الضروري البحث عن منزل آخر، وليس الآن، بل منذ عشرين عامًا. لكان الآن بإمكانك أن تبيع هذا المنزل، وتشتري لك منزلًا منفصلًا. ماذا عنا الآن؟!
نهض "يوري"، وفتح الباب، وذهب.
قالت الزوجة السابقة وهي تشعر بالانتصار:
- أرأيت؟ لقد غادر مرة أخرى. فهو يغادر في كل مرة نتحدث فيها معًا.
- نعم، سأدخن سيجارًا.
- حسنًا، فلتدخن!
صاح "آندري":
- أمي! كفى! لماذا تغضبين الآن بعد كل هذه السنوات؟ يجب أن نحل هذه المشكلة.
- حسنًا، ولكن كيف سنحل هذه المشكلة معه؟ هو لا يمانع أن نتفق معًا، فقط من حيث المبدأ، ولكنني أعلم أن الجميع يعرف أننا تطلقنا، وهذا

مكتوب أيضًا في جواز السفر.
ثم جاء "يوري"، وسمع الحديث، فارتجف:
- نعم، لقد حدث ذلك بالفعل! وهل تعتقدين أن هذا أمر سهل بالنسبة إليَّ؟
- حسنًا، فلتذهب إليهم، لم تكن لتجد أي واحدة تريدك. غريب!
جثم "يوري" على العتبة، وقال:
- أوه، يا إلهي!
غمرت الدموع عيني "تاتيانا". كان الأمر فوق احتمال "أندري"، وهو الكبير البالغ، فانحنى على نفسه، دون أن يشعر، جالسًا على كرسيه وظل يدب بقدمه بعصبية على الأرض بحذائه مدبب الطرف.
بدا أن الثلاثة سيتعذبون داخل الشقة التي تتكون من غرفتين، وأصبح من المستحيل أن يقولوا لبعضهم بعضًا: "حسنًا، هل أنتم مستعدون لكي نترك القرية ونغادرها؟".
على الرغم من أن معظم سكان "بولشاكوف" كانوا يفضلون التمسك بالآخر، والسعي في تحقيق أفضل الظروف، ولكن بعد شهر ونصف الشهر من الاجتماع، شرع السكان في مغادرة منازلهم، وأصبحت المنازل فارغة. كانوا يقولون: - حسنًا، لماذا ننتظر؟ لن يكون هناك خيار آخر. على الأقل نحن نعلم أنهم سيعطوننا شققًا، وسنعرف بعد ذلك الجحيم الذي ينتظرنا.
قام الجميع بتعبئة لوازمهم في صناديق وحقائب، وأخذوها مشيًا أو في السيارات، وذهبوا بها إلى الشاطئ، ومنه إلى مناطقهم الجديدة. تحركوا بمراكب شراعية في الروافد العليا للنهر. تكسرت بعض الأغراض خلال الطريق، وجرحت أغراض أخرى وتبللت بمياه الأمطار. استشاط السكان غضبًا ولعنًا، لكنهم ظلوا متمسكين بعناد بتلك الأغراض التي أصبحت عديمة الفائدة حتى وصلوا إلى موقف الزوارق على النهر. وحشروا كل شيء في الحقائب والعلب ووضعوها على بعضها بعضًا. وفي نهاية المطاف، أبحر القارب ببطء، وأصدر إنذار التحرك نحو السد. كان هناك مرسى واسع، ومستودعات قبل عدة كيلو مترات من السد، ولكن كل هذا سيصبح مؤقتًا، فقد حُكم عليه بالتدمير السريع والفيضانات. تحرك القارب من الرصيف، متجهًا نحو المدينة، وسرعان ما ظهرت أمامهم عشرات ومئات من المدن والقرى والبلدان الأخرى، التي تم توزيع سكان "بولشاكوف" بها. فقد تم توزيعهم، وفقدوا قريتهم، واختفوا.
"بولشاكوف" قرية صغيرة، يبدو أنه من الممكن إعادة توطين السكان في مدن أخرى في غضون أسبوع. نعم، ذات مرة نُقل سكانها على المركبات، وأُرسلوا بعد ذلك عبر آلاف الكيلو مترات إلى هناك. لقد حدث ذلك بالفعل من قبل، ولكن الأمر الآن مختلف، يبدو أن كل شيء يتم الآن طبقًا للقانون،

مع مراعاة حقوق السكان، وبالتالي سارت هذه العملية ببطء بطريقة، أو بأخرى.

غادرت العائلات الأولى "بولشاكوف" في أواخر السبعينيات، عندما كانت محطة الطاقة قد بدأت للتو في البناء، لكن منازلهم لم تكن فارغة أبدًا؛ فقد ظل فيها أقاربهم. كما عاد بعض السكان المحليين؛ فلم يعتادوا أن يعيشوا في أرض غريبة، لكن القرية أصبح محكومًا عليها بالموت.

لقد هلكت القرى الصغيرة البعيدة عن المدينة، حتى تلك التي لم تكن في منطقة الفيضان، ولكن عندما شرع مركز الحي السابق في مغادرة السكان للقرى القديمة على طول النهر، أصبحت المنازل، والأكواخ، وكذلك العوارض في القرية خاوية في الشتاء. لقد أصبحت هذه القرى، "فرولوفو" و"بيرايامبا" و"بوروفوي" و"أرمال"، مصيرها الهلاك.

كانت أقرب قرية بها إسعاف، ومحلات على بعد عشرة أو عشرين أو ثلاثين كيلو مترًا، وأخرى تبعد مئتي كيلو متر، وأكثر. فانزعج الناس وغادروا. أصبحت القرى التي تتكون من هذه الأكواخ القليلة خالية من السكان. وتراكمت أشجار "التايجا" الرطبة الداكنة على الفور على قطع الأرض، التي كانت مقسمة في السابق، وغطت الأعشاب البرية الحدائق والساحات والشوارع، وكذلك أشجار الصنوبر، ووقعت قطع الأشجار المتهالكة على الأرض، واستقرت الطحالب على الكبائن الخشبية، وزحفت نباتات الأشنة فوق الأسقف. كما تساقطت الثلوج والرياح على الأسوار، وسقطت الأمطار على الألواح الخشبية المتكسرة، وظلت راكدة بها. وتجولت الثعالب في الغابات، وانتشر الدجاج في القرى أكثر فأكثر، وصنعت السناجب أعشاشها في الأماكن المرتفعة والأبراج، وتجوفت قلاع نقار الخشب. واستعادت الطبيعة أراضيها مرة أخرى.

دخل سكان القرى المهجورة المناطق الريفية، التي كانت بالنسبة لهم مراكز الحضارة، فقد انتقلوا بالفعل في وقت سابق، لأنهم قد سجلوا قبل انتهاء موعد التسجيل في قائمة الانتقال، واستقروا في تلك المناطق، أما أولئك الذين تأخروا في تسجيل أسمائهم، وكانوا يشككون في الأمر، تأخر أمر تسكينهم. وتوجهوا نحو المراكز الإقليمية، مثل "كانسك"، و"بوجوشاني"، و"ليسوسيبيرسك"، و"ينيسيسك". وهناك آخرون عاشوا في أكواخ مجهولة، مختبئين، ضائعين، فلم يكن لديهم خيار آخر يذهبون إليه.

كما كان هناك مهاجرون غير شرعيين في "بولشاكوف". استقروا في منازل ذات كهرباء منفصلة. وقد غرقت وتحطمت الحظائر والأسوار، وعلق الرجال لعدة أيام على النهر. وأصبحت الأسماك الطعام الرئيسي لهم. وقد حدث أنهم كانوا يطلبون بالدموع دلوًا من البطاطس، وعشرات من الخبز، بل وسرقوا أيضًا. كان من الصعب مشاهدة "التايجا" التي أصبحت آفة الآن.

لم يروا يومًا مشرقًا بعدما تخلوا عن وطنهم بإرادتهم الحرة، بل وتخلوا عن أنفسهم أيضًا رسميًّا.

نعم، كما أن أولئك المسجلين في القرى التي وقعت تحت الفيضان أصابتهم اللعنة أيضًا؛ لقد كتبت الوثائق بخطٍ غير واضح، وكان من الصعب قراءتها، وهناك أوراق دون توقيع، وبالتالي من الممكن أن تفقد منزلك أو الشقة المخصصة لك.

يبدو أنه كان من المستحيل العيش في هذا الطريق المسدود الذي سقطت فيه عائلات "ماسلياكوف" و"ستانيسلاف" و"أكولوف". من المستحيل التفكير حول ما سيحدث في كل يوم وكل دقيقة، لكن الأيام مرَّت، بل ومرَّت أسابيع وشهور.

كما هدأ الذعر من الانتقال في الخريف، وعاد الباقون إلى نظامهم المعتاد. واستعدوا لفصل الشتاء، وزرعوا البطاطس، وحصدوها، وقسموها إلى ثلاث فئات: للطعام، وللخنازير، وللبذور. كما قاموا بنشر الأخشاب، وجمعوا الكتل المفرومة منه، والأخشاب الجيدة أيضًا.

ظهرت شائعات من وقت لآخر بأن العمل في محطة الطاقة الكهرومائية قد توقف مرة أخرى، فإما أنه لم يكن هناك مال، أو هناك شيء ما آخر يتعلق بالأزمة المالية، أو أن المسؤولين عن البيئة قد تغلبوا على الأمر. قال الرجال المسنون بأمل: - ليتهم ينهون هذا الأمر سريعًا، لكنهم مع الأسف سيعودون مرة أخرى، ليتنا نموت بهدوء.

قال هؤلاء الشباب:

- كفى حديثًا عن الرغبة في الموت. عندكم كل الوقت للحياة في الرفاهية الحديثة.

- فليذهبوا إلى الجحيم برفاهياتهم الحديثة. إذا انتُزعت من أرضي، فأنا متأكد من أنني سأموت في الطريق.

- لا يجب إعادة زرع الشجر العجوز أصلًا!

- لا يمكن ذلك..

حل الصقيع الشديد في منتصف نوفمبر، جاء العديد من السكان المغادرين إلى "بولشاكوف". شقوا طريقهم عبر الثلوج حديثة الوجود إلى أكواخهم، وفتحت الأكواخ، وأشعلت المواقد.

ذهب "فيتالكا سينيتسين" إلى "مارينا" و"أستريلوف ديما". فهما تقريبًا في عمره، إنهما يشكلان عائلة صغيرة دون أطفال. وفي شهر سبتمبر، خصصوا لهم شقة منفصلة في منزل شبه منفصل في المدينة. يوجد في الطابق الأرضي شرفة، ومطبخ، أما الطابق الثاني يحتوي على غرفتين؛ غرفة نوم وغرفة أطفال مستقبلية. ولذلك وقَّعوا بسعادة على الوثائق، وأخذوا أمتعتهم في حقائب وصناديق. وقد ساعدهم "فيتالكا" على حملها.

ها هي عائلة "أستريلوف" تعود مرة أخرى إلى القرية.

قال لهم "فيتالكا":
- عظيم، لماذا جئتم إلى هنا؟ هل أخذوا منكم ذلك القصر أم ماذا؟
تمتم "ديما"، ولعنهم. ونهض من السرير للقاء الضيف، قائلًا:
- القصر.. تعال.. لا تخلع حذاءك.
كان الكوخ مظلمًا، وفي غضون شهرين أصبح غير مأهول بالسكان، بل أصبح غريبًا. أصبح ورق الحائط متآكلًا، وكأن الجدار عارٍ، مثل منزل قديم. وفي السابق، كان هناك سجاد على الأرض، ورفوفٌ معلقة، وخزانة للملابس، وخزانة جانبية. أما الآن أصبح كل شيء شبه فارغ. هناك فقط طاولة كبيرة في المطبخ، مصنوعة في المنزل، من أجزاء خشب سميكة. وفي الزاوية، يوجد سرير حديدي، وقد وُضعت عليه بدلًا من الفراش معاطف من الفراء والأوشحة. كانت "مارينا"، زوجة "ديما"، تجلس إلى الطاولة على كرسي، تنظر إلى الضيف وهي حزينة. هناك الكثير من خيوط العنكبوت المعلقة على السقف، ومصباح كهربائي، لكنه لا يعمل. صوت الخشب ينقر في الموقد، والنار تدق خلفه، وكأنها تشرح لنا ما يحدث في الحياة. بحث "فيتالكا" عن شيء ليجلس عليه: - لماذا تجلسون في تلك العتمة؟
لوح "ديما" بيديه نحو السرير.
- نعم، لقد تم قطع الأسلاك. حسنًا، على الأقل الكوخ سليم، وكذلك..
لم يتمكن "فيتالكا" أن يفهم لماذا أُجبرت عائلة "أستريلوف" على المجيء إلى هنا في هذا الطقس القارس، وتركا شقتهما الجديدة، فقاطعهما، وقال: - لماذا عدتما؟
قالت "مارينا":
- من المستحيل العيش هناك. إنه.. مثل الكابوس.
ثم بكت، وصمتت، واستدارت.
- إممم!
تابع "ديما" حديث زوجته، بدلًا منها:
- يبدو أن كل شيء على ما يرام. فالمنزل مبهج، والجيران نعرفهم. إنهم عائلة "زابورتسيف". هل تعرفهم؟
- الذين يعيشون مع "كوسوفو بيكا"؟
- نعم، هم..
ضحك "فيتالكا" بمرارة:
- أيهم؟ إنهم كثيرون. أم أنهم عاشوا في شقة واحدة كما يريدون منَّا، أم ماذا؟
- لا، إنه فقط "داني زابورتسيف" مع زوجته وابنه.
- آه! وكيف حالهم؟
صعقت "مارينا" من حديث "فيتالكا":

- ما علاقة عائلة "زابورتسيف" بذلك؟!
يبدو أنها كانت حريصة على إخبار "فيتالكا" بمغامرتهما السيئة، لكنها لم تتمكن من ذلك. تطرق الرجال إلى حديث مختلف تمامًا. قال "ديما": - حسنًا، لقد هربوا أيضًا.
ثم حدق نحو "فيتالكا" بعينين مستديرتين:
- سأروي لك ما حدث باختصار، عندما بلغت درجة الحرارة عشرة تحت الصفر، تجمد الطابق الأول، وأصبح لوحًا من الجليد. كنا نرتدي طوال اليوم خمسة جوارب من شدة الصقيع، وكأننا في الشارع. لم تكن هناك أرض جيدة تحت المنزل، فقد أخبرونا بذلك فور حدوث تلك الأزمة، وقد قمنا بالسب بطريقة أو بأخرى عندما علمنا بذلك. وسرعان ما صعدت إلى سطح المنزل، واتضح أن المنزل الخشبي قد بُني على أرض مائلة، وليست أرض مستوية. بالإضافة إلى ذلك، انكمشت تلك الألواح الخشبية، واقتلعت المسامير، وظهرت شقوق في المنزل.
قال "فيتالكا" متجهمًا:
- هل وضعوا سقالة رديئة؟
- هذا ما حدث، لا أعلم، أعتقد أنني بحاجة إلى شراء سجاد جديد الآن لتدفئتنا، وأسلاك كهربائية، وفي الربيع سأحاول أن أجد حلًّا. فمَن سيأتي في فصل الشتاء ويصلح شيئًا ما هنا؟
أخرج "ديما" سيجارة من العلبة، لكنه لم يشعلها، أخذ يدحرجها بين أصابعه:
- بدأ ورق الحائط يتساقط هنا. انظر، هناك ثقوب تحت ورق الحائط أيضًا. أعتقد أن هناك الكثير منها.
قالت "مارينا"، وهي متعبة:
- نعم، كل شيء هنا فظ! الباب ضعيف، لا يتحمل الحرارة، الإطارات الخشبية تترنح. لقد عرضوا علينا منزلًا منفصلًا، واندفعنا وراءهم، مثل مصاصي الدماء. والآن..
- حسنًا، باختصار، وبعد ما حدث، ذهبت إلى مكتب الإسكان أو أيًا ما كان اسمه، وأخبروني أن الشركة المنفذة للمشروع اسمها "فيستا"..
وضع "ديما" السيجار في فمه، والتقط ولاعة.
قالت "مارينا":
- اشرب سيجارتك بالقرب من الموقد. فالدخان يصيبني بالغثيان.
سأل "فيتالكا" بابتسامة ساخرة:
- ما الذي يزعجكِ؟ هل أصبح الأمر هكذا بعدما صرتِ من الحضر، أم ماذا؟
بدت التنهدات في صوت "مارينا" من جديد:
- لأنني حامل. وبعدما علمت بذلك، ساءت بنا الأمور.
حاول الزوج تهدئة روعها:

- كل شيء سيصبح على ما يرام، لا تقلقِي.
ذهب الزوج إلى الموقد، وجلس على كرسي صغير، وأشعل السيجار. وقف "فيتالكا" بجانبه.
- حسنًا، ذهبت إلى شركة "فيستا"، كان هناك رجل جالس. عندما رآني، ارتجف بالفعل. نظرت إليه، وأوضحت له بالتفصيل ما حدث، كتب العنوان والشكوى. وهكذا.. لم يكن الأمر سهلًا، ولكنه كالروتين، كما لو أنه تأتيهم مثل هذه الشكاوى كل يوم عشر مرات، فقد قال: "كل شيء واضح. سيأتي مندوب لك خلال أيام لإجراء فحص". فقلت له: "ماذا؟ ومتى سيأتي بالضبط؟". قال: "عندما يأتي دورك. تقريبًا شهر أو شهرين". "أي شهرين تتحدث عنهما؟! لا أستطيع أن أمكث هناك ليلتين. فالحرارة تحت الصفر". شعر الرجل بالحزن نحوي: "هذه المنازل تحت التأمين. وهي ملك للشركة المساهمة "بيفا". نحن نقدم لهم نتائج فحص المنازل، وهم ملزمون بتصليحها". كنتُ أستمع إليه، وسرعان ما غضبت بشدة: "أنا لا أعرف مَن أنت بحق الجحيم. فمن المستحيل العيش في هذا المنزل!". ثم صاح، وقال: "ماذا يمكنني أن أفعل؟ لديَّ أكثر من مئة شكوى مثلك. إذا أردت أن تُصعِّد الأمر، اذهب إلى المحكمة!".
قالت "مارينا":
- يجب أن نقدم طلبًا.
ألقى "ديما" السيجارة في الموقد:
- سأذهب صباح الغد. علينا أن نجد حلًّا. لقد وجدت الحطب معفنًا في الأسفل..
قاطعه "فيتالكا":
- حسنًا، هذه ليست بمشكلة، سنجلب الحطب غدًا للتدفئة.
- وماذا عن الكهرباء والنور؟ لقد وقَّع الحمقى أصحاب السكن على الوثائق.. اللعنة.. والآن نعيش في جحيم..
نهض "ديما" من المقعد، وعاد إلى الطاولة ببطء، كأنه شيخ مسن:
- المحكمة ستقول علينا أن نبحث عن محامٍ، وسندفع له، حتى يثبت حقوقنا.
تنهد "فيتالكا" قائلًا:
- من المحتمل أيضًا أن نُصعِّد الأمر للمحكمة. سنقدم لـ "كاتيا"، و"نيكيتا" في شقة أخرى.
حدقت "مارينا" فيه بنشاط:
- ماذا؟ لقد أصبحا بالفعل متزوجين.
- لكن عنوان منازلهما مختلفة. فكل منهم تم تسجيله بشكل منفصل لدى منزل والديه. فأنتما الاثنان من المفترض أنكما تعيشان في شقة أربعين مترًا.

ردت "مارينا" مؤكدة:
- اثنان وأربعون.
- نعم. وإذا كانت الأسرة كبيرة فكيف تعيش في ثمانية عشر مترًا فقط؟ سيتم حشرنا جميعًا في شقة واحدة، أنا والآباء والأخوة مع أسرهم. إنكم تعيشون، كما تقولون، في بيت منفصل. إليك شقة من أربع غرف لك، وأنت مبتهج بهذا. من المفترض أن يكون لدينا كوخان، وهذا لا يعنيهم. يقولون يجب أن نظل في شقة واحدة، وهذا كل شيء. إنه أمر مثير للاهتمام بشكل عام؛ لقد قرر الحقير الغني أن يبيع الكهرباء للصينيين، وعثر على المحطة تحت الإنشاء، وأخذها. أما نحن؟ سيجرفنا مثل القمامة في الزاوية. وعلينا أيضًا أن نشكر هؤلاء الأشخاص الذين أعطوا لنا شققًا. نعم، لقد كنت سأعيش هنا لمدة مئة عام في هذا القفص. على الرغم من أنه يمكنك الخروج في أي وقت هنا، لكن إلى أين، ولماذا؟ الغرباء في كل مكان، والأرض أصبحت غريبة.
صمت "فيتالكا"؛ لقد حاول في الأسابيع الأخيرة ألا يفكر في الأمر، لكنه رأى أن عائلة "ديما" - الذين بدوا على ما يُرام في المدينة وحسدهم الكثيرون - اضطروا إلى العودة، وقد أصابهم السخط والقلق والرغبة في الثأر مما حدث لهم. سأل: - ماذا، ربما نحن بحاجة إلى كأس من الشراب. لم أشعر برغبة في الشرب منذ دقيقة فقط، لكنني الآن أرغب في شرب الفودكا كثيرًا.
نظر "ديما" إلى زوجته، وعثر على الإجابة عن سؤال "فيتالكا" في عينيها الغاضبتين: - لا يا "فيتالكا"، لسنا بحاجة لذلك. سأذهب غدًا، من الضروري أن نحل تلك المشكلة. أشعر بالخجل من والديَّ، لقد حذرانا. ونحن الآن أشخاص بالغون. لا أستطيع أن أظهر نفسي أمامهم. وأيضًا لا يوجد لدينا الآن البطاطس، والأواني..
تحولت نظرة الغضب لدى "فيتالكا" إلى تعاطف معهما، وقد بدا عليهما أنهما كاللاجئين: - حسنًا، سأعطيك البطاطس، وهناك كرنب مملح وخيار أيضًا. أنا أتحدث بجدية الآن! هل نحن غرباء أم ماذا؟ ولدينا أطباق إضافية..
نظر "ديما" إلى "مارينا" مرة أخرى. قالت:
- لا تشربا!
- نعم، لقد قلت ذلك بالفعل.
- "فيتالكا" لا تشربا، حسنًا؟
- بالتأكيد، حسنًا، لست بحاجة إليها الآن. دعنا نذهب يا "ديما"، فالليل لم يحل بعد.
كان الشتاء غامضًا ومثيرًا للقلق. يحدث شيء ما في كل يوم تقريبًا، أو تومض شائعة أنه هناك شيء ما على وشك الحدوث، بالطبع شيء سيئ.

جاء المجرمون في "بولشاكوف"، في سيارة من طراز "جاز-66". قفزوا من الجزء الخلفي للسيارة المغطى بغطاء من البلاستيك، وشرعوا في التجول في الشوارع. طرقوا على الأبواب، لكي يعرفوا إذا كان السكان في الكوخ أم غادروا، وإذا تبين أن الكوخ فارغ حينها، يدمرونه. في أغلب الأحيان، يتدخل الجيران لكي يمنعوهم، ويتراجع المجرمون، وهم يهزون فؤوسهم، وأدواتهم الحادة. تم هدم العديد من الأكواخ على هذا الأساس، كان التفسير لكل ذلك: "تجنب الاستيطان غير القانوني".

ثم اتضح أن أصحاب الأكواخ إما غادروا لفترة من الوقت في المدينة، أو في مكان آخر، أو استأجروا مسكنًا لهم في مكان آخر يعملون فيه، وعندما عادوا إلى أكواخهم، التي أصبحت كومة من الخشب، سارعوا إلى تقديم الشكاوى، وسرعان ما تم إعطاؤهم شقق في "كولبينسك" أو في أي مكان آخر. في حين أنه تم حذف الآخرين من السجل، مثل الذين يعيشون وحدهم، أو يشربون، أو غير المتعلمين. وعندما يطالبون بحقهم، يقولون: - ليس هناك منزل لكم، وليس لديكم حق في توفير السكن لكم.

يجيب الفقراء بذعر:

- كيف ذلك؟! نحن مسجلون هنا، انظر في جواز السفر!

- من الممكن تزوير مثل هذه الطوابع! أين وثائق المنزل؟

- أين؟ لا ندري.. لقد بنى أجدادنا هذا البيت!

- وماذا في ذلك؟ إذن كنتم تعيشون في مكان ما، عندما - كما تزعمون - تم هدم منازلكم. إذًا لديكم مكان إقامة آخر.

يجيب أحدهم:

- نعم، كنت أعيش مع أخي في "كولبينسك"! فمن الصعب أن أعيش هنا في الشتاء.

يرد المسؤول:

- حسنًا، عد إلى أخيك. واشكُ إليه من السلطات المستعمرة من المدانين، الذين دمروا المنازل. نحن نعمل على أساس عقد مع الإدارة.

- أي إدارة؟

- الإدارة المعنية بإعداد الخزان. نحن من مستعمرة العقاب، ويجب علينا طبقًا للقانون أن ندعم أنفسنا، لذلك أبرمنا عقدًا لتطهير المناطق السكنية المهجورة.

- ولكن منزلي ليس مهجورًا.

- لا يوجد أشخاص بداخله، إذًا هذا يعني أنه مهجور.

ظل أهل "بولشاكوف" يلعنون ويسبون، ثم شرعوا في تقديم دعوى قضائية.

في الربيع، جاء "ألكسندر ماسلياكوف"، أخو "يوري" ورئيسه في العمل، إلى ورشة الخشب. وجاءت لجنة لتقييم تكلفة المعدات، لكنها بدأت بفحص

الوثائق، ووجدوا خطأ صغيرًا فيها. أصروا على أن هذه ورشة النجارة غير قانونية، وبالتالي أصبح من الواضح أنهم يتعين عليهم تدميرها بالقانون، وأيضًا لأنه لم يكن لديه بعض تصريحات العمل لبعض المعدات. ظلوا اليوم كله يتفحصون كل شيء، ثم صعدوا إلى السيارة. ثم سأل صاحب الورشة: - حسنًا، ما الذي ستفعلونه؟ هل ستدفعون لنا تعويضًا أو مساعدة في نقل هذه المعدات؟

- سنقرر.

- أوه، حسنًا..

تحركوا بالسيارة الثقيلة على طراز UAZ-Patriot "أوز-باتريوت"، التي كانت تتمايل في الحفر المبتلة، وغادروا بعيدًا. نظر "ألكسندر ماسلياكوف" إلى "يوري": - سننتظر قليلًا على ما يبدو. كيف الأحوال في العمل "يوري"؟

لوَّح بيده، وجلسوا على كومة من الخشب، وأشعلوا السجائر:

- نعم، الأمر ليس جليًّا أمامنا. إنهم صامتون، وأنا صامت. "تاتيانا" على حق.

شرع "ألكسندر" ينصح "يوري":

- هذا ما أنت عليه. أنت تصر على أن كوخك هو مكان للمعيشة، بل هو أكثر من ذلك.. ربما ستجتمعان على حد سواء.. هل كل شيء منفصل بينكما؟ يقولون إن الصعوبات تفعل المستحيلات.

- إممم، لقد تطلقنا بالفعل.

- ماذا؟!

- كانت مهتمة كثيرًا بمتجرها، الذي يقع بالقرب من المنطقة. وظلت تجمع كل كوبيك، وتخطط في غرفتها، لكي تستأجر محاميًا. لديها الآن متجر أكثر ثراءً من متجرنا، الذي أصبح هباءً الآن. هؤلاء المجرمون سعداء الآن. لا أستطيع رؤيتهم بعد الآن. كم عدد السنوات التي عشنا بجوارهم، وكان من المؤسف أنهم كانوا معنا، والآن أصبحوا وحوشًا؟!

ربت "ألكسندر" على كتف أخيه:

- حسنًا يا "يوري"، هدئ من روعك، هذا خطر عليك.

لكنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه على استعداد لأخذ الفؤوس والعصي التي تسحق أكواخ الجيران، وتحطيمها.

- على أي حال، يجب أن تصر على أنه ليس لديك كوخ، بل مبنى سكني بالكامل. ربما سيعطونك واحدًا لكم أنتم الثلاثة.

هز "يوري" رأسه:

- أها، سننتظر. ليتهم يعطوننا اثنين. فأنا و"تاتيانا" لسنا على وفاق دائمًا. والأمر نفسه مع "آندري".. فكلنا غرباء عن بعضنا بعضًا.

- حسنًا، لكنه ابنك.

- لقد كنا نعيش منفصلين لمدة عشر سنوات.. ولديه الآن عروسة.. ها ها ها.

مرر قطعة من الخشب في شعر رأسه:

- لا أعرف. دع الأمر يمر كما يشاء القدر.. ليتني أنام ولا أستيقظ بعد الآن مرة أخرى، سيكون هذا لطيفًا!

سخر "ألكسندر":

- لا تقل ذلك! سنعاني في تلك الحياة معًا حتى النهاية يا "يوري". من المثير للاهتمام أن نعرف إلى أين يأخذنا كل هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع
"تشيرنوشكا"

استيقظت "إيرينا فيكتوروفنا" كما لو أنها أفاقت من صدمة ما. صدمة هادئة، ولكنها قوية، جعلتها تقفز على الفور من الفراش، دون أن تتذكر ماذا يحدث الآن.

في السابق، كانت كعادتها تقفز من الفراش، عندما يوبخها ويضايقها زوجها. لم تكن تحب القفز من الفراش سريعًا، أو تركض هكذا مبكرًا، لكن تبين أن العادة أقوى من العقل. حتى عندما لم تعد لديها بقرة، أو عندما انفصل الأطفال، ولم يكونوا بحاجة إلى الاستيقاظ مبكرًا للدراسة، وعندما بدا أنه لا يوجد أي شيء يحتاج العجلة، استيقظت من هذه الغيبوبة المقلقة، وقفزت.

نعم، كانت في السابق تقفز بجسدها، وعيناها لا تزالان مغلقتين، وكانت تبحث عن حذائها، والآن، على الرغم من وعيها، فإن جسدها لم يتمكن من مواكبة ذلك. وأصبحت بطيئة وضعيفة. ولكنها كانت متذكرة بالفعل المطبخ، وأنها كانت تضع الغلاية على الموقد، وتخرج بالفعل إلى الفناء، بل وتخرج الدجاج من بيتهم، وكان جسدها يتحرك تدريجيًّا، حاوت الآن "إيرينا فيكتوروفنا" تدريجيًّا النهوض من وضعية الاستلقاء إلى الجلوس.

جلست، وأمسكت بحافة الفراش بيديها، وتنفست بصعوبة، كما لو أنها فعلت شيئًا صعبًا ومعقدًا. ثم وضعت قدميها في حذاء الفراء الدافئ. وفتحت جفنيها، ووجدت أمام عينيها نافذة. كان هناك ظلام قاتم تقريبًا.. إنه نهاية شهر سبتمبر، في الساعة السابعة. حان وقت نهوضها، فإذا استلقت مرة أخرى، واستسلمت، قد لا تتمكن من النهوض مرة أخرى.. فقد حان الوقت!

كانت "إيرينا فيكتوروفنا" طوال السنوات الماضية تتحرك بشكل روتيني وأساسي، حتى لا تصيبها الشيخوخة. لقد أفاقت من غيبوبتها بالفعل، ولم يهتم برعايتها أي شخص. فقد غادر الأبناء منذ وقت طويل، ويعودون إلى هنا كل صيف، ولكن لفترة وجيزة لزيارة والدتهم. وقد توفي الزوج قبل عشر سنوات. ولم تعد تربي الحيوانات، حتى الكلب "تريزور" الذي كانت تعتني به، هرب إلى صاحبه القديم ولم يعد، ولم تبحث عنه. وكانت الحظيرة التي تحتوي على أبقار وعجول وخنازير وأوز وأرانب قد أصبحت فارغة. ظلت ثماني دجاجات فقط. وبعدما تذكرت "إيرينا فيكتوروفنا" الدجاج، شعرت بطريقة ما بأنها تتذكر اليوم الأخير لها.

إنه اليوم الأخير في الكوخ، حيث عاشت فيه خمسة وسبعين عامًا، في القرية التي كانت كل عالمها. كل ما كانت تراه وتعرفه حتى الآن. وقد زارت المدينة لأول مرة قبل شهر، وعرضوا لها شقة منفصلة؛ غرفة واحدة، مع مرحاض وحمام منفصل ومطبخ؛ حيث يوجد موقد جديد، وبالوعة، وصنبور للماء الساخن والبارد. وتحتوي الغرفة على نافذة كبيرة.

لكن "إيرينا فيكتوروفنا" رأت كل هذا بشكل باهت، كما في الحلم. تتذكر موظفة الإسكان الاجتماعي، أو مَن يقودها إلى هنا. نظرت وقتها في النافذة إلى المنزل المجاور، الذي يحتوي على عشرات النوافذ، وألقت نظرة خاطفة أخرى إلى الشارع. هناك الكثير من السيارات، والناس مثل النمل. وقعت على بعض الأوراق، وسألت: - هل يمكنني العودة إلى المنزل الآن؟

قالت الفتاة، التي تعمل في مكتب الإسكان الاجتماعي بدهشة:

- ولكن هنا منزلكِ أيتها الجدة. كل شيء هنا جاهز ومريح. يمكنكِ النوم على الفراش ليلًا، وغدًا سيتم إحضار أغراضكِ.

- أنا بحاجة إلى الذهاب للمنزل. إلى القرية؛ حيث هناك الدجاج والبطاطس، وكل شيء.

كان هناك الكثير ممن رؤوا مساكنهم الجديدة، وأرادوا على الأرجح العودة إلى "وطنهم". وكانوا يذهبون إلى الرصيف، ويقفون على متن القوارب، يأملون في زراعة أراضيهم، ويقولون في طريق عودتهم: "سنزور قبورنا".

وفي الطريق، كان هناك سد خرساني ضخم رمادي اللون، يسد النهر.

بعد أسبوعين، وصل المسؤولون عن النقل، وشرعوا في إخراج الأشياء من الكوخ. على الرغم من أن "إيرينا فيكتوروفنا" كانت تستعد لهذه الخطوة لسنوات عديدة، فإنها لم تتمكن من جمع الأشياء المهمة. فالأواني الفخارية، والملابس، ومئات الأشياء الصغيرة المهمة في الحياة اليومية كالبطاطس، والجزر، والمخللات كانت في القبو.

صاح الشاب الذي يرتدي سُترة زرقاء جديدة، وحذاء بلاستيكيًا لامعًا، وهو يجري من فناء إلى فناء بصوت متألم:

- حسنًا، لقد طلب منكم من قبل الاستعداد للرحيل. إن وسائل المواصلات تنتظرنا. بهذه الطريقة نهدر أموالًا كثيرة!

كان ساكنو الساحات من النساء المسنات والشيوخ تقريبًا. كانوا مضطربين، ومضطرين أن يأخذوا كل شيء لديهم ضروري وغير ضروري في صناديق، ويدفعونها معًا في أكياس. وقد أخذ الحاملون المخللات، والمقاعد، والملابس وسألوا بغضبٍ: - هل سنحمل هذا؟ وهذا؟ وهذا أيضًا؟

أصبحت القرية فارغةً منذ زمن كبير. وفي عام ١٩٧٤، أعلن أنه سيتم بناء محطة طاقة في نهاية مجرى النهر، وسيتم بناء خزان هنا. ثم شرع شبان القرية مغادرتها. بدا أن "بيليفو" ستتدمر سريعًا. لقد كانت هناك بالفعل ثلاث محطات للطاقة على النهر، تم تشييدها على عجلة، وتمت إعادة

توطين القرى المحيطة بها بوتيرة سريعة أيضًا، مثل ما حدث تقريبًا في الحرب.

ولكن الأمر قد تبين بشكل مختلف مع هذه المحطة. فقد مرت سنوات، وتم تأجيل استكمال البناء، ولم يقوموا بإعادة توطين جميع السكان. وعلى العكس، في نهاية الثمانينيات، شرع المعلمون والأطباء والعاملون في الثقافة بالقدوم (بشكل رئيسي من آسيا الوسطى)؛ والعناية مرة أخرى بمزارع الدولة في المنطقة، لكن الشباب، كما كانوا من قبل، لم يظلوا في الريف، فبعد تخرجهم في المدرسة، ذهبوا إلى المدن.

وفي أوائل التسعينيات، توقف بناء محطات الطاقة الكهرومائية تمامًا. ولم يكن هناك أي حديث هنا لأكثر من عشر سنوات، وكان الناس يأملون بصمتٍ أنهم لن يكملوا بناءها أبدًا. إذا لم يكملوا بناءها، لن يتم توزيع السكان في كل مكان، ولن تتفكك القرية، وستعود الثروة السمكية إلى سابق عهدها من "يانسي"، وسيصبح كل شيء على ما يرام، ولكنهم شرعوا في استكمال محطة توليد الطاقة منذ سبع سنوات.

يبدو أن الموعد النهائي قد تحدد في الربيع قبل الماضي، تم الإعلان عن أن الأراضي لن تزرع، وعليهم أن يجمعوا محاصيلهم. وبحلول سبتمبر، ستختفي القرى من الوجود. شرعوا سريعًا بإعطاء شقق للمواطنين في المدينة أو ما يقرب منها. وجاء المواطنون من موطنهم. وبعد ذلك صمدت القرى المنكوبة لمدة عام ونصف العام. حتى المدارس كانت تعمل. أما في "بيليفو"، فعلى الرغم من أن معظم المنازل كانت فارغة، فإنها لم تدمر، ولم تتعرض للسرقة. وبشكل عام حافظوا على النظام، وتفاءلوا خيرًا لآخر لحظة.

وفي أواخر شهر أغسطس، بدا الأمر صارمًا، وكأنه مرسوم: "على الجميع ترك القرية. سيتم تطهير القرية في الخريف. لقد ارتفع منسوب المياه بالفعل، وقد انتهى الأمر!".

رست العبَّارة في ٢٥ أغسطس، وشرعت في نقل السكان المحليين. وحملت الأشياء المتبقية الصالحة للأكل. كان الجميع يعرف إلى أي مكان سيذهبون، إما في مدينة "كولبينسك"، أو مركز حي جديد في "ليسوسيبيرسك"، أو "كانسك"، أو "بوجوشاني"، أو"نازاروف"، أو "أباكان"، أو"سايانوجورسك". تنتظرهم شققهم التي تم تجهيزها بالفعل بالأثاث المصدَّر، لكنهم ذهبوا إلى هناك كمنفى دائم. بكوا كثيرًا على أكواخهم الخشبية، والأسوار، وأغلقوا الأبواب، آملين أنه في اللحظة الأخيرة كل شيء سيلغى، وسيعودون.

حملت العبَّارة السكان، ووقف ثلاثمئة شخص على متنها، ينظرون إلى قريتهم، وتحركت العبَّارة ببطء من الرصيف. أولئك الذين بقوا على الشاطئ يلوحون لهم، وعلى متن العبارة كان الجميع تقريبًا بلا حراك؛ لم يكن هناك

ما يكفي من القوة، والشجاعة لرفع أيديهم. وقفوا متحجرين. لم يكن هناك سوى تنهيدات، ورثاء من العديد من النساء، مثل الانتحاب، والصراخ، عالقين فوق النهر، ونفوسهم ممزقة.

وعندما وصلت العبَّارة إلى وسط النهر، زودت سرعتها، وشرعت في التحرك بعيدًا. الآن لا يمكنك تمييز الوجوه الواقفة على سطح العبَّارة، ولا يمكنك سماع هذا العواء. فقد انعطفت في النهر، واختفت.

تولى بعد ذلك مسألة إعادة التوطين أكثر الناس عنادًا، ألا وهن النساء المسنات. كان الأمر عنوة، ولكن بالتأكيد ما زال بإمكانهم العودة، فهم سينقلونهم إلى المدينة، لكي يعرضوا عليهم الشقق، وسيجعلونهم يوقعون على الوثائق والمستندات. عاد السكان مرة أخرى إلى القرية وأمروهم: "استعدوا، بعد أسبوعين سنأتي لنقل أمتعتكم".

أرسلوهم، وقالوا لهم كيف سيتم التعامل بينهم، وكيف سيقطنون في الشقق الجديدة. لم تعر "إيرينا فيكتوروفنا" وآخرون اهتمامهم بشكل خاص لهذا الحديث. فهم لم يتخيلوا حياتهم هنا. هنا الظلام الأسود.

لقد عرض الأولاد، والأحفاد الكبار بالفعل على "إيرينا فيكتوروفنا" منذ فترة أن يأخذوها، لكي تعيش معهم، أو يساعدوها في النقل. لكنها قالت بشجاعة: "يمكنني التعامل مع الأمر". وكانت تحاول في كل زيارة منهم إلى القرية أن تترك لهم ذكرى أسرية في عقولهم. كانت تهديهم آلة الحياكة، التي كانت جدتها تحيك عليها، أو طقم أطباق قديم، أو مغرفة نحاسية للمربى المطبوخة، أو لوحات فنية وصور. ربما رماها الأطفال والأحفاد مثل القمامة، لكن "إيرينا فيكتوروفنا" أرادت أن تصدق أن الآلة، واللوحات، والمغرفة، وإبر الحياكة، والبطانيات الصوفية من الإبل، والصناديق المنقوشة، والأقداح المصنوعة من الخزف الصيني، ستظل إلى الأبد.

ظلت "إيرينا" أسبوعين آخرين بعد نقل أمتعتها في هذا الكوخ الضخم الفارغ. لم يكن فارغًا تمامًا، لقد تركت الكثير من الأشياء هناك. هل وضعت كل شيء في غرفة واحدة؟ ظل هناك الكثير من الأشياء، ولكن لم يعد هناك راحة في المكان. وبدا الكوخ وكأنه غاضب من مالكه. وكأن الأبواب تصرخ. وقد ابتلت الإطارات الخشبية للأبواب بطريقة ما، ولذلك أصبحت تُفتح وتغلق بصعوبة، وقد سقطت فجأة قطعة كبيرة من الجص في الموقد، وكشفت الطوب الأحمر الداكن، وشرعت اللوحة الخشبية الأرضية في الانحناء بحيث إنك تخشى من أن تخطو عليها. وسرعان ما شرع غزو قمل الخشب، وحشرات ثنائيات الذنب، والعنكبوت. كان الأمر كما لو أنهم توقعوا النهاية الوشيكة وصعدوا إلى المكان، الذي ما زال يعيش فيه الإنسان.

إن الكوخ قديم، ولكنه متين منذ قرون. يقولون إن الجد الأكبر لـ"إيرينا فيكتوروفنا" هو مَن بناه وقد قطنه أبناؤه منذ أكثر من مئة عام. وما زلنا نبدي اهتمامنا حتى الآن بأخشابه الضخمة، وعندما تتخيل كيف تم سحبها من

هناك من "التايجا" دون استخدام أي جرارات، وكيف صُنفرت، ونُشرت بالمنشار اليدوي، وكيف تدحرجت بعضها بعضًا، ستتعجب من أن هناك الكثير من الناس أبطال، بل وعمالقة من نوع خاص.

في منتصف الخمسينيات، تم تفكيك البيوت الخشبية، وتم تأسيس الكوخ بخرسانة مرتفعة جديدة، واستبدال ثلاثة أو أربعة قطع خشب فاسدة، وتم توسيع النوافذ في المنزل. وغُطي سقف المنزل بالألواح الخشبية بدلًا من الأحجار، ووُضعت طبقة من الجص على الجدران.

تذكرت "إيرينا فيكتوروفنا" كيف أخذوا الألواح الخشبية، التي أخذتها من شقيقهم، وربطوها بجذوع أشجار القرنفل. لقد مرت عدة أيام على هذا الأمر، وأخذت قطع صغيرة من هذه الألواح لها، ثم غطوا هذه الألواح بالطين. وعندما أصبحت جافة، تحجرت، وقاموا بتبييضها ثلاث طبقات، حتى غطاها جير رمادي اللون.

لقد أحضرت زوجها إلى هنا، وانتقلوا للعيش في غرفة منفصلة بها مخرج منفصل إلى الفناء. هنا ولدت أطفالها الخمسة، وتُوفيت ابنتها، "ليدوشكا"، وُوضعت في تابوت. ومن هنا، غادرت البنات والأبناء الكبار إلى المدينة. ومات والداها هنا، ثم أخوها، وزوجة أخيها، ثم زوجها. هنا عاشت وحدها، والأخيرة من أسرتها. ويبدو أيضًا أنها ستعيش بعد دمار هذا الكوخ الذي سيحرقونه بعد يومين أو ثلاثة. سيقترب رجل غريب، ويرش على الزاوية بنزينًا ويلقي عود كبريت. لن يدخن الرجل سيجارة، ليس هناك وقت لتدخين السجائر عند كل كوخ يحرق. سيقترب، وهو مقتنع بأنه يباشر عمله، ثم يذهب إلى التالي.

كانت "إيرينا فيكتوروفنا" تنام في غرفة صغيرة قريبة إلى المطبخ. وكان الجدار الأيسر هو الجزء الخلفي من الموقد، لذلك ظل دافئًا لفترة طويلة. نادرًا ما كانت تذهب إلى الغرفتين الأخريين؛ فلم يكن هناك شيء ما لتفعله. وكان من المؤلم لها أن ترى هاتين الغرفتين فارغتين، دون هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون بها. وفي الصقيع، أغلقت "إيرينا فيكتوروفنا" الممر الذي يؤدي إلى هاتين الغرفتين بالبطانيات تمامًا، لكي تحافظ على الدفء في أرجاء المكان؛ فلم تقم بتسخين الموقد منذ سنوات عديدة.

ولكنها بحاجة اليوم إلى تفقد كل شيء في الكوخ، والتحقق عما ستأخذه معها. وتذكرت أنها قد أغفلت فجأة عن أشياء مهمة لم تأخذها معها، لكنها فكرت بأنه ليس هناك مكان كافٍ لهم. وستحاول أن تبحث عن مكان في الحقائب بعد الظهيرة. أما الآن فهي بحاجة إلى قسطٍ من الراحة. ارتدت "إيرينا فيكتوروفنا" جوارب صوفية، وسترة، ووضعت وشاحًا على رأسها، وأخفت شعرها به. ثم ذهبت بعد ذلك إلى المطبخ.

كان المطبخ واسعًا، والعائلة تقضي يومها بأكمله هنا، ويذهبون إلى الغرف للنوم فقط. بالإضافة إلى أنه كانت هناك طاولة طعام طويلة بطول الحائط،

وخلفها نافذتان على الشارع. ويوجد سبعة وعشرون كرسيًا حول الطاولة، وبوفيه جميل في الزاوية، مطلي بطلاء أبيض اللون، يوضع به الأطباق، والأدوية، والكثير من الأشياء الأخرى. أما الأشياء الصغيرة، مثل الإبر، والأزرار، والميداليات، والأقمشة الجلدية، والبرطمانات الزجاجية، والصناديق المزخرفة فكانوا يضعونها في الأدراج. وقد أحب الأطفال اللعب بهذه الصناديق، وكأنها صندوق الدنيا.

أرادت "إيرينا فيكتوروفنا" أن تأخذ البوفيه معها إلى المنزل الجديد، لكن العاملين في النقل قد قاموا بقياسه، وقالوا إنه لن يدخل من باب الشقة، ثم اقترحوا: - من الممكن تفكيكه، وتركيبه بعد ذلك، ولكنه سيتكسر في تلك اللحظة. إنه متهالك جدًا..

ولذلك قررت ترك البوفيه، ومن ثم تركته في الكوخ.

كان هناك حوض خلف الموقد، وبجانبه طاولة طهي، وطرقة. هناك لطخات من الطعام لا تمحى على الطاولة، وغلاية على البلاط. من الصعب تسخين الطعام على الموقد إذا لم يكن هناك حطب. وفي الغالب، كانت "إيرينا فيكتوروفنا" تعد الطعام المسلوق على الموقد المسطح.

بينما كانت المياه تغلي لإعداد الشاي، قررت "إيرينا" الذهاب إلى الفناء، للاطمئنان على الدجاج، قائلة:

- أوه، الدجاج!

ارتدت "إيرينا" سترة واسعة وخفيفة، قد أهدتها لها حفيدتها "ليرا"، وفوقها قميص ثقيل، ثم وضعت قدمها في حذاء "بوت" طويل. بينما كانت تدفع الباب، كانت تدندن بحزن. وعندما خرجت من المنزل، اصطدم وجهها بنسمات باردة من الهواء، ولكنها سرعان ما اعتادت على هذا، وقد أدركت أن درجة الحرارة حينها لن تقل عن الصفر، فإذا حدث ذلك، ستقضي على الأخضر واليابس.

مرت "إيرينا فيكتوروفنا" عبر الفناء المسيج، ونظرت إلى اليسار، حيث كان هناك مقعد، وفوقه صندوق، تذكرت أنه سيتعين عليها تفقده أيضًا، بالتأكيد ستجد هناك شيئًا ما مهم وضروري لكي تأخذه معها.

ذهبت "إيرينا" إلى الشرفة. بناها زوجها قبل ثلاثين عامًا. هنا قد نشأ الأطفال، ولعبوا وترعرعوا، ثم قالت متذكرة هذا الموقف: - هنا كنا نشرب الشاي مع الحلوى، وننتظر الأولاد..

كانت هناك نافذة كبيرة، تتكون من عوارض خشبية صغيرة الحجم، وكأنها لوحة فنية محاطة بإطار. وهناك طاولة بيضاوية الشكل، وأريكة ضخمة من ألواح خشبية كبيرة مصنوعة في المنزل، وخزانتان معلقتان. لكنها لن تشرب الشاي هنا مجددًا. فقد كان الأثاث متهالكًا من المناخ والصقيع، يبدو أنه ليس من الضروري أن تأخذه معها.

وقفت "إيرينا" عند الشرفة، والدجاج أمامها عند النافذة، وتذكرت في تلك اللحظة الصيف ووقت المساء، ورائحة الشاي، وأنها في الماضي لم تكن على عجلة من أمرها، لكي تذهب إلى أي مكان آخر، وبالتالي كانت تجلس على الأريكة، وتفكر في شيء ما جيد.

كان الباب الخشبي، الذي يصل الشرفة بالفناء، متهالكًا، فلم يمنع دخول الهواء أو اللصوص. أما الفناء فقد كان ضيقًا، ليس به ساحة، ربما يشبه الممرات التي توجد في المباني. وهناك مطبخ صيفي قد تحول منذ فترة كبيرة إلى مرحاض عام. وقد احتفظ هذا الممر، الذي يُطلق عليه فناء، في الصيف بدرجة الحرارة، وأصبح مثل الحديقة، أما في فصل الشتاء كان مكتظًا للغاية. فيمكنك من خلاله أن تصل ببضع خطوات إلى الماشية بسهولة، وتهرع بعد ذلك من هناك إلى السقيفة الخشبية، وتمسك بيد باب الفناء، حتى تشعر بالدفء. كان المرحاض يبعد عن الفناء بعشرين خطوة تقريبًا، ولذلك فلم يكن هناك وقت للشعور بالبرد. وهناك أيضًا الكثير من المراحيض بعيدة عن الكوخ، تقع تلك المراحيض على حافة الحديقة، أو على ضفاف النهر، لكن الوصول إليها أصبح أمرًا صعبًا للغاية على كبار السن؛ فستموت قبل أن تصل إلى بيت راحتك!

عندما يحل الطقس البارد، كانت "إيرينا فيكتوروفنا" تقضي حاجتها ليلًا في دلوٍ خاص؛ فقد اشترت منذ فترة دلوًا؛ مقعدًا مرتفعًا من البلاستيك من المتجر. وفي الصباح كانت تأخذ هذا الدلو وتذهب به إلى المرحاض. وفي طريق عودتها، تلقي نظرة على الدجاج.

كانت "إيرينا" ترغب اليوم بإخراج الدجاج إلى الفناء الخلفي كعادتها، حتى يلعب على الأرض ونشارة الخشب. ففتحت الباب على مصراعيه، ثم تذكرت قائلة: - إنه اليوم الأخير لي هنا! بل وللدجاج أيضًا. هيا أيها الدجاج. هش، هش!

تمتم الدجاج مطيعًا لأمرها، كما لو أنه يفهم. أما الديك لم يكن موجودًا، فقد مات منذ عامين، ربما كان الدجاج ينتظر إعادة التوطين أيضًا مثل "إيرينا".

أضاءت "إيرينا" مصباحًا، وأسكبت من القارورة طعامهم. ثم نظرت إلى الوعاء، وجدت به ماء. قالت للدجاج:

- امكثوا هنا، ولا تتجولوا في الشارع!

أجابها الدجاج بتواضع:

- كو كو كو.

شرع بعد ذلك في النقر. كانت الدجاجات حمراء بل وسمينات، ومن أم واحدة، عدا الدجاجة "تشيرنوشكا"، فقد كانت أصغرهم حجمًا، ونحيفة ذات لون أسود ورمادي، وقد بلغ عمر الدجاج ثلاثة أعوام، أما "تشيرنوشكا" فكانت ذات عشرة أعوام.

قبل عشرة أعوام، اشترت "إيرينا" أربع عشرة دجاجة، وديكًا كبير الحجم، ذا عرف ضخم. أصيبت ذات مرة إحدى الدجاجات بمرض الطاعون، ثم تفشى المرض للباقية، وظلت تضرب الأرض بأجنحتها، ومات الجميع، عدا فرخة واحدة.

وبالرغم من صغر حجم هذه الدجاجة، أطلقت "إيرينا فيكتوروفنا" عليها لقب الدجاجة "تشيرنوشكا".

أما الدجاجات الأخريات فقد عاشت عمرها مجهولات، دون اسم، وسواسية. الغالبية من الدجاج لدى الآخرين يبيض بيضًا فاسدًا. الأمر الذي جعل الناس يذبحونه.

أما الدجاجة "تشيرنوشكا"، فكانت هادئة ومن السهل ترويضها، بل وظلت مع السيدة "إيرينا" مثل الكلب، وتغني لها "إيرينا" أغاني الدجاج، ومن المدهش أن "تشيرنوشكا" شرعت تبيض بيضتين في اليوم. في السابق، عرفت "إيرينا فيكتوروفنا" عن مثل هذه الحالات من الناس، لكنها لم تصدقهم، فهي تعلم أن الناس يحبون أن يزايدوا في كل شيء، حتى لو كان كذبًا، حتى رأت بنفسها؛ فقد ألقت نظرة ذات مرة صباحًا في العُش، وعثرت على بيضة، ثم نظرت في المساء وجدت الأخرى. قالت "إيرينا فيكتوروفنا" وقتها: - شكرًا لكِ يا "تشيرنوشكا" على مساعدتكِ لي يا عزيزتي.

وفي خريف هذا العام، اشترت دجاجًا جديدًا وديكًا، وأصبح من المؤسف أن ترقد "تشيرنوشكا".

هكذا عاشت "تشيرنوشكا"، بعد أن نجت من عدة أجيال. وقد قررت "إيرينا" ألا تذبحها، وقالت:

- دع الموت يأتي إليها في وقته!

كانت "إيرينا" تنظر إليها في كل صباح، وهي تشعر بغصة في قلبها:

- ها هي حية، ترزق!

أما اليوم جاءت "تشيرنوشكا" عند قدم "إيرينا"، وظلت تنقنق، كما لو أنها تطلب منها أن تأخذها معها. وكانت "إيرينا" بالفعل على وشك أن تفعل ذلك. ولكن ماذا ستفعل معها؟ وفكرت في أن تضع السكين على رقبتها، وتنتف ريشها، وتخرج أحشاءها. لكنها لم تتمكن من أن ترفع يديها عليها. ولكن أين ستضعها؟ سيكون من الأفضل لو أنها تموت هنا، وتدفن في الحديقة، هكذا ينتهي بها الأمر.

توجهت "إيرينا" في عجلة من أمرها إلى الكوخ، دون مواكبة جسدها للأفكار التي تدور في ذهنها، ربما لأن إبريق الشاي كان يغلي، ويغلي. فهي بحاجة إلى أن تسكب الماء في الكوب، وتشرب الشاي. شرعت تصعد وهي تمسك السور في كل خطوة لها، إلى الشرفة. وتذكرت أنها لم تلتفت من قبل إلى السلالم، أما الآن تنظر إليها بعناية. لقد كانت مذهلة، ولكن السور ضعيف، فإذا انهار، لن تتمكن من الصعود والنزول مرة أخرى.

كان الماء يغلي بالطبع. ويخرج بخار كثيف من الغلاية، وتصفر بصوت عالٍ. وصلت "إيرينا"، وأوقفت الغلاية، ومسكت بيديها الغطاء، ووضعت الشاي الساخن في الكوب. ثم جلست على كرسي بجانب الخزانة الجانبية، وهي تشعر بالتعب.

لم تفعل أي شيء بعد، فهي مرهقة الآن. وتذكرت أن هناك الكثير يجب القيام به في المساء، لأن العبَّارة ستأتي غدًا في الساعة الثامنة.

شربت "إيرينا" بعد ذلك الشاي المُحلى، وأغمست فيه الكعك الذي خبزته من قبل. فقد علمت أن في الأيام الأخيرة لن يكون هناك خبز، فقد تم إغلاق المخبز، وفُككت معداته. ولذلك كان من الجيد على الأقل أن تخبز الكعك، لأن الكهرباء ما زالت تعمل. وقد قال رئيس مجلس القرية "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" بحزم: "إن الكهرباء والإسعاف سيكونان متوفرين حتى آخر يوم للسكان في القرية". وهو رجل يحافظ على كلمته. تذكرت "إيرينا" في تلك اللحظة أنها ستكون بحاجة إلى الماء المغلي في الشقة الجديدة، وعليها أن تأخذ الغلاية معها.

أخذت الغلاية وذهبت إلى البئر، ووضعت الماء في دلوين من البلاستيك. ثم وضعت الماء في الغلاية الألومنيوم تلك، ووضعتها مرة أخرى على الموقد. بينما كان الماء يغلي، قررت "إيرينا" أن تتفقد غرف النوم.

لم يكن هناك أبواب للغرف داخل الكوخ. فلم يخطر ببال أحد أبدًا في السابق أن يغلق الباب على نفسه عن بقية أسرته. وعندما كان يتعارك الأبناء مع آبائهم، كانوا يدفعون خزانة الملابس لكي تفصل الغرفة عن الكوخ بأكمله، ويبدؤوا في العيش بشكل منفصل، ويضعون كذلك الستائر بين بعضهم بعضًا، وهذا كل شيء، لكن هذا نادرًا ما يحدث. أما العاشقون كانوا يداعبون بعضهم بعضًا في الليل همسًا، لكي لا يوقظوا الشيوخ والأطفال. ونادرًا ما كانوا يعبرون عن مشاعرهم الخاصة، فهذا يحدث فقط عندما يصبحون وحدهم. ولكن أين يوجد المكان الذي يحتوي على بعض من الخصوصية؟ في الحمام، ربما، في الغابة.. بالطبع، لقد عاشوا في خجلٍ، وبقيودٍ، وعندما يتزوج العرسان، كانوا يعيشون مع الأقارب، وبالتالي لم يحصلوا أيضًا على حريتهم.

وإذا لم تهدد القرية لمدة ثلاثين عامًا بالفيضانات السريعة، ربما كان الأطفال بعد تخرجهم من مدارسهم التقنية والمعاهد سيعودون إلى هنا. يستقرون، ويتزوجون بل ويبنون. أما الآن يقول المسؤولون: "قريبًا سنهدم القرية وسنبني خزانًا وسيقطنوا مكانًا آخر". لقد هربوا وخدعوهم.

قامت "إيرينا فيتكوروفنا" بتفقد الغرف بعناية، وبحثت في أدراج الخزائن المتبقية مرة أخرى. كان كل شيء هناك ذو قيمة، تتمنى أن تأخذ كل شيء معها، وتضعه في مكان آمن.

توقفت أمام مرآة قديمة قاتمة متكئة على الحائط، ذي إطار أسود، ومتهالك، بل ومتصدع..

في بداية الصيف، جاء عمال المتحف إلى القرية، وساروا حول الفناء، وسألوا عن أشياء مختلفة من الماضي، وقالوا:

- نحن مهتمون بالأواني والحرف اليدوية، وعجلات الغزل. وقد وعد المتحف بأن هناك أماكن سيتم تخصيصها لتاريخ المنطقة والقرى المهددة بالانقراض.

أعطتهم "إيرينا فيكتوروفنا" أداة صغيرة قديمة ووعاء خبز، قد عثرت عليهما مؤخرًا لديها في الخزانة. وعرضت عليهم الكوخ، وقالت: - لقد بُني منذ مئة عام.

هز عمال المتاحف رؤوسهم بحزن:

- سنكون سعداء إذا أخذنا هذا الكوخ، ولكن لا توجد وسيلة لدينا لنقل هذه القطع الكبيرة. نحن نكافح من أجل الحصول على جدران الكنيسة في "كوتاي"؛ الكنيسة الحجرية الوحيدة، ولكن لا يوجد مال للنقل. لكن شكرًا على هذه الأداة الصغيرة. إن العلامة التجارية، التي كانت مطبوعة عليها مثيرة للاهتمام. وبالنسبة لوعاء الخبز، إنه قديم أيضًا.

والآن تشعر بالأسف، كادت تبكي لأنها لم تُعطهم المرآة أيضًا، وكذلك الصندوق الذي انتقلت به جدتها إلى زوجها. وكانت الأفكار والذكريات تحاوطها من كل مكان، ثم لوحت "إيرينا فيكتوروفنا" بيدها وعادت إلى المطبخ. كان الموقد ساخنًا. غطت وجهها، ورفعت غطاء الغلاية، ولمست الماء، كان ساخنًا، ولكنها بحاجة إلى أن يكون مغليًا. وقامت بإلقاء الحطب.

أوه، من الخطر البقاء هنا لفترة طويلة، كما هو الحال في الحمام. كانت تشعر بالعرق. فارتدت سترة وحذاء آخر. وقد أصبح الهواء أكثر دفئًا بشكل ملحوظ. كانت السماء صافية، والشمس تتسلل إلى الأسفل وتقترب إلى الأفق، يحدث هذا كل عام حتى نهاية شهر ديسمبر، ثم تشرق مرة أخرى. ولكن حتى اليوم، على ما يبدو، أنها سترتفع أعلى، ربما سيكون الهواء لطيفًا، فالوقت يمضي سريعًا، وهي تجلس في الكوخ. سينفجر قلبها من كل هذه الأفكار المريرة.

ذهبت إلى الحديقة. لم تكن تعرف لماذا. لقد كانت تقضي الصيف كله كعادتها هناك، وتزيل الحشائش، وتنظفها، وتراقب حبات الطماطم، وتزرع البطاطس، ثم تحصد المحاصيل. أما الآن تمر فقط بساقيها دون أن تفعل شيئًا.

كانت هناك فوضى عارمة في الحديقة. وقد ذبلت أزهار عباد الشمس، وتحول لون الطماطم إلى الأسود وفسدت، وتناثرت حبات البطاطس حول الحقل. أصبحت الحديقة مزرية للغاية. تمنت "إيرينا فيكتوروفنا" الآن لو أنها تجمع القمامة، وتنظف الأرض، وتخرج حبات الطماطم الفاسدة، وتزرع

للعام المقبل. ولكن لن يكون هناك عام مقبل، حتى أنها لن ترى الثلج هنا مرة أخرى، وقالت: - حسنًا، هذا كل شيء، لقد اقترب الربيع.

لم يقترب الربيع بعد، لم يقترب أي شيء حتى الآن. حاولت أن تقنع نفسها بأن هذه الحديقة لم تعد ملكها، وأن الأمر أصبح ليس له أهمية بالنسبة لها، ولكن يديها كانتا ترغبان في أن تجمع القمامة، وتنظف الحديقة، لكنها سرعان ما تذكرت أن الأمر لن يحدث فرقًا. وسيتم التخلص من الحطام القديمة للكوخ بعد يوم أو يومين، ولن تزرع الحديقة تلك الحبات الصغيرة حلوة المذاق من الجزر أو البطاطس أو الطماطم أو البطيخ. وستنمو في الأرض الحشائش الضارة، وسيحل الفيضان، وتغرق الحديقة بأكملها.

عثرت "إيرينا فيكتوروفنا" على قطعة خشب، فجلست عليها. ونظرت حولها ووجدت صوبات زراعية، وقطع أرض، وقررت أن تقطف من الكرنب، والكوسة، والتي من الممكن بعد أن تأخذ قسطها من الراحة أن تتناولها. لكنها الآن لم تسترح بعد، ولم تتمكن من الوقوف. ودارت الذكريات الحلوة والمرة في ذهنها.

تذكرت "إيرينا" الحشائش الضارة. كم عام قضته في إزالة الحشائش الضارة! فإذا قمت بإضافة الساعات إلى الأيام، والأيام إلى شهور، ستحصل على أعوام. وكانت تفعل ذلك في بداية كل شهر يونيو حتى سبتمبر. أخذت بأطراف أصابعها جزرة ما زالت صالحة، فالجزر دائمًا ما يزرع على عجل من أمره. وتذكرت أنها كانت تحرث هنا البازلاء، والخيار، والثوم، والفاصوليا، والطماطم.

وفي طفولتها، هربت "إيرينا فيكتوروفنا" من رتابة الحياة، وكانت تبتكر قصصًا مختلفة. غالبًا ما كانت تتخيل نفسها مالكة للغابة، التي كانت بحاجة إلى تنظيفها من الأشجار الضارة وغير النافعة. وكانت تطهر الحديقة بنفسها. وتسمي الحيوانات بـ"موراشي" و"بوكار"، أما البعوض والبراغيث فكانت تلقبها بـ"الطيور". وفي بعض الأحيان، كانت أفكارها مشتتة، وتفكر في أشياء أخرى مثل الجبال والحشائش الضارة.

وعندما كبرت، لم تساعدها تخيلاتها في أي شيء. في البداية، كانت ترغب في الركض إلى الخارج، لكي تلعب، وتدردش مع صديقاتها، وسرعان ما شرعت تفكر في الرجال، ثم أصبحت مهتمة كثيرًا بالحديقة. وبينما كانت هي هنا خلف السياج، كان الجميع مشغولين بالأفلام.

لم تحب "إيرينا فيكتوروفنا" منذ الصغر الأفلام التي تتحدث عن القرية. كل شيء هناك رتيب، ولا يحدث شيء جديد. وأبطال هذه الأفلام لديهم الكثير من وقت الفراغ، ولم يتمكنوا من الإيمان بصدق حياتهم. وما هي حياتهم حقًا؟ ماذا رأت "إيرينا فيكتوروفنا" في حياتها وحياة عائلتها وجيرانها؟ لم ترَ سوى عمل رتيب، يأخذ جميع أوقاتهم ويذهبون للعمل من الصباح الباكر حتى الظلام.

وقد تقدم إليها "ميخائيل فيرخوتوروف"، الذي عاد من الجيش، دون أن يغازلها. وهو شاب يكبرها بسنتين، ووافقت عليه. كان لدى "ميخائيل" العديد من الإخوة والأخوات، ولكي لا يكونوا عبئًا عليهم في المنزل نفسه، حصل على وظيفة مع والديها. وبعد بضعة أشهر من الزفاف، أصبحت "إيرينا فيكتوروفنا" في انتظار أن تنجب طفلًا. وقد تغير كل شيء، فلم تتمكن "إيرينا" أن تطهر الحديقة من الحشائش الضارة، وظلت الحشائش كما هي. وبغض النظر عن كيفية تمزيقها أو اقتلاعها، فقد نبت التوت أيضًا، وكذلك عشب القمح، وزهرة نبات "التِفاف" في المكان نفسه، الذي كانت تنمو فيه قبل عامين أو ثلاثة. وقاموا بتنظيف الحديقة وحرق الحشائش الضارة مع البذور في الخريف، وفي الربيع يبدأ كل شيء من جديد.

كم من السنوات التي استغرقتها هذه المعركة، وكم من الجهد المبذول في زراعة العشرين فدانًا، وكم طن من السماد الذي استخدم في هذه الأرض، لكي تصبح التربة خصبة. فقد زرعوا كل شيء، حتى ما لا يلائم مناخ القرية، مثل الباذنجان والفلفل والبطيخ والفاصولياء والطماطم و"قلب الثور" والمشمش الأسود.

بالطبع ساعد ورق "السيلوفان" في زراعة تلك المحاصيل. فقد وضعت على أقواس من أسلاك الفولاذ الملتوية. وكانوا يسخنون السماد تحت جذور الأرض. ابتسمت "إيرينا"، وقالت: - وتنمو المحاصيل وتنضج خلال ثلاثة أشهر ونصف. حسنًا، ليس ثلاثة ونصف، بل سبعة أشهر.

فقد زرعوا مرة أخرى في شهر فبراير في صناديق، ووضعوا المحصول على عتبات النوافذ.

عندما أصبحت المشاتل مكتظة بالمحاصيل، تم تفريغ التربة بالبذور في ثلاثة أو أربعة صناديق. وكانت الرفوف، التي توجد أمام النوافذ في الكوخ، مصنوعة لتتناسب مع المزيد من الصناديق. كانت كل رقعة مشرقة بالشمس في النوافذ ممتلئة بصناديق الزراعة. وكأنهم يعيشون في بيت زجاجي.

وبحلول منتصف مايو، تتفرق أجزاء التربة، ويقومون بصناعة بيوت بلاستيكية قصيرة ومضيئة، ودفيئة، لكي يزرعوا فيها، ويسحبوا ورق "السيلوفان". وقد دفن بالفعل أحد أطراف "السيلوفان" في الأرض، ويضعون حجارة على الطرف الآخر، وشبكات أيضًا. وبالطبع، سيحل الصقيع قريبًا، ويتساقط الثلج، ولذلك كانوا يغطون هذه البيوت بالبطانيات، ومعاطف الفرو، والأقمشة. ثم يغطونها أيضًا بورق "السيلوفان" مرة أخرى، حتى تحافظ التربة على درجة حرارتها، ولا تتأثر بالمناخ البارد.

دائمًا ما كانت تتم عملية الزراعة بنجاح، ولكن يحدث في بعض الأحيان، أن النبات يذبل، أو يموت، ويجف بعد مرور ستة أشهر. فقد يتأثر من ارتفاع درجة الحرارة أيضًا، لذلك كان عليهم تغطيته ليس فقط من الصقيع، ولكن

أيضًا من أشعة الشمس الحارقة. فلم يكن هناك تساقط للثلوج بعد العاشر من يونيو، ويتم بعد ذلك إزالة ورق "السيلوفان" عن الطماطم أيضًا.

كما تنخفض درجة الحرارة في كثير من الأحيان في شهر يونيو إلى ثلاثة أو خمسة، لكن الأرض كانت تحافظ على درجة حرارتها، بل وترتفع أيضًا، والنباتات تنمو أمام الأعين تقريبًا سريعًا مثل الخيار والبازلاء، وتقف الفاصولياء على أوراق الأشجار، والبطيخ يمتد مثل الأخطبوط في الأرض، والطماطم تنمو، وكان لا بد من الضغط عليها بالأظافر لكي تعطي البذور قوتها للبراعم، وليس للأوراق.

لم يكن هناك شيء يهدد فساد النباتات حتى شهر سبتمبر، لدرجة أنهم لم يحتاجوا حقًا إلى عملية الري؛ فقد امتصت الجذور الرطوبة من الأعماق. ولكن ظهرت سحابة في يوم ما بشكل مفاجئ في منتصف يوم حار. كانت سحابة في غاية الروعة، ولكنها مخيفة. وهنا غابت الشمس، وتحولت إلى لون رمادي بخطوط أرجوانية. وطارت العصافير والدجاج إلى مأواها في عجلة من أمرها. ودخلت الكلاب إلى بيوتها، واختبأت هناك. كما حل الظلام على الماء والأشجار الخضراء. وارتجفت أوراق أشجار البتولا في فزعٍ، على الرغم من عدم وجود رياح، فإن الهواء كان جامدًا.

تجمد الناس في أماكنهم، وبدوا مفتونين بالسحابة، وبعدما أفاقوا، هرعوا إلى أكواخهم، ومطابخهم الصيفية، وحظائرهم، وأخذوا سترات العمل من الشمَّاعة المعلقة، وسحبوا الحقائب من الخزانة القديمة، ومجرفة، وورق "السيلوفان"، وذهبوا إلى الحديقة. ووضعوا ورق "السيلوفان" على الطماطم، وكان الشيء الرئيسي بالنسبة لهم الآن هو حماية الثمار. وكذلك وضعوا "السيلوفان" على الفاصولياء، والخيار، والبطيخ. لكنهم سرعان ما فهموا؛ إذا كان الجو باردًا جدًا، فلن تتم حماية المحاصيل بواسطة "السيلوفان".

لقد مرت موجة البرد الحادة وكأنها زفير. ثم جاءت موجة أخرى، أقوى، وكل واحدة أقوى من التي قبلها، وانقطع السيلوفان. وضغط الناس عليه بألواح وبكل شيء كان في متناول اليد. وحملوا صناديق من تحت المظلات وحاولوا بكل طريقة الحفاظ على ما كان لديهم. وفي كثير من الأحيان، كانت السحابات تمر مرور الكرام على القرية، وفي أوقات أخرى كانت ترمي قطع الجليد على القرية.

وقد ضربت كتل الثلج النادرة الأشجار، والمباني، والصناديق، والدلاء بصوت عالٍ وبشكل منفصل وعشوائي. بدا وكأن السحابة ستنفجر. وكانت الضربات تزداد أكثر فأكثر، ولم يعد بالإمكان تمييز كل ضربة بالأذن. ثم اندمجت في هدير واحد. وتساقطت حبات الثلج واحدة تلو الأخرى. أدرك الناس أنه لا يوجد شيء بأيديهم للنجاة بالحديقة، فهربوا، وغطوا رؤوسهم، وذهبوا إلى أماكن محكمة الغلق. اختبؤوا هناك، وظلوا ينظرونِ حولهم في

السماء، في الجنوب والشمال والغرب والشرق، السماء لونها أزرق واضح، أما فوق الحديقة مباشرة، فكانت رمادية.

كانت كرات الثلج تقذف الألواح الخشبية مثل الرصاص، وتسقط بتلات زهور عباد الشمس، وتترك ثقوبًا في الفلفل، وخدوشًا في الكوسة، وتقطع أوراق البازلاء. يهدأ الهواء لبضع ثوانٍ ثم يرجع بقوة مرة أخرى. وقد أصبح الهواء الآن باردًا للغاية. لا شيء يمكن تمييزه باستثناء الكرات الوامضة. الضوضاء أصبحت تتأوه في الحديقة، وتأوهت الحياة من آلاف الضربات.

انفجر ورق "السيلوفان" ذات مرة، وأصبح كل شيء محطم ومشوه بل وممزق. الناس يقفون تحت الأسطح وينتظرون. يقفون وينتظرون حتى ينتهي الأمر. فهم يمكنهم الانتظار الآن فقط في هذه الأماكن المتخصصة.

ها قد جاءت العاصفة اليوم من جديد. توقفت "إيرينا فيكتوروفنا" عند العتبة، فقد اعتادت على ذلك. لم تغلق الباب، ودعته هكذا. ذهبت إلى الموقد، وأخرجت الغطاء من الخزان، ومسكته وكأنه متوجه نحو البخار. وأخذت السكين، الذي يقع بجانب خزانة الأحذية، وأمسكته بحزمٍ، وعادت إلى الفناء. يتعين عليها القيام بشيء ما ضروري.

أمسكت بقطعة القماش المليئة بالزيت القديمة المعتادة ووضعتها على الشرفة الأرضية ووقفت عند الشرفة، وبحوزتها الفأس. نظرت خارج البوابة، وفي الشارع آملة أن ترى أيًا من المسنين. ليت أحد تراه، وتسأله. فبالطبع كان بإمكانها التعامل مع الموقف الحالي، إنه يؤلمها حقًا، فعلى كل حال، هذه الليلة الأخيرة لها في القرية، ولن تكون هناك دجاجات بعد، وسيظل العش فارغًا للأبد. كان الشارع مهجورًا، ولم يكن هناك صوت في أي مكان. أما الباقون، الذين يجلسون على الأرجح في الأماكن محكمة الغلق، كما هو الحال بعد الجنازة، ينتظرون صباح الغد، عندما تهدأ العاصفة ويقولون: "لقد انتهى الأمر، فلنخرج الآن".

تذكرت بأن عليها أن تطعم الدجاج البيض المسلوق المفروم، وتنير له المصباح، لكي تحميه من اللصوص، الذين كانوا يسعون إلى ذبحه وأخذه. نزلت بعد ذلك، ووضعت السكين على السرج. ووضعت قطعة قماشية في مكان قريب، ثم وضعت عليها قطع البيض المسلوق. وقفت، وهي ترتجف أمام الدجاج.

جاء الدجاج نحوها وهو يرتجف، دفعوا بعضه بعضًا ليكون أقرب إلى المخرج. اقتربت "إيرينا فيكتوروفنا" ببطء من الدجاج، وحاولت أن تفحص العش، وظلت تقترب من الدجاج، وهي حذرة. ثم انحنت فجأة، وحاولت أن تضع يدها داخل العش. ركض الدجاج بعنفٍ، ثم أدخلت ذراعها هناك، وأبعدت وجهها حتى لا ينقرها الدجاج. ثم أخرجت يدها، وأغلقت الباب بقدميها.

أمسكت "إيرينا" بإحدى الدجاجات، وأحضرتها إلى السرج، ووضعت رأسها على قطعة من الخشب. وأخذتِ السكينِ ورفعته. في اللحظة الأخيرة،

عندما كانت الدجاجة ترفرف بأجنحتها، رأت عيناها خائفتين ومرتبكتين. سرعان ما ذبحتها بالسكين، وسقط رأس الدجاجة على الأرض.

كانت الدجاجة قد ظلت تصرخ، ثم أغلقت عينيها. اختلط السكين بالدم الأحمر الفاتح الأرجواني. لقد ماتت من رأسها، لكن الجسم لا يزال ينبض ويتحرك، وأراد الركض في مكان ما. انتظرت "إيرينا فيكتوروفنا" بصبرٍ. تذكرت السكين ومسكته لكي تذبح الدجاجة مرة أخرى، لكن الدجاجة كانت قد ماتت للتو. وضعتها "إيرينا فيكتوروفنا" على القماشة، التي وضعتها عند الشرفة، ورجعت مرة أخرى للعش. لم يهرب الدجاج، ولم يخجل عندما مدت يديها له. فقد كان الدجاج مطيعًا، معتقدًا، بأن السيدة تبحث عن بيضة في مكان ما.

وعندما رأت الدجاجات صديقتهم راقدة دون رأس، ويسيل الدم من السكين، شعرت بأن هناك شيئًا ما مخيفًا، وشرعت في التفرقة، ولكن قد فات الأوان، فقد أمسكت "فيكتوروفنا" بإحداهن، وذبحتها بالسكين، وهكذا انتهى الأمر! وأصبح هناك سبع دجاجات لونها أحمر، مستلقية على القماشة. وبقيت فقط "تشيرنوشكا". وقفت "إيرينا فيكتوروفنا" أمام العش، ولم تدخل. ثم شرعت في سحب الدجاج إلى الشرفة. وقررت تنظيفه هناك، فالمطبخ ساخن جدًا، ولن تتمكن من التنفس بداخله.

قامت "إيرينا" بوضعه على الطاولة، وأحضرت طبقًا كبيرًا، وبسطت قطعة القماش على الأرض. الآن لديها الكثير من المهام لكي تقوم بها.

لذا، وضعت الطبق على الموقد. ووضعت به ماء ساخنًا، ثم أخذت تمرر الدجاجة في الطبق، وهي ترتعش وتهمس قائلة:

- واحد، اثنان، ثلاثة.. ثمانية، تسعة، عشرة.. كفى وإلا سيحترق الجلد.

أخرجت بيديها الدجاجة من الطبق بصعوبة، وسحبت الريش. في البداية، وكعادتها، فصلت الريش الكبير عن الصغير، لكنها سرعان ما تذكرت أن الريش لم يعد مناسبًا لأي شيء، فلن يكون لديها وقت ليجف، ولذلك ألقته في القمامة.

كانت ترغب في التفكير في كيفية نزع الريش مرة واحدة، ومن بعدها غسل الدجاجات وتغليفها. وكيف ستتناول الغداء بسرور. لكنها كانت تفكر في "تشيرنوشكا".

بالطبع من السهل انتقاء الدجاجات التي يجب أن تذبح، وأن تترك التي بحاجة إليها، لكي تضع البيض، وتترك ذرية من نسلها، وفي الخريف يمكن ذبحها، لكي يأكل الناس طعامًا لذيذًا في ذلك الشتاء الطويل. لكن "إيرينا فيكتوروفنا" لم تتمكن من أن تتخيل "تشيرنوشكا" جثة عارية دون رأس. حاولت أن تقنع نفسها بأن الذبح والأكل أمر طبيعي، لكنها كانت ترى أن الأمر مثير للاشمئزاز، كما لو كأنك تتخيل بأنك تذبح قطك الجميل أو كلبك الرفيق لكي تأكله.

تذكرت "إيرينا" في تلك اللحظة كيف كانتا تسيران معًا في الحديقة، وكأنهما ربات المنزل، تحاولان أن تفعلا شيئًا ما. وكيف حاولت "تشيرنوشكا"، وهي تراقب "إيرينا فيكتوروفنا" وهي تحفر الأرض للزراعة، أن تساعدها في حفر الأرض بمنقارها، لمعرفة ما إذا كان هناك أي شيء يصلح للأكل، وتدب بأظفارها في الأرض مثل المجرفة. وتذكرت أيضًا أنه قبل بضع سنوات، لم يكن هناك ديك لدى الدجاج لفترة طويلة، وكان الوقت قد حان لكي ترقد الدجاجات على البيض. وقد شرعت "تشيرنوشكا" في أن تعوض إنتاجية هذه الدجاجات الشابة، التي لم تظهر أي مقاومة، بل جلست بخضوعٍ، وبسطت أجنحتها.

رأت "إيرينا فيكتوروفنا" هذا المشهد للمرة الأولى، فصاحت، وشعرت بالخوف، فأخذت تطارد الدجاج، ثم تذكرت غريزة الإنجاب لديه، وركضت تبحث في القرية على ديك لهم. وعثرت على واحد، فاشترته، وأحضرته إليهم. لكن الدجاج لم يتقبله، وظل يضرب بمنقاره، لدرجة أن الديك قد اختبأ تحت الأدراج لنصف يوم، لدرجة أنه كان يخشى الاقتراب من وعاء الماء. كان الدجاج غاضبًا من صياحه، وعندما كان يصيح ويصدر صوتًا "كوكوكو.. كو"، كان الدجاج يركض ويقف بجانب بعضه بعضًا.. وظل الديك ينام على الدرج السفلي، في زاوية ما، ويضع منقاره على الأرض.

صرخت "إيرينا فيكتوروفنا" على الدجاج لأكثر من مرة، قائلة:

- ماذا تفعلوا؟ أوه! هل ضربتم الديك، ألم تخجلوا؟

ثم لاحظت "إيرينا" ذات ليلة أن الدجاج كان نائمًا، ورأت "تشيرنوشكا" تجلس بالقرب من الديك، وأبدت له رغبتها، فهمس لها برقة.

وفي الليلة التالية، جلست دجاجتان آخرتان بجانبه. وسرعان ما هدأ الديك بجانبهم، وأطلق صيحاته دون خوف، ثم ظل ينظر إليهم بعيون متلألئة، فصاح مرة أخرى، وأجابوا عليه بصوت هادئ ومطيع. وفي ذلك الصيف، رقدت ثلاث دجاجات على البيض، بما فيهم "تشيرنوشكا".

تساءلت "إيرينا": "إلى متى يمكن أن تعيش "تشيرنوشكا"؟ متى ستشيبُ؟ في الخامسة أم السابعة من عمرها؟ لقد كبُر الجزء العلوي من منقارها، وأصبح مرتفعًا مثل السنجاب".

ثم لاحظت "إيرينا فيكتوروفنا" أن "تشيرنوشكا" لا تستطيع أن تأكل أو تشرب بنفسها، ولذلك ظلت تطعمها في فمها بنفسها، وتسقيها بالحقنة، كما هو الحال مع الطفل أو المريض.

ونحفت "تشيرنوشكا"، لكنها سرعان ما أصبحت سمينة مرة أخرى، وأصبحت تأكل وتشرب وحدها مرة أخرى. قالت "إيرينا":

- "تشيرنوشكا"، يا "تشيرنوشكا"، ماذا سأفعل معكِ؟

فهي لن تستطيع أن تذبحها.. هل تتركها هنا؟ لكن هؤلاء الحمقى سيأخذونها، ويذبحونها، ويأكلونها.

ثم قالت "إيرينا" لنفسها:
- حسنًا، سأفكر في الليل.
على الرغم من أن "إيرينا" تعرف جيدًا أن "تشيرنوشكا" لم تفهم حديثها، فإنها ما زالت تهدأ عند التحدث معها، وسرعان ما قطعت الدجاج. لم يكن الوقت يمر سريعًا، لكن قواها كادت أن تخور بشكل أسرع. عليها أن تأكل الآن، على الرغم من أنها لا ترغب في ذلك. ها هي ستقوم بإخراج الكبد من الدجاج الآن، وستنتهي من عملها سريعًا.
نادرًا ما كانت "إيرينا فيكتوروفنا" تطهو في الآونة الأخيرة، وكانت تعد الطعام مرة واحدة لعدة أيام. قامت "إيرينا" الآن بغلي الماء في وعاء ووضعت به الحنطة السوداء ولحم الخنزير المقدد. ثم وضعت الوعاء بعد ذلك عند الفناء، لكي يظل الطعام ساخنًا لمدة ساعة تقريبًا. وهذا أمر مريح لها، فلم يكن لديها رغبة دائمًا في الطهي. ثم أكلت الطعام، وغسلت أطباقها. وتذكرت أن هناك أسواقًا للطعام بالفعل في المدينة، وكذلك المخللات والدقيق والحبوب. وقررت أن تأخذ الدجاج المذبوح معها، وستضعهم في حقيبة الظهر معها.
شعرت كما لو أن أحدهم همس لها في أذنها من الخلف:
- وماذا ستفعلين مع "تشيرنوشكا"؟
تراجعت "إيرينا فيكتوروفنا" بالفعل، وأرادت أن تستدير. لكنها خمنت أنها سألت نفسها، وقالت بصوت عالٍ، وهي منزعجة: - سنرى. ما زال هناك وقت.
- لماذا تهتمين بها.. ما الذي سيعذبها هنا؟
- لا شيء، لكن الجميع يعاني في هذه الحياة.
ثم قررت "إيرينا فيكتوروفنا" في تلك اللحظة ما يجب أن تفعله مع هذه الدجاجة، لكنها كانت تخشى أن تقول ذلك بنفسها، فقالت: - نحن جميعًا سنتعذب، ولكن لماذا ستتعذب هي؟ لن تتعذبي يا "تشيرنوشكا".
ظلت تقطف الريش، الذي يوجد على أجنحة، وأرجل الدجاج المذبوح. وكان هناك الكثير من الريش عند ذقن الدجاج. ثم فكرت في أن تضع الدجاج في المُجمد بالمدينة. ليتها كان لديها هنا مُجمد للطعام حتى تضع فيه الدجاج كله. لكنها لديها هنا قطعة جليدية بجانب الشرفة، يمكنها أن تضع بها كمًا كبيرًا من اللحم.
لم تكن لديها رغبة في أن تتذكر ذلك القفص، الذي ستنتقل إليه غدًا، حيث ستضطر إلى العيش هناك لمدة سنة، أو اثنين، أو خمسة.
تنهدت "إيرينا" مرة أخرى:
- حسنًا.
حاولت "إيرينا فيتكوروفنا" أن تهدئ من روعها، وسمعت صوتًا من الدجاج، وكأنه ِيقول: "حسنًا". لقد هدأت الدجاجات من روع الديك عندما صرخ

ساخطًا على ما يحدث. وكانت الدجاجات تقول بهدوء ونعومة: "حسنًا". نعم، لقد كانت "إيرينا" تطمئن زوجها بالطريقة نفسها. والآن ها هي.

أحضرت سكينًا، وقطعة خشب للتقطيع، وطبق به قطع من معدة الدجاج. ثم وضعت يدها على القناة الهضمية للدجاجة، وسحبت أحشاءها، فما زالت تحتفظ بدفء الحياة. وتألمت كثيرًا، عندما عثرت على عنقود البيض، كان هناك عنقود بيض صغير برتقالي اللون متدلٍ، مثل العنب، أو الطماطم.. نعم، من المؤسف أنه توجب عليها ذبحها مبكرًا. ثم غسلت الدجاج، ووضعته في دلوٍ مصنوع من معدن "المينا" في الفناء. دلو جيد، لكنه قد انكسر منذ عامين، ووقع منه قطعة بحجم قرش، ولذلك أصبح الدلو مكسورًا.

كانت "إيرينا فيكتوروفنا" تضع بضعًا من معجون الأسنان، أو علكة على القطعة المكسورة، ولكنه ما زال يسرب الماء. ستقع القطعة اللاصقة يومًا ما، وسيقع 12 لترًا من الماء، وهذه كارثة، فالأرض هنا رطبة جدًا.

لا يمكن الاعتماد بشكل عام على الأطباق المصنوعة من معدن المينا، فدائمًا ما يحدث بها ثقوب. يبدو الأمر كما لو أنهم يصنعونه هكذا عن قصد؛ بحيث لن يصلح إلى الأبد، ويذهب الناس مرة أخرى بعد بضع سنوات لشراء دلو، أو حوض، أو أوانٍ جديدة. وهناك أوانٍ مصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ؛ أي من الألومنيوم، فهذه الدلاء من الممكن استخدامها لمدة أربعين عامًا تقريبًا. فقد أعطت ابنتها قبل عشر سنوات مقلاة من الألومنيوم رائعة، يبدو أيضًا أنها متينة. وها قد نقر الدلو، وفقد جماله، ونقاوته، وها هي تحزن لذلك.. وبعد تنظيف الدجاج المذبوح من الريش وتقطيعه، وتغطيته بغطاء مقلوب، وضعت قطعة حديد زهر قديم على القمة؛ بحيث لا يصعد فأر أو قطة عليه. الآن هي بحاجة لتنظيف الحويصلة، والقلوب، والرئتين، والمعدة، والكبد، لكل دجاجة على حدة.

أخرجت بعد ذلك الكبد، ووضعت أحشاء الدجاج في القمامة.

سرعان ما صاح شخص ما قائلًا:

- "روس"، "روس"، هل أنتِ في المنزل، أليس كذلك؟

قفزت "إيرينا فيكتوروفنا"، وهي مندهشة. إنه اليوم الثاني، الذي لم تسمع فيه حديثًا من الناس، ظلت تقفز، وقالت، وهي لم تتجاوز البوابة: - نعم، بالمنزل.

ذهبت "إيرينا" نحو الضيفة ببطء، كانت من إحدى النساء اللاتي يعشن بالقرب منها. صعدت هذه المرأة على درجات الشرفة. دائمًا ما كانت تُدعى "إيرينا فيكتوروفنا" بـ"إيرينا"، أو "إيروسي"، أو "روس". وقد عشن هنا ما يقرب عن سبعين عامًا، لكن الأمر قد تحول الآن..

لقد كانت "زينيدا" من مؤسسي الاشتراكية في المقام الأول، ناشطة، وتتحدث بحماسة في الاجتماعات. وهي الآن في العقد الثامن من عمرها، وقد نفدت قوتها تقريبًا، لكنها ما زالت تواصل المشي على عجل في

الشوارع، وتزور المرضى، وتنتقل من كوخ إلى آخر لنقل الأخبار، التي أصبحت في السنوات الأخيرة أكثر حزنًا ومرًا. والآن نظرت "إيرينا فيكتوروفنا" إلى "زينيدا" في خوف، متوقعة أنباء سيئة.

تفاجأت "زينيدا" من نظرة "إيرينا":

- ماذا بكِ؟

- أنتِ؟ ماذا حدث؟

- لا شيء.. لم يحدث شيء.. كنتُ أتمشى فقط.

تنفست "إيرينا فيكتوروفنا" الصعداء:

- آه، فلتدخلي!

أومأت "إيرينا" برأسها نحو الريش، الذي يقع على أرضية الشرفة وقالت:

- لقد ذبحت الدجاج هنا، وقطعته.

أجابت "زينيدا":

- أنا أيضًا. وقد تركت ثلاثة، واحدة منهم لديها بيض في أحشائها، وستبيضه تقريبًا.

- الأمر نفسه مع دجاجتي.. إنه لأمر مؤسف.

- كل شيء مؤسف، يا "روس"، كل شيء مؤسف.

ثم دخلتا المطبخ، وجلست "زينيدا" بسرعة، وأزالت الوشاح.

- المطبخ حار جدًا، هل قمتِ بإشعال الموقد؟

- نعم، فأنا بحاجة إلى الماء المغلي.

وضعت "إيرينا فيكتوروفنا" إناءً على الموقد، ووضعت به بعضًا من الزيت النباتي.

- سأعد اليوم الكبدة، ستأكلين معي؟

- لا، لقد أكلت بالفعل. إذا أعطيتني شايًا، سأشربه. لقد جئت إليك من أجل شيء ما. أصبح صوت "زينيدا" جادًا.

- لقد اتفقنا مساءً على الاجتماع في النادي. ماذا ستفعلين؟

- وماذا سنفعل هناك؟

- لقد أعدت لنا "جالينا لوجنوفا" فطيرة.. سنجلس.

فهمت "إيرينا فيكتوروفنا" أنهم قد قرروا أن يجتمعوا حقًا، وأن عليها أن تذهب، لكنها شعرت بضيق في صدرها من هذا الحديث.

- علينا أن نأكل الفطيرة..

شرعت "زينيدا" في شرح الموقف:

- علينا أن نودع بعضنا بعضًا يا "روس". غدًا سيغادر البعض إلى المدينة، والآخر إلى أماكن أخرى. لن نلتقي هكذا بعد الآن، وسنفترق في هذا العالم.

بكت "زينيدا"، قائلة:

- ظل "أليكسي ميخائيل" عمدًا هنا، ليكون معنا..

قاطعتها "إيرينا":

- نعم، سوف آتي، سوف آتي! سآتي، بالطبع! في أي وقت سنتجمع؟
- بحلول الظلام، سنبدأ.. سنقول وداعًا على الأقل..

لم تنتظر "زينيدا" شرب الشاي، وذهبت. بالتأكيد لا يزال هناك شخص ما ترغب في إقناعه.

بالطبع، كان من الضروري الجلوس مع الأنداد العشرة المتبقين هنا، في القرية، خاصة في النادي، الذي رقصوا فيه منذ نصف قرن، وفيه شاهدوا آلاف الأفلام، في نهاية السبعينيات، والذي عرفوا من خلاله أن "بيليفو" محكوم عليها بالفشل، وسيحل مكانها مزرعة للدولة. لقد كان النادي يربطهم بأشياء كثيرة، فقد كانوا يحتفلون فيه بجميع الأعياد المشتركة، ويودعون الرؤساء، والمبجلين، هنا قبَّلوا وسبوا بعضهم بعضًا، وتعاركوا، وسخروا أيضًا.

لقد أخرج العمال المعدات وبعض الأشياء المهمة من النادي، لكن المبنى نفسه، الذي بني في أواخر الخمسينيات، ما زال قائمًا، صامدًا، مثل الأكواخ المحيطة، ومجلس القرية، والمدرسة التي تتكون من طابقين، والمستودعات، والمتاجر. لذلك فإذا نظرت هناك، ستجد أن القرية ما زالت حية، ولكن ليس بها أناس الآن، فقد ذهبوا إلى "التايجا" ليقطفوا العنب، لقد حان وقت جمع المحصول. وبحلول الليل، سيعودون، ويصدرون ضوضاء، ويتفاخرون أمام بعضهم بعضًا، ثم يلقون الفطر، والزبد، والبيض في أحواض كبيرة من الماء، وستنتشر رائحة الفطر الغنية عبر القرية، ويوعدون الناس بأنهم لن يتضوروا جوعًا في الشتاء.

الجميع يعمل بجد في الأيام الأخيرة قبل هطول الثلج، وقبل الصقيع، لكي يكون الشتاء جيدًا، وهادئًا. وسيشعلون جذوع البتولا تحت المواقد، وسيطهون الخنازير والعجول والدجاج، وسيقطفون الخضروات والفواكه، التي زرعت في فصل الصيف مثل الطماطم المخللة، والخيار، والفطر، والكرنب، والبطيخ، والكراث البري ويقدمونه في أطباق؛ وسيقومون ببشر الفجل مع القشدة الحامضية.

يوجد أيضًا السمك المشوي، الذي تنبعث منه رائحة شهية. وأكواب حديدية بها ماء مغلي مع أوراق الغار والفلفل الأسود. كما يوجد على الطاولة طبق من البطاطس، والعديد من المخبوزات مثل الكعك، ومخبوزات بالبطاطس والجبن، وقاموا بتغطيتها بمنشفة نظيفة. وكانت هناك فطائر مقلية باللحم، وأخرى بالبطارخ...

أوه، من الجيد أن يملأ الجميع بطونهم بالطعام، ويتركوا الثلج في الفناء، ويدخلوا النادي الدافئ المليء بالدخان، ويقفوا على السجاد، ثم يقومون بغسل أيديهم، ووجههم، ورقبتهم، ويشعرون بإزالة ملح العرق من رقبتهم، ويمررون أيديهم في شعرهم، ثم يغسلونه. ويجلسون بعد ذلك على الطاولة،

ويأكلون قطعًا من الحلوى، ثم ينظرون إلى الثلج، الذي يهطل في الخارج من خلال النافذة، ويرون الأرض والأكواخ المجاورة، والأعمدة مغطاة بالثلج.

بعدما تناولت "إيرينا" الغداء الذي تكون من كبد الدجاج وفتات الخبز، شربت الشاي، وأرادت الذهاب كعادتها لكي تنتهي من أمورها في أقرب وقت ممكن، لكنها سرعان ما تمهلت، لماذا يجب أن تكون على عجلة من أمرها؟ فلتجلس وتفكر. ثم قالت لنفسها: "لكنني بحاجة إلى الاستعداد، فأنا لم أتفقد بعد كل الأشياء في الكوخ". لكنها تذكرت قول "زينيدا": "كل شيء مؤسف هنا".

كان الجو هادئًا في الكوخ، فلم يشعل الموقد منذ فترة طويلة، وقد وضعت الراديو، الذي كان يصدر صوتًا باستمرار، في الحقيبة التي ستصطحبها معها إلى المدينة. وسرعان ما سيطر الصمت على روحها لدرجة أنها شعرت بالضجر، وخرجت إلى الشرفة. ظلت تنظر إلى الشارع بحزن شديد، فقد ساد الهدوء في أجواء القرية.

عندما رحل معظم السكان من القرية منذ شهر، كان هناك الكثير من الضوضاء، والضجيج ليلًا ونهارًا. وقام البعض بكسر الأشياء التي بحوزتهم، أما البعض الآخر لم يفعل ذلك؛ لقد كانوا يركضون من فناء إلى آخر، ويعطون لبعضهم بعضًا أمتعتهم، وكانت الخنازير تصرخ، وذبحت الأبقار، والعجول. هناك الكثير من اللاجئين من الرجال والنساء، والعديد من السيارات المرصوصة على الرصيف ذاته الملعون، والناس يتخاصمون من أجل أي شيء تافه، ويضحكون معًا فجأة. كان "جينكا جلوخيخ" يعزف على آلة الأكورديون، وظل ينقر على الأزرار بشكل عشوائي.

غادرت تلك العبارة، وأصبحت القرية أكثر هدوءًا. في بداية الأمر، كانت الديكة تصيح هنا وهناك بطول الشارع، والكلاب تركض في ذهولٍ، وفي اليومين أو الثلاثة اللاحقة، عمَّ الصمت على القرية، ويا له من شيءٍ مريب حقًا! فقد اختفت العصافير، وأصبحت القرية خاوية منها.

ذهبت "إيرينا فيكتوروفنا" إلى العُش، لكي تشغل نفسها في هذا الوقت المميت. فتحت باب العش، وجدت "تشيرنوشكا". وقفت في حيرة من أمرها ونظرت إليها، فهي لم تركض، كعادتها مثل الدجاج الأحمر، الذي ذبح منذ ثلاث ساعات، عندما أمسكته "إيرينا فيكتوروفنا" واحدة تلو الأخرى. وقفت ونظرت إليها فقط، وكأنها تنتظر مصيرها.

سألتها "إيرينا":

- ماذا يا "تشيرنوشكا"؟ هل تشعرين بالسوء لأنكِ وحدكِ؟ أنا أيضًا أشعر بالسوء.. ولكن كوني صبورة، فلتصبري قليلًا.. هل تتذكرين كيف كنتِ وحيدة من قبل أيضًا؟ حسنًا.. أجابت الدجاجة، وهي متفهمة الأمر: - كو كو كو.

ثم صعدت إلى الوعاء؛ حيث كان هناك فتات من الطعام، حاولت أن تتظاهر بأنها تأكل؛ وكأنها تحاول أن تقول لها: "لا بأس في أن أعيش

بمفردي".
حاولت "إيرينا فيكتوروفنا" تهدئة الدجاجة، بل ونفسها أيضًا:
- هل لديكِ ماء؟
ثم أخرجت بيضة من العُش، وقالت:
- شكرًا لكِ يا "تشيرنوشكا".. حسنًا، عليكِ ألا تشعري بالملل، اتفقنا؟ سأفتح لكِ مصباح الإنارة، لكي يُنير لكِ..
ثم قالت في قرارة نفسها: "لماذا لا أطلق سراحها؟".
ثم قالت لها:
- فلتذهبِي في نزهة على الأقدام يا عزيزتي.. هيا فلتذهبي، كما تريدين.
أخذت "تشيرنوشكا" إلى الفناء الخلفي، وأخرجتها، ثم أغلقت البوابة.
شعرت الدجاجة بالخزي، كما لو أنها لم تتوقع هذا الأمر من سيدتها، ظلت تمشي على الأرض المغطاة بالعشب، والحصى، والشظايا.
- فلتذهبِي، وسأنتقي لكِ الأعشاب الطازجة.
وجدت "تشيرنوشكا" نباتات عدة عند السياج قد اقتلعت من الأرض. ولاحظت أن هناك دودة في هذه الأرض المتهالكة، فذهبت إليها، وحملتها. ثم قالت الدودة: - ماذا الآن؟ هيا، فلتأكلي هذا العشب، إنه لذيذ بالنسبة لكِ.
نظرت الدجاجة إلى الدودة، ثم نقرت بمنقارها في العشب، فقالت الدودة:
- أحسنتِ!
توقفت "إيرينا"، في أثناء طريق عودتها إلى الكوخ؛ فقد عثرت على رؤوس الدجاج. وشعرت بأنها بحاجة إلى أن تجعل المكان مرتبًا.
هل تتركها حتى يأكلها الغراب؟ ماذا ستفعل الآن؟ قررت أن تجمع الرؤوس في الدلو القديم، وحملته إلى الحديقة، وحفرت حفرة بالفأس، ثم ألقتها بها، وأغلقت الحفرة.
وضعت الفأس على جدار الحظيرة. ونظرت حولها من الجانب الذي تأتي منه الشمس، شعرت أن الحديقة أصبحت جميلة وحزينة بشكل ما. وقد تحول اللون الرمادي إلى أخضر، ثم حاولت أن تخفي دموعها.
قامت بغسل الفأس، وأحضرته إلى الشرفة. لقد كان فأسًا كبيرًا من الفولاذ. ليتها تستطيع أن تأخذه معها، ولكنها تساءلت لماذا ستستخدمه في شقة المدينة، التي ستقطن فيها بالطابق الثاني؟
ربطت قطعة القماش المليئة بالريش. ووقفت متسائلة ماذا ستفعل بها؟ شعرت بالمعاناة، كما لو أن هذا هو السؤال الأكثر أهمية الآن. أين ستضعها؟ أخذتها إلى المطبخ الصيفي، ووضعتها هناك ودستها لسبب ما مع صندوق به حذاء عافى عليه الزمن. وتركت الريش هناك.
لم تجد أي شيء آخر تفعله، وعندما دخلت إلى الكوخ، نظرت إلى الساعة. كانت الساعة السادسة مساءً وعشر دقائق. لذا فقد مر اليوم. ها قد مر

اليوم الأخير تقريبًا. اليوم الأخير هنا.
جمعت أمتعتها، ووضعت غطاء على طبق الكبدة. ستأخذه معها إلى النادي. غسلت الأطباق جيدًا، ووضعتها على الرف لكي تجف. لقد كانت تبحث عما يمكن أن تأخذه معها إلى هذه التجمعات. فهي لن تعد شيئًا ما جديدًا. ومن المحتمل ألا يكون هناك ذلك الطبق اللذيذ.
ارتدت فستانًا قديمًا، مصنوعًا من الصوف. ومشطت شعرها، ووضعت رابطة لشعرها من الخلف. ثم ربطت وشاحًا وردي اللون على رقبتها، وارتدت معطفًا. لم ترتدِ حذاء مفتوحًا، فهو غير مريح بالنسبة لها، كما أن قدمها تتعب سريعًا منه، ولذلك ظلت مرتدية "البوت".
ترجلت "إيرينا" على طول الشارع الرئيسي الواسع، لم تستطع أن تتخيل أن خلال يوم أو يومين ستتدمر هذه المباني العتيقة، والحظائر، والسياج، والبوابات المرصعة بالتماثيل، والأرصفة الخشبية، التي كانوا يجددونها بعناية في كل صيف. وستختفي المدرسة البيضاء ذو السقف الأخضر، التي تتكون من طابقين، بل ومتجر "سيفريانكا"، الذي يعلق دائمًا لافتة: "نحن نعمل من الآن حتى نهاية الأسبوع". حاولت أن تقنع نفسها بأن كل شيء سينتهي في العالم، والأمر نفسه سيحدث في قريتها، لكنها لم تتمكن من تصديق ذلك. لن يستطيع المرء أن يقتنع سواء بعقله أو قلبه بأن القرية، التي عاش فيها الناس لما يقرب من أربعة قرون، ستتحول إلى رماد البدايات، وسيأتي الفيضان، ويغمرها بالمياه، ولن يصبح لها أثر؛ فهي قرية دون عنوان أيضًا.
لا، لا، لقد أطلقوا عليها اسمًا بالفعل! فقد قام الفلاحون، في العام الماضي، بالكتابة على لوحة، وقاموا بتثبيتها: "هنا كانت قرية "بيليفو". تأسست عام 1667 وغرقت في عام.." لم يكتبوا التاريخ لآخر لحظة؛ آملين في أن الفيضان لن يحدث. وفي شهر أغسطس الماضي، قام الفلاحون بشراء ثور، وقالوا إنه سيعيش هنا، وستتحول القرية إلى جزيرة. وعندما يأتي الفيضان، سيبحرون إلى هنا، ويكتبون على هذه اللوحة، سنة اختفاء الجزيرة، المكونة من أربعة أرقام.
ستظل هذه اللوحة حوالي عشرين أو أربعين عامًا، وسيعتني بها شخص ما. ولكن بعد ذلك، ستصدأ، وستدمر، وسيتحول لونها إلى أحمر، وسيختلط ذلك اللون بالعشب.
وعندما خرجت "إيرينا" إلى الشارع، وجدته نظيفًا، لقد رحل الجميع. وكانت النوافذ مقفولة، وكان الناس قد وضعوا عليها أقفالًا، لكي تغلق بإحكام. يبدو أن الملاك قد غادروا منذ فترة، لكنهم سيعودون بالطبع، نعم، سيعودون غدًا او بعد أسبوع أو في الربيع. سيعودون، وسيزيلون أقفالهم، وسيغسلون النوافذ، وسيشعلون المواقد.
لا، لن يحل فصل الربيع والسكان هنا. ها هي أمثلة للكتابات المنقوشة على البوابات: "وداعًا، بيت الأب العظيم"، "لن ننسى وطننا!"، "نحن نبكي

وننتحب على فراق منزلنا”.. لقد أصبحت المنازل مثل القبور.
كما يعد الشيء الأكثر خنقًا أنه إذا أخذوا القرية، وأعطوها بعد ذلك لبعض المستعمرين أو الصينيين وأعلنوا: “لقد اتضح أن حساباتنا كانت خطأ، ولن يحدث فيضان...” لا، ليت كل شيء يحترق، ويُمحى من على وجه الأرض في “بيليفو”. سيضعون الباقين من السكان على العبارة وسيشرعون في الأمر.
لقد حاول العديد من الرجال حرق منازلهم بأنفسهم. وحاول “أليكسي ميخائيلوفيتش” إقناعهم بعدم القيام بذلك، وقال: “دعوا القرية تبقى هكذا في ذاكرتنا”. حتى يرى المغادرين قرية “بيليفو” شامخة، متألقة، ذا نوافذ منقوشة، وأوراق حمراء من أشجار الكرز في الحدائق الأمامية. ربما لن يكون الأمر مؤلمًا مثل رؤيتها مليئة بالدخان والنار.
ها هو النادي. ما زالت جدرانه حديثة (لقد كانوا يطلون الجدران في كل ربيع)، إنه نادي كبير، وواسع. وكانوا يضمون له العديد من الأراضي، وما زال ارتفاعه كبير. في السابق، كانت هناك كنيسة مبنية من جذوع الأشجار السميكة. تذكرت “إيرينا فيكتوروفنا” أن هذه الكنيسة، منذ طفولتها، مغلقة، وفارغة، سوداء، ليس بها حراك، وكأنها ملفوفة بقطعة قماش.
وفي نهاية الخمسينيات، عندما شرعوا في إنشاء حياة جديدة مرة أخرى في القرية، عُمرت المنطقة بالزوار، لكن لم يتم نفيهم من المناطق الأخرى، أو إجلاؤهم، كما في الحرب وبعد الحرب، وقام المتطوعون وأعضاء “الكمسمول” بهدم الكنيسة بشجاعة.
لقد هدموا الكنيسة دون ندم، ولم تتعارض الجدات حتى ذلك الحين على ذلك الأمر. وبدا الأمر كما لو أنها لم تكن موجودة. وكان البعض يأمل في الحصول على كنز من تحتها، وظلوا يفتشون في بقاياها لفترة طويلة، وحفروا الأرض تحت الكنيسة، لكنهم لم يعثروا على شيء.
بُني النادي بدلًا من الكنيسة في فصل الصيف في أحد الأعوام. واختفت بعض السجلات مع الكنيسة، وظهرت سجلات جديدة. ولم يبنيه جميع رجال القرية.
كان النادي كبيرًا جدًا، به قاعة تسع لمئتي شخص؛ حيث يمكنهم من خلالها مشاهدة الأفلام، وكانوا يعقدون الاجتماعات في المكتبة، بل وينظمون أيضًا الرقصات والاحتفالات العامة هناك. وأحضروا هناك طاولات مستديرة، ووضعوا عليها حرف “P”، وكانوا يذهبون إلى هناك إما ليستمتعوا، وإما ليبكوا على شيء ما محزن.
أما الآن، لم يكن هناك سوى نصف عصا من حرف “P” على طاولتين، كان يجلس عليها خمسة أشخاص فقط.
تعد السيدة “فيكتوروفنا” من أكبر سكان “بيليفو”، فقد أتمت عامها الثمانين منذ فترة كبيرة، لكنها رياضية جدًا؛ ما زالت تذهب بمفردها إلى الحديقة لأيام متتالية، ولم تفقِد ذاكرتها. وكانت “أوليانا” تجلس بجانبها،

ترتدي فستانًا غريب الشكل، أحمر اللون، ولم ترتدِ وشاحًا، وكان وجهها جامدًا، وحزينًا. ويجلس بجانبهما السيد "ميرزلياكوف"، و"كريكاو". وكان كلاهما تحت السبعين، وهما في عداوة طوال حياتهما مع بعضهما بعضًا، وعندما كانا يتحدثان، دائمًا لا ينظران إلى بعضهما بعضًا، والآن ظل في القرية فقط الرجال الذين يعيشون بمفردهم، ولذلك لم يشعرا بالدفء في حديثهما، لم يكونا ودودين، ولكنهما كانا يبديان عما بداخلهما: - وأسفاه على العشب هنا!

- العشب.. والتربة في الحدائق! لقد دسوا بأنفسهم التربة السوداء. لقد أصبحت الأرض مليئة بالنفط.

- أوه! أنا مندهش كيف سيُبنى عليها شيء آخر.

- لماذا تفاجأت؟

- هناك الكثير من الأملاح في هذه التربة.

وكان "ليشا بريوخانوف" يجلس معهم على الطاولة، وأمامه "ميرزيلياكوف" و"كريكاو".

لقد غادر أقران "ليشا بريوخانوف"، ربما كان سيغادر معهم أيضًا، ولكنه بحاجة إلى أن يعمل بمحرك الديزل؛ حتى تضيء القرية لآخر لحظة.. وسيغادر صباح الغد، وسيترك أدواته، أو سيأخذها معه في العبَّارة.

رحبوا بـ"إيرينا فيكتوروفنا"، على الرغم من اندهاشهم بها.

قالت "أوليانا":

- توقعنا أنكِ لن تأتي.

ابتسمت "إيرينا فيكتوروفنا"، وهي تضع الطبق على الطاولة:

- وكيف ستجتمعون من غيري؟

- نعم، لقد رفض الكثير دعوتنا. إنهم خائفون، هناك قلوب لا تتحمل الوداع، ولذلك يختبئون في الأكواخ.

حاول "ميرزلياكوف" تبرير موقف الغائبين:

- ربما لديهم الكثير من الأعمال، سيجتمعون في وقت لاحق.

تنهدت "إيرينا فيكتوروفنا":

- لقد اجتمعنا جميعًا في الماضي لفترة طويلة.

شعرت "أوليانا" بالصدمة:

- هل تتحدثين عن الموت مرة أخرى؟ لقد كنتِ توبخين الجميع إذا تحدثوا عن الأمر، والآن تفعلين ذلك بنفسك.

- من الممكن الحديث عن ذلك الأمر الآن. عندما يغادر السكان وطنهم، فهذا أسوأ من الموت.

أومأ "كريكاو" برأسه:

- هذا صحيح.

كان هناك طعام بسيط على الطاولة؛ شحم الخنزير، المخللات، الطماطم المجعدة، قطع من اللحم البقري المسلوق والمفروم. وكانت هناك زجاجتان من الفودكا، وعصير البرتقال في المنتصف.

سألت "إيرينا":

- أين "زينيدا"؟

أكمل "كريكاو" غير مهتم بالسؤال:

- نعم، كما ترين، سيكون كل شيء ممتعًا.

فقالت "أوليانا" بهدوء:

- إذا حدث لها شيء، سيبلغنا أحد المارة.

قاطعتها "إيرينا" بحزم:

- حسنًا! لن نقلق!

ثم قالت بعدها:

- ستأتي الآن. وستأتي "جالينا" أيضًا، وستعدان فطيرة السمك.

جلسوا بصمت، ينتظرون، كما لو أن "زينيدا" و"جالينا" يجب أن تأتيا الآن، وإلا سيشرعون في الاحتفال، وسيصبح الموقف محرجًا لهم. مرت نصف دقيقة، ثم دقيقة، تلوها أخرى.

- فلتسمعوا! هل تتذكرون كيف كان "جينكا جلوخيخ" يعد سمك "البربوط"؟

سأل "بريوخانوف":

- نعم، نريد أن نعرف سريعًا؛ حتى نبدأ.

قال المسنون:

- طبعًا، طبعًا!

- نعم، كم كان يعده بمهارة!

- كان السمك لا يزال حيًا في الدلو.

عبست "أوليانا"، عندما حاولت أن تتذكر الأمر، وقالت:

- متى حدث ذلك؟

- قبل حوالي عامين، في فصل الخريف.

- لا أتذكر شيئًا.

دفعتها "إيرينا فيكتوروفنا" قليلًا في كتفها:

- يا صديقتي، لقد كنتِ ترقدين في ذلك الوقت في المستشفى. كنتِ تعانين من مفاصلك!

- مفاصلي!

- نعم، هذا ما أقصده.

قال "ميرزلياكوف":

- حسنًا، لم نقم بإعداد هذا السمك منذ فترة طويلة. وقد نسينا كيف نعده.

- نعم، أتذكر أن "جينكا" كان يقول: "يتعين علينا إزالة شيء ما في سمك "البربوط"، وإلا سيصبح سامًا". لكن ما الذي سنزيله؟ لن يستطيع أحد أن يجيب على سؤالي.

شعر "كريكاو" بالإهانة، وقال:

- كيف لا نستطيع؟ أنا أستطيع أنا أجاوبك بالفعل، والأمر نفسه مع كبار السن.

- حسنًا، لم يكن هناك أحد يستطيع الإجابة في بداية الأمر. لقد تجمعنا ووقفنا. ثم صوبنا أعيننا جيدًا نحوه.

- أتذكر أن أحدًا ما قال إننا نخرج السمك من الماء وندخله في الثلج، فيموت إلى الأبد، ثم نخرجه بعد مرور عام تقريبًا لنضعه في الماء مجددًا لنأكله.

- حسنًا، ربما يحدث هذا. أخرجت في مرة من المرات سمكة "البربوط" من الجليد ووضعتها في الماء. وأحضرتها إلى البيت، وأذبت الثلج عنها. فأصبح شكلها مريبًا.

ضحكوا كثيرًا. وتذكروا ذكريات عديدة خلال انتظارهم لمجيء "زينيدا". تنفست "إيرينا" بارتياح وقالت:

- أوه! لقد غيرنا رأينا عنك.

- نعم، كانت "داروشا تشيبورنايا" تمتلك مثل هذا النوع من الأسماك. ولذلك طلبت.

- وماذا عنها؟

- لا أعرف شيئًا سوى أنها تهرع في حركتها دون فائدة.

فأومأت "إيرينا فيكتوروفنا" برأسها قائلة:

- آه، لقد تذكرنا الذكريات الجميلة التي تربطنا بالقرية، ولم نفكر في الأشياء الغريبة. لقد أصبح الأمر جليًا الآن، وسيرحل الجميع من هنا.

قال "ليشا بريوخانوف":

- سأذهب لألقي نظرة على محطة الطاقة الخاصة بنا. هناك العديد من وقود الديزل.

قال "ميرزلياكوف":

- لا تخرج للتنزه! الفودكا ستسخن.

- سأعود سريعًا.

- "داروشا" ستذهب إلى مكان بعيد.

- إلى الابن الأصغر في "أخينسك".

جاءت "زينيدا"، وأكدت حديثه قائلة:

- نعم، نعم ستذهب إلى "أخينسك". لقد درست هذه الدولة خلال ذلك الوقت. أبسط الخريطة، وأنظر ثم أنظر. هنا تقع "كوتاي"، و"بيليفو"، وليس "كولبينسك".

فأوضح "كريكاو":
- حسنًا، هذا يعني أن الخريطة ليست جديدة. "كولبينسك"، مدينة جديدة، ظهرت بسبب السد.
- نعم، هذا صحيح..
تنهد "ميرزلياكوف" بحزن:
- لقد أكلنا السمك. وسيفكر أحفادي في هذه المشكلة..
لقد كان النهر غنيًا حقًا بالأسماك، مثل سمك السلمون، و"التملوس"، و"لينكا"، و"البربوط"، و"كراكي رمحي"، و"بولباني"، و"يلتس". كما ظهر به عدة أنواع جديدة مثل سمك "البربوط" الألماني، وأحيانًا تظهر أسراب من سمك "التوجون". سرعان ما قلت عملية الصيد في العشرين عامًا الماضية، وأصبح سمك "التملوس"، و"لينكا"، ناهيك عن سمك "البربوط" و"الإستيرل" نادرين. ولم يقوموا بتخزينه بالفعل، كما حدث في الأنهار الجليدية. ليته موجودًا الآن، كنا سنقدمه الآن باعتباره شيئًا نادرًا وتذكاريًا للقرية. وفي الماضي؛ أي العام السابق، قام الرجال كعادتهم بصيد عشرين أو ثلاثين كيلو جرامًا من سمك "التملوس"، وسمك "البربوط"، الذي يتذكره جيدًا "جينكا جلوخيخ". وظل الجميع يأكلونه واحدة تلو الأخرى.
وقد أوضح أحد العلماء أن هذه الوفرة من الأسماك الكبيرة ظهرت نتيجة أن هناك سدًا عند النهر، وعلى الرغم من أن المياه تتحرك بحرية من خلال بوابات السد حتى الآن، فإن الأسماك تخشى ذلك التصرف، خوفًا من هذا البناء، وتعيش فقط في هذه الكيلومترات من محطة الطاقة الكهرومائية "أوستيلميسكي"، التي بُنيت من قبل. وظل هذا النوع من السمك يقل، حتى أوشك على الانقراض، لكن الأسماك الأخرى تنمو سريعًا، وهنا يأتي دور الأسماك العمالقة، وسرعان ما تتفوق على الأخيرة، أو تستريح عند السد، في الماء الراكد، وسيكون النهر فارغًا هنا. ويتبقى فقط طُعم السمك، ألا وهو سمك "اليلتس" الغارق.
لم يتمكن "ميرزلياكوف" من تحمل ذلك الأمر:
- حسنًا، دعونا نستمتع.
- ستأتي "جالينا" الآن، وستحضر الفطيرة، وسنشرب.
- لقد تأخرت كثيرًا.
- أريد أن آكل الفطيرة سخنة وطازجة. هكذا اعتدنا عليها.
- هل هناك زنجبيل في الزجاجة؟
- إنه عصير نبق البحر.
- إممم، سأضعه.
- لا، نحن نضع الفودكا فقط على فطيرة السمك.
أعادت "فيكتوروفنا" كلماتها المتقطعة:

- إن الأسماك شيء عظيم. كم مرة أنقذتنا. أتذكر في الحرب أنها.. ساعدت الجبهة كثيرًا. وقامت بتنظيف كل شيء في النهر. وطهينا منها الكثير. ولم يصُب أي شخص في القرية بنقص الكالسيوم في جسده، أو الكساح، لقد كان الجميع بصحة جيدة!

- نعم، هذا صحيح!

هزَّ الجميع رأسهم بالموافقة على حديثها، على الرغم من أنهم لم يتذكروا أي شيء مما تتحدث عنه حقًا؛ ففي عام ١٩٤٥، كانت "إيرينا فيكتوروفنا" تبلغ ست سنوات، أما "زينيدا" فكانت في الثالثة من عمرها، وقد وُلد "ميرزلياكوف" في الحرب، وجاءت "أوليانا" هنا بعد الحرب، كما ولد "كريكاو" في عام 1947 وسط عائلة منفية. وعلى أي حال، فإنهم قد أومؤوا بشكل عام. فقد كانت الحياة صعبة لسنوات عديدة بعد الحرب، وعلى الرغم من أنهم كانوا يأكلون الأسماك كثيرًا، فإنهم لم يأكلوا لفترة طويلة أيضًا. قال "ميرزلياكوف": - لم يتحدث أحد الملاك عن هذا الأمر. ونحن هنا نجتمع ونتحدث. أنا أتجول كل يوم حول السياج، وأدفع الجدران. يا لها من جدران ثمينة! لكن يتعين علينا أن ندمرها، فكل شيء سيحترق.

قاطعته "فيكتوروفنا"، باعتبارها الأكبر:

- حسنًا، كف عن الحديث في ذلك الأمر!

- لكنه أمر مؤسف!

- وأسفاه، ولذلك دعونا نتحدث عن شيء آخر. فالروح تتمزق، ويتمزق كل شيء معها.

عاد "ليشا"، وأمر على الفور بصب الفودكا، وعصير نبق البحر. وبعد أن رأى المسنين والعجائز منزعجين، قرر أن يذكر لهم حادثة مضحكة أخرى.

- هل تتذكرون عنزة "كايخير" وسفرها؟

- نعم، لقد شاركت القرية بأكملها في هذا الأمر.

- لقد أرهقتهم كثيرًا.

كانت "إيرينا كايخير"، أخصائية في مجلس القرية، قد أخذت عنزة. ولم يكن هناك أحد يربي الماعز من قبل في "بيليفو"، وكان أقرب مكان يعيش فيه الماعز على بعد عشرين كيلومترًا، في "كوتاي". وسرعان ما أبدت العنزة أنها بحاجة إلى التزاوج، ولذلك ظلت تخترق سياجها، ولم تدع شارعًا إلا وذهبت إليه. وفي النهاية، أخذت "كايخير" العنزة في سيارتها، وتوجهت إلى "كوتاي". لكن العنزة لم تعد ترغب في الزواج، وشرعت توخز قرون الماعز، ولذلك عادت إلى القرية مرة أخرى وحيدة. وفي اليوم التالي، ظلت تصرخ صرخات مخيفة وقاسية، رغبة في الزواج مرة أخرى. وكان على "كايخير" أن تسافر بها مرة أخرى، ولكنها جاءت وحيدة أيضًا.

قالت "زينيدا" بضحكة:

- لقد سافرت بها خمس مرات، كم لترًا من البنزين هدر هباءً؟

- نعم، كان عليها التخلي عنها.
تنهدت "فيكتوروفنا":
- وأين هم الآن؟
- مَن؟
- "كايخيرا"، لديها الآن أبناء؛ "إيرينا" و"أندري".
- لقد أعطوهم شقة في" أباكان".
صحح "ليشا بريوخانوف" حديثها:
- تقصدين أنهم أعطوهم شققًا.
- لماذا أعطوهم شققًا؟
- لقد أعطوهم ثلاث شقق، وكل شقة تتكون من غرفة واحدة فقط.
لم يستطع كبار السن فهم حديثه:
- كيف حدث ذلك؟
- لم تكن هناك شقة واحدة بها ثلاث غرف، ولذلك أعطوهم ثلاث شقق في عمارات مختلفة.
- لديهم أطفال صغار. هل عليهم أن ينفصلوا؟
- هذا ما حدث.
هزَّ "كريكاو" رأسه:
- مساكين عائلة "كايخيرا"!
- ربما سيتغيرون هناك.
ربما كانت هذه المرة الأولى لـ"إيرينا فيكتوروفنا" التي يلفت انتباهها لقب العائلات؛ فهي لم تلاحظ ذلك من قبل.
توجد عائلة "كايخيرا" و"كريكاو"، وكان هناك الكثير من ألقاب العائلة كـ"شنايدر"، و"جافرنيروف"، و"فوسوف". ولدى "أوليانا" أيضًا لقب من أصل غير روسي وصعب. لكنهم هنا سواسية، حتى الذين قد تمتد جذورهم على بعد آلاف الكيلومترات من هنا، ومن أراضي وبلدان مختلفة تمامًا، أصبحت "التايجا" وطنهم. وأطلقوا على أبنائهم أسماء روسية: "أندريه"، "إيفان"، "أليكسي"، "سيرجي"، "نيكولاي"، "ناستيا"، "جالينا"، "فالنتينا". ونتيجة لذلك، ظهرت تركيبات غريبة للأسماء: "سيرجي أوتوفيتيش فوس"، "أنستازيا جيلموتوفنا جافنير". قالت "إيرينا فيكتوروفنا": - كيف حالكِ يا "أوليانا"؟ لم تعرفي بعد أين ستقطنين؟ فقد أصبح الأمر جليًا للجميع. هل ستذهبين إلى موطنكِ الأصلي؟
- نعم.. لقد أعطونا شقة في "كولبينسك"، وسأقطن بها. أنا و"زينيدا" سنصبح جيرانًا، وسنرى بعضنا بعضًا.
قالت "فيكتوروفنا":
- لديَّ فكرة، ألا وهي أنه كان على الجميع أن يطلبوا منزلًا واحدًا، أو منازل ليست بعيدة عن بعضها بعضًا.

جادلها "ميرزلياكوف":
- حسنًا، ما الذي يحدث إذا اجتمع المسنون في منزل؟ هل سيصبح دار مسنين؟ الكآبة ستبعث فينا.
جاءت "جالينا لوجنوفا" أخيرًا بفطيرة كبيرة ملفوفة بمنشفة، ويتبعها رئيس مجلس القرية، "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك"، وبصحبته الرجل العجوز "تشوكلين فلاديمير"، ذو الذقن الكبيرة، وهو يرتدي قميصًا ممزقًا. استاءت "فيكتوروفنا": - مسكين يا "فولود"! ليتك تبدل هذا الحزام الضيق لكي تأكل كثيرًا.
- نعم، ولكنهم أخذوا كل أمتعتي إلى المدينة. لم يبقَ لي هنا سوى هذا الحزام.
ابتهج الجميع لمجيء أشخاص جدد على الطاولة كالعادة. ولكن عندما خفتت الضجة، حل الصمت المزعج والمرهق مرة أخرى. ولم يجرؤ أحد على شرب نخب الوداع، ونظروا إلى "أليكسي ميخائيلوفيتش"، منتظرين ما سيقوله. فقد ترأس "تكاتشوك"، على مدى العشرين عامًا الماضية، مجلس القرية، وكان يحاول إقناع الناس وحثهم على جمع أمتعتهم وحملها في العبارات، وعدم السماح لأي شخص بهدم وحرق الأكواخ، والمدرسة، والمستودعات، والاحتفاظ بالوقود لآخر لحظة في القرية، ومحطة "فيلدشر" للإسعافات الأولية.
في الواقع، لم يكن مضطرًا للقيام بذلك، فقد كان بإمكانه، بعد تلقيه مذكرة شقق الإسكان، أن يغادر، ويختفي، وينسى الجميع. ومن الناحية الرسمية، كان عليهم مغادرة السكن في "بيليفو" قبل شهر.
نعم، كان من الممكن أن يغادر، خاصة لأنه ليس من السكان الأصليين، بل إنه من المهاجرين، الذين جاؤوا في الستينيات، لكنه لم يغادرها، بل ظل حتى النهاية.
عندما نظر إليه أحدهم، ثم الثاني، فالثالث، ارتجفت يد "أليكسي ميخائيلوفيتش"، وهو يمسك الكأس، وقال:
- حسنًا، لقد جلسنا هنا عدة مرات في المناسبات السعيدة والحزينة. لقد حدث ذلك بالفعل، ولم تسع هذه الصالة الجميع. كان هناك الكثير منا، أما الآن، فقد ظل..
لم يتمكن من استكمال حديثه وسعل:
- نعم.. لكن الناس لم يتركوا القرية بإرادتهم الحرة.. ليس بإرادتنا مغادرة "بيليفو". لقد عاشت القرية ثلاثمئة وخمسين عامًا. وكان الناس يعرفون كيف يعيشون، وما الذي يعيشون من أجله، ولماذا. لا أجرؤ على أن أطلب منكم ألا تحزنوا، فقلبي يؤلمني كثيرًا على كل هذه الأعوام.. حسنًا.
رفع الكأس لأعلى:
- لن نقرع الكؤوس، اتفقنا؟

شرب الجميع، وجلسوا صامتين، ولم يتذوقوا الوجبة الخفيفة التي أمامهم، ثم تضوروا جوعًا بعد ذلك، فظلوا يأكلون قطعًا من الخيار، وعيش الغراب. همست "جالينا": - فلتأكل الفطيرة وهي دافئة يا عم "فولود"، أعلم أنك تحب السمك.

أكلوا بعد ذلك في صمت. كان كل شخص لديه في قرارة نفسه ما يرغب أن يلفظ به، لكنه لم يجرؤ. لقد كانوا خائفين من قول شيء خاطئ الآن. واستمر"أليكسي ميخائيلوفيتش" في حديثه، الذي عذب الجميع.

- وفيما يتعلق بالمقابر، سننقلها بالكامل. لديَّ تصريح بأنهم سيخصصون قطعة أرض في المدينة لذلك. سننقل المقابر، ونحاول أن نجعلها مماثلة لهنا.

أومأت "فيكتوروفنا":

- نعم، ليت ذلك يحدث. إن غرق الأموات هو آخر شيء نتمناه.

- نأمل ألا يسمح الرب بهذا.

- سننقل القبور والموتى والصلبان.

ظل الرئيس يتحدث بثقة كبيرة:

- سأتابع الأمر بنفسي. لن أترك قبرًا واحدًا هنا.

إن قلق الناس على المقابر ليس أقل من قلقهم على بيوتهم التي تركوها، فمن الجيد أن يظلوا معهم في عالمهم الجديد الغريب. كما سمحت الإدارة المختصة بإعداد السد للفيضانات بأخذ بقايا الجثث، ولذلك كان من الضروري حضور أقارب المتوفى لاستخراج الجثث (إنها كلمة مخيفة تهامس بها أهل القرية). كان الغالبية العظمى خائفين من هذا الأمر. ولهم الحق في ذلك؛ كيف يمكن للزوجة أن ترى نعش زوجها حيث يرقد هناك، وقد تحول إلى عظام؟ أو ابنه، وابنته، أو والديه؟ وقد وضح "أليكسي ميخائيلوفيتش" أنه من الممكن توكيل شخص آخر لحضور استخراج الجثث، وقد جمع بالفعل مثل هذه التوكيلات.

على الرغم من أنه كان مبتهجًا الآن، فإنه وعدهم بأنه سيتابع بنفسه نقل المقابر، لكنه كان مترددًا إن كان قادرًا على ذلك أم لا. فهو لم يقل مجازيًا إن قلبه يؤلمه، بل هو يؤلمه حقًا، وكان يشعر بوخزة في قلبه منذ فترة طويلة.

واصل "أليكسي ميخائيلوفيتش" حديثه:

- هناك شيء واحد فقط لن يتغير، وهو أن "ليوبا جريشينا" ستظل في متجرها.

كانت "ليوبا" تمارس التجارة في متجرها حتى وقت قريب، ولا تزال تفتح متجرها "سيفيريانكا"، وكما هو الحال في العالم المتحضر، لم يكن لديهم الوقت لاتخاذ قرار بشأن التعويض، ولذلك ستظل هنا.

كما جاءت "ألينا"، مساعدة طبيب، إلى القرية. كانت امرأة شابة، وليست قروية، تعيش بطريقة مختلفة عنهم. كثيرًا ما كانت تلعن زوجها، وهو رجل قروي، وتطلب منه دائمًا أن يسافر، في حين كان أطفالها ما زالوا صغارًا، وقد حاول الزوج كثيرًا إرضاءها. وإليكم ما حدث؛ لقد انتقل الزوج والأبناء بالفعل إلى "مارينسك"، مسقط رأسها، أما "ألينا" ظلت هنا. وأصبحت مهتمة للغاية في هذه الأشهر بالتجول مع كبار السن، وتسألهم عن حالتهم المزاجية، وتعطي لهم الحقن، وتقيس ضغط الدم. في السابق، كان من الصعب إخراجها من المنزل؛ فهناك أعمال كثيرة، وتستقبل الكثير من الناس في منزلها. كانت تقول: "تفضلوا.. الإنسان يتغير..".

تستقبلهم بهدوء، وتجلس على الحافة. كانت دائمًا قريبة من الجميع، وترعاهم، وتتأثر كثيرًا بما حولها، وتمتلئ عيناها بالدموع. وقالت بعبوسٍ، وبصرامة: - شكرًا. ليتني لم أكن هنا.

شعرت النساء العجائز بالحرج. كن صامتات، وشفاههن متعضة.

اقترحت "إيرينا فيكتوروفنا" بطريقة غير متوقعة:

- دعونا نغني. هل لنا؟

ثم لوحت "فيكتوروفنا" بشدة:

- أي أغاني لدينا الآن؟

أيدتها "زينيدا":

- وماذا في ذلك؟ اقتراح "فيكتوروفنا" جيد. هل تتذكرون ماذا كنا نحب عندما كنا صغارًا؟

وغنت دون استعداد:

- صافرة صغيرة لدى سفينة

تبحر في ظلام "التايجا"

هناك فتاتان ترقصان على سطح السفينة

والنجوم في السماء تحلق خلفها.

وغنى معها "أليكسي ميخائيلوفيتش":

- والنهر يجري إلى مكان ما، وفتيات "سيبيريا" يسبحن..

لم تَنَل إعجاب البقية، ولذلك توقفوا عن الغناء.

ثم غنى "كريكاو" بصوت عالٍ:

- ستبحر الفتيات غدًا

وسيبحر الجميع.

تنهد البقية. ولم ينظروا إلى بعضهم بعضًا. شرع "أليكسي" في صب الفودكا. ثم تفوهت "فيكتوروفنا" بعد صمتها، وبشكل لافت للنظر بكلمات من فمها، الذي فقد أسنانه، وغنوا معها جميعهم: - كان والدي محراثًا للطبيعة

عملت معه.

ثم قال "ميرزلياكوف"، ويليه "كريكاو":
- كان والدي محراثًا للطبيعة
وعملت معه.
هاجمتنا الشياطين الشريرة
وأشعلوا النار في قريتنا.
وقتل الأب في المعركة الأولى!
وأحرقت أمي في النار، وعشت أنا.
ثم قال "أليكسي"، و"زينيدا"، و"إيرينا":
- قتل الأب في المعركة الأولى!
وقالت "أوليانا":
- وأحرقت أمي في النار، وعشت أنا!
ثم غنى معهم "تشوكلين"، و"ليشا بريوخانوف":
- قُل لي، لماذا مصير الشر يحدث؟
هل دمرت منزلك؟
أنا وأختي أصبحنا يتامى.
- جلسنا في القارب وأبحرنا بهدوء بطول النهر.
رددوا:
- جلسنا في القارب وأبحرنا بهدوء بطول النهر
وتحركت الشجيرات فجأة
رن طلقة قاتلة
وأطلق الشر على أختي طلقة نار
وصرت يتيمًا بمرارة.
ثم غنوا دون أن ينظروا إلى بعضهم بعضًا، لم ينظروا إلى الأسفل أو إلى الجانب، ولكن في مكان ما آخر، كانت عيونهم مشرقة وجافة ومتوهجة في آن واحد، قالوا: - قتل أختي، وأصبحت يتيمًا بمرارة
لقد أصبحت يتيمًا
أنا يتيم ذو حظ مرير
ليس لديَّ أب وأم
ليس لديَّ أخت
ليس لديَّ أب وأم
ليس لديَّ أخت!
تسلقت جبل شديد الانحدار
ونظرت إلى القرية
كانت قريتي تحترق
موطني يحترق
وتقطعت أصواتهم في تلك اللحظة:

- كانت قريتي تحترق، كانت قر.. يـ.. تي.. تح.. تـ.. رق!
ذهبت "إيرينا" إلى منزلها. لم تقم بتشغيل الدفاية ليلًا؛ فقد قامت بفك السلك الكهربائي منها. توجهت نحو السرير، واستلقت عليه بملابسها، غطت نفسها ببطانية وبمعطف أيضًا.
غاصت في نومها، واستمتعت بغفوتها أكثر من أي وقت مضى. فقد كانت تفكر كل يوم قبل نومها في أي هراء. لكنها اليوم متعبة، ومرهقة كثيرًا. وقد كانت أفكارها مشوشة منذ فترة طويلة، والآن تشوشت أكثر فأكثر، وفي النهاية تدمر كل شيء.
استيقظت مرة أخرى، كما لو أنها لم تتمكن من نسيان ما يحدث. وفتحت عينيها ثم نظرت إلى النافذة.
كان هناك ضوء أزرق، والوقت مبكرًا. وهذا يعني أنه يتعين عليها النهوض. فلتقم، وتستكمل حياتها، وتعش.
كان جسدها دافئًا، ووجهها يرتجف، وتتنفس الصعداء. شعرت "إيرينا فيكتوروفنا" بمدى برودة الكوخ. فهو لم يدفأ تقريبًا، خاصة أنها لم تشغِّل الدفاية. وإذا شغلتها الآن، ستأخذ الكثير من الوقت حتى تشعر بالدفء، وسيحين وقت الذهاب. وستودع الكوخ، وتغادر.
أزالت الغطاء. ووضعت قدميها في "البوت". التقطت أنفاسها، وأعطت جسدها الوقت لكي تتمكن من النهوض بسلامة. ثم نهضت، ودخلت المطبخ. لم تجرؤ على الضغط على مفتاح الإضاءة لبضع ثوانٍ. ستضغط، لكن الضوء لن يظهر جليًا، وسيصبح كئيبًا تمامًا. يبدو أن النور قد انقطع، ولن يكون هناك شيء يمكن فعله. ستجلس وستتجمد في هذا الغسق.
كان هناك ضوء، نور، الحمد للرب أن "ليشا بريوخانوف" لم يذهب بعد. ربما كان في الخدمة يعمل على محرك الديزل طوال الليل. شكرًا.
غرزت الفأس في عمود خشبي، وقطعت عدة شرائح. وأخذت قطعة من لحاء شجرة "البتولا" من مقعد بالقرب من الشرفة، وأشعلته قليلًا. وضعت الشرائح على قمته. أشعلت عودًا من الكبريت، ووضعته عليهم.
انطفأ الضوء عندما وصل اللهب إلى ورقة صفراء بجانب الخشب، وظلت هناك دوامات متطايرة من الدخان الأسود. اسودَّ لحاء البتولا، وأصبح مثل لقمة العيش. لقد اشتعلت النيران فيه. وضعت "إيرينا فيكتوروفنا" قطعًا من الخشب فوق اللحاء، وأغلقت الباب. سارت ببطء ببطء شديد وهمست: - سأنتظر، وسأشعر بالدفء الآن، وكل شيء سيكون على ما يرام.
أشعلت الموقد بعد ذلك، ووضعت عليه الغلاية. تفاجأت من فكرة أنها لماذا لم تقم بتشغيله منذ بداية شعورها بالبرد؟ لكانت المياه ستصبح دافئة بالفعل، وستشعرها بالدفء.
والآن هي بحاجة إلى جمع أمتعتها، والأشياء القليلة التي يمكن أن تنقلها معها بالعبارة.

جمعت حاجتها، وأقنعت نفسها بأنها ستذهب إلى المدينة لمدة يوم أو يومين، ثم ستعود وسيكون كل شيء كسابق عهده مرة أخرى. كانت تشعر بالحنق في حلقها، وكأن دموعها تتمزق في عيناها. ابتلعت "إيرينا فيكتوروفنا" هذه الدموع المريرة، لكنها سرعان ما تسابقت دموعها مرة أخرى، وانتحبت، ولم تتمكن من السيطرة على نفسها، وكأنها فقدت قواها. شعرت بالحزن، كما لو كانت تحفر قبرًا.

كانت الغلاية تصفر، ويتصاعد البخار منها مثل البارحة. فتحت "إيرينا فيكتوروفنا" غطاء إبريق الشاي. ووضعته على الطاولة، وانتظرت الشاي يبرد.

كانت خائفة من أن تجلس ولا تتمكن بعد ذلك من النهوض. ذهبت إلى الخزانة الجانبية، أخذت الكوب من الرف. في السابق، كان هناك العديد من الكؤوس، والأكواب، والأطباق، والصحون. الآن أصبح الرف فارغًا تقريبًا. لقد أصبح كل شيء داخل الصناديق والحقائب. كانت هناك مائدة مستديرة بأرجل متهالكة، وكراسي فوق بعضها بعضًا، وسجاجيد مربوطة كالأنابيب، وثلاثة أسِرَّة وخزانة ملابس مفككة، هناك فقط كرسي وحيد يمكنها الجلوس عليه؛ حيث كان زوجها يحب الجلوس عليه في المساء، وهو يتحدث معها.

عندما يأتون، سيكون كل شيء على ما يرام، فقد قامت بتفكيك الأثاث، وأغلقت الصناديق والحقائب. وظلت تتفحص الغرفة، والمطبخ، والحمام، والرواق. كان هناك مدخل خلف الباب، يصل الكوخ بالفناء، والحظيرة، والحمام أيضًا، والحطاب، والحديقة.

وضعت الشاي في الكوب، وألقت علبة الشاي في القمامة، انتظرت بضع ثوانٍ، ثم سكبت مرة أخرى في الكوب ورفعت الإبريق. شعرت بالأسف لكون الماء قد غلى كثيرًا، وكان عليها أن تكون يقظة. عادة ما تصب الشاي، وتشربه أو تضع معه بضع حبات من التوت. كانت تجفف التوت في الشتاء، وتلفه في أكياس بلاستيكية، وتجمده، لأنه يزرع فقط في حديقتها في فصل الربيع. أما الآن، أين ستزرعه؟

كانت "إيرينا" تستفيد بكل شيء معها، ولم تكن هناك فضلات لا قيمة لها. كانت تحرق ما ليس به منفعة، أما الفضلات، فتستخدمها في الحديقة. لكن الأمر مختلف جدًا في الشقة، سيتعين عليها إلقاء الكثير، بل وإلقاءه في دلوٍ، وأخذ الدلو بعد امتلائه إلى حاوية في الفناء. ثم تُؤخذ هذه الحاوية، وتُلقى في القمامة. ستزداد الأراضي البور.. إنها حياة المدينة.

وضعت الكوب فوق الطاولة، وجلست، أخذت كسرة من البسكويت من الكيس، ووضعت عليها سكر، ثم سكبت الشاي عليها بالمعلقة. قضمت قطعة من البسكويت بأسنانها الأمامية، التي ما زالت سليمة.

عندما شرعوا أمس في تنظيف الطاولة في النادي، تركوا أطباقًا من الطعام ونصف زجاجة فودكا وشراب نصف مخمور.

قالت "زينيدا" لـ"جالينا لوجينوفا":
- ماذا سنفعل بهذا الطعام؟
ثم لوحت نحوه:
- أين سنضعه؟ فلن نتمكن من تسويته في موقد الشقة.. سنتركه هنا.
كانت هناك فطيرة كاملة من سمك "البربوط". لم تستوِ بعد، لكنها بالتأكيد ذو مذاق جميل.
- أين سنضع كل هذا الطعام؟
ومض المصباح مرتين، رفعت "إيرينا فيكتوروفنا" رأسها في فزع، ونظرت إلى المصباح، وتوقعت الآن أنه سيضيء مرة أخرى. لا، لن يضيء بعد الآن، فقد توقفت الكهرباء في "بيليفو".
حاولت أن تهدئ من روعها:
- ما زال لديَّ وقت لتناول الشاي.
أكلت البسكويت وشربت الشاي سريعًا. نهضت من الكرسي، ووصلت إلى العتبة، وخلعت سترتها، ووضعت عليها وشاحًا جديدًا. أخذت الدلو الذي تتبول به، وخرجت.
كان كل شيء رطبًا في الفناء، ليس من المطر، ولكن من الصقيع المُذاب. هناك ضباب رمادي كثيف معلق في الهواء.
ذهبت "إيرينا فيكتوروفنا" بحذرٍ، خائفة من الانزلاق، إلى كشك المرحاض. فكرت بجدية في أنه كان عليها غسل الدلو جيدًا، وربطه بطريقة أو بأخرى، وأخذه معها. إنه يساعدها كثيرًا. ثم عادت إلى رشدها، وضحكت بسخرية، وقالت: - لماذا سأفعل ذلك؟ بالطبع سيكون هناك مرحاض.
شعرت بشيء ما يربطها مثل السلسلة على رقبتها. وشرعت تفرك بيدها اليسرى في رقبتها، وكأنها تحرر نفسها.
ذلك الشعور الذي انتابها نتيجة تفكيرها: لماذا يتوجب على امرأة في الخامسة والسبعين من عمرها الذهاب إلى مكان آخر.. لماذا ستعيش هناك؟ كيف ستعيش كل يوم في هذا الصندوق الخرساني؟ ومَن مِن أولادها يمكنها العيش معه؟ لكنهم أيضًا يعيشون في تلك الصناديق الخرسانية.
سمعت ضجة في الفناء الخلفي. وكأن هناك شخصًا ما يسرق.
تركت "إيرينا فيكتوروفنا" الدلو، وسارعت إلى الضوضاء. كانت دائمًا "تشيرنوشكا" تحميها من الكلاب، والقطط، والغربان، وكذلك الفئران.
- الآن سأنال منك.
كانت تتحرك إلى الأمام، وهي غاضبة كثيرًا، وتتخيل كيف سترى الكلب الصغير وكيف ستضربه بالوتد.
- ها أنتِ أيتها القذرة! لا تتسلقِي! لا يمكنكِ ذلك!
أردت حقًا أن تضربها. كانت الدجاجة تهرع خلف السياج من القطبين السميكين. رجعت إلى الوراء خطوة أو ثلاث.

فتحت "إيرينا فيكتوروفنا" البوابة الضعيفة:
- "تشيرنوشكا"، يا "تشيرنوشكا"! كيف نسيتكِ؟
بدت الدجاجة الآن، في الضباب البارد، صغيرة جدًا وبائسة. وقفت أمام صاحبة الكوخ، وخفضت رأسها.
- لقد تجمدتِ، وليس لديكِ شيء تأكلينه الآن. دعينا نذهب إلى الداخل في الدفء، وسأطعمكِ.
كانت صافرة إنذار العبارة تضرب في النهر؛ حيث جاءت إلى القرية. أمسكت "إيرينا فيكتوروفنا" بالدجاجة، ونسيت دلو التبول الخاص بها، الذي تركته على الطريق، وركضت إلى الكوخ.
كانت تنتقل من زاوية إلى أخرى، وتدفع كل شيء يقابلها. كانت ترغب في تشغيل الموقد. اختنقت قليلًا. وضعت "إيرينا فيكتوروفنا" السلك، ولم تستطع معرفة ما إذا تم توصيل السلك سيتصل بالكهرباء أم لا. وتذكرت أنها بحاجة إلى أخذ الموقد معها، وسرعان ما شرعت تحسس على "تشيرنوشكا". نظرت إلى الموقد، وقالت: - لماذا أنا بحاجة إلى أن آخذه معي في المدينة؟ إنه يحتوي على ثلاث شعلات.
ثم نظرت إلى حقيبتها، وقالت:
- وأين سأحشره؟ سآخذه في وقت لاحق.
ثم شعرت فجأة أنها بحاجة إلى فك المصابيح، وأخذها معها، فهي بحاجة إليها.
سحبت مقعدًا، وشرعت في الصعود عليه:
- لا، سأسقط.
ثم جلست على المقعد. ونظرت إلى الدجاجة. كانت "تشيرنوشكا" تقف بالقرب من الموقد. تقف دون حراك، وكأنها متحجرة.
قالت "إيرينا فيكتوروفنا":
- سنذهب إلى منزل آخر.
ثم نهضت، وسكبت الماء في وعاء.
- تناولِي المياه. فطريقنا طويل. والآن سأشرب أنا.
لقد عثرت على أكياس بلاستيكية، ووضعت أحدها في الآخر، وهرعت إلى الحشد. جمعت هناك عدد من القوارير الصغيرة، فأصبح هناك عدد أكبر من القوارير. كانت تأمل في الاستقرار، اشترت الشهر الماضي حقيبة كبيرة، وأتضح أن هذا كان من دون فائدة.
كانت تخرج أنفاسًا عميقة من أنفها، حاولت تذكر تلك الرائحة النفاذة، التي كانت تخرج من بيت الدجاج. أين ستجد تلك الرائحة مجددًا؟ ورائحة القرية بعد سقوط حبات الثلج الأولى؟ وبعد الري في الليل الدافئ؟ والرائحة التي تأتي من الموقد في الكوخ البارد؟
وهنا صدر صوت من الشارع:

- العمة "إير"! العمة "إيروو"!
عرفت على الفور أن هذا "ليشا بريوخانوف". لماذا جاء؟ ذهبت إلى البوابة، بينما كانت تمسك بحقيبة القوارير وتضمها إلى صدرها.
سأل "ليشا" بقوة قائلًا:
- ماذا، هل أنتِ مستعدة؟ حان وقت الذهاب.
فشعرت "إيرينا فيكتوروفنا" بالحيرة. الآن وإلى الأبد. قالت:
- هل حان الوقت بالفعل؟
- لقد جمعت أغراضي. يمكنني المساعدة.
- حسنًا.. ساعدني، عزيزي.
دخلت "إيرينا فيكتوروفنا" إلى المطبخ وأخذت تنظر حولها، وكأنها غريبة عن البيت. لم ترَ الحقيبة المصنوعة من القماش على الفور.
- ها هي الحقيبة، أما أنا فسأحضر الحقيبة الأخرى.
تذكرت "إيرينا" بعد ذلك أمر القوارير، التي في يدها، ثم عثرت على "تشيرنوشكا". كانت الدجاجة كسابق عهدها تقف بجوار الموقد ولا تتحرك، حتى أنها لم تخف من مجيء الشخص الغريب.
- "ليشا"، "ليشا"! أريد.. أريد غلق الكوخ جيدًا، أيمكننا هذا؟ لا أريد أن يدخل أحد إلى هنا.
- وهل ستوقفهم الأقفال؟ إذا أرادوا الدخول، فلن يمنعهم شيء. ولكن لنفعل هذا، ونتمنى أن يظل الأمر محكمًا.
أومأت "إيرينا فيكتوروفنا" برأسها. ورغبت في السؤال عن المصابيح الكهربائية، لكنها أدركت أن حملها سيكون نوعًا من أنواع الهراء. وكيف لها أن تحملها؟ ستنكسر. وضعت في الحقيبة كمية من الحبوب المطحونة. ثم تسمرت في مكانها وتذكرت كل شيء أخذته. فقال "ليشا" بهدوء: - لنذهب يا عمة "إيرينا".
- ماذا؟ حسنًا.
وأخذت "إيرينا" الحقيبة.
- عمة "إيرينا"، هناك دجاجة.
- أها.
انحنت "إيرينا" وأمسكت بـ"تشيرنوشكا" تحت ذراعها، فلم تبدِ الدجاجة أي مقاومة، حتى أنها لم تبسط جناحيها حتى تحافظ على توازنها. قبضت قدميها وفقط.
سارت "إيرينا فيكتوروفنا" خلال الفناء موجهة نظرها إلى الأمام فقط. ولم ترَ سوى حلقات سلسلة البوابة التي كانت تهتز. ستنفتح البوابة، وتسمح لها بالخروج إلى الشارع، وسينتهي الأمر.
تحركت الأجسام المظلمة ببطء تحت السراب الدخاني باتجاه النهر. وعلى الظهور تُحمل حقائب الظهر وحقائب اليد والأكياس؛ آخر شيء أخذوه إلى

الحياة الجديدة.
أخذ "ليشا" الأشياء من "إيرينا فيكتوروفنا" إلى المرسى، وأخذ يركض وراء شخص ما.
كان الرجال، الذين يرتدون سترات خارجية ثقيلة وقبعات الفرو السوداء، التي تغطي الآذان، يخرجون المعاول والخطافات والصناديق. وفي بداية الشارع، كان يصدر صوت عن تشغيل بلدوزر جديد أصفر اللون بجرافة. كانت المعدات المحلية الأخرى تنظر إليه كأنه وحش مفترس، فيبتعدون عن طريقه، ويتوقفون عند حافة المرسى. يُنزلون الحمولة وينتظرون. سألت "زينيدا" باندهاش قائلة: - "روس"، ما هذا؟ هل أخذتِ الدجاجة معكِ؟
فمزح "تشوكلين" الواقف بالجوار قائلًا:
- حسنًا، ليس لديها قطط، لذلك تحتاج إلى شيء آخر.
أجابت "إيرينا" وهي تدرك جيدًا أن كشفها للهدف من أخذها لدجاجة حية إلى المدينة لن ينجح:
- هذه "تشيرنوشكا"، لم أقدر على.. لم أقدر على ذبحها.
- إنها هي التي تضع بيضتين في اليوم؟ ولكن كيف ستعيش معكِ في الشقة؟
- لا أعرف، ما زلت لا أعرف شيئًا.
فتنهد "تشوكلين" قائلًا:
- لا أحد يعرف شيئًا عن هذا.
فصاح رجل كبير، كان يبدو من هيئته أنه رئيس العمال. وقد نظر إلى الرجال والسيدات العجائز وأمر قائلًا:
- كل شيء انتهى. فليصعد الجميع.
هرع اثنان أو ثلاثة من العجائز إلى العبارة حتى يجلسوا كعادتهم في المقصورة، لكنهم فكروا سريعًا وتوقفوا. وقد خافوا من تجاوز الخط.
شعر رئيس العمال بالغضب قائلًا:
- لقد أمرت الجميع بالصعود، ليس هناك وقت للانتظار! ما زال هناك ثلاث قرى في طريقنا.
سألت "زينيدا" بحيرة:
- وأين "أليكسي ميخائيلوفيتش"؟
- "فيكتوروفنا" ليست موجودة أيضًا.
- آخ! لعل الأمور تسير على ما يرام.
وهنا ظهر رئيس المجلس الريفي و"ليشا بريوخانوف" و"فيكتوروفنا".
كانت "فيكتوروفنا" تسير بهدوء وصعوبة، تنحني إلى الأمام مع كل خطوة، فكان الرجال يسندونها من الناحيتين.
قال "أليكسي ميخائيلوفيتش" لرئيس العمال:

- ما زالت هناك امرأة أخرى. لديها متجر وبضائع. كان عليها في الأيام الأخيرة أن تحل قضية التعويض. لا ترحل من دونها.

- حسنًا، فهمت.

فقال "تكاتشوك" بنبرة مرتجفة:

- هل أنت متأكد؟

- نعم، كل شيء واضح، تعالَ.

كان الناس ينتظرون حتى يقترب الرجال و"فيكتوروفنا"، ويتوجهون إلى العبارة. المقاعد كثيرة، ومع ذلك لم يجلس أحد. كانوا ينظرون إلى البقع السوداء للأكواخ التي تظهر بين السراب الأبيض.

أخذت العبارة تبتعد عن المرسى وتغادر "بيليفو". كان البلدوزر على الشاطئ يخرج سحابة كبيرة من الدخان ويهتز باستمرار، كانت النساء يبكين بمرارة والرجال يبحثون عن السجائر. أصدر القبطان صفرة الإنذار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
سراب تحت الماء

كانت هذه هي المرة الأولى التي ذهبت فيها "أولجا" إلى منطقة "كوتاي" رغمًا عنها؛ فقد أوكل إليها رئيس التحرير مهمة، وعليها أن تطيعه.

في حقيقة الأمر، يجب إرسال الصحفيين الرجال إلى مثل هذه المهمات، ولكن لا يوجد صحفيون في الجريدة. هناك فقط كبار السن، الذين يجدون صعوبة في الانتقال من مكتب إلى آخر، أو شباب مدارس الأمس، الذين تعد أبسط مقابلة بالنسبة لهم أسوأ من الذهاب إلى طبيب الأسنان. ثم يبحثون بعد ذلك عن المعلومات على الإنترنت، ويعيدون كتابتها بكلماتهم الخاصة. فالنساء هنا تتحمل عبء المراسلين والصحفيين.

تعد صحيفة "صوت العامل"، التي عملت فيها "أولجا" ذات يوم، الصحيفة الرئيسية في المقاطعة، كما تعد الجهاز الرسمي للجنة الإقليمية للحزب. وقد بُني لهذه الصحيفة مبنى مكون من اثني عشر طابقًا في وسط المدينة، ويوجد بالقرب منها جراج للسيارات، وتقع دار الطباعة على بعد مبنى واحد من مكتب التحرير. وقد بلغ عدد موظفي الصحيفة في أواخر الثمانينيات أكثر من ثلاثمئة شخص.

كما نشرت صحيفة "صوت العامل" في أثناء انهيار العصر السوفيتي رسائل رسمية ومقالات حول الإنجازات، وانتقدوا الإمبريالية والجيش الأمريكي. لم تغير "بيريسترويكا" سياسة الصحيفة كثيرًا، ظهرت بالفعل صحيفة جديدة وجريئة في المقاطعة، وأصبحت المنشورات القديمة أكثر جرأة، واستمرت "صوت العامل"، كما قالوا في ذلك الوقت، تغني النغمات نفسها التي غنتها من قبل تحت حكم "برجنييف".

لم يقلق الغالبية العظمى من الفريق بشأن وضعهم كمسؤولين متقاعسين. لقد كانت رواتبهم كبيرة، وكان لكل موظف مكتب منفصل، ولم يكن هناك الكثير من العمل للقيام به. فلتجلس، ولتشرب الشاي، وإذا لم ترغب في ذلك، فلتخبر رئيس القسم أنك تريد حضور اجتماع للجماعة العمالية، أو تحضر اجتماعًا نقابيًّا، ثم تذهب إلى منزلك.

من غير المحتمل أن تسأل عن الموضوع الذي تكتب عنه. عندما انخرطت "أولجا"، التي بطبيعتها فتاة بطيئة وحالمة، بعد أن تخرجت في قسم الصحافة في صيف عام 1991، في العمل بـ"صوت العامل" وقُبلت بشكل غير متوقع في الصحيفة دون كتابة أي مقالات تقريبًا، وأعربت عن دهشتها بسهولة قبولها في ذلك القسم المرموق، لكن فرحتها لم تدم لفترة طويلة. فقد حدث انقلاب في موسكو بعد حصولها على العمل بشهر واحد، تلاه

انتصار الديمقراطية، وبدأت حقبة جديدة بحرية حقيقية. لقد انتهت فترة الرفاهية، ولم تزد الرواتب، وانخفض الروبيل في الأسواق، والأهم من ذلك أنهم امتنعوا عن الحصول على عبوات المواد الغذائية، والتي كانت تعطيها لهم هيئة التحرير حتى ذلك الحين، بما في ذلك مواد النظافة. وأصبحت الجريدة على الفور مثل الآخرين. وقد انهار الدعم، وأصبح الورق باهظ الثمن، بل ونادر الحصول عليه، وكانوا يتهافتون للحصول على لفة من الورق، وانفصلت دار الطباعة عن الجريدة، وأعلن بيع جريدة "صوت العامل" على مضض.

أصبحت الحياة صعبة في الصحيفة، وكان ينبغي على "أولجا" أن تستقيل منذ فترة طويلة. في البداية، عندما كانت صغيرة، كانا والداها يصرفان عليها، وكان عملها بالنسبة لها مجرد هواية تقريبًا. ثم تزوجت رجل أعمال بسيطًا، لا يركض وراء الثروة، لكنه ما زال قادرًا على إعالة أسرته. لذا جلست في المكتب، على الرغم من أنها الآن لم يعد لها مكتب منفصل، بل شارك فيه ثلاثة موظفين آخرين.

نعم، ولا يمكنك القول إنها كانت جالسة، مستمتعة بكوب الشاي. لا، الآن عليها أن تعمل، وهذا أمر غريب. وعلى الرغم من أن الراتب كان لا يُذكر، فإنها كان لديها شغف لكتابة شيء يثير الكثيرين.

لم تحب "أولجا" رحلات العمل، خاصة الخارجة عن المسار المطروق ودون غرض محدد. كانت رحلتها الأولى إلى منطقة "كوتاي" في صيف عام ٢٠٠٧ بالضبط. وقد دعاها رئيس التحرير، وقال:

- فلتأخذي جولة هناك، وانظري كيف يسير الأمر المتعلق باستكمال بناء محطة الطاقة الكهرومائية، وكيف يعيش الناس هناك بشكل عام في المدينة، وفي القرى المجاورة. فلتعدِي تقريرًا عن هذا الأمر. وسيعطيكِ المحاسب بدل السفر، ومرتبك الشهري.

حاولت "أولجا" العثور على سيارة ذاهبة إلى المنطقة المطلوبة عن طريق سؤال من حولها. لكن انتهى بها الأمر بشراء تذكرة على متن الحافلة التي هي ذاهبة على الخط نفسه. كانت فكرة صائبة جدًّا، فقد اتضح أن الحافلة كانت كبيرة وقوية؛ فإذا كانت ركبت مع شخص ما بحوزته سيارة "لادا"، ربما كان تعثر في وقت ما، في طريقهم. وكان الطريق متمايلًا بعض الشيء، وبه العديد من التعرجات.

لا، في البداية كان الطريق جيدًا، ومليئًا بالإشارات، والأعمدة على جانب الطريق. هناك قرى ذات منازل جميلة على الطريق. وعندما وصلت إلى "كانسكا"، أصبح الطريق متعرجًا، وليس به أسفلت، بل ومظلمًا، وضيقًا، وأصبح هكذا لعشرات الكيلو مترات، بينما كان طريق "التايجا" ذا تربة رطبة بدا في بعض الأحيان أنه لم يكن هناك طريق آخر، توقفت الحافلة لعدة

دقائق، كما لو أن السائق يحاول أن يجد حلًا، ثم قاد الحافلة مخترقًا الطين، أو بركة تشبه البحيرة.

استغرقت الرحلة إلى "كولبينسك" - مركز مقاطعة "كوتاي" - أكثر من عشر ساعات. من الجيد أن "أولجا" حجزت غرفة في فندق صغير، فعندما وصلت، ألقت نفسها على الفور على السرير ونامت.

تجولت في اليوم التالي حول المدينة، ولاقت إعجابها كثيرًا. فقد كان هناك الكثير من البيوت المنقوشة والمطلية بألوان مختلفة. وكانت هناك منازل متكونة من تسعة طوابق، وخمسة طوابق، وأكواخ من طابقين أيضًا. كانت الشوارع نظيفة، وكل شيء مرتب. لم تستطع حتى تصديق أن مثل هذه المدينة تقع بعيدة هكذا عن العالم الخارجي الكبير ذي السكك الحديدية والطرق السريعة والمدن العملاقة.

كانت "أولجا" من المواطنين الذين نادرًا ما يسافرون إلى الخارج، من المثير للغرابة دائمًا بأن هناك الكثير من الناس يمكنهم، والأهم من ذلك، يرغبون في العيش في القرى النائية، خاصة في الأكواخ، دون جهاز التدفئة في الشتاء. فعلى سبيل المثال، ستتحول المياه التي بالدلو، بعد ساعات قليلة، إلى جليد.

لماذا يحدث هذا الصراع اليومي من أجل الوجود وبمحض إرادتك فقط؟ بالطبع كانت القرى أمرًا مهمًّا قبل مئتي عام، لكن الأمر تغير الآن كثيرًا، فقد عرفت البشرية بسرعة منذ فترة طويلة بناء المباني الشاهقة، وأقامت العديد من توصيلات المياه، بل وأجهزة التدفئة المركزية، وحفرت مئات الكيلو مترات من الأنفاق للمترو، بل وتمكنت من السيطرة على الازدحام المروري، ولم يعد المجتمع المتحضر بحاجة إلى هكتارات لا نهاية لها من الأراضي لزراعة الكمية المطلوبة من القمح والبطاطس والخيار. ولم تعد كل عائلة بحاجة الآن إلى بقرتها الخاصة، أو خنازيرها، أو دجاجها، بل وأغنامها أيضًا.

تسعى البشرية دائمًا إلى تحقيق الاستفادة القصوى من الاقتصاد، لكن هذه القرى، التي تضم مئات أو أكثر من السكان، تعيق التقدم. فهم لا يعيشون فقط بشكل منفصل عن العالم الكبير، لكنهم يطالبون أيضًا بإحضار السلع الحضرية إلى متاجرهم، ولديهم طبيب، ونادٍ لعرض الأفلام، ومدرسة، ورياض أطفال، وكذلك وظائف غير مربحة للدولة.

كم من أطفال محرومين ينشؤون في البرية دون متاحف ومسارح بل ومدارس رياضية، كم من مواهب دُفنت في القرى، وكم من أفكار فسدت. وطموحات زائفة في منعطفات منغلقة في القرى النائية في البلاد، وقد ذكرت في الكثير من الكتب في القرن التاسع عشر، ولكن لم يتغير إلا القليل.

أبدت "أولجا" اهتمامًا كبيرًا لسكان مدينة "كولبينسك" ولبناة محطة الطاقة الكهرومائية (وذهبتْ إلى السد على سيارة دفع رباعي)، وحاولت أيضًا الذهاب إلى القرى، التي كان من المقرر التخلص منها.

كما قامت بزيارة القرية الأقرب لـ"كولبينسك"، ألا وهي "بولشاكوف"، وذلك من أجل موضوعية المقال. كانت تبعد عن القرية بأربعين كيلو مترًا من الطرق غير الإسفلتية. وكانت القرى والبلدات الأخرى أقرب، إما بسبب بناء محطة توليد الكهرباء، أو بسبب الخراب الذي حل نتيجة ذلك البناء، فاقتربت المدينة. تبلغ مدينة "بولشاكوف" أكثر من مئتي عام، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ألف شخص، يعيشون في عالمهم الخاص.

في ذلك الوقت، لم تكن قضية الترحال قوية كما حدث بعد سنتين أو ثلاث. يبدو أن الفيضانات ستكون قضية المستقبل البعيد. وكما فهمت "أولجا"، لم يؤمن السكان، أو بالأحرى، لم يرغبوا في تصديق أن ذلك سيحدث. كانوا يبررون ذلك بقولهم:

- قبل ثلاثين عامًا، كانوا يرتعدون من ذلك الأمر أيضًا. لقد كان الفيضان على وشك أن يحدث. وقالوا إن علينا المغادرة. ودمرت الأراضي الزراعية، لكن لم يحدث شيء. وغادروا على الفور.

قالت "أولجا"، وهي لا تعرف حقًا عما تسألهم:

- لكن بناء محطة الطاقة قد استؤنف. فما خططكم؟

- حسنًا، دعينا نرَ كيف سيجري الأمر. لقد حدث ذلك كثيرًا، يأتون ويقولون ذلك، ثم يذهبون، ويأتون مرة أخرى.

كانت الأكواخ في القرية مرتفعة، وواسعة، مثل القصر، ومحاطة بسور من الخشب كالحصن. كل منها يحتوي على مراحيض وحظائر. كان من المكن إجراء بعض من الإصلاحات والتجديدات الطفيفة على مثل هذه القصور الريفية حتى تظل إلى الأبد.

لم تكن "بولشاكوف" تشبه على الإطلاق تلك القرى المتعفنة، والتي تقع بالقرب من المركز الإقليمي، ويعيش بها التعساء، والمتسولون، والمطرودون من القرى الأخرى. لم يكن في "بولشاكوف" منازل عشوائية أيضًا. لا، لقد كانت إحدى قرى "سيبيريا"، التي أصبحت "سيبيريا" بفضلها أرضًا روسية ليس رسميًا فحسب، بل بسبب كونها الأرض التي وُلد عليها الكثير من الروس.

فوجئت "أولجا" بالحدائق. يبدو أنه في شمال "التايجا" يوجد نهر، وكانت الحدائق تحتوي على بطيخ وباذنجان وطماطم.

بحثت "أولجا" في الإنترنت من قبل لكي تحصل على معلومات عن هذه المنطقة، ولاحظت أن الأراضي الزراعية قد اختفت. أخبرت أهل "بولشاكوف" بهذا الأمر ولوَّحوا بأيديهم:

- نعم، كل شيء يُزرع! نحن نزرع تحت الصوب البلاستيكية في أواخر مايو، فتنضج قبل وصول صقيع الخريف.
وأضافوا إنهم زرعوا قبل ذلك بذور "الجاودار" و"الشوفان" وكذلك القمح. ولم يستوردوا شيئًا من قبل.
قررت "أولجا" أن تطرح عليهم سؤالًا متخصصًا:
- لكنكم لديكم الكثير من الخنازير. من أين تحصلون على طعامهم؟ لا يمكنكم إطعام الخنازير بالعشب.
- نعم، نحن نطهو لهم البطاطس. ونطعمهم أشياء أخرى. هناك رجل يُدعى "ماتسيفسكي فاسيلي" يعيش في "كوتاي"، وهو عامل مخلص، يعطي لنا جميع أنواع الأطعمة، واللحوم.
- يفعل ذلك بنفسه؟
- حسنًا، بالطبع يعمل معه العمال، وجميع أفراد أسرته. فهو لديه جرارات، ونشتري منه صغار الخنازير أيضًا؛ فهو لديه أنواع وفيرة من الخنزيرات الحوامل، بل ومصنع كامل.
ثم قال الآخرون:
- نحن لدينا هنا أيضًا "ماسلياكوف". يعمل في الألواح الخشبية، ولديه منشار. وكان لديه مخزن "الخردة"؛ من "إينسيسكايا". ويقوم بجمع هذه الألواح الخشبية ويرممها.
قام رجل عجوز، ربما عاش عدة فترات مختلفة، بتلخيص هذه المحادثة:
- باختصار، إذا كنتِ جئتِ إلى هنا لكي تعيشي، يمكنكِ العيش هنا، ولا تعيرِي اهتمامكِ نحو ما يحدث. لماذا يريدون تلك المحطة؟
ابتسم شاب يُدعى "فيتالي"، والذي رافق "أولجا" طواعية في طريقها لـ"بولشاكوف":
- إنها الحضارة يا جدي "ساشا"! الحضارة تتطلب التضحية.
لم تغير تلك الرحلة موقفها تجاه القرى، بل والأماكن النائية، لكنها جعلتها تتساءل فيما إذا كان من الصحيح مغادرة سكان القرى لموطنهم أم لا.
وخلال السنوات الثلاث والنصف التالية، زارت "أولجا" المنطقة عدة مرات. ورأت ما يحدث في "كولبينسك"، وكيف يرتفع سد محطة الطاقة الكهرومائية، ولكن، في الوقت نفسه، كيف ستنهار القرى، وسيتركها مواطنوها.
تعد "بولشاكوف"، المركز الإقليمي السابق لـ"كوتاي"، "وبيليفو"، و"بروكولوف"، و"أوسفو"، و"سيرجوشينكو"..
لقد حاول أهل القرى تصعيد الأمر للمحاكم، والامتثال أمام القانون بالدموع والفضائح والعراك. وكان مساجين مستعمرة العقاب يدمرون الأكواخ السكنية، في الوقت الذي كان فيه المالكون يغادرون القرية لفترة من الوقت، ويقومون بالحرق العمد، وكذلك تقييد الممتلكات المصدرة. وقد

وعدوا بإعطاء عائلة "كاماز"، التي تتكون من أسرتين أو ثلاث، شقة في "نازاروف"، بالقرب من المركز الإقليمي. وفي اللحظة الأخيرة، عندما كان الناس يتركون الكوخ بالفعل، قالوا لقد حدث خطأ ما، وسيكون لديكم شقة في مكان آخر، إما في "كانسك"، وإما "بوجوتول" الفقيرة.

جمعت "أولجا" عشرات القصص من القرويين، ونشرت مقالات حول هذا الأمر، وتطوعت في كثير من الأحيان للذهاب إلى منطقة الفيضان. وأظهرت من خلال مقالاتها الكثير من الأبطال، وتابعت مصيرهم. فعلى سبيل المثال، كان هناك رجل يدعى "ألكسندر بيكر" من "كوتاي". كان لديه منزل من الخشب وقارب. ويقبض معاشًا كافيًا يبلغ ستة آلاف. وقد عُرض عليه شقة مكونة من غرفة واحدة في "كولبينسك". شرع "بيكر" بتقديم طلب عن أن يأخذ شقة بحديقة. وردَّت الإدارة بأن "قطع الأراضي غير متوفرة". ثم قال: "وما الذي سأعيش فيه؟ وهل سأجمع الزجاجات؟". رفض "بيكر" الترحال. لقد عاش لأكثر من عام في قرية نظيفة دون كهرباء، ودون مركز طبي، بل ودون منتجات مستوردة أيضًا. وفي شهر نوفمبر، أصيب بالشلل. وقد أنقذ مارة "بيكر" من فراش الموت. كانوا يمرون عبر "كوتاي" المدمرة من أجل الصيد، ورؤوا منزله. ودخلوا فيه، وبدلًا من أن يشربوا الشاي الساخن، الذي كانوا يأملون به، اضطر الصيادون إلى اصطحاب صاحب المنزل إلى أقرب مستشفى على بعد ستين كيلو مترًا. والآن تم تسجيل "ألكسندر بيكر" في منزل المعاقين، وحُرق منزله بسرعة، وكُتب: "نشبت الحريق لأسباب مجهولة".

هناك مثل هذه القصة الكثير. عاش "نيكولاي بيسونوف" في "كوتاي". كان رجلًا مرموقًا، ليس فقط في المنطقة، بل في المقاطعة، فقد كان مؤرخًا محليًّا، ومستكشفًا قطبيًّا فخريًّا، بل ومصورًا محترفًا قامت وكالة الأنباء الروسية "تاس" باستخدام صوره. وكان "بيسونوف" مسجلًا مع والدته وشقيقته مع أطفالها. وقد أعطوا والدته وأخته وأبناءها عددًا من الأمتار المناسبة، ولكن يبدو أنهم قد نسوا ببساطة نصيب "بيسونوف". وعندما قاموا بتجميع القوائم المتعلقة بإعادة التوطين، كان اسمه في المجموعة التالية. تنهد "بيسونوف": "على ما يبدو، إعادة التوطين آفة من آفات السبعينيات".

وهناك قصة أخرى. لقد استأجر كبار السن من قرية "بروكولوف" شقة في "كولبينسك"، وحصلوا على الكثير من المال. وكان من بينهم رجل عجوز قد خضع لعملية إزالة ورم خبيث، وكان بحاجة إلى إشراف طبي. وكان لدى هؤلاء المسنين منزل أيضًا في "بروكولوف". لذا اعتنى به الجيران في وقت غيابهم. فقام مساجين مستعمرة العقاب بحرق هذا المنزل بكل ما فيه. وخصص لهم شقة مكونة من غرفة واحدة، ولم يعطوهم تعويضًا عن تدمير

الأثاث، والأواني. ولم تحتوِ الشقة الجديدة أيضًا على أوانٍ للطهو.. "بالطبع سيساعدنا أبناؤنا لكن الأمرَ المؤسف والمؤلم أن نعامل كالأعداء".

نعم، هناك العديد من القصص والعشرات ممن هلكوا أيضًا. ولكنهم قاموا بإعادة توطين أقل من ستة آلاف شخص. ألا يستطيعون أن يخلقوا لهم ظروفًا ليست أسوأ مما كانوا عليها، وألا يتم أخذهم طواعية من منازلهم؟ ذهبت "أولجا" في حالة من الهلع إلى منطقة الخزان، محاولة العثور على إجابة لهذه الأسئلة، ولتحقيق العدالة. والآن، ربما تكون هذه الرحلة الأخيرة من رحلات عملها في يوم ١١ فبراير ٢٠١١. لم يبقَ شيء تقريبًا في "بولشاكوف". كانت هناك أشياء مغطاة بالثلوج مثل الجرارات والمواقد والأنابيب، وبواقي جذوع غير محترقة، ولفائف من أسلاك خطوط الكهرباء المدمرة، وأجزاء من الحديد الممزق، والأسرَّة.

كانت هناك فقط أربعة منازل مأهولة بالسكان. بها أولئك المحاصرون الذين لم يوافقوا على شروط إعادة التوطين أو السكن المقترح في أماكن جديدة، أو أولئك الذين لا يحق لهم السكن على الإطلاق. قال أحدهم لـ"أولجا":

- نحن في مشاكل قانونية مع هؤلاء الناس. وسنعيد بطريقة أو بأخرى توطين القرية. لن ندع أحدًا يخدعنا.

كان كلماتهم تبعث في نفسها التهديد، وليس الطمأنينة.

كانت قد جاءت مؤخرًا من "كولبينسك" إلى "بولشاكوف" عن طريقة وسائل مواصلات خاصة، حيث ألغيت الحافلات، والنقل الحكومي. وشرعت "أولجا" في الدفاع عن أهل القرية، لذا لم توفر لها هيئة منطقة الخزان أي مواصلات خاصة نتيجة لدفاعها عن حقوق السكان.

طلبت "أولجا" من السائق الوقوف بالقرب من منزل "مارينا زورافليفا". ثم ألقت نظرة عن كثب للمنزل. كان قاتمًا، لكنها لاحظت أن هناك نافذة مضاءة.

أعطت السائق مالًا، وخرجت من السيارة الـ"تويوتا":

- شكرًا لك.

كان الهواء باردًا وجافًّا، يتغلغل إلى الأنف والحنجرة. يبدو الهواء منذ الوهلة الأولى نظيفًا، كما هو الحال في "التايجا"، وفي الجبال، لكنه الآن مختلط برائحة لاذعة نتيجة لاندلاع الحرائق. لم يكن هذا الدخان نتيجة لمدخنة ما، بل كان ناتجًا عن حريق. إنها رائحة النار التي نشبت في القرية لفترة طويلة.

تذكرت "أولجا" هذا الشارع قبل عام. لقد شاهدت من قبل في سنوات دراستها فيلم "قداس لمذبحة" وكان يتحدث عن كيف حرق النازيون القرية. لم يقتصر الأمر على المشاهدة فقط، بل طلب الرواد من المشاهدين لاحقًا توقيع طلب: " يجب ألا يحدث هذا مرة أخرى!". لقد كانت ذكرى اندلاع الحرب أو النصر.

والآن، بعد أكثر من عقدين، رأت "أولجا" شيئًا مشابهًا في الواقع. ليس في بلد آخر، بل لديهم هنا، في "سيبيريا"، وفي شقة أمامها تقريبًا. النار، والبكاء، والصراخ، وطرد الناس من منازلهم، والخيول، والدجاج. لم يكن هناك قتلى، لقد نجوا بأعجوبة.

استدارت السيارة، وغادرت المكان. تلاشى صوت المحرك من أمامها. وقفت "أولجا" متجمدة في مكانها، بلا حراك. لم تهرع إلى بوابة المنزل، لقد كان الطريق مظلمًا، وهناك الكثير من الثلج، لكنها انتظرت. وبتعبير أدق، لم تنتظر، لكنها ظلت محدقة في الطبيعة؛ فهناك الكثير من النجوم، والثلج، والأشجار.

كانت هناك العديد من النجوم، التي تندمج في البداية مع بعضها بعضًا. وعندما نظرت عن كثب، رأت أن هناك بعضًا من النجوم أكثر إشراقًا وأكبر حجمًا، في حين أن بعضها الآخر أصغر حجمًا وأكثر قتامة. وكانت هناك نجمة تتحرك دائمًا، ربما قمر صناعي أو طائرة.

النجوم غير مرئية تقريبًا في المدينة، والسماء هناك رمادية داكنة في الليل، تتناثر فيه آلاف النجوم الذهبية. لا، ليست ذهبية، بل زرقاء مخلوطة بالذهب.

لا يمكن لفنان أن يصف مثل هذه السماء، ولا يمكن لأي مصور أن يلتقط صورة كهذه. وقفت فقط تنظر إليها بإعجاب، وحاولت أن تحتفظ بها في ذاكرتها.

تحركت بعد ذلك، وهي تخطو على الثلج الواقع تحت قدمها، وكأنه يصم أذنيها. ثم شرعت بالدخول إلى الكوخ.

التقت "مارينا زورافليفا" عند البوابة:

- لقد سمعت السيارة وقفت وغادرت. اعتقدت أن مساجين مستعمرة العقاب جاؤوا مرة أخرى. مرحبًا بكِ، "أولجا بوريسوفنا".

- مرحبًا "مارينا". كيف حالكِ هنا؟

- هكذا..

لم تستكمل حديثها فقالت لها:

- هل تشعرين بالبرد؟

أشعلت بعضًا من النيران في الحطب في الموقد. كان هناك مصباح كيروسين على الطاولة. رائحته البنزين به قوية بحيث لم يتمكن الهواء أن يدخل في رئتي "أولجا".

سألت "أولجا":

- لماذا تضعين البنزين به؟ أليس هناك الكيروسين؟

- لقد ملأته بوقود الديزل. ليس لديَّ كيروسين، يقولون إنه ليس موجودًا في أي مكان آخر.

- ولكن، هل هناك خطر من وضعه في المصباح؟

- يقولون ليس خطرًا جدًّا. لقد نصحونا بإضافة الملح. شيء ما يغير تركيبته، لكن رائحته بالطبع كريهة.

عبست "مارينا"، ونظرت إلى المصباح، ثم التفتت إلى "أولجا":

- هل سنشرب بعضًا من الشاي؟ ونتناول معه الطعام. هناك بطاطس مسلوقة، أستطيع تسخينها..

قاطعتها "أولجا"، وهي تخلع سترتها:

- لا، لا، أريد كوبًا من الشاي فقط. لقد أحضرت شيئًا معي؛ بعضًا من قطع الحلوى والطعام المعلب لأجل "بافليك".

- "بافليك" في المدينة. نحن بحاجة إلى التعلم. هل تتذكرين أنهم قد وعدونا بإرسال المعلمين مرتين في الشهر؟ وقالوا إنهم سيساعدونه ويعطونه تمارين وواجبات.

جلست "أولجا" أمام الطاولة، لكنها ابتعدت عن مصباح الكيروسين:

- بالطبع أتذكر. ألم يأتوا؟

- ولا مرة واحدة! لقد ذهب الابن إلى أختي "تاتيانا"، إنها تعيش معهم مثل "كلوشنيك".. عرضوا عليَّ مدرسة داخلية، لكن لن يحدث هذا أبدًا.

- لا يا "مارينا"، لا تفكري في هذا الأمر مرة أخرى. إياكِ أن توافقي على إرساله مدرسة داخلية، من الممكن أن يستغلوا هذا في سحب رعايته منك.

شرعت "أولجا" في الآونة الأخيرة أن تحول مهنتها من صحفية إلى ناشطة لحقوق الإنسان، على الرغم من أنها لم تتمكن من فهم الحقوق بأي شكل من الأشكال، في كل هذه التعقيدات من القوانين والأوامر واللوائح. ومَن يفهمها حقًّا؟ إن معظم المهاجرين مقتنعون بأنهم عوملوا معاملة غير عادلة، وأثاروا حماسهم، ولعنوهم، ثم بصقوا عليهم جميعًا وتراجعوا. وقد وصل عدد قليل إلى التقاضي، والقليل منهم فقط يمكنه الدفاع عن حقوقهم بأنفسهم. وبشكل أساسي قاموا بتعيين محامين، ودفعوا لهم المال.

المال، المال.. أين المال؟ كل هذا ليس من أجل النضال، بل من أجل البقاء على قيد الحياة. فالحياة هنا في القرية إذا لم يكن لديك عمل فيها، فلتزرع الحديقة، وتعتني بالماشية و"التايجا" والأسماك. أما الآن، فهم يمزقون الإنسان بالقوة، ويدخلون شقته عنوة. وماذا في ذلك؟ وما الخطوة القادمة؟ العمل في المدينة ليس للجميع. علاوة على ذلك، إذا كان عمرك أكثر من أربعين عامًا، فلا يمكنك فعل شيء. أي أنت تعرف كيف تعيش في القرية، ومن أين ستحصل على الطعام، وماذا ستحصد وستبيع. أما المدينة؟ كيف سيحدث ذلك؟

كانت هناك العديد من القصص المربكة التي تدور في رأس "أولجا"، وكل ذلك حدث عندما بدأت تفهم ما يحدث، وتعمقت في التفاصيل. بموجب القانون، ربما لم يكن لدى "مارينا" الحق في الحصول على شقة، وبموجب الضمير، هم بحاجة إلى شقة مكونة من غرفتين لها ولابنها الصغير، لكن

الوضع مختلف الآن، فقد كانت تعيش "مارينا" مع والديها في منزل كبير، وشقيقتها وزوجها، ولديهما طفلان. وقد حصلت عائلة شقيقتها قبل عشر سنوات، حتى قبل عصر الانتقال، على شقة في "كولبينسك" وغادرت. ثم تزوجت "مارينا"، لكنها لم تغير عنوان سكنها، وظل عنوانها تابعًا لمنزل الوالدين. ثم غادرت هي وزوجها إلى "أتشينسك"؛ ولم تغير "مارينا" العنوان بعد. عاشا معًا لمدة ثلاث سنوات، ثم تطلقا بعد وقت قصير من ولادة ابنها.

عادت "مارينا" في الوقت الذي تسلَّم فيه والداها شقة في "كانسك". وصدر الأمر أن هذه الشقة من نصيب الوالدين، و"مارينا"، وابنها. تمردت، وانتقل الآباء إلى شقة مكونة من غرفتين في "كانسك"، مخصصة لهؤلاء الأربعة، وظلت "مارينا" هنا.

ظلت تناضل لعدة سنوات. البعض يقول إنها على حق، والبعض الآخر يقول إنها تسعى للحصول على مساحة إضافية.

يكمن العديد من المشاكل والمصائب في انقسام الناس عن بعضهما بعضًا. فإذا قرروا الآن في مكان ما في مجتمع متحضر حقيقي بناء محطة توليد كهرباء مثل هذه، وغمر آلاف الكيلو مترات المربعة من الأرض، ونقل الآلاف من الناس من موطنهم، فإنهم سيجتمعون على هذا بالتأكيد ويطلبون معًا تعويضًا؛ بحيث يصبح الجميع مليونيرًا، بل وقادر على الحصول على منزل مع قطعة أرض كبيرة أو شقة فسيحة. أو ربما ستتخلى الشركة عن فكرة البناء هنا مرة أخرى، وستبدأ في البحث عن السهول غير المأهولة بالسكان.

أما هنا، يسعى كل فرد على حدة إلى الوصول إلى أفضل حال، ولكن في النهاية يشعر الجميع بالإهمال والإهانة والخداع. حتى أولئك الذين تمكنوا من الحصول على شقتين أو ثلاث بدلًا من واحدة، يشتكون أيضًا، ولكنهم يحاولون أن يظهروا فرحين، لكن أعينهم تتحدث. وعلى الرغم من ذلك، فبإمكانهم أن يقدموا شكوى بصدق؛ لا يمكن استبدال منزلك بشقة. لا، لا، ليس هكذا حقًّا! فهم راضون بتلك التغييرات.

قبل نحو عام، بالقرب من قرية "أوسوف"، على بعد ثلاثين كيلو مترًا من النهر من "بولشاكوف"، عُثر على منزل صغير، يعيش فيه رجل عجوز. كانت ملابسه متهالكة، وذا لحية طويلة جدًّا، وأثاث منزلي عفا عليه الزمن، وبطانية مصنوعة من جلد الأيائل.

هرع الصحفيون، بما فيهم "أولجا"، إلى "أوسوف"، لرؤية رجل الكهف، "كوتايسكي روبنسون". افترض أحد الصحفيين:

- ربما يكون "فلاسوفيت"؟

ثم سخروا منه وقالوا:

- لا، ربما يكون "بيلوجفارديتس" المحارب!

يجب أن يبلغ عمر "فلاسوفيت" الآن مئة عام، أما هذا الرجل يبدو أنه، على الأكثر، في السبعينيات. ربما يكون سجينًا هاربًا. أجاب الرجل العجوز

عن الأسئلة بنفس متقطع:
- لا أتذكر.. لقد عشت هنا لفترة طويلة.. أتغذى على الطبيعة".
ثم أجرى الصحفيون مقابلة مع أهل "أوسوف"، وقالوا:
- حسنًا، لقد عاش هكذا، كان يأتي أحيانًا لكي يطلب الملح وأعوادًا من الكبريت. وفي الخريف، كان يحضر البطاطس، ويبيعها لنا، وهكذا يكسب قوت يومه. كان رجلًا طبيعيًّا، لم يلمس أي شخص.
وفي نهاية المطاف، تمكنوا من معرفة اسم الرجل العجوز، يُدعى "مكسيم بتروفيتش شيتينكين". منذ نحو أربعين عامًا، ذهب هذا الرجل إلى موقع البناء (كان هناك شيء ما يُبنى هنا، لا أتذكر) وجادل مع السلطات، ورحل بعد ذلك إلى "التايجا". لم يكن لديه جواز سفر أو أي وثائق أخرى لإثبات هويته؛ فلم يُدرج هذا الاسم ولقب العائلة في قاعدة البيانات المطلوبة. ربما كان الناس يدعونه باسم مختلف جدًّا، كيف يمكن معرفة ذلك؟ في البداية، لم يرغب "شيتينكين" أبدًا في مغادرة المنزل. ووعد ممثلي الإدارة والصحفيين:
- إن الغرق أفضل من مغادرة المنزل والأرض!
لكن عندما أقسموا له باليمين أنهم سيعطون له شقة بها حمام دافئ، وموقد كهربائي، وقع الأوراق، وقالوا له:
- إذا كان لديك معاش وشقة، فلماذا تحتاج إلى هذه الأرض؟
حصل "شيتينكين" على جواز سفر، وسجل منزله في الشهر العقاري، وقام بإجراء تقييم للمنزل. ثم ذهبت موظفة الإسكان الاجتماعي إلى المكاتب في "كولبينسك"، وملأت المستندات، وانتقل رجل الكهف إلى شقة ذات غرفة واحدة، ولكنها واسعة، في الطابق الثاني من مبنى مكون من سبعة طوابق.
أخذ معه كرسيًّا خشبيًّا، وناموسية، وقطعة خشبية لتقطيع الطعام، وكذلك بالة من الملابس والجلود، وأكياسًا، وأواني، وعدة أدوات أخرى. وقال نائب رئيس "كولبينسك" في مقابلة:
- جاء "مكسيم بتروفيتش" إلى هنا منتعشًا ومبتهجًا. وتعد المشكلة الرئيسية بالنسبة له الآن هي بيع البطاطس. اقترحت عليه: "دعنا نبيع البطاطس بالجملة لتجار الخضروات". ثم احتج، وظل ساخطًا؛ فهو يريد أن يبيعها بسعر السوق. نعم، إنه رجل كهف، لكنه يعرف كيف يحسب المال. فبالإضافة إلى كل المسؤوليات التي أحملها، أصبح لديَّ الآن مسؤولية جديدة، ألا وهي مدى ربحية الجد لبيع البطاطس.
تابع المستوطنون الآخرون هذه القصة الصاخبة عن رجل الكهف، الذي عاد إلى العالم المتحضر مبتسمًا: "لقد وجدوا بطلًا! إنه شخص بلا مأوى. أما أولئك الذين يناضلون طوال حياتهم من أجل الدولة، هدر حقهم".

لم تأتِ "أولجا" إلى "بولشاكوف"، التي كانت على وشك أن تُمحى من على وجه الأرض، لرؤية "مارينا" فقط. فمن المحتمل أن يكون الغد يومًا حاسمًا للنضال من أجل ورشة "ماسلياكوف". كانت هذه الورشة بمثابة مصنع صغير لأعمال النجارة، وتعد المؤسسة الوحيدة في القرية على مدار الأعوام العشرين الماضية. وقد امتلك "ألكسندر ماسلياكوف" هذا المصنع، وكان يعمل معه "ديميتري"، والابن، وابن عمه "يوري"، وثلاثة من السكان المحليين الآخرين. وكان لديهم الكثير من الأعمال في تلك الورشة.

عندما شرعوا في إعادة التوطين، كانت "بولشاكوف" على وشك الانهيار. طالب "ألكسندر جورجيفيتش ماسلياكوف" من إدارة المنطقة والمديرية بنقل الملكية. وبدلًا من أن ينقلوا عائلته وممتلكاته بسهولة، أعطوا لعائلته شقتين بغرفتين في "سوسنوفوبورسك"، وهي بلدة مرموقة بالقرب من المركز الإقليمي. تظاهر "ماسلياكوف" بعدم فهم ما حدث، وحاول أن يتواصل معهم كثيرًا، لقد كان من الضروري تخصيص موقع للورشة، ومعدات النقل. في الحالات القصوى، سيقومون بدفع التعويضات، وقدر "ماسلياكوف" ورشته بـ 4 ملايين روبل.

وقالت له إدارة المنطقة بأنها لا تملك أي تمويل ولا سلطة، كما أجابت المديرية على النحو التالي: "تم إلغاء أمر الشقة، وأن هناك خطأ ما حدث في التخصيص". وعرضوا عليه شقة مكونة من ثلاث غرف في "كولبينسك". وافق "ماسلياكوف"، على الرغم من أن زوجته لم تقبل ذلك، ولكن بشرط أن يتم نقل الورشة إلى حدود المدينة. وبدلًا من أن يحدث ذلك، صدر قرار بهدم الإقليم من أجل مشروع "التطهير الصحي للأراضي".

جاء "ماسلياكوف" إلى "أولجا" و"مارينا"، وانضم إلى حديثهما. وطبقًا للمعلومات التي تلقاها "ماسلياكوف"، سيقوم مساجين مستعمرة العقاب بإحراق الورشة غدًا. وأكدت "مارينا زورافليفا" حديثه:

- نعم، إنهم سيأتون. لن ينتظروا أكثر من ذلك، ستغمرها المياه في الربيع.

كانوا يجلسون مع "أولجا" على الطاولة، كاد الشاي أن يبرد، وفتيل المصباح يحترق. كانت "مارينا" تحاول أن توفر وقود الديزل؛ فيضيء المصباح نحو نصف متر فقط، أما باقي المطبخ كان مُظلمًا. كان الموقد يخرج لونًا أحمر. ربما احترق الموقد من الحرارة. شعرت "أولجا" بالنعاس. تنهدت "مارينا":

- نعم، سيأتون من أجل "ماسلياكوف"، ومن أجلي أيضًا. فهم لم يشعروا بحرج عندما تحدثوا أمام زوجي السابق.

كان الوضع غريبًا، بل غير واقعي لأن "مارينا" قد عملت في مستوطنة مستعمرة العقاب تقع على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات من القرية. كانت تعد الطعام في غرفة الطعام، ومساجين مستعمرة العقاب يشكرونها على

الطعام اللذيذ، وقام البعض بمغازلتها، ثم تلقوا أوامر بحرق منزلها، وغادروا بسياراتهم، وابتعدوا.
حاول الجيران أن يوقفوهم (كان هناك الكثير من الناس في ذلك الوقت في "بولشاكوف")، وقامت "مارينا" ذات مرة، وهم في طريقهم لتدمير المنازل بالقنابل والفؤوس، بسد طريقهم، وأجبرتهم على أن يأخذوها معهم. والشيء الأكثر إثارة للدهشة هو أنهم أخذوها، واقتادوها إلى البوابات، وأعلنوا أن هناك أمرًا بتصفية المبنى.
أغلقت "مارينا" على نفسها الكوخ، ثم حاولت بطريقة ما الاتصال بالشرطة، وبـ"ماسليكاوف". شعرت بالسعادة، وقالت: "الحمد للرب أنهم اخترعوا التليفونات المحمولة".
قالت "مارينا" في اجتماعهم الأخير ما حدث معها:
- لقد ظلوا هنا ساعتين. وأخذوا يصرخون لكي أترك الكوخ. كانوا يهزون علبًا لمواد شديدة الاشتعال، وأنا أبكي هنا وأرتعش. أعلم أنهم يمكنهم أن يفعلوا ما يريدونه. إنهم هنا الآن، وهم أيضًا مدمنون للمخدرات، وسيفعلون أي شيء من أجل الحصول على ثمن حقنة مخدرات! لقد هرع آل "ماسلياكوف" إلى هنا، وآخرون هرعوا أيضًا، فهم لا يستطيعون أن يقاتلوا. فهل ستأتون لتنهوا الأمر؟ أم تريدونهم أن يفجرونا بهذه العلب، لذلك بالضرورة ستفتح قضية جنائية؟ لكن الأهم من ذلك أنه كان هناك شهود، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا. ثم جاءت الشرطة من "كولبينسك" وقالوا:
- ماذا حدث؟ مَن أنتم؟
ردَّ مساجين مستعمرة العقاب:
- نحن نقوم بعملية تطهير للأراضي.
فهذه الجملة المعتادة لهم.
وقالت الشرطة:
- فلتعطوا لنا الوثائق التي تثبت أن هذا المنزل مخطط هدمه.
لم يكن بحوزتهم وثائق.
فقالوا:
- لقد جاءنا الأمر شفهًا.
- مَمن؟
- من الرئيس.
- أي رئيس؟
هرع نائبهم. وشرع أن يشرح ما يحدث:
- نحن لدينا اتفاق مع المديرية لإعداد الخزان. وبموجب العقد، نحن ملزمون بتطهير هذه المنطقة.
- لكن هذا منزِل سكني.

- إنها لا تريد أن تخرج منه..
ثم شرعوا في استجوابي. وأخرجت لهم أوراقي: "قرية بولشاكوف، شارع سادوفايا، منزل رقم ٨".
ثم ابتسم النائب وقال:
- أنا أعرفها، إنها الطباخة التي تعمل معنا. وقد أعطينا لها هذا المنزل، لكنها كانت غير سعيدة بذلك.
وفي ذلك الوقت، غادر الضابط ومساجين مستعمرة العقاب المكان، لكن "مارينا" لم تجرؤ على مغادرة المنزل بعد تلك اللحظة وجلست هنا لمدة ثلاثة أشهر تقريبًا.
قالت "مارينا":
- أنا لا أرى ابني، وقد طردونا من العمل. مشكلتنا الحقيقية هي الماء. لقد امتلأت الآبار، وغطتها الثلوج كالسخام.
انقطعت الكهرباء، والتليفونات كانت تلتقط الشبكة بصعوبة. ليس هناك طريقة لمعرفة الأخبار، كان "الترانزستور" يحدث صوتًا متقطعًا. نهضت "مارينا"، التي تبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا، وصوتها محشرج، تمامًا مثل امرأة عجوز. ذهبت إلى الموقد، ودفعت قطعة ما داخل المدخنة. وقالت وهي متعبة، ليس من العمل، ولكن مما يحدث لها:
- ماذا يا "أولجا بوريسوفنا"، ربما ترغبين في أن تأخذي قسطًا من الراحة؟
هزت "أولجا" رأسها، وقالت:
- نعم، بالطبع!
- الجو دافئ، فلتستلقي هنا. عليكِ ألا تخلعي ملابسكِ الداخلية هنا، معذرة لكِ. ولكن، ربما، من الأفضل ذلك، ربما ستشعرين بالبرد في الصباح..
- نعم، وماذا عنكِ؟
- أنا في الغرفة.. هنا بالجوار.
- ألن تتجمدي؟
- لا، لديَّ شيء ما لأغطي نفسي به.. هناك الكثير.
ثم أمسكت "مارينا" بمقلاة من طاولة المطبخ، ووضعتها في مكانها الصحيح، ورفعت المصباح إلى أعلى. لم تفهم "أولجا" لماذا تصرفت "مارينا" هكذا:
- لماذا فعلتِ ذلك؟
- حسنًا، أتمنى ألا تمانعين هذا.. إنه فقط للأمان. لن يعيقكِ نور المصباح، أليس كذلك؟
ثم قالت دون أن تنتظر إجابتها:
- فلندع المصباح حتى يحترق الفتيل، على الأقل سيعرفون أن هناك أناسًا يعيشون هنا.

- نعم، اتركيه هكذا.
- إذًا، تصبحين على خير.
- تصبحين على خير.
سمعت "أولجا" "مارينا" وهي تضع السُّترة بجانبها في حالة حلول الطقس البارد ليلًا، وهي تهمس بشيء ما في الغرفة المجاورة؛ إما صلاة أو تذمر.
ظلت "أولجا" في "بولشاكوف" لمدة ثلاثة أيام، وهي تنتظر مشعلي الحرائق، لكنهم لم يأتوا. ربما اكتشفوا أن هناك مراسلة صحيفة هناك وانتظروا رحيلها.
سارت "أولجا" في فترة ما بعد الظهيرة، في بقايا القرية. لم تشعر أنها في مكان تم تحريره مؤخرًا من مساجين مستعمرة العقاب. نجا منهم أربعة فناءات، وورشة صغيرة على حافة "بولشاكوف"، أما الباقي، فقد أصبح قطعًا من الطوب والحديد، يغطيه الثلج. كانت هناك الكثير من جذوع أشجار الكرز، التي اقتلعت من الأرض، تزين مؤخرًا الحدائق الأمامية.
بدا الناس الذين قابلتهم منهكين، كأنهم نجوا بأعجوبة من نيران العدو. نعم، وكأننا لسنا في عام ٢٠١١، وليس في "سيبيريا"، بل في عام ١٩٤٣، في منطقة "سمولينسك" .
كانت "ليودميلا ماسلياكوف"، زوجة صاحب ورشة النجارة، مثيرة للشفقة بشكل خاص. لقد قضت معظم حياتها في رخاء، كانت صاحبة منزل كبير وضخم، والبعض يحترمها، والبعض الآخر يحسدها، ولكن كل هذا أصبح في الماضي. أما الآن، فالمستقبل مجهول، يعيشون في عالم البدائيات تقريبًا. لم تستطع حتى أن تغضب، فلم يعد لديها القدرة على هذا، وليس لديها قوة، تنظر فقط إلى زوجها وابنها في عتابٍ، وإلى "أولجا" بتوسل.
عاش بعض الأولاد الكبار لعائلة "ماسلياكوف" في "نازاروف"، أما الآخرون ففي "ليسوسيبيرسك"، في حين عاش أصغر العائلة، "ديميتري"، مع والديه حليفًا لوالده في النضال لكي يصبح رجل أعمالهم. لم يعش في المنزل، بل في غرفة الحراسة للورشة. وقد توقفت الورشة عن العمل لفترة طويلة، لكنها ظلت، حتى ينطق الحكم بها، بفضل "أولجا".
قال "ديميتري":
- على الرغم من قدرتنا على البدء غدًا، وهناك الكثير من الأخشاب المستديرة في المستودع، والمناشير المسنونة، فإنه لا توجد أوامر بالبدء. لقد منعوا الناس أن يتعاملوا معنا. يريدون منَّا أن نترك كل شيء ونهرب.
ثم قاد "ديميتري" "أولجا" إلى الورشة. رأت المعدات، وأخبرها بكمية الألواح الخشبية التي كانوا يقطعونها في سابق عهدهم. استمعت له "أولجا" بصبر وتروٍّ، كان من المحرج أن تقول له إنها تعرف كل هذا وبأنه قد شرح لها كل هذا من قبل. يمكن للمرء أن يرى كيف كان هذا الشاب الذي يرتدي سترة مموهة يهتم بمصير الشركة ويحلم بالعودة إلى العمل.

هز "ديميتري" رأسه، وهو ينظر إلى الأعمدة المتفحمة للمظلة فوق الورشة:

- هناك آثار لمحاولة اغتيال الورشة. ما زلت أعتقد أنه كان حلمًا. الشيء الرئيسي هو أنهم ليسوا قُطّاع الطرق. حسنًا، لقد قام في التسعينيات قطاع طرق بحرق المنازل التي لا تدفع ديونها، لكن الأمر الآن مع الشرطة، وهيئة أعمال الفيضان، والمديرية والمنطقة. نستطيع أن نقاتل عصابات قطاع الطرق. لكن هذه هيئات حكومية. من يريد أن تفقد هذه الهيئات مصداقيتها؟

توقف "ديميتري" فجأة عن الحديث، إما تعثر في استكمال حديثه، وإما أنه كان يتذكر ما حدث من ذكريات، ثم قال:

- ليت الرئيس والحكومة كانوا على دراية بذلك الأمر.. ليت "بوتين" كان يعرف، لكان سيقضي عليهم جميعًا!

ثم ارتسمت ابتسامة شريرة على وجهه، ونظر إلى "أولجا"، وقال:

- أو ربما العدالة ستأخذ مجراها! أم الآن المسؤولون والموظفون المدنيون ينفذون أوامر لها علاقة بالتجارة؟ ولكن إذا كان الأمر هكذا، ماذا تفعل الشرطة هنا بحق الجحيم؟

قالت "أولجا" بعناية:

- الشرطة ستنقذكم. لقد أنقذت "مارينا" بالفعل عندما حاولوا حرق منزلها. وطردتهم الشرطة، وخرجوا من هنا.

- نعم بالطبع، لأن من دونهم القرار لن يتخذ.، لكن الشرطة واللجنة اتفقا على أن يرسلونا إلى هناك.

ثم أومأ "ديميتري" نحو البوابة:

- لقد عاد مساجين مستعمرة العقاب إلى هنا، وشرعوا في إشعال النيران. وكان الرجال، والعمال، هناك بالقرب منهم، وهرعوا لإطفاء الحريق، وقيدوهم. وظللنا هناك مع رجال الشرطة، وكذلك المأمور. ثم قالوا: "إنه قرار إدارة المنطقة!". فقلت لهم: "هل لديكم ما يثبت ذلك؟". لم يعطونا شيئًا. وظل رجال الشرطة في جهة والمجرمون في جهة أخرى! وتعيَّن علينا أن نرى كيف تنشب النار في المنطقة، إنه عذاب مرير. ثم جاء الفتى "فيتالكا سينيتسين" راكضًا، هل تتذكرين ذلك الشاب الممتلئ حيوية واضطرابًا؟

- نعم، لقد اصطحبني في زيارتي الأولى لقريتكم إلى هنا.

- حسنًا. اتضح أنه كان هنا، على الرغم من أنه انتقل مع عائلته منذ فترة طويلة من القرية. ربما كان هنا لشيء ما.. وهكذا شرع يركض، ويخرج تليفونه المحمول، وتحدث فيه قائلًا: "دعوا مكتب المدعي العام في المنطقة ينظر ويقيم الأمر". ثم قال أيضًا: "لديَّ معارف هناك". وركب رجال الشرطة سيارتهم، وغادروا المكان، وتركونا نتعامل بأنفسنا مع مساجين مستعمرة العقاب. لكم "ديميتري" قفازه، وسحبناهم إلى غرفة. أردت أن

أبرحهم ضربًا، وأقتلهم؛ فهم يستحقون الأذى، لكنهم لم يحاولوا أن يقاومونا. بدأنا بعدها نطفئ الحريق، وشعرنا بالأسف نحو "ليشا بريوخانوف"، لقد سقط من فوق المنزل، وكسرت ساقه. وقد أزيلت الجبيرة مؤخرًا، وسيعود هنا قريبًا. لقد كان غاضبًا جدًّا. أخبريني يا "أولجا"، لو كان لديهم حقًّا أوراق رسمية لكي يتصرفوا هكذا، هل كانوا سيستسلمون لنا بهذه السهولة؟

أومأت "أولجا" برأسها فقط. أرادت أن تقول له الكثير، وتشرح له أن ربما "بوتين" على دراية، على الأقل بشكل عام، عن الوضع هنا. فهذا ليس الشهر الأول، ولا حتى السنة الأولى للمشروع. وإذا لم يكن يعرف، فهذا أمر غريب للغاية؛ إن أمر ببناء محطة للطاقة الكهرومائية، وإعادة توطين سكان عدة قرى ليس حدثًا عاديًّا، وليس من الممكن أن يكون على نطاق إقليمي، لكنها لا يمكنها قول ذلك، حتى لا ينزعج "ديميتري". فما الفائدة من أن يستشيط غضبًا؟ ما زالت تحاول أن تفعل شيئًا لهم، ومن الأفضل أن تتعاطف معهم. ألقت نظرة على ورشة الخشب البدائية والبائسة. وتعجبت من أن هذه الورشة كانت تصنع الكثير من المنتجات، ويعمل كثيرون بها، ويرزقون بالأموال من خلالها. وأصبحت الورشة الآن كومة من الرماد والمعدن المتفحم. إن الأمر ليس سهلًا على الإطلاق.

تراجعت "أولجا" عن ذلك الشعور، وفكرت بعقلها، متذكرة كلمات الرجل العجوز "ماسلياكوف" الأب، وهو يقول: "لقد عرضوا علينا تعويضًا ماديًّا مليون روبيل، مقابل دموعنا. وقد أعطوا العمال هذا المال لأول مرة". ثم أضاف العجوز بعد دقيقة من التأمل وقتها: "لن أتمكن من تجهيز ورشة جديدة بمليون.. لا. فهم لن يعطونا قطعة أرض. لا يوجد مكان للورشة هناك، فهم يرون أن سيبيريا كبيرة علينا!".

الآن، يقضي "ألكسندر جورجيفيتش" وقته كله تقريبًا إما في "كولبينسك"، وإما في المركز الإقليمي؛ مدركًا أنه يعيش أيامه الأخيرة في منصبه بوصفه رئيس مجلس القرية. وقد حاول كثيرًا إقناعهم، وإثبات حقهم، لكن ذلك يحدث دون جدوى.

هز "ديميتري" كتفيه:

- لا عجب في ذلك. هناك الكثير من الورش في المدينة. فالغابة هي الطريقة الوحيدة لكسب المال الآن. لماذا يحتاجون إلى منافسين إضافيين؟

ثم تذكرت "أولجا" شيئًا ما، وقالت:

- بالمناسبة، هل يمكنني رؤية الصور الفوتوغرافية؟

- أي صور تتحدثين عنها؟

- حسنًا، عندما سافرت المجموعة، قلتُ لي إن "فيتالي" التقط بعض الصور.

ضحك "ديميتري":

- نعم، لكن لم تكن هناك صور فوتوغرافية! "فيتالي" لديه تليفون "نوكيا" قديم، وعلى ظهر التليفون، توجد بقعة مثل ملصق أو شيء من هذا القبيل، لكن هؤلاء يعتقدون أن ذلك التليفون بمثابة كاميرا "ديچيتال". هذا كل ما في الأمر.

بعد ثلاثة أيام، عادت "أولجا" مرة أخرى بكل دهشة إلى حياتها في المدينة، حيث المباني الشاهقة، والشوارع المستقيمة، وإشارات المرور، والسيارات باهظة الثمن، ورجال الأعمال. حتى أصابها شعور سيئ:

- لقد تمكنت من كسر الروتين اليومي الخاص بي. ليتني أعيش حياة "مارينا"، أو زوجة "ألكسندر".. ليس لثلاثة أيام فقط، بل لأشهر.

بينما كانت تسافر "أولجا" من "بولشاكوف" إلى "كولبينسك"، قابلت اثنين من القرويين معها في السيارة الـ"نيفا"، كانوا إما صيادين، وإما بائعي سمك. كانت حريصة على الذهاب مباشرة إلى الإدارة، وبعد ذلك تذهب إلى المدينة. الفكر الوحيد الذي استحوذ عليها هو العودة إلى منزلها في أسرع وقت، وتعانق ابنتها، وزوجها، وتستجم في حوض الاستحمام، ثم ترقد على فراش نظيف. وتنام لفترة كبيرة، ربما لعدة أيام.

انتظرت في المحطة حافلة إلى المركز الإقليمي. جلست في مكانها، ووضعت سماعات الأذن في أذنيها، وأشعلت عدة تسجيلات لفرقة "إيرا". ثم شعرت بطريقة ما بالاسترخاء، وكأن التعب والإرهاق قد أزيلوا منها. ظلت تستمع لها، وأغلقت عينيها، ثم تخيلت أنها كانت تسرع على طول نفق ما، رطب، ومظلم، وأن هناك أجنحة ما تلمس الأحجار، والغيوم تزداد من فوقها. وظلت تندفع؛ بحثًا عن مخرج، حيث أشعة الشمس، لتشعر بالدفء والحياة. ثم تغيرت الموسيقى، التي تسمعها. فشعرت وكأن هذه الأجنحة ترتفع، والغيوم تختفي.

وصلت "أولجا" إلى منزلها، كان كل شيء في المنزل على ما يرام. الابنة تتصرف بشكل جيد، وتحصل على أفضل الدرجات في امتحاناتها، كما وقَّع الزوج على عقد مربح في عمله. سألها زوجها دون فضول، مع العلم أنه ربما سيسمع الإجابة المعتادة منها:

- وماذا عنكِ؟

لم تبدأ "أولجا" في إخباره بالتفاصيل، واكتفت فقط بأن تلوح بيدها له، إشارة إلى خيبة الأمل.

- لا شيء، أو كما يقولون؛ جيد.

بعد العشاء، ستذهب الابنة لإنهاء دروسها.

وضع الزوج الأطباق في غسالتها في المطبخ، ثم نظر إلى "أولجا"، التي كانت ترتعش، وتمسك بيديها كوبًا من الشاي، وتجلس بلا حراك، في حالة ذهول. قال بهدوء:

- ربما تحتاجين إلى أن تتركي الصحيفة.

سمعت "أولجا" صوته، واستدارت:
- ماذا؟ ماذا يا "مكسيم"؟
- أقول إنه ربما عليكِ أن تتركي وظيفتكِ؟ انظري إلى الحالة التي أنتِ عليها.
شعرت "أولجا" في اللحظة الأولى بالسخط، لدرجة أنها كادت تصرخ في وجهه تقريبًا. ربما تشعر بالاستياء والتعب من أجل المحاصرين في "بولشاكوف". وتخيلت "أولجا" الآن أن زوجها كان يقترح عليها أن تترك عملها، ليس لأنه يراها متعبة ومرهقة، ولكن لأن مقالاتها تعيق عمله. أو ربما لم يعد عملها مهمًّا، أو أنه يرى صعوبة في طهو الطعام بمفرده، ورعاية الابنة عندما كانت تذهب "أولجا" في رحلة عمل. رغبت "أولجا" في الصراخ من أجل كل شيء في وجه "مكسيم" الآن.
حاولت أن تهدئ من روعها، وظلت تفكر.. نعم، حقًّا، لماذا تعمل؟ إنها لا تحصل على أموال تستحق مجهودها. كما أن زوجها يحصل على ثمانية أضعاف راتبها الشهري. كما أنها لن تصبح صحفية مشهورة، يخشونها الناس، ولكنهم سيحترمونها. ليتها تستطيع أن تقدم الوثائق، وتجري مقابلات صادقة مع المسؤولين. وبالتأكيد لن تتمكن من مساعدة أي شخص من خلال مقالاتها، فهي لن تتمكن من إصلاح أي شيء. إنها بمثابة حصان ضعيف يسحب عربة ثقيلة، مليئة بمشاكل ومتاعب وأحزان الآخرين. قالت:
- لكنني اعتدت على ذلك. لا أستطيع أن أفعل أي شيء آخر.
كان "مكسيم" مسرورًا؛ لأن زوجته لم ترفض عرضه على الفور. جلس أمامها، وقال:
- أولًا عليكِ أن تأخذي قسطًا من الراحة، دعينا نسافر إلى البحر الأحمر أو.. إلى جزر "الكناري" ونشتري شيئًا ما هناك.
ابتسمت "أولجا"، وقالت:
- جزر الكناري..
- ماذا في ذلك؟ إنها لن تكلفنا كثيرًا الآن. وجوازات سفرنا جاهزة. تستطيعين أن ترتاحي، ثم، لو أردت، يمكنكِ الذهاب إلى مجلة "فيرنيساج". لقد وقعنا للتو اتفاقية إعلان معهم، وقابلت رئيس التحرير. وبالمناسبة، لديهم وظائف شاغرة.
استمعت "أولجا" لحديثه، لم تدرك على الفور أنه كان يتحدث عن جريدة "فيرنيساج":
- آه، نعم، مجلة "فيرنيساج".
إنها مجلة أسبوعية "للترفيه الثقافي"، تنشر مقالات حول العروض المسرحية والمعارض والجولات والشبكات الاجتماعية. مجلة جيدة، مطلوبة، لذا فإنهم بحاجة إلى تسويق كثير. إنهم لا يقبلون بأي شخص للعمل معهم

ولكن بما أن "مكسيم" هو المالك المشارك لصالون يسمى "قارة الراحة"، ولهذا السبب بدأ يعمل معهم. قالت "أولجا" لـ"مكسيم":

- لكن مجال عملي مختلف عن مجال العمل في "فيرنيساج". فأنا لا أذهب إلى المسرح إلا مرة واحدة في السنة تقريبًا.

ثم قال "مكسيم"، متعجبًا:

- وماذا في ذلك؟ ستتدربين لمدة أسبوع. أنتِ امرأة متعلمة وذكية وشابة، بل وامرأة قوية تتجول في القرى.

ثم وضع يده على كتفها، وقال:

- "أولجا"، لا تنزعجي مني. أنا خائف عليكِ، هل تتذكرين عمي، الذي كان يجري الكثير من رحلات العمل؟ جلس ذات مرة، وسقط..

أومأت "أولجا" برأسها، لأنها رأت الخوف في عيني زوجها، وابتسمت، وقالت:

- أعرف ذلك. أنت على حق، كل شيء سيكون على ما يرام. يتعين عليَّ أن أغير مجال العمل.

- لقد افتتحوا أمس بيت الفنون في "ستريلكا"، وستُقام فيه أمسيات أدبية. في الواقع، نحن لم نذهب إلى المسرح منذ مئة عام.

تحدث "مكسيم" بنبرة مطمئنة أكثر:

- على أي حال، نحن معًا مهما حدث، وما زلنا شبابًا! من الضروري أن تكون حياتنا أكثر منطقية وتصير أكثر متعة.

هزت "أولجا" رأسها:

- نعم، هذا صحيح.

في اليوم التالي، تعين على "أولجا" الذهاب إلى عملها، وكانت ترغب في أن تقديم استقالتها من العمل. حاولت أن تختار اللحظة المناسبة للإعلان عن ذلك الأمر. بالطبع، كان يتعين عليها أولًا زيارة "فيرنيساج"، والتحدث معهم، والتأكد من وجود وظائف شاغرة، وبشكل أساسي، أن تكون مناسبة لها، ومناقشة الشروط والمسؤوليات الخاصة بالعمل، ولكن بعد محادثتها أمس مع زوجها، بدت "أولجا" وكأنها ترى حياتها بعينين مختلفتين، قررت أنها لا يمكنها الاستمرار على هذا النحو، وأنها اعتادت فقط على هذا العمل، وأنها ظلت في ذلك العمل المميت، ثم وجدت أن موضوعها يمكن أن يصبح مقالًا جيدًا. وشعرت أن خوفها من البحث عن الأفضل أمر طبيعي، نتيجة الكسل. إنه الكسل البسيط للبحث عن الأفضل في مكان آخر.

لقد أصبح القرار الآن حاسمًا. تذكرت، عندما قضت الليلة عند "مارينا"، كانت تفكر إذا حدث لها ما يحدث في القرية، وما إذا أتى مساجين مستعمرة العقاب، وهي نائمة على الفراش بجوارها زوجها، وأضرموا النار عليه! فكرت ما إذا حرقوا الناس حتى "مارينا"، ومن ثم ستصبح "ناسيتا" يتيمة.

شعرت بالخوف من ذلك التفكير. كانت ترتجف، تدفق الدم في عروقها، فجلست.

كانت "أولجا" تتحرك غالبًا في فصل الشتاء بسيارة أجرة. في البداية، تسخر من نفسها وتقول: "شعبنا لا يستقل سيارة أجرة للعمل". لكنها كانت تدفع مئتي روبل في الرحلة الواحدة فقط. فقد كانت وسيلة مريحة بالنسبة لها. تطلب سيارة الأجرة عبر التليفون، وتأتي لها عند المدخل بعد عشر دقائق. وبعد عشرين دقيقة أخرى (بالطبع، إذا لم تتعثر في ازدحام المرور) تصل إلى عملها.

كان صباح ذلك اليوم باردًا. السماء ذات لون أزرق شاحب، وهناك الكثير من الضباب الرمادي اللون، كانت "أولجا" تقول دائمًا:

- لن تتجمد "يانسي" حتى في أشد أوقات الصقيع!

على بعد أربعين كيلومترًا أعلى النهر من مدينة "يانسي"، أقيمت محطة كهرومائية في أوائل السبعينيات. وتعد ثاني أقوى محطة كهرومائية في روسيا. كانت "أولجا" دائمًا ما تتذكر "يانسي" بهذه الطريقة فقط، لكن والدها أخبرها في وقت سابق أن المدينة يجري بها الكثير من الفعاليات الرياضية في فصل الشتاء مثل التزلج على الجليد، ولعب الهوكي بالكرة، وبناء قلاع الثلج. أما في فصل الصيف، يذهب الناس إلى هناك للسباحة. أما الآن، أصبحت المياه في "يانسي"، سواء في فصل الشتاء أو الصيف جليدية بل ومظلمة. أصبحت سيئة، مضروبة بالتوربينات، خالية من أي مظاهر للحياة.

دفعت "أولجا" للسائق، ثم دخلت إلى الردهة. أظهرت كارت المرور الأمني الخاص بها. صعدت بالمصعد إلى الطابق السادس، وخرجت وهي عابسة. كانت الخزائن بالمكتب قديمة، هناك الكثير من الألواح الخشبية، وهناك بعض من الجرائد داخل الصناديق واللفائف. لقد أصبح المكان ضيقًا، وأصبحت الجريدة مكونة فقط من ثمانية مكاتب. أما مكتب رئيس التحرير "أندريه إيفانوفيتش"، كان واسعًا نسبيًّا. كانت هناك اجتماعات مملة ومحزنة مع مختلف العاملين بالجريدة، والذين يبدون أنهم مولعون بكيفية إحياء شعبية الصحيفة، وجعلها تزدهر مرة أخرى.

استقبلت "أولجا" "ناديجدا أنطونوفنا"، تلك الصحفية العجوز، وقالت:

- مرحبًا!

جلست "أولجا" بجانب "ناديجدا". كان المكتب ضيقًا، به أربعة مقاعد فقط. فإذا تحدث شخص ما هنا في التليفون، سيعيق البقية من فعل أي شيء. أما الآن، لم يكن هناك أحد في المكتب، سوى "ناديجدا"، كانت تتصفح كتابًا ما. قالت وهي تتنهد:

- مرحبًا! لم أركِ منذ وقت طويل.

- كنت في رحلة عمل.

- آه! وأين؟
- في "كولبينسك"، وضواحيها.
- وما الأمر هناك؟ هل هناك أخبار مثيرة تحدث هناك؟
لم تشعر "أولجا" من صوت "ناديجدا" أن الأمر يهمها، ولكنها أجابت:
- لا شيء مميز يحدث هناك.
- إممم، حسنًا .
عادت الصحفية إلى تصفح الكتاب في المكتب. فلاحظت "أولجا" أنه كتاب "تيمور ورفاقه"، فكرت: "ربما تبحث عن اقتباس ما". حيث تخصصت "ناديجدا أنطونوفنا" في مشاكل الحقوق الاجتماعية.
استقرت على مكتبها، وفتحت الكمبيوتر، الذي بدأ يشتغل ببطء شديد ويصدر صوت طقطقة. سمعت "أولجا" هذه الأصوات المألوفة، فشعرت بمشاعر حادة تصل إلى الاشمئزاز من هذا الكمبيوتر القديم، وكذلك المكتب والزملاء.
تساءلتْ لِمَ فتحت الكمبيوتر. بدلًا من ذلك، كان يجب أن تأخذ ورقة بيضاء من الطابعة لتكتب عليها استقالتها، والتواصل مع رئيس التحرير، ومن ثم الاعتذار عن كل هذا، وكذلك فتح درج المكتب والحصول على كل المتعلقات الشخصية والرحيل. وفي الغد تذهب إلى مكتب رئيس تحرير "فيرنيساج".
سخرت "أولجا" من تلك الأفكار متحدثة في قرارة نفسها: "ليس الأمر بهذه السهولة. ليس كل شيء هكذا". نعم، ليس من السهل تقديم الاستقالة، وليس سهلًا أيضًا الالتحاق بالعمل، أم أنه أمر بسيط؟
سألت أولجا قائلة:
- ناديجدا أنطونوفنا"، هل "أندريه إيفانوفيتش" في مكتبه؟
- من المستبعد أن يأتي اليوم.
- ماذا؟ هل هو مريض؟
- ربما، لقد ذهب في مقابلة ما. وللعلم فقط، أخبرنا بألا ننتظره.
حسنًا، هذه هي العقبة الأولى. بالطبع من الممكن التوجه إلى نائب المدير، أو حتى المدير نفسه، وإعطاء الطلب لأحدهما، لكن هذا سيكون أمرًا سيئًا. يجب التوجه إلى الرئيس. لقد قبلها منذ عشرين عامًا في تلك الوظيفة. فهو الذي يجب أن يقبل استقالتها.
" ودع الفئران تغادر من السفينة"، ظهرت هذه المقطوعة من أغنية "فيسوتسكي" فجأة في رأس "أولجا"، فتراجعت إلى الوراء وكأنهم أخبروها بهذا.
لا، هراء! غير صحيح! هي لا تشبه الفئران في شيء. فقط عليها تغيير شيء ما في حياتها، وإلا ستصبح متعفنة تمامًا. عشرون عامًا، لقد ظلت هنا عشرين عامًا شاقة بالنسبة إلى الجريدة. وبهذا الشكل، يجب ممارسة شيء

ما، ممارسة شيء، وليس المعاناة. سيأتي "أندريه إيفانوفيتش"، وعندئذ ستخبره، وسيتفهم الأمر كله.
أعدت "أولجا" الشاي لنفسها، وعادت إلى الكمبيوتر. فتحت البريد، كانت الرسالة الأولى من المقيمة السابقة في "بولشاكوف"، "تامارا أكولافايا":
"مرحبًا، أولجا!
انظري إلى ما وصلنا إليه بالأمس على موقع المقاطعة! الأسر كلها قرأته. ليس هناك حدود لسخطنا ودهشتنا! ما هذا؟".
ثم وفي الأسفل رابط لتلك المادة.
نقرت "أولجا" على الرابط. فذهب بها الرابط إلى نص بعنوان "الخطة العامة للتكوين المحلي لمجلس قرية بولشاكوف". وفي الأسفل كلمات بخط صغير للغاية. فاضطرت "أولجا" إلى ارتداء النظارة.
"الخطة العامة المطورة للمستقبل ٢٠٣٠.
تُعد الخطة العامة برنامجًا إستراتيجيًّا طويل الأمد لتطوير المستوطنات لمستقبل أفضل، وأساسًا لتطوير قواعد استصلاح الأرض وتطويرها، ولمشاريع التخطيط والمسح لبعض الأراضي المنفصلة ومخططات النقل والهندسة.
وتهدف قرارات الخطة العامة إلى ضمان التنمية المستديمة الآمنة لأراضي قرية "بولشاكوف"، وكذلك تحسين جودة حياة السكان من خلال تنفيذ التدابير المخططة لتطوير البنية التحتية الاجتماعية، والمتعلقة بوسائل النقل والمواصلات، وكذلك تحسين الوضع البيئي.
يعتمد التنظيم المعماري والتخطيطي لقرية "بولشاكوف" على تقسيم وظيفي واضح، مع مراعاة الظروف الحالية لتطور رأس المال، وكذلك الظروف الحضرية الإقليمية (الظروف الطبيعية، مثل التنمية والتقاليد الشعبية، وأحوال المعيشة)، ويضمن هذا:
- ترشيد استخدام الأراضي عن طريق التقسيم المناسب لمجموعات المباني الرئيسية والهيئات المرتبطة وظيفيًّا بين بعضها بعضًا.
- تهيئة أنسب الظروف لحياة كريمة واستجمام مريح وإنتاج سكان القرية.
ويقف تنظيم التخطيط على جوانب إيجابية للتطور الحالي، وكذلك على الترابط الوثيق بين البناء الحديث والتطور المستمر ومتطلبات تنظيم مجتمع معماري واحد، يلبي متطلبات المبادئ الحديثة للتخطيط والتطور.
المنطقة السكنية تنفذ بشكل متماسك ومتراص.
ويتم تحديد المنطقة السكنية مرة أخرى في الجزء الغربي من القرية في الأراضي الحرة.
ويُقترح بناء المنطقة السكنية من خلال بعض المباني السكنية الفردية بجانب قطع من الأراضي الخاصة. ويتم التخطيط إلى شد الشوارع الجديدة في المنطقة السكنية المحددة في عملية التطوير.

تطوير الأكواخ في الظروف الحديثة يعد الاتجاه الواعد للبناء، حيث إنه خلال المعدلات المنخفضة للبناء يعطي الفرصة للسكان حتى يحلوا مشكلة توفير السكن بصورة مستقلة.

ومن المخطط تنظيم التقسيم الوظيفي الحالي للأراضي، وكذلك شبكة الشوارع والممرات".

قرأت "أولجا" المكتوب، ولم تحد بنظرها عن السطور، وقد أحست وكأنها تسقط إلى مكان ما من دون مقدمات. أحست بالأمر نفسه من قبل، تمشي على الرصيف، وفجأة يصبح الرصيف لينًا، مثل مرتبة السرير، وتتحرك إلى مكان ما، لكن هذا قد حدث من شدة التعب والحرارة. أما الآن..

"وبما أن المركز الاجتماعي التجاري للقرية متطور بشكل كافٍ، فإن المشروع سيحتفظ بوضعه الحالي، وسيتم التخطيط لبناء عيادة وبيت للثقافة.

وفي خارج أراضي القرية، سيكون هناك مرسى شمال القرية على بعد (٠.٦٧٤ هكتار)".

"ويقف تنظيم التخطيط على جوانب إيجابية للتطور الحالي، وكذلك على الترابط الوثيق بين البناء الحديث والتطور المستمر ومتطلبات تنظيم مجتمع معماري واحد، يلبي متطلبات المبادئ الحديثة للتخطيط والتطور".

"ويُقترح تطوير المباني منخفضة الارتفاع من أجل تحسين رأس المال بشكل كامل. فبجانب التطوير السكني، سيتم توفير حدائق عاملة للترفيه والتنزه".

"ويتم إيلاء اهتمام كبير إلى زيادة مستوى التنمية الاجتماعية الاقتصادية، والرفع من راحة الإقامة والسكن".

لم تتمكن "أولجا" أن تتحكم في نفسها، وقالت:

- ما هذا الهراء؟!

ثم قالت لها "ناديجدا":

- ماذا؟ ماذا حدث؟

- نعم؟ لا، لا شيء..

ثم حركت "أولجا" فأرة الكمبيوتر نحو رابط بعنوان "منطقة الغابات لبناء المشروع"، وقالت:

- هذا مثير للاهتمام!

تبين أن الملف كبير، لم يتناول "بولشاكوف" فحسب، ولكن أيضًا حول بقية القرى المدمرة تقريبًا في المنطقة؛ "كوتاي"، و"بيليفو"، و"بروكولوف"، وكذلك "أوسوفو". وفي النهاية "الخطة الرئيسية لبولشاكوف – الحياة في بولشاكوف":

"تهدف إستراتيجية التنمية الحضرية إلى تشكيل مجلس قرية بولشاكوف مستوطنة اجتماعية اقتصادية متطورة. كما أن الهدف الإستراتيجي لتطوير

مجلس قرية بولشاكوف هو تحسين نوعية حياة السكان، وتطوير القاعدة الاقتصادية للسكان، وضمان الأداء المستديم للمجمع الاقتصادي بأكمله والمجال الاجتماعي برمته".

ثم قالت "أولجا":

- ولكن، ربما تكون هذه الخطة قديمة؛ أي إنها قبل استئناف بناء محطة الطاقة الكهرومائية.

ثم قالت:

- لا، هناك قائمة طويلة تتضمن ما يقرب من ثمانين رابطًا بعنوان: "معايير التشريع المستخدمة في تطوير الخطة الرئيسية". والأهم من ذلك أن هناك تواريخ؛ هناك قوانين وقواعد ولوائح في عام 2007 و2008، وحتى ٢٠٠٩. فقد شرعوا في تدمير المنازل في "بولشاكوف" في عام 2009!

بحثت "أولجا" على الإنترنت في محرك البحث "ياندكس" عن اسم المنظمة "منطقة الغابات لبناء المشروع"، وظلت تفكر ما علاقة الغابة بهذا المشروع؟

ثم فتحت الرابط الأول في الملف، وجدت "بوابة الأعمال الإقليمية". ومنها عثرت على "منطقة الغابات لبناء المشروع". كان هناك بعض من الإعلانات منشورة على الموقع: "الأعمال الطبوغرافية والجيوديسية"، و"بيع الأراضي بداية من 1 هكتار"، و"أغاني ميخائيل كروج". ربما الموضوع له علاقة بما يحدث. وكان هناك رقم للتواصل، وبريد إلكتروني، وعنوان، وموقع إلكتروني.

نقرت "أولجا" على الموقع الإلكتروني، وجدت كلمة: "خطأ 502. الخدمة غير متوفرة".

بحثت "أولجا" عمن يدير هذه الشركة، وقالت:

- حسنًا.

ثم هرعت الصحفية الشابة "ساشا" إلى المكتب قائلة:

- مرحبًا! أوه، "أولجا"، هل وصلتِ؟ كيف تجري الأمور؟

- أها.. مرحبًا. نعم، لقد جئت.

كانت "أولجا" ترغب في مشاركة الأخبار، التي ظهرت مثل الخطة العامة لتنمية القرى التي غمرتها الفيضانات، ولكنها ظلت صامتة. فكل شيء سيُكشف مع الأيام. أما الآن فهي بحاجة إلى التصرف بسرعة. سيأخذون هذه الخطة وينفذونها، ثم يقولون: "لقد حدث خطأ ما".

قامت بنسخ "الخطة العامة" ووضعتها على "سطح المكتب" على الكمبيوتر. وواصلت البحث عن أسماء مديري الشركة.

قالت "ساشا"، وهي تجلس:

- نحتاج إلى معلومات، وإلا فلن يكون هناك أي شيء في الصفحة الثانية للجريدة. ولسوء الحظ، ليس هناك أحداث خاصة اليوم. لقد استمعت اليوم طوال الصباح إلى الراديو.

- يبدو أنني عرفت أين المدير "ألكسندر ج. كونيف".
كان التليفون الأرضي الوحيد في المكتب على مكتب "ناديجدا أنطونوفنا". لقد قاموا بوضعه خصيصًا أمامها؛ كشيء من الاحترام للموظف الأكبر سنًّا، لكنه في الواقع كانوا يلقون العبء عليها في الرد على المكالمات. وبالمناسبة، كانت "ناديجدا أنطونوفنا" تحب الرد على المكالمات، وتتحدث بقوة، مثل المديرة، وتحاول التدخل في كل شيء، وتعد بالمساعدة، ولكن في كثير من الأحيان تنسى ذلك الوعد.
وإذا كانت هناك مكالمة ما تتعلق بالضمان الاجتماعي، واتصل بها أحد المتقاعدين لحل مشكلة ما لديه، تتحدث "ناديجدا أنطونوفنا" معه بجدية.
أخذت "أولجا" التليفون، ووضعته أمامها، وكتبت بعضًا من الأسئلة على ورقة، واتصلت بالرقم، وقالت:
- هل تسمحين لي؟
رد عليها صوت أنثوي لطيف:
- تفضلي!
- مرحبًا! آسفة على الإزعاج، أنا "أولجا سيمينيخينا"، من صحيفة "صوت العامل". هل يمكنني التحدث إلى "ألكسندر ج. كونيف"؟
بدا الصوت حادًّا بعض الشيء:
- ما الموضوع؟
- عن منشور ما.
- إمم.. أي منشور؟
قالت "أولجا" في قرارة نفسها: "ربما تكون مهتمة بالخطة العامة، إذًا لن أتمكن من تحديد ميعاد مع المدير".
كان من الضروري أن تغير "أولجا" طريقتها في الحديث.. لكنها كانت محرجة إلى حد ما، ثم قالت لها:
- نريد أن ننشر مقابلة مع السيد "ألكسندر" في الجريدة عن ملف "منطقة الغابات لبناء المشروع". وعن هذه المنظمة البارزة ..
ثم عارضت المرأة في التليفون:
- أنا لا أعتقد أن الأمر مرموق، فنحن نقوم بعملنا بشكل متواضع.
- نعم بالطبع. من المثير للاهتمام معرفة ذلك.
- إمم.. أنا لا أعرف حتى.. لدى "ألكسندر ج. كونيف" اجتماع الآن..
- ومتى يمكنني التحدث إليه؟
قالت المرأة بتردد واضح:
- سيكون لديه وقت متاح.. أعتقد، بعد نحو ساعتين، أعتقد.
شعرت "أولجا" أنها بحاجة إلى أن تضغط أكثر:
- هل يمكنه أن يعطيني نصف ساعة من وقته بعد هاتين الساعتين؟ سنقوم بطبع الجريدة غدًا. لا أريد أن نتأخر.

- أعتقد أن ذلك غير متاح..
- حسنًا.. إذن مع مَن يمكنني أن أتحدث في ذلك الأمر الآن؟ أخبريني رجاءً.
- أي أمر؟
- أريد أن أقدم لرئيس التحرير تقريرًا عن لماذا ومَن الذي رفض الخطة. أنا لا أتحدث عن قضية شخصية، ولكن نيابة عن محرر من أقدم صحيفة في المنطقة.
- انتظري دقيقة..
ثم سمعت "أولجا" موسيقى هادئة من التليفون، إما لـ"موتسارت" أو "تشايكوفسكي" .
وضعت "أولجا" التليفون بعيدًا عن أذنها، ونظرت حولها. كانت "ناديجدا" تتنفس بطريقة مزعجة، وتكتب، كعادتها، على الورق بيديها أولًا، ثم على الكمبيوتر؛ حيث كانت يدا "ساشا" تجري على لوحة المفاتيح، وتضع السماعات في أذنيها. لم تأتِ بعد زميلتهم الرابعة "إيليا". ربما في مكان ما في العمل أو اكتشفت أن المدير لن يأتي اليوم فقررت عدم المجيء، وقررت أيضًا عدم الحضور. قطع الموسيقى الصوت الأنثوي:
- مرحبًا!
- نعم، أستمع إليكِ بعناية!
- من الممكن أن تقابلي السيد "ألكسندر جريجوريفيتش" في الساعة الثانية والنصف. فهو لديه اجتماع آخر في الساعة الثالثة. هل سيكفيكِ نصف ساعة؟
- نعم، تقريبًا.
- هل تعرفين العنوان؟
- إذا كان في شارع "روبسبيير"، فربما نعم، أعرفه.
- 37 "روبسبيير". لا تنسِ بطاقة بطاقتكِ الصحفية!
كان هناك أربعون دقيقة فقط قبل الموعد المحدد، وعلى الرغم من أن مكتبهم لم يكن بعيدًا، فإنه كان من الضروري أن تتحرك سريعًا. أغلقت "أولجا" الكمبيوتر، ووضعت التليفون في مكانه مرة أخرى. وتأكدت أن بحوزتها بطاقتها الصحفية.
تنهدت وهي ترتدي معطفًا واقيًا مع غطاء رأس، وقالت:
- سأذهب إلى مقابلة.
لم يجيبوها.
ثم قالت لنفسها: "سيكون من الضروري التحدث معه في البداية بحذر عن الأهداف والإنجازات، وإلا سينهي الأمر سريعًا".
وفي الوقت نفسه، ظلت تفكر حول كيفية ظهور هذه الخطة العامة على الموقع الرسمي للمنطقة. كيف؟ إنه نوع من أنواع الاستفزاز لهم؛ حتى يراه

المواطنون، ويقرؤوا الإعلان، ويتمردوا. وبعد كل شيء، لا، لا، كل ذلك موجه لساكني "بولشاكوف"، و"كوتاي"، و"بيليفو". فقد أعيد تسكينهم، وأحرقت أكواخهم، وأزيلوا من الميزانيات، ووعدوهم في المستقبل أن تكون لديهم عيادات، ومراكز ثقافية، ومنازل، وساحات للعلوم والفنون. ما هذا الهراء؟ إنه العبث المطلق. لا يمكنك تخيل شيء من هذا القبيل .

نزلت من المصعد، وفي الردهة، اصطدمت برئيس تحرير الجريدة، وقد اصطدمت به بالمعنى الحرفي! قال الرئيس، دون أن يعرف أنها "أولجا"، فقد بدا ضائعًا تمامًا:

- معذرة!

- مرحبًا، "أندريه إيفانوفيتش"! لقد كنت على عجلة من أمري.

- أوه، "أولجا"، هل عدتِ؟

- نعم.. سأذهب الآن إلى مقابلة. هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟!

ثم تحدثت بإيجاز عن الخطة العامة لتنمية القرى التي لم تعد موجودة، وقالت:

- لقد فكرتُ في اسم المقالة أيضًا "سراب تحت الماء"!

هز "أندريه إيفانوفيتش" رأسه، قائلًا:

- نعم، إنه أمر مثير للاهتمام. حقًّا، مثير للاهتمام، أخشى ألا يخبركِ المحاور بشيء.

- لماذا؟

- سيقول إنهم منفذون للأمور، وأنهم بدؤوا في وضع خطة منذ عدة سنوات..

شعرت أولجا بالإهانة، كما لو أنه يخبرها بأنها حمقاء، وقالت:

- وماذا؟ لا ينبغي أن أذهب؟

أجاب الرئيس فجأة:

- لا، اذهبي بالطبع! هذه المقابلة ليست سوى البداية. الآن نحن بحاجة إلى معرفة مَن المقاول والمشتري، وهل زار المدير نفسه المنطقة؟ وكم دفعوا لتطوير المنطقة. من غير المحتمل أن يحدث ذلك دون علم السلطات الإقليمية. علينا أن نقضي عليهم، قبل أن يقضوا علينا. اركضِي، اركضِي يا "أولجا"، هيَّا.

قالت "أولجا"، وهي تركض:

- حسنًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس
في مكان جديد

لم يكن "أليكسي بريوخانوف" يُدخن في الشقة. فخلال شهور الخريف، وقبل حلول الصقيع، كان يخرج إلى الشرفة ويقف هناك بين الصناديق والأكياس، ويدخن السيجارة في عجلة من أمره، ثم يضع عقب السيجارة في كوب قديم كان يقوم بدور طفاية السجائر. ومن ثم يعود إلى الغرفة فيرى نظرات السخط في أعيُن الزوجة والابنة.

وفي مرة من المرات، لم تتحمل الزوجة الأمر، فقالت:

- يوجد تيارات هوائية كأننا أمام مدفأة، سنمرض هكذا، وأنت أيضًا تخرج للشرفة بقميص خفيف.

لم يجادل "أليكسي"، وإن أراد تدخين سيجارة أخرى، يخرج إلى بسطة السلم بصحبة الكوب القديم.

وقف "أليكسي" وأخذ يتخيل المكان الأفضل الذي يمكنه أن يقف فيه. فلا يجب الوقوف عند الباب، لأنه بهذا الشكل لن يمنع هواء الدخان من الدخول إلى الشقة، ناهيك بأبواب الجيران القريبة، وسلة القمامة الكبيرة، لكن هناك مصعد أمامه، وهذا أيضًا غير مناسب. فخرج إلى السلم، ووضع الكوب على إحدى درجاته، وجلس بجواره. أخرج سيجارة، والتقط الولّاعة. كانت درجة السلم الخرسانية رطبة، قال:

- ليت هناك قطعة من الخشب أجلس عليها. يجب العثور عليها أولًا.

جلس "أليكسي" القرفصاء، وأخذ ينظر من النافذة التي كانت مغممة. فقليل ما كان يمكن رؤيته. لا سيما وأنت في الطابق السادس.

ولكن حتى إذا نهض واقترب من الزجاج، فلن يرى شيئًا مثيرًا؛ ففي الأسفل يوجد خط شارع "مایاكوفسكي"، في المقابل، ثكنات خشبية من طابق واحد مع كسوة بلاستيكية على واجهاتها، وخلفها منازل من أربعة طوابق.

يعيش في تلك البيوت عائلات الأشخاص الذين جاؤوا إلى هنا في البداية من أجل تجهيز المكان لبناء محطة توليد الكهرباء. أما في البيوت المكونة من أربعة طوابق، فتعيش عائلات المتخصصين والموظفين، هؤلاء الغارقون كان يحق لهم الحصول على مبنى من ثمانية طوابق. حسنًا، لم يكن هناك سوى مبنى واحد فقط. من الواضح أن المستوطنين في مدينة "كولبينو" لم يحبوا الانتقال لهنا. يزعمون أن هذا الأفضل بالنسبة إليهم، فمن أجلهم تُنشأ أماكن العمل، أما مشاكلهم وشكواهم تُحل بالتدريج، وإن لم يكن هذا يحدث

بشكل عاجل، لكن الأولوية له. وهذا على حساب قلة الاهتمام بهؤلاء، الذين وُلدوا هنا أو يعيشون منذ عشرة أعوام أو عشرين عامًا. تمت تغطية التعفن على البيوت، وهكذا تستمر الحياة.

سمع "بريوخانوف" عدة مرات من رؤساء مختلفين كانوا يخاطبون السكان المحليين.

- لديَّ مستوطنون! ليس لديَّ وقت لكم الآن.

أما مع المستوطنين، فعلى العكس تمامًا، فسيقول:

- لديَّ مشاكل عديدة من السكان المحليين!

إنها حقًّا خطة مريحة..

كان "بريوخانوف" محظوظًا. لقد عثر على عمل خالٍ من الضغوطات الكبيرة؛ عامل كهرباء في مجمع "كولبينو" لمعالجة الأخشاب. أما الزوجة "يلينا"، التي لم تكن تعمل في القرية لمدة خمس سنوات، التحقت الآن بوظيفة صراف في الصالة التجارية في شركة البناء "فورتونا". وانتقلت الابنة إلى الصف السابع، وكان معها أربعة شبان من مدرستها الأصلية في "بيليفو". لذلك لم يكن من الصعب عليها التعود على النظام الجديد. وبما أنه لم يكن من الصعب عليها التعود، فهذا يعني أنها "محظوظة".

تقبع المدينة الصناعية، التي نشأت بسبب تشييد محطة الطاقة الكهرومائية، على مكان مرتفع غير مريح، بعيدًا عن النهر وعن غابات "التايجا". تقع في أرض خلاء تمامًا مفتوحة أمام الرياح، فلا يشعر المرء بالجبال والأشجار الموجودة في القرى. تم نقل القرى في أماكن منعزلة ومتواضعة، وكانوا قد درسوا على مدار سنوات طويلة هذا الأمر واختاروا المكان الأفضل للاستقرار. وإذا أدركوا خطأهم، كانوا سينقلون الأكواخ الخشبية، ولكن كيف هنا؟ بالتأكيد لا يمكن نقل بيت مكون من ثمانية طوابق.

كم عدد القرى والتكتلات السكنية التي بنيت في "سيبيريبا" على مدار نصف قرن ثم تم هجرها فيما بعد؟ إن معظم هذه المدن والقرى تقبع في المستنقعات، وهناك الكثير من البيوت البالية متعددة الطوابق في "التندرا"، وهناك أيضًا العديد من الأنابيب والمواسير القديمة البالية، التي تتأرجح وسط حدائق الأطفال، وهناك الكثير من النصب التذكارية المتهالكة، والأرصفة الأسفلتية المتشققة. وكان هناك هدوء وخيم لا يمكنك أن تجده حتى في غابات "التايجا"، فيمكنك من خلال هذا الهدوء سماع غرز المنشار في قطع الصفيح السميك في كل مكان هناك.

وفي وقت ما، كانوا يعتقدون أنهم سيظلون هناك إلى الأبد، ويعيشون في هذا المكان الموحش، ويقنعون أنفسهم بأنه من الضروري أن يكونوا في هذا المكان ويعملون من أجل الوطن، وعندئذ سيصبح كل شيء عادلًا، من ناحية العقل والضمير، ليس مثل أي مكان آخر.

لكن انتهت أعمال الأخشاب، ونفد الذهب، ولم تكن هناك حاجة إلى الأسبست والكوبالت، أو الفحم، وأصبح هناك ندرة في ثروة النفط، وتغيرت الخطط العسكرية، وأصبحت المدينة غير مرغوب فيها، وتوقفت عن الظهور.

وكذلك كان "أليكسي" واثقًا أن هذا سيحدث عاجلًا أم آجلًا مع مدينة "كولبينو". هي الآن تنمو وتزدهر، مثل الخيار في الصوب، لكن الخيار يتقلص عند تعرضه للهواء البارد ويذبل.

وبالفعل تدور مناقشات حول كيفية توفير مكان لآلاف المشتركين في بناء محطة الطاقة الكهربائية.

سيقوم شخص ما ببناء مصنع لصناعة الألومنيوم في مكان قريب، وسينتقل شخص ما إلى أسفل النهر من أجل بناء محطة جديدة، "شر جديد" على حد قولهم. وسيعود شخص ما إلى وطنه. أما البقية، الأغلبية التي استقرت هنا، مَن لديه أطفال، هل سئموا التجول في جميع أنحاء البلاد؟

تم بناء مجمع معالجة الأخشاب، حيث حصل "أليكسي" على وظيفته، منذ عامين تقريبًا خصيصًا من أجل أن يجد هؤلاء الناس، الذين يكثر فيهم المستوطنون، مكانًا يعملون فيه. وفي واقع الأمر، العمل في هذا المجمع غير مربح، أو لا يزال هكذا. ففي البداية، سمع "أليكسي" عن هذا الأمر، فلم يصدقه، لكن بعد مرور بعض من الوقت، عندما أخذ العمال يسخطون بسبب تأخر الراتب، أخذوا يفسرون له التكلفة الحقيقية لعملهم.

كان الرجال يضحكون بعد انتهاء الاجتماع ويقولون: "الرحمة. إننا نعمل. يضعون أشياء تافهة، حتى ينشغل العمال بأمور أخرى".

كان هذا يهين الناس، لأن العمل قد فقد مغزاه، وعقد الكثيرون النية على تقديم الاستقالة. وأخذوا يبحثون عن مكان ما يلتحقون به، لكنهم لم يجدوا. حيث كانت المدينة مكتظة بالسكان، وتقريبًا ربع البالغين يجلسون في المنازل دون عمل.

يشعر الآن "دانيا زابورتسيف"، الشاب المتزوج، المولود في قرية "كوسوي بيك"، بالأسف الشديد قائلًا:

- نصحوني بالذهاب إلى مدينة "جيليزنوجورسك" وأن هناك معهد تكنولوجيا، أما أنا فقد كنت أحمق، أما الناس في موطني كانوا يقولون إن العمل متوفر في "جيليزنوجورسك".

فأجابه الحاضرون:

- نعم، متوفر؛ لأن هناك العديد من الإضرابات.

- نعم، هذا لا يحدث لدينا في مدينة "جيليزنوجورسك"، فالمدينة مغلقة، وهناك امتيازات.

- بالضبط، المدينة مغلقة، لن تسمح بدخول أي شخص.

صعق "دانيا" على الفور وأجاب:

- ولكنني لست أي شخص. لقد تدربت لمدة أربع سنوات.
هزوا أكتافهم بلا اهتمام.
- زوجتي تشتكي من كل شيء؛ لديَّ قليل من المال، وهي لا تعمل، وشقتي صغيرة مثل الصندوق. وجيراني يتشاجرون طوال الوقت.
رد عليه "بريوخانوف":
- ومَن جيرانك؟
- عائلة "أستريلوف"؛ "ديما ومارينا" من "بولشاكوف". ألا تعرفهم؟
هز "بريوخانوف" كتفيه. ربما يعرفهم، ولكن لا يتذكرهم الآن.
- لديهم طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات. وهم على وشك الطلاق. هذا كل شيء. نعم، أما أنا و"آنيا" على حافة الهاوية. يا للأسف! هذا محزن جدًا بالنسبة للأطفال.
هز "بريوخانوف" رأسه بتعاطف، وظل يفكر في عائلته.
أصبحت أسرة "بريوخانوف" أيضًا مفككة. كانت الأسرة تنهار ببطء دون عراك وفضائح، ولكن بشكل واضح. وعلى الرغم من أن تلك الأسرة قد مرت بالعديد من الفترات العصيبة في القرية، فإنهم كانوا متماسكين ببعضهم بعضًا، ولم يفترق الزوج، والزوجة، والابنة. أما هنا الأمر اختلف كثيرًا، وانقسموا سريعًا إلى ثلاثة، وأصبح كل منهم بعيدًا عن الآخر. وكانوا يجلسون معًا فقط في الأمسيات وعطلات نهاية الأسبوع في هذه الشقة، ويزعجون بعضهم بعضًا.
كما أبدى "أليكسي بريوخانوف"، حتى وقت قريب، أسفه، لأنه لم ينجب ولدًا. أما الآن، لا نستطيع أن نقول إنه سعيد بهذا، لكنه كان تخيلًا بخوف ورهبة ما سيحدث إذا كان لديهم طفلان أو ثلاثة أو أربعة. الأمر لا يتعلق بالشقة المكونة من غرفتين، فحتى لو كانت الشقة مكونة من أربع غرف، سيشعرون أنها مزدحمة وغير مريحة. وسيتسكعون من زاوية إلى أخرى، أو يحدقان في التليفزيون بحنقة. الأمر ليس متعلقًا بشقة مكونة من ثلاث أو أربع أو خمس غرف.
كانت العائلة تقضي معظم الوقت في الشتاء في "بيليفو" في حديقة المنزل. وكان الشباب يلعبون لمدة نصف يوم بالثلج. أما هنا، يبدو أنهم محبوسون في الشقة، والأهم من ذلك، لم يرغبوا في تركها. كانوا يذهبون إلى المدرسة والعمل بصعوبة؛ ويقضون وقتًا كبيرًا للاستعداد للخروج، يتفقدون أمتعتهم ما إذا كانوا قد نسوا أي شيء، ويظلون أمام باب الشقة لعدة دقائق، حتى يصعد لهم المصعد. لم تكن المدينة مخيفة، لكنها كانت مزعجة، غير مريحة. والشقة كانت مزدحمة وكئيبة. كانوا يقولون: "سنعتاد عليها".
ثم قال "بريوخانوف"، وهو يهدئ من روعه:
- سنعتاد عليها.

لكن مضى عام تقريبًا منذ انتقالهم، ولم يعتادوا على شيء ما، بل زادت الكآبة، والألم أصبح الضعف. والأسوأ أن الثلاثة كانوا يحلمون بالرجوع إلى "بيليفو". فلن يمكنك أن تطلب حلمًا، ولن تختار ما تحلم به، ولن تتوقف عن الأحلام غير المرغوب فيها. لا يمكنك تغييرها مثل قنوات تليفزيونية. وبعد تلك الليالي، استيقظوا وهم عاجزون، متعبون، كما لو كان أحد ما قد استنفد قواهم.

عادت الابنة من المدرسة إلى المنزل، وجلست على الأريكة. وطلبت شراء كمبيوتر، لكي تتمكن من التصفح على الإنترنت.

ثم أجابت الزوجة:

- حسنًا، سنأخذ بعضًا من المال ونشتريه. نحن بحاجة إلى أن نشتري لكِ أيضًا أريكة، فقد هلكت هذه الأريكة. كان يتعين علينا أن نأخذ أريكة جدتكِ معنا.

- لكن هذه الأريكة ملائمة لي.

- ملائمة؟! إنها ستنكسر قريبًا، مثل ما حدث مع "داشا باكوفا"، وماذا ستفعلين؟ على العموم نحن الآن ليس معنا ما يكفي لشراء واحدة جديدة.

ثم حدقت "يلينا" في المكان، وقالت:

- ليس هناك ما يكفي حقًّا، ليتنا كنا هناك، كنا سنشتري أريكة رخيصة، أو كنا أخذنا التي بحوزتنا في القرية.

فهم "أليكسي" أنها تلقي به اللوم، لكنه ظل صامتًا. وفي الواقع، لقد أصر على عدم أخذها. ولن يتمكن الآن من شراء أي شيء؛ فلا يوجد مال. ومن ناحية أخرى، كيف كان سيتمكن من نقل كل شيء معه إلى هنا؟ لقد تبين أن تلك الأشياء باهظة الثمن هنا.

لقد استطاعوا أن يجعلوا لشقتهم مظهرًا معيشيًا جيدًا، أما الشرفة فقد كانت مكتظة تمامًا بأشياء كثيرة. وفي الطقس المشمس، إذا لم يتم تشغيل ضوء الكهرباء، فستكون الغرفة الكبيرة مظلمة. لم تكن هناك حظيرة أو سقيفة للمنزل، حاولوا أن يحصلوا على مكان لهم في البدروم، لكن قيل لهم من أحد موظفي قسم الإسكان:

- هذا القبو تقني غير مخصص للتخزين.

عليهم أن يلتزموا بالقوانين. ولهذا السبب تركوا الكثير، مما يبدو أنه غير ضروري، لأن ليس لديهم مكان. وبالإضافة إلى ذلك، وعلى الرغم من هذا الهراء، كان لديهم في بداية الأمر رغبة شديدة في العيش في المدينة، وبدء صفحة جديدة من حياتهم. إذا كنت ستعيش في المدينة، عليك وضع أثاث حضري في الشقة، يشبه المدينة. لذا هم مضطرون أن يواكبوا العصر.

تذكر "أليكسي" قائلًا:

- لديكِ كمبيوتر في المدرسة.

قالت الابنة:

- لا أريد الذهاب إلى المدرسة.
- حسنًا، كُنتِ تذهبين إلى المدرسة في القرية، ولم تحبي الجلوس في المنزل هكذا.
- لا أريد هذا هنا.
حاول "أليكسي" أن يخمن ما يحدث:
- ماذا، هل يضايقكِ أحد؟
كانوا يسخرون منها ويضايقونها بشكل كبير. فأولًا، إنها فتاة جديدة، وآتية من عالم آخر. نعم، هي في المنطقة نفسها، ولكنَّ هناك اختلافًا كبيرًا بين المدينة والقرية يرجع إلى ما يزيد عن ثلاثمئة كيلو متر أعلى النهر، حتى اللغة مختلفة. كان "أليكسي" لعدة مرات يتفوه بكلمة مألوفة له، فيحصل على نظرات حائرة لبعض سكان "كولبينو". وأحيانًا كانوا يسألونه عن معنى كلمة "قذر"، "انحنى"، فلم يكن يجد كلمة تعطي معنى مشابهًا على الفور:
- حسنًا. "قذر" تعني يزداد اتساخًا. ليس متسخًا بالضبط، وإنما مُغطى بالغبار، كأن قشرة سميكة عليه. أما "انحنى"؟ فهي تعني أن مال بجسده إلى الأسفل.
في القرية، يجب على المرء أحيانًا أن يتحدث بسرعة وإيجاز، فيتم استبدال بعض الكلمات بأخرى. فعندما يقطعون الأشجار في الغابات، يجب تحذير الشخص بأنه لا يمكنه لمس الجذع الآن، فتصيح بصوت عالٍ: "انحنِ!"، وهنا ينحني الشخص ويأخذ خطوة إلى الجانب. تصيح قائلًا: "انحنِ!"، فينزل الشخص بجسده إلى الأسفل، ولكنه لن يتحرك، فيمكنه أن يحصل على ضربة فوق رأسه تمامًا. أو تكون الملابس منشورة في الفناء مثلًا، ويهز الجيران شيئًا ما من خلف السياج، فتتصاعد كمية من الغبار إلى الأعلى وتبدأ في الاتجاه نحو الملابس. فتركض إلى زوجتك وتقول: "أزيلي الملابس من على الحبال، سوف تصبح قذرة!" فتفهم الزوجة كل شيء على الفور.
والآن، دعونا نفترض أن الابنة قالت كلمة غير مألوفة للبقية، فبدؤوا في مضايقتها، والاستهزاء بها، واصطناع بعض الأسماء المستفزة عليها. "قذورة"، "منحنية"، "طينة".
نظرت الابنة بعيدًا، وقالت:
- لا أحد يضايقني. لا أريد وحسب. الحياة مملة هناك.
- ألا يسمحون لكِ بالجلوس على الكمبيوتر؟
- يسمحون.
بدأت وجنتاها في الاحمرار، فلم يستطع "أليكسي" أن يفهم، فإما أنها لا تعترف وتنزعج من أن والدها قد خمن هذا، وإما أنها غاضبة لأنه يرى أنها فتاة ضعيفة، لأنها تسمح بأن يُستهزأ بها، ولا تستطيع الجلوس أمام الكمبيوتر.

- يسمحون بهذا، ولكنني لا أريد الذهاب إلى هناك. هذا كل ما في الأمر.
أخذ "أليكسي" يحصي عدد أبناء القرى:
- وماذا عن الزملاء هناك؟ هل يدرسون بشكل طبيعي؟
- بشكل..
لكن الابنة أمسكت لسانها، وصححت سريعًا:
- نعم، يدرسون بشكل طبيعي.
كانت الابنة تحصل على درجات غير سيئة، ولم تكن هناك ملاحظات عند المعلمين. وصحيح أن الشيء الوحيد أنها كانت تنطوي على نفسها، ولكنها ستتكيف على الأمر وتعتاد عليه.
سمع "أليكسي" خطوات زوجته، التي عادت لتوها إلى اجتماع الوالدين، فكرر في قرارة نفسه كخلاص له:
- ستتعود، ستتعود، ونتعود. إلى أين نذهب؟
هدأ "أليكسي"، وفكر في أن الابنة انطوائية بسبب عمرها. ثلاثة عشر عامًا، مرحلة انتقالية. وخاصة أنه من قبل في القرية لم يكونوا يتحدثون غالبًا بانفتاح، كل شيء كان يسير من تلقاء نفسه. كان لدى الجميع مسؤولياته الخاصة، التي يفهمها حتى الطفل البالغ سبع سنوات من العمر؛ الحياة ستكون أسوأ، والمائدة ستصبح أكثر فقرًا. والشيء الأهم أن كل صديق لا يمكنه العيش دون صديقه، لذلك حتى إذا تعاركوا، فإنه سيكون من الضروري لهما أن يواصلا الأمور المشتركة. أما هنا فربما لا تستطيعان ملاحظة بعضكما بعضًا. الطعام موجود في الثلاجة، والدفايات تعمل، والمياه في الصنابير.
وبهذا الشكل، أصبح أقارب "أليكسي بريوخانوف" غرباء تدريجيًّا. حتى إنهم تناولوا معًا القليل من الطعام؛ فلكل منهم نظامه في الحياة.
كان "أليكسي" قلقًا بسبب أن ابنته لا تجيب عن أسئلته بصدق، وكان الأمر يبعث بشيء ما، ولا سيما أنها كانت تتجنب النظر في عينيه. الأمر ليس في جهاز كمبيوتر واحد، لكنها طرحت عليه سؤالًا ما في إحدى المرات، وبعدما سمع "أليكسي" السؤال، حاد بعينيه ولم يعرف آنذاك كيف يجيبها. فشعر بالدم يتدفق في وجهه.
كانا يجلسان ذات مرة معًا في غرفة كبيرة، بينما كانت الزوجة تذهب تارة إلى الحمام، وتارة أخرى إلى المطبخ، والتليفزيون يصدر صوتًا خافتًا، وتظهر على شاشته صور صغيرة. فسألت الابنة:
- لماذا لم تعترض عندما طُلب من حضرتك الرحيل؟
فتذكر "أليكسي" سؤال الابنة، فشعر بالدهشة من أنه فهم المغزى على الفور. مع أنها لم تصِغ سؤالها بشكل واضح، وهذا يعني أنها كانت واثقة من أن الأب سيفهمها بهذا الشكل.

لم يُدِر الحديث عن هذا الأمر من قبل في قرية "بيليفو"، حيث كانوا يجمعون أغراضهم بتركيز ويهتمون فقط بالحصول على المزيد من الصناديق والأدراج (ظلت الطوابير الطويلة أمام البائعين لعدة أشهر فقط من أجل الحصول على صناديق فارغة)، والأكياس.

كانوا يذهبون هم الثلاثة إلى المدينة ويفحصون الشقة القابعة في الطابق السابع. ويسعدون لأن الغرف فسيحة والشرفة محاطة بالزجاج، والمطبخ مريح ومناسب، والمرحاض يعمل جيدًا. فتأخذ الابنة في تخيل مكان غرفتها وكيف سترتبها.

رد "أليكسي" على سؤالها، بسؤال على الرغم من أنه يدرك جيدًا من غير الصواب الإجابة عن السؤال بسؤال:

- وأنتِ كيف تتخيلين الطريقة التي يستطيع بها المرء أن يرفض؟ هل نعسكر في الأكواخ ونعترض عن الخروج؟

- حسنًا، لا أدري. إنهم يجمعون التوقيعات أحيانًا، ويعبرون عن احتجاجهم. وثمة العديد من الاجتماعات في موسكو.

- نعم، في موسكو "الكرملين" موجود في موسكو. سيلاحظون هذا الأمر هناك. تُخدع الوفود في "كراسنويارسك" حتى عند وصولهم إلى جلسة المشرعين، حيث يستمعون إليهم ويخمدون غضبهم وفقط.

لكن الابنة سألت عن شيء آخر، ليس عن مشكلة التوطين ولكن عن النزوح، عن ترك وطنهم.

كان يتوجب عليه الإجابة، والرد على سؤال الابنة حتى لو بكلمات معدودة، بمقدار ما كان يجيب عن التساؤلات في قرارة نفسه. إذا كانوا قد بنوا محطة الطاقة الكهربائية منذ عشر سنوات، فإن الشعب كان سينهض بكل تأكيد.

- وهكذا، كما أتذكر في نفسي، منذ سنوات طفولتي، كانوا يتحدثون عن هذا، ويقولون إننا سنجبر على الرحيل. وعندئذ غادر الكثيرون، وأراد الكثيرون أن يغادروا. كانوا يؤمنون بالحياة في المدينة في ذلك الوقت، وكانت المدن مختلفة تمامًا. إنها مراكز للحياة الثقافية، والتقدم والتطور.

وهنا تنهد "أليكسي" قائلًا:

- عليك ألا تجادل في العصر السوفيتي. كيف تجادل في هذا الأمر؟ كل شيء لأجل الدولة والشعب. مَن يجادل سيصبح عدوًا، لكن هذا الأمر استمر؛ تارة يبنون، وتارة أخرى يهملون. تارة يعيدون التوطين بالقوة، وتارة يقولون "عيشوا". تارة يوجد مستوى واحد من التخزين، وتارة أخرى مستوى مختلف. بدؤوا ينظمون مستوطنة "كوتاي" الجديدة، و"بولشاكوف" الجديدة، ثم بدا أنهم سيغرقون. فخلال ثلاثين عامًا كاملة، سحبوا أرواح الناس. فبدا وكأننا نطير بالأجنحة. يحتاج الناس إلى بعض اليقين على الأقل.

صمت "أليكسي" وفهم أنه لم يجب بسلاسة عن السؤال. وهنا طَرح سؤال جديد:
- وهل صحيح أن محطة توليد الطاقة الكهرومائية تابعة لشخص واحد؟
- أي شخص؟
- ذلك الشخص التابع للنظام الأوليجارشي. ما اسمه؟
- "بانياسكو"؟
- نعم!
- لا، غير صحيح. لديهم هناك جزء حكومي، وجزء خاص.. على الإطلاق. يوجد لديهم جزء من الدولة.. و"بانياسكو" المشهور بالألومنيوم في بلادنا.. حسنًا، المصنع الرئيسي في البلاد قيد الإنشاء الآن.. شارك "تشوبايس" في البداية، عندما كان يتحكم في صناعة الطاقة. لن يستطيع المرء أن يفرق تمامًا بين ما للحكومة وما للأشخاص المستثمرين الخاصة. كأنهم يدلون بالتصريحات كي يربكونا أكثر فلا نفهم.
أوقف "أليكسي" نفسه، أو بالأحرى، لم يكن يعرف ماذا يقول بالتحديد، وكيف يشرح لها الشيء الذي لم يكن يفهمه، أو يدركه: "يجب على الفتاة ألا تشغل بالها".
ماذا سيفعل عامل الكهرباء "أليكسي بريوخانوف" إذا كان الوزير ورئيس الوزراء لا يستطيعون فهم الأمر؟ فقبل ستة أشهر، نُقل حديثهما على قناة الأخبار.
أبلغ نائب رئيس الوزراء الكاميرات كما لو كان الأمر سرًّا:
- الشركة التي تدير بناء محطة توليد الطاقة مسجلة، على ما يبدو، في قبرص. إنها تستخدم أوراق الدفع في نشاطاتها.
فامتعض رئيس الوزراء، وسأل:
- وماذا تقترح؟
- من الضروري الوصول إلى حل في قضية إعادة التسجيل في الاتحاد الروسي.
- حسنًا، ولكن يجب معاقبة هؤلاء الذين ساهموا بشكل أو بآخر في سحب المنشأة الإستراتيجية بكل الحقوق القانونية إلى الخارج.
أومأ نائب رئيس الوزراء برأسه سريعًا:
- نحن نعد الوثائق من أجل إرسالها إلى الهيئات القانونية.
وبعد هذا الخبر، شرع الناس في "كولبينسك" في التفكير فيما يحدث، وهم يضغطون على قبضات أيديهم: "ستطير رؤوس اللصوص". وكانوا ينتظرون بشغف تعاملهم مع المليارديرِ "ملك الألومنيوم" "أوليج إيجوريفيتش بانياسكو". ليست هذه المرة الأولى التي يكتشف فيها الرئيس ورئيس الوزراء، بدون الحاجة للكشف من الصحافيي، أن "بانياسكو"، ضالع في أمور كثيرة مريبة، مِعظمها غِير قانوني. لكنه كان يخرج من كل هذه

الأمور بسلاسة، صحيح برأس مطأطئ من اللوم الذي يلقاه من قادة الدولة، مثل التلميذ في الفصل المدرسي. والآن، يقولون إنه يعيش بشكل دائم في لندن، ويتحكم من هناك في كل المصانع المنتشرة في روسيا؛ إمبراطورية "أوليج بانياسكو". ولن يعود لبلده إلا نادرًا. قالوا:

- مَن سيضعه في السجن؟ إنه أحد أقارب "يلتسن"، وفرد من أفراد العائلة.

لم يوافق الآخرون قائلين:

- وماذا في ذلك؟ لقد تغير الزمن. أنتم تتذكرون عندما قال له "بوتين" أمام العالم كله: "هيا، تعالَ، تعالَ ووقع هنا، حتى يحتفظ الناس بوظائفهم، حتى ندفع لهم رواتبهم. ولا تنسَ إعادة القلم إلينا".

- سيرك كبير.

- لا، أيها الرجال، الآن "بوتين" سيصبح الرئيس مرة أخرى وسيفرق هؤلاء الرعاع. لقد تسللوا وتعمقوا في الدولة بشكل كبير. مثلما تتعمق الحشرة في الرأس.

- نعم، لا سيما أنه يعرف التفاصيل كلها. ويعرف كيف تعاملوا معنا هنا.

- ها ها، لا يعرف. ربما لا يعرف. وعندما يرجع من رئيس للوزارء إلى رئيس الدولة.. هل سيعرف كل شيء؟

- هكذا يسري الأمر.

كان "بريوخانوف" تارة مع البعض، وتارة مع الآخرين. وكان يعتقد أن فكرتهم الرئيسية ليس أن البعض قد تم نقلهم إلى شقق عادية، وأن البعض الآخر انتقل إلى أكواخ من الخشب الرقائقي الذي انهار على الفور، في حين لا يزال البعض الآخر دون سكن، ولم يدرج اسمه في القوائم، بل وتم إسقاطه من القوائم، ومنهم مَن لم يرغب في التوقيع على المستندات. ولا يعني ذلك أنهم لم يعطوهم الأرض أيضًا، بل قاموا بالاستيلاء على ستة فدادين وبيت خشبي، وأخذوها عنوة.

كانت الفكرة الرئيسية التي تعذبهم أنه أليس هناك حقًّا طرق أخرى جديدة لاستخراج الكهرباء، باستثناء بناء السدود، وإغراق آلاف الهكتارات من الأراضي؟ إن المنشآت النووية مقيتة، لكنها على الرغم من ذلك أفضل من السدود. كما أن محطة الطاقة الكهرومائية ليست الأخيرة، وليست الأمر الأخير للحقبة السوفيتية، بل إنهم سيبنون محطة جديدة أسفل النهر أيضًا. وسيقومون بإغراق مناطق شاسعة مرة أخرى. ويعيدون توطين السكان، ويحرقون المنازل، ويقاضونهم.

فالغالبية يبحثون عن سبب توبيخهم، وذلك نتيجة خطأ جوهري. أو ماذا نسميه؟ ماذا نطلق على تدمير جزء من البلاد؟ وإذا كانت تُعد الأراضي التي غرقت بفيضانات السدود، مثل "فولجا"، و"ينيسي"، و"أوبي"، و"كاما"،

و"الدون"، فمن المؤكد أنه سيتضح أن هناك جزءًا كبيرًا جدًّا من روسيا مغطى بالبحار الاصطناعية.

ربما واحد وخمسون، أو سبعون.. نعم، الابنة على حق؛ نحن بحاجة إلى شراء كمبيوتر والتصفح على الإنترنت. وكما يقولون، كل شيء مذكور في الإنترنت.

ولكن حتى لو لم تبتلع هذه السدود الأراضي، فقد دمرت بالفعل أفضل الأراضي في روسيا. لقد عاش المواطنون في منطقتهم بشكل رئيسي في الأراضي المنخفضة على طول الأنهار. وكانت هناك أراضٍ صالحة للزراعة على الجزر، ويزرعون الحشائش على الساحل، ويرعونَ الماشية. والآن كيف سيحدث كل ذلك بعدما أنشؤوا السدود، فليس هناك ساحل طبيعي لآلاف الكيلو مترات تقريبًا. وأصبحت جميع الأراضي الصالحة للزراعة والمروج والماشية غارقة تحت الماء. وأصبحت الجبال منحدرات ومستنقعات وفسدت "التايجا".

الناس يعيشون في المدن والبلدات الاصطناعية، ويقومون بتغيير حياتهم باستمرار بسبب تغيير صرف المياه، وأصبحت الأنهار المغلقة نتيجة وجود أحجار أو طين. وإذا لم يرسلوا المنتجات إلى المتاجر في غضون أسبوع، أو تأخرت الرواتب لمدة شهر، فستبدأ موجة من المجاعة. فلا يوجد شيء يمكنهم فعله في هذا الموقف، ولا يوجد لديهم مكان للتخزين.

وفي صيف عام 2009، عندما كانت القرى شبه كاملة، وكان الناس لا يزالون هناك، جاء إلى القرى العديد من الكتاب والصحفيين عن طريق النهر. وكان من بين هؤلاء الكتاب ذات مرة، خلال فترة الاشتراكية المتقدمة مع مشاريع البناء على مستوى الاتحاد السوفيتي بالكامل وعلى مستوى البلاد، كاتب ألف كتابًا عن غمر أراضي وطنه بالمياه، وكان وطنه يقع على النهر والمنطقة نفسها. وفي السبعينيات، أقيمت في وطنه محطة، وبنوا سدًّا، وغمرت المياه، وغرقت عدة قرى، مما أجبر السكان على الانتقال إلى أماكن جديدة غير مريحة. وأصبحت محطة الطاقة الكهرومائية الثالثة في السلسلة، ثم الرابعة، وهكذا.

لقد قرأ "أليكسي" هذا الكتاب عندما كان صغيرًا، ولم يشعر بحزن أبطال الكتاب. وما الذي يمكن أن يشعر به طالب يتراوح عمره بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة؟ ربما كان يتعين عليه أن يمر بتلك التجربة شخصيًّا. فقد كان يغار وهو صغير قليلًا من الذين أعيد توطينهم، وأراد أن يترك "بيليفو"، تلك القرية الصغيرة المهجورة.

في المرة الثانية التي قرأ فيها "أليكسي" هذا الكتاب، كانت قبل نحو خمس سنوات، عندما أصبحت قضية إعادة التوطين أمرًا لا بد منه. وعندما قرأ الكتاب، أصابته الدهشة، وقال: "كيف بعد كل هذا الزمن الطويل من الممكن أن تحدث تلك المأساة مرة أخرى؟ ومن ناحية أخرى، كيف تقوم

الدولة بمنح هذا الكاتب جوائز دولية؟ ويطلقون عليه "ضميرنا"، وفي الوقت نفسه، يقومون ببناء محطة طاقة جديدة، والأمر نفسه يتكرر مرة أخرى، وستغمر المياه العديد من القرى، وهل سيتحول السكان الأصليون من أصحاب أراضٍ إلى مستأجرين حزينين؟ هنا يشكر الرئيس الكاتب على حقيقة شجاعته، وأخلاقه، وروحانيته، ويصافحه بيده؛ اليد التي وقع بها على الوثائق التي يخبرونه فيها بإخلاء القرى من الناس وحرق الأكواخ، وكذلك الموعد النهائي لقطع أشجار الغابة، وتسوية المقابر مع الأرض وغمر القرى تحت الماء. وكل هذا يحدث من أجل توليد تيار كهربائي. حقًّا ألم يكن من الممكن اختراع طريقة مختلفة لإنتاج الكهرباء في أكثر من ثلاثين عامًا؟

وكثيرًا ما كرر المعلم في المدرسة ما يلي: "الأدب يُعلِّم. يعلمك ما المهم، وما ليس بأهمية، وما هو جيد، وما هو سيئ".

نعم، ربما يُعلِّم الأدب ذلك، لكنه دون فائدة الآن. من الممكن أن يكون الشخص في قرارة نفسه صادقًا وعلى صواب وعادلًا بقدر ما يريد، لكن الظروف تجبره باستمرار على التصرف ضد ضميره ومعتقداته. وهناك مقولة حزينة تقول: "من الصعب أن تكون إنسانًا، فالناس سيقفون في طريقك".

في ذلك الوقت، أمضى الكُتَّاب يومًا كاملًا يتجولون في الشوارع، ويذهبون إلى الساحات، والأكواخ، ويستمعون للناس، وبعد ذلك يومئون برؤوسهم، ويتنهدون بتعاطفٍ. أما الكاتب الذي كان يكتب عن وطنه الغارق، ظل يفرك عينيه، ووجهه ملتوٍ من الألم، وظل صامتًا، وعندما وصلوا إلى مكان الكارثة الطبيعية الوشيكة، يتفقدون ما كان على وشك أن يدمره نوع من الإعصار والتسونامي، لكنها بالطبع ليست كارثة طبيعية تقترب من القرية، وهذه المنطقة كلها، ولكن من صنع الإنسان، بل وقابلة للتوقف، إذا أعلن الجميع بالإجماع: " هذا ممنوع!"، ولكن ذلك لن يحدث.

لكن لم يشعر أي من هؤلاء الكتاب بالرأفة بأهل "بيليفو"، ولم يقولوا للمواطنين: "دعونا لا نغادر القرية. وسنبقى معكم. والدولة ليس لديها الحق الإنساني في طرد الناس من وطنهم". ربما يكون هذا الحديث هراء، أو دون فائدة، لكن الغالبية العظمى من أهل "بيليفو" قد انتظروا ذلك. وأكدوا للكتاب أنهم لا يريدون المغادرة، ولا يرون أنفسهم في مكان آخر. حتى أولئك الذين يرغبون في الانتقال إلى المدينة في الأماكن العامة عبروا عن رأيهم بعناية، قائلين:

- سيكون من المثير للاهتمام بالطبع العيش بشكل مرفه، ولكن من المؤسف أن القرية ستغرق بأكملها إلى الأبد.

وصرخ البعض الآخر في يأسٍ:

- ما الذي سنأكله؟! نحن هنا نقوم على الأقل بزراعة البطاطس، وصيد الأسماك، وتربية الدواجن، والخنازير. أما هناك؟ فسنتضور جوعًا!

أوضحت "إيرينا كايخر"، أخصائية اجتماعية، للكُتَّاب أن هذه لم تكن مجرد كلمات عاطفية، قائلة:

- لقد تم تخصيص ١٢ هكتارًا لمَن يعملون هنا في مزرعة الدولة. وهناك مَن يمتلك منزل، وهذه ملكية خاصة، وتعدهم الدولة بتوفير سكن لهم، وهذا كل شيء. ولم يوعدوهم بإعطائهم أراضي أو عملًا. والغالبية هنا، بل جميعهم تقريبًا، ليس لديهم مدخرات، ولا يوجد شيء لديهم يمكنهم أن يعتمدوا عليه. فهم يلقون الناس في الهاوية.

أومأ الكُتاب برؤوسهم وهم يتشاركون الألم بإخلاص، ولكنهم كانوا يخجلون من الإجابة؛ إذ لم يكونوا يلاحظون أو يريدون، أو ربما يخافون من ملاحظة كيف يعلق السكان المحليون الأمل على سماع الكلمات الضرورية منهم. حتى إن الأسئلة كانت تطرح بشكل مقنن.

فقط مرة واحدة، على أقل تقدير أمام "أليكسي"، سأل كاتب كبير عما يمكن أن يغضب الناس:

- وإذا رفضتم المغادرة، ماذا سيفعلون؟

فأجابت "إيرينا" قائلة:

- نعم، لقد طرحنا هذا السؤال. وأجابوا بأنهم يقدرون أسعار الكوخ والعقار أمام أعيننا، ثم يعطون لنا ما يجدونه مناسبًا، خمسون ألفًا، أو سبعون، ويضعوننا بقوة على متن العبارة، ويصطحبوننا إلى المدينة، وهناك نفعل ما نريد.

فامتعض كاتب آخر يرتدي نظارة:

- ولكن هذا الأمر غير قانوني.

- نعم، ربما الأمر غير قانوني. نأمل ألا يصل الأمر إلى هذا، ولكن على أي حال، أنا لا أعرف كيف سيعيش الناس.

وهنا صرخ الكاتب الثالث ذو اللحية الرمادية وهو يبكي:

- احتلال! لقد جاء العدو! وكأنه في نظام الاحتلال.

جعد الكاتب الكبير وجهه ذا الملامح السيبيرية، وأجاب قائلًا:

- الأمر ليس في ذلك يا "فاليا"، ليس في ذلك. إذا كانت روسيا وحدها على هذه الأرض، كان من الممكن آنذاك الذهاب، ولكن عندما يجب الانتقال الفوري، ماذا كنا سنفعل؟ كانت هناك الحاجة إلى الاتفاق على كل شيء وجريان الأنهار وإطلاق الصواريخ وصب الخرسانة في الأرض.

كان الكُتَّاب يجلسون في المساء على متن قارب متجه إلى "كوتاي"، مركز المقاطعة سابقًا، حيث لا تزال أكواخ الزائرين موجودة. ومؤخرًا، وهنا بالتحديد، في الشقة، رأى "أليكسي" كاتبًا كبيرًا صدفة على التليفزيون.

كان يهمهم بصوته الهادئ قائلًا:

- لقد تراجع الشعب. وإذا كان قد تراجع من قبل، فهذا ليس منذ فترة طويلة. لقد كبح جماح نفسه. وهو لم يرد هذا الأمر هنا. لقد تعب.

فغضب "أليكسي":
- الشعب لم يتعب! لم يتعب، ولكن الأمر اختلط عليه. ماذا كان عليه فعله؟ أخبرني!
وكان "أليكسي" في تلك اللحظة ينظر إلى الشاشة، وإلى التجاعيد والندبات منتظرًا الإجابة، ولكن ذلك الصوت الهادئ كان يصدر عن أمر آخر:
- يبدو لي الآن أن العالم كله محكوم عليه. هذا العالم ذاهب لدماره.
نجحت هذه الكلمات في إخماد السخط والغضب، وأصبح من المؤسف أن يعيش هذا الرجل العجوز منتظرًا بتلك الثقة الكبيرة. لم يكن "أليكسي" يؤمن أن العالم يتجه إلى دماره بل على العكس، كان يعتقد أن العالم سيصبح أفضل وأفضل، وإذا كانت الاختراعات كلها قد نُفذت، وأن الإنجازات قد حُققت، فإن العالم كان سيتحسن سريعًا. يتعامل الناس على الأرض بسبب الكسل والجشع وكأنهم قُطَّاع طرق قد جاؤوا من كوكب آخر. يمتصون هذا ويعودون سريعًا، إلى رجل القنطور، وهو أحد نجوم كوكبة القنطور الأكثر ضياءً، وهو أقرب نظام نجمي إلى الشمس.
ولكن سرعان ما تعيد البشرية التفكير وتفهم أن كوكب الأرض هو الكوكب الرئيسي والوحيد، الذي يجب عدم تدميره، ولا يمكن استخدام النفط والغاز بجنون، وكذلك لا يمكن قطع الغابات. يعيد التفكير، فيعتني بكوكب الأرض وبنفسه، وبأحفاده.
يمكن بالتأكيد أن تفهم الكاتب، كان "أليكسي" غالبًا ما يراقب كيف يغضب الناس - الذين يشعرون باقتراب الموت - من كل ما يحيطهم، ويتشاجرون مع الأطفال، ولا يريدون رؤية أي شخص قريب منهم. ومع ذلك، يكونون أوائل الناس الذين يبوحون بما بداخلهم. وكذلك يكونون واضحين: "العالم محكوم عليه.. يا لعبث هذا العالم!".
والآن، وبعد سؤال الابنة عن سبب عدم المعارضة، تذكر "أليكسي" زيارة الكاتب عدة مرات. وبالفعل، كان على الرجال المحترمين والمشهورين في جميع البلاد ألا يغادروا، وأن يظلوا هناك. " أين كوخكم الفارغ؟ نحن معكم!". كان جزء كبير من الناس يريدون الدعم. وكان هناك أشخاص سيرحلون بالتأكيد، ولكنهم ظلوا وبقوا. كانوا ينتظرون حدوث شيء ما، كلمة ما مشابهة. وكان الكاتب الكبير سيرى آنذاك أن الشعب لم يتراجع. وسيقدم الدعم إلى "كوتاي" (وهناك يعيش ثلاثة آلاف تقريبًا)، بالإضافة إلى "سيرجوشكينو"، و"براكلوفا"، و"أوسوفا"، و"بالشاكوفا".
كان "بريوخانوف" تقريبًا يتخيل هذه الانتفاضة، وقد ارتعش جسده، فشعر بالدهشة، فساعدت تلك المشاعر على أن الصور عندئذ أصبحت أكثر تميزًا، حيث إنه كان يحب التخيل خلال أعوام طفولته.
وكان يفكر بجدية في بعض الأحيان: "ماذا سيحدث إذا كان المواطنون أعلنوا أنهم سيظلون في القرية، ولن يتركوها، وهم خائفين؟ ربما كان هؤلاء

الناس سيتضامنون مع الشعب .. وكانوا سيتمكنون من إنقاذ "بيليفو" و"كوتاي"، وكانت ستزداد المؤتمرات والاجتماعات آنذاك، وكانت الظروف ستتحسن وسيحصل المواطنون على تعويضات".

- تفو!

بصق الرجل؛ فبدلًا من حلاوة الأحلام، التي كان فيها بطل بصحبة البقية، وكانوا على استعداد جميعًا للبقاء على أرضهم حتى اللحظة الأخيرة، أصبح كل شيء كئيبًا بمجرد ظهور الحسابات، والتعطش للربح.

لكن التعطش للربح يتمثل في قطعة من الأرض على مشارف حديقة، أو حظيرة، أو كوخ؟ وحبذا أن يكون هناك مكان للتجول، والحفر في الأرض ودق المسامير في اللوح.

فكر "أليكسي" وهو يتجول في الشقة قائلًا:

- لن نظل هنا طويلًا محبوسين. نحن مخدوعون ومبعثرون.

أخذ "أليكسي" يخرج إلى الدرج ثم يعود لفترة طويلة، ثم جلس على درجة خرسانية، وقد وضع تحته أحد كتب ابنته الدراسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع
إخراج الموتى من القبور

مضى الصيف الأول بعد انتقال السكان إلى المدينة. لم يكن لدى المواطنين مال للذهاب إلى مكان بعيد مثل المركز الإقليمي، أو حتى إلى البحر. ولم يخططوا لقضاء عطلة بعد، بل لم يكن لديهم رغبة في الذهاب إلى "التايجا"، أو إلى النهر.

كان هناك نوع من الغضب الثائر؛ فقد كان الشاطئ قريبًا جدًّا في الآونة الأخيرة؛ أي ما يعادل مئة خطوة حرفيًّا من القرية. أما الآن، فقد تغير العالم الذي كانوا يعيشون فيه، وأصبح الأمر الآن يستغرق نصف ساعة للذهاب إلى النهر، وأصبح طريق "التايجا" واعرًا كثيرًا. "نعم، اللعنة!" تشعر أنك لديك رغبة في الصراخ لكي تركب قارب على النهر، وتدخل الغابة مع الدلاء، وحقيبة الظهر.

لم يرغب "أليكسي بريوخانوف" في مقابلة المواطنين السابقين، وأراد فقط أن يبقى بعيدًا، وكان يذهب إلى والديه، وإلى والدي زوجته مجبرًا.

لقد عاشت كل من الأسرتين في أكواخ شبه منفصلة، ومختلفة، ولكن في الحي نفسه. وقد تمكنوا خلال عام من تجهيز منزلهم، وإكمال وجهة المنزل، وحاولوا أن يصلحوا ما بينهما. لقد حفروا تحت الأرض، على الرغم من أن الأرض ضحلة، ولكن حاولوا زراعة البطاطس، وقاموا بتخليل اثني عشر وعاءً به العديد من أنواع المخللات؛ فقد كان أهم شيء بالنسبة لهم هو الحفاظ على عادتهم القديمة. ولذلك قاموا ببناء سور للأرض (وهذا كان ممنوعًا لدى مصلحة الإسكان)، وزرعت الأمهات الزهور، والجزر والبصل والبقدونس. كل هذا حدث في المكان المخصص للكلاب رسميًّا؛ حتى لا يفسدوا المنظر العام.

كان لوالدي "أليكسي" كلب يُدعى "تريزوركا"، وقد أحضروه معهم من القرية، ووضعوا في فمه كمامة رمادية اللون.

استقل "تريزوركا" العبارة معهم بهدوء واستلقى على قدميه على طول الطريق. وعندما وصل إلى مكانه الجديد، سمح لهم بأن يضعوا له سلسة حول رقبته، ولكن بعد بضعة أيام، شعر بالخنقة، وشرع يمزق السلسلة ويعوي، وينبح على كل مَن يراه، كما لو أنهم أخذوه عنوة، وقيدوه بالسلاسل هنا.

اشتكى الجيران، وقالوا:

- سلمنا يا الله منه!

قضى والد "أليكسي" عدة ليالٍ بجانبه، وأقنعه بالتحمل، قائلًا إن هذا الآن منزلهم الجديد. يبدو أنه أقنعه، أو فلنقل إن عجوزًا قد أقنع عجوزًا آخر. والآن، لم يعر الكلب اهتمامًا، حتى في الأجواء المزعجة، ولم يلتفت لأي شيء، حتى طبق الطعام، يقوم الوالد بمناداته عشر مرات، حتى يلاحظ وجوده: - كل هيَّا يا "تريزوركا".. اشرب، هيَّا..

ضحك أحد المارة، قائلًا:

- حينما أراك تجالس الكلب، أشعر أنك تعتني به مثلما نفعل مع الطفل.

- ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ ومن المؤسف أنه سيموت من الملل.

- نعم، لا يمكن للحيوانات تحمل ذلك. أما الإنسان يمكنه أن يعتاد على كل شيء.

وعندما يجتمع الآباء، وزوجاتهم، يتعكر مزاج "تريزوركا" أكثر فأكثر.

فلتتخيل أنك تجلس معهم وتشربوا كوبًا من الشاي، وتتذكروا معًا الفودكا، وتخشون في تلك اللحظة دخان السجائر الذي يصعد، ويكوِّن هالة مخيفة من الدخان. وتنظرون إلى المباني المرصوصة حولكم المكونة من تسعة طوابق، والأسقف المصنوعة من خشب وطنك. وينادي والدك على الكلب ويقول: "*تريزورررررر*!" فيحرك ذيله قليلًا، لكنه لن يخرج في الهواء الطلق، ولن يبتسم، كما كان من قبل، لن يأتي إليك راكضًا، ويدعوك للعب معه. هكذا يعيش "تريزوركا"، ووالدا "أليكسي".

كثيرًا ما كان يشعر "أليكسي" بالفراغ في داخله، لدرجة أن حتى الحزن قد اختفى. بمعنى أنه شعر بأنه قد ولد في ذلك الفراغ، ولذلك حاول أن يعير اهتمامه لما هو موجود حوله وفي العالم، ثم اكتشف أنه لم يلاحظ خلال أسبوع ونصف الأسبوع كيف يعيش الآخرون معه في المكان نفسه، وكأنه مغيب عن الواقع.

خرج "أليكسي" ليجتمع صدفة مع الرئيس السابق للمجلس القروي "تكاتشوك". وقد حدث ذلك في نهاية أغسطس، في المساء. كان قد أنهى عمله، وفي طريقه إلى المنزل، ثم فرملت فجأة سيارة بجانبه، وسمع: - مرحبًا، يا مَن تحمل اسمي نفسه!

استدار "أليكسي"، ووجد وجه "أليكسي ميخائيل تكاتشوك" في مرآة سيارة يابانية.

ابتسم "بريوخانوف"، على الرغم من أنه حزين:

- أوه، "أليكسي ميخائيل".

- فلتركب، ونتحدث.

مشى "أليكسي" حول السيارة اليابانية، وركب في المقعد الأيمن. بدا "تكاتشوك" أصغر سنًّا. كان "أليكسي بريوخانوف" ينظر لـ"تكاتشوف" بنظرة حسد وخبث، وتذكر الحديث عن أن "تكاتشوك" قد حصل على ثلاث

شقق، وقطعتي أرض. تحدث "تكاتشوك": - أنصت إليَّ، ستصل إلينا عبَّارة بعد غد. وستصحبنا إلى "بيليفو".

تراجعت ثقة وقوة "تكاتشوك" على الفور، وتغيرت ملامح وجهه، وكأن جفون عينيه أصبحت ثقيلة، وزادت تجاعيد وجهه من الزوايا، وقال: - حان وقت نقل الموتى.

أومأ "بريوخانوف" برأسه، دون أن يعرف كيف يتصرف. يبدو أن الرئيس السابق سيطرح عليه فكرة أن يذهب هو بدلًا منه.

ثم قال "أليكسي ميخائيلوفيتش" بامتعاض:

- ألا تريد أن تذهب معي؟ لا أرغب في أن أذهب إلى هناك وحدي. لن يتمكن الرجال المسنون من المجيء معي، أريد شخصًا يقظًا معي، هذا كل ما في الأمر، ولكن كيف ستذهب؟

ثم قال "أليكسي بريوخانوف" لنفسه:

- بعد غد يوافق يوم الخميس، وسيكون يوم عمل، ومن الصعب أن آخذ إجازة في هذا اليوم، ولكن كيف يمكن حفر قبور الأقارب من دوني؟ يتعين علي رؤيتها على الأقل حتى لا أنغمس في الشكوك والخوف من تبديل جثث الأقارب مع الآخرين.

فأجاب "أليكسي" "تكاتشوك" قائلًا:

- سأذهب، بالطبع. سأذهب! عليَّ فقط تقديم طلب إجازة.. متى سيكون ذلك؟

- لقد حددوا في الساعة السادسة، ولكنني أعتقد أنهم سيحملون الجثث في السابعة.

- أفضِّل أن آتي بالقارب. نحن نركب طوال اليوم العبَّارة.

ثم قال "تكاتشوك" بفرحة عارمة:

- فلتفعل ما يحلو لك. سنلتقي هناك في القرية.

ثم تحققوا من أرقام تليفونات بعضهما بعضًا. وقالوا وداعًا دون أن يسألوا بعضهما عن أحوالهما، وما فعلت الحياة بهما. كلاهما يفهم أن الأمر لا يستحق ذلك. ركض "أليكسي" بقية الطريق إلى شقته مثل الريح. وقال لزوجته، عند المدخل، إنه سيسافر بعد غد إلى "بيليفو". أنصتت له الزوجة، وتغيرت ملامحها بشكل رهيب لدرجة أنه تراجع في التفكير في الأمر.

- ماذا؟

صاحت وتبدلت ملاحمها كأي امرأة سليطة لسان حتى لقد شعر بالخوف:

- لا يهم! هذا أمر ليس له أهمية! ستذهب بالمركب؟ أتظن نفسك "كريستوفر كولومبوس"؟

شعر "أليكسي"، اليقظ تمامًا، السعيد باقتراح "تكاتشوك"، والمعروف برزانته وهدوئه، أنه يمكنه ضرب زوجته ضربة قوية في هذا الفم القبيح.

لف يده اليسرى في يده اليمنى ممسكًا بقبضة. وانتظر حتى تنتهي من حديثها بينما تشتعل النيران في صدره.
لقد أوضح أن "تكاتشوك" طلب منه الذهاب إلى القرية، وأنه بحاجة للتأكد من أنهم قد حفروا مقابر الأجداد والجدات والأزواج والأقارب. ووعده بالعودة يوم الجمعة إلى الميناء ويوم السبت إلى المدينة، وقال أيضًا: - نحن بحاجة إلى رؤية كيف سيتم نقل موتانا. وكيف سيضعونهم في مكان آخر.
هدأت زوجته "يلينا" من روعها تدريجيًّا، وذرفت دموعها لتحل محل اللوم. وضعت جبهتها على كتفه، وانحنت قائلة:
- وأنا أيضًا أريد..
قاطعها "أليكسي" فجأة، وهو مرتبك:
- حسنًا، سأحاول أن أفعل ذلك، ونذهب معًا. سنذهب للتخييم في عطلة نهاية الأسبوع، وسنأخذ الخيمة من عائلة "ميرزلياكوف"، فهم لديهم واحدة. دعينا نذهب إلى هناك مثل السياح، حسنًا؟
أومأت الزوجة برأسها بحزن.
في الصباح، قدم "بريوخانوف" طلب إجازة لمدة يومين، وشرح لهم السبب. وبدا عليهم تفهمهم للوضع. استمر يوم العمل إلى ما لا نهاية. وضع "أليكسي بريوخانوف" قائمة بما يجب أخذه معه، وكيفية الاستعداد للرحلة.
في المساء، ذهب مسرعًا إلى والديه؛ كان لديهما قارب بمحرك. وكان المحرك من طراز "نبتون" قويًا للغاية، وفي حالة جيدة من العمل، والمجاديف وعلب الوقود سليمة. أخبرهم "أليكسي" لماذا سيأخذه، وأين سيذهب: - غدًا صباحًا سآخذه.
بالطبع، انفجرت الأم في البكاء، وأومأ الأب برأسه بالموافقة، قائلًا:
- هذا حقًّا أمر واجب عليك.
- وبأي وسيلة ستصل إلى النهر؟
وقع السؤال على فكر "أليكسي" مثل مطرقة على الرأس، فلم يكن لديهم سيارة.
لسبب ما، لم يرغب "أليكسي" أن يسأل "تكاتشوك" عن هذا، لكنه وجد تفسيرًا:
- نعم، إن "تكاتشوك" لن يذهب إلى هناك بسيارته. فمن غير المحتمل أن يترك سيارته اليابانية الصنع على جراج السيارات عند الميناء. لقد اتصلت بـ"ديميتري أركاديفيتش بريفاليخين"، فهو لديه أيضًا سيارة يابانية "تويوتا"، واتفقنا.
رد والده وهو مطمئن:
- حسنًا، يبدو أن كل شيء على ما يرام في الوقت الحالي.
الآن كان من الضروري شراء البنزين.

أخذ "أليكسي" العلبة وذهب إلى محطة الوقود. وفي الطريق، صادف رجلًا من "بولشاكوف" يُدعى "فيتالكا سينيتسين". لقد التقيا قبل بضع سنوات في احتفال (لسبب ما كان يطلق عليه احتفال) "وداع القرية" في مركز حي "كوتاي" السابق. وكانوا يتحدثون في جميع الأمور المتعلقة بالانتقال. وقال "فيتالكا" إنه من المرجح أن ينتقلوا إلى "أباكان". فظروف الشقق هناك أفضل، وسيكون من الممكن بيعها فور استلامها: "إن المواطنين في أباكان يفهمون ما نشعر به. وكان لديهم الشيء نفسه، عندما تم تشغيل محطة توليد الطاقة الكهرومائية في كراسنويارسك، وغرقت القرى. الأمر نفسه في قريتنا، والشيء المهم هو اختيار المكان المناسب لك".

أما الآن اتضح أنه هنا أيضًا في "كولبينسك".

قال له "فيتالكا":

- لا، لا، لقد انتقلنا إلى "أباكان". العائلة هناك. لقد استقروا هناك، أما أنا عدت إلى هنا، وأعمل حارس أمن للمستشفى.

ثم ابتسم "فيتالكا"، وقال:

- لم أفكر أبدًا بطريقة أو بأخرى في أنني سأعمل في مجال الأمن والشرطة. انظر، لقد فقدت ١٠ كيلو جرامات من وزني. أنا أعيش في نزل الآن.

قال "أليكسي" لـ"فيتالكا" إنه سيبحر غدًا إلى المناطق العليا:

- أهم شيء هو الوصول إلى النهر.

رد "فيتالكا":

- قريبًا ستأتي إليك.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنهم سيقطعون أشجار الغابة من الشرق، ويقولون سيظهر حينها خليجان، وستأتي مياه النهر إلينا.

قال "أليكسي" وهو مندهش:

- كيف سيتم غمر كل هذه الكيلو مترات بالمياه؟!

تحدث "فيتالكا" مازحًا، ولكن عينيه كانتا غاضبتين، وكان فكه السفلي يرتعش، كما لو كان أحد ما ضربه ضربًا مبرحًا، وقال: - حسنًا، هناك بحر "كراسنويارسك" وبحر "براتسك". الآن ها نحن. من المحتمل أن يتعفن كل شيء على مدى أربعين عامًا. ربما ستذهب هذه المياه إلى قنوات الصرف أو ماذا يسمونها؟ ربما يمكننا السباحة فيها.

ثم تابع حديثه، قائلًا:

- كيف يعدون مقابر جديدة وتكون في الوقت نفسه قريبة جدًا من مستوى المياه التي ستغمر المكان. ماذا لو ارتفع المنسوب؟ هل سيبنون سدًا جديدًا؟

ثم تنهد "فيتالكا"، وقال أيضًا:
- لا اعرف صراحة ما سيحدث بشكل عام. أشعر أن عقلي يكاد يفقد صوابه عندما أفكر.
رد عليه "أليكسي":
- هذا أمر مؤكد، العقول لا يمكنها التأقلم مع ما يحدث. غدًا سيتم استخراج الموتى. يجب متابعتهم.
رد "فيتالكا":
- لقد نقلنا موتانا في الربيع. إنه لأمر صعب بالطبع. تبين أن نعش جدتي ما زال سليمًا. لم يفتحوه، ونقلوها هكذا. المقابر في قريتنا صحيحة تمامًا، مظللة بالأشجار والأرض جافة. أما أرض المقابر هنا منخفضة كأنها في مستنقع. لقد قطعوا كل الأشجار وقاموا بتسوية الأرض وحفروا خنادق وسموها مقابر.. القبور هنا من نوع مختلف. يحظر دفن أهلنا في تلك المدينة..
قاطعه "بريوخانوف"، قائلًا:
- لماذا؟
- حسنًا، مَن يدري؟ لقد جاء إلينا مدير المدينة، وقال: "فلتفهموا، إن أراضي القبور مختلفة تمامًا. هناك واحدة تابعة لإدارة المدينة، وأهالي المدينة، والأخرى تابعة لمديرية الفيضانات، وأهالي القرى". لقد دفن الأقارب بطريقة ما، منهم مَن تمكنا من وضع شواهد قبورهم، ومنهم مَن وضعنا لهم الصلبان فقط. لم أكن هناك منذ ذلك الحين. سيكون من الضروري التحقق من كل شيء، ولكن الأمر ليس هينًا.
بالطبع لم تسعد هذه المحادثة "أليكسي"، لكنها جعلته لديه رغبة أقوى في معرفة ما يحدث. وكان من الضروري أن يبحر إلى هناك، ويرى الأمر بنفسه، ويتأكد من أن المقابر لم تفسد بعد. يجب أن يكون هناك في مثل هذه اللحظة. والآن يبدو من الغريب بالنسبة له أنهم جميعهم قد حملوا "تكاتشوك" مسؤولية نقل قبور الأقارب، مثل أقارب "بريوخانوف"، والباقي أيضًا.
وفي المساء، لم يتسامر "أليكسي" مع زوجته، فغالبًا ما كان يقابلها بالنظر فقط، فيرى في عينيها الدعم والتشجيع. ويشكرها دون أن يتفوه بكلمة. وهنا تناولت الابنة العشاء سريعًا وذهبت إلى غرفتها. فنظر "أليكسي" في غرفتها، وقال: - سنشتري الكمبيوتر خلال أيام. لقد أصبحت مستعدًّا. هل ستحسنين استخدامه؟
- بالتأكيد. لكنني لا أريد كمبيوتر، بل أريد "لاب توب"، ويكون قابلًا للطي. ويجب تزويده بالإنترنت.
ابتسمت الفتاة وعادت صغيرة ومطيعة مجددًا.
ثم قال لها:

- حسنًا.
ضبط "أليكسي" المنبه على الساعة الرابعة. ثم استلقى وأغلق عينيه. وبدأت المياه، التي كان القارب يشقها، في الظهور في الحلم. كان يسير سريعًا ضد التيار، والمقدمة ترتفع للأعلى وتقفز. وسريعًا غرق "أليكسي" في نومه ولم يشعر بالزوجة، التي كانت تجلس بجانبه.
ترن، ترن، ترن، ترن، ترن.
كان الصوت يطرق على الأذن، فلم يفهم "أليكسي" أن هذا صوت المنبه.
جلس "أليكسي" وأغلق المنبه، ثم أغلق عينيه مجددًا وعاد إلى النوم.
لكنه سرعان ما أيقظ نفسه، ونهض سريعًا من فراشه. ولوح بيديه. أخذ يرتجف قليلًا، ولكن لا بأس بهذا ما دام هناك أمر مهم وكبير. كان هذا يحدث عندما ينهض في الظلام أيضًا من أجل صيد الأسماك.
همهمت زوجته وهي تمسك بالمخدة:
- آه.. لقد استيقظت بالفعل؟
- لقد حان الوقت يا "لين".
- جمعت كل شيء لك هناك؛ العلبة على المنضدة، والشطائر موجودة في الثلاجة، لن أصطحبك، حسنًا؟
- حسنًا، شكرًا.
ارتدى "أليكسي" ملابسه باهتمام وعناية. سروال من الصوف تحت سرواله الچينز. وفي الأعلى فانلة، وعليها سُترة، ومعطف. في فترة الظهيرة، سيخلع الملابس غير الضرورية، أما الآن فالطقس بارد، لأنه سيظل لفترة طويلة في الهواء الطلق، وعلى النهر. لقد فقد عادة الوجود في الهواء الطلق فمعظم وقته الآن يقضيه إما داخل المنزل وإما داخل ورشة عمله.
أدخل "أليكسي" علبة الطعام الذي جهزته له زوجته في الحقيبة، التي جُهزت مساء أمس. وهناك الجوارب الصوف، يبدو هكذا أنه لم ينسَ شيئًا.
سار "أليكسي" بطول الرصيف، بينما كان نعل الحذاء يصدر صوتًا عاليًا على الأسفلت البارد. والبعوض يطير في الهواء، وزرقة السماء يخترقها قطع حمراء من تسلل الشمس في بداية الصباح. كان "أليكسي" يعتقد أن الصباح قد أشرق بالفعل في "بيليفو".. "لدينا الأجواء أكثر إشراقًا". هو يدرك أن ٣٠٠ كيلومتر لن تفرق شيئًا بالنسبة لبزوغ الفجر، خاصة أن بلدة "كولبينسك" تقع عالية على التل فتحجب بزوغ الفجر لبعض الوقت عن قريته "بيليفو" التي تقع في سفح هذا التل. قريته التي لم تعد موجودة الآن. ومع كل هذا، كانت هناك ثقة كاملة في أن هناك صباحًا حقيقيًّا والجميع ينتظر شروقه؛ الأكواخ، البئر، النادي، محركات الديزل التي عمل عليها عشرين عامًا، والنباتات المزهرة والثمار السوداء اللامعة، والشمس نفسها.
أضيء النور في البيت الصغير، بيت والديه. فإذا كانت الأم قد استلقت للنوم لمدة ساعتين، وقد أعدت الطعام والفطائر بشكل أكيد، فهي الآن تملأ

الحقيبة بالطعام. والأمر هكذا دائمًا؛ يجب الذهاب بعيدًا من أجل الحصول على ثمار "عنب الثور"، وتأخذ نصف دلو للتخزين للحاجة. والأب يلوح له قائلًا: "إذا كان على المرء السفر لمدة يوم واحد عليه أن يتزود بكمية تكفي ثلاثة أيام على الأقل".

وفي السابق، كان "أليكسي" يجادل ويعارض، وقد أثبت أنه ليس في حاجة للتوتر، ولكن اليوم قرر التزام الصمت. راقب كيف تهرع الأم، العجوز صغيرة الحجم، الضعيفة وفي الوقت نفسه التي تتمتع بقوة داخلية كبيرة. والأب كذلك يفرز في ذهنه الأشياء، التي ربما أن تكون مفيدة.

أومأ "أليكسي" برأسه قائلًا:

- لقد أخذتها، وأخذت هذا أيضًا.

وهنا اشتعل القلق في صدره. وفي هذا الحين، كان يلقي نظرات متفرقة على ساعته، ويستعجل الدقائق، ويستمع ما إذا كان هناك صوت لخطوات "بريفاليخين".

وتذكر الوالد قائلًا:

- هل ستأخذ صنارة للصيد؟

ولوحت الأم بيدها:

- بالتأكيد، ألن يحتاج إليها؟!

فشعر "أليكسي" بالبهجة:

- سآخذها، سآخذها، بالتأكيد. من المؤكد أنني سأجد ولو وقت قصير لذلك.

أخرج الوالد صنارة من الخزانة الصغيرة.

- لقد جهزتها لك. وهناك ستتغذى الأسماك النهرية عليه بعد حلول الحرارة.

- عليَّ أن آخذ نوعًا آخر أيضًا من صنانير الصيد.

أخذا في فرز المعدات، والبحث عن خطافات السمك المناسبة، والطُّعم الجيد، وكذلك التأكد من صلابة الحبال. بينما كانت الأم تضع أشياء في الحقيبة.

وبحلول الساعة السادسة جاء "ديميتري أركاديفيتش بريفاليخين". ولم يصدر ضوضاء حتى لا يستيقظ المحيطون. وطرق الباب بهدوء.

وضع الدلاء والحقائب والمجاديف والصنارات في "التويوتا"، ثم وضع المحرك، وربطه حتى لا ينكسر.

بكت الأم بالتأكيد في لحظات الوداع ولوحت بيدها:

- تأكد يا بُني من أن كل شيء هناك يسير بطريقة صحيحة.

ثم أكملت منكرة كلامها:

- بطريقة صحيحة؟ هذا مستحيل. ما الصحيح في نبش قبور المتوفين؟

فأجاب "بريفاليخين" قائلًا:

- لن نتركهم. لعله من الأفضل أن يكونوا مدفونين قريبًا منا.

- بالتأكيد، ولكن هذه خطيئة على أي حال.

شعر "أليكسي" بالغضب مجددًا:
- خطيئة، يا أمي. إنها خطيئة المسؤولين في أعلى، من يقررون كل شيء أولئك الذين يغرقوننا. حسنًا..
وقد هدأ صوته.
- .. علينا الذهاب الآن.
وكان الطقس حارًّا في السيارة، لكنه كان يتنفس بسهولة بعدما أشعل مكيف الهواء. وكانت "التويوتا" تسير بهدوء، ولا تتخبط عند المطبات الأسفلتية، ولكنها كانت تتمايل قليلًا عند المرور بجوار المعدات الثقيلة الخاصة بالطرق.
قال "أليكسي":
- سيارة ممتازة.
لوح "ديميتري أركاديفيتش" بيده في الهواء بحثًا عن مقبض خشبي، ثم طرق على رأسه قائلًا:
- تفو، تفو، حتى لا تحسدها. لا أشكو منها حتى الآن، ولكن على الأرجح سينتظرها طريق طويل.
- ها؟
- أفكر في الانتقال. ابني "أوليج" يبني بيتًا على مشارف "كاراتوزسكي".
- وأين هذا؟
- في الجنوب، على جبال "سايان". يقول إن "شوشكا" ستخترق كل شيء عاجلًا أم آجلًا. وإذا لم تتحمل الأمر، ستجرف الموجة كل شيء، "شوشينسكي"، و"أباكان"، وعدة كيلو مترات أخرى. وكذلك محطة "كراسنويارسك" لتوليد الطاقة الكهرومائية. ويعني هذا أن "كراسنويارسك" ستغرق. وقام العلماء بحساب هذه العملية بالكامل، وأرسل لي الابن مقالًا عن هذا. يقولون إنه يجب أن نختبئ.
فسأل "أليكسي" غير مصدق هذه الكارثة العالمية:
- وهل سنتأثر بهذا هنا؟
- ربما لا يمسنا هذا بشكل مباشر، ولكنني لن أبقى هنا على أي حال. الأمر مقلق.
لفظ "أليكسي" الكلمة مجددًا وكأنه يصف حالته:
- "مقلق".
تابع "ديميتري أركاديفيتش بريفاليخين" حديثه:
- إذا سنحت لك الفرصة لكي تغادر، فلتغادر، وانسَ كل شيء. فالمناخ في "كاراتوزسكي"، كما يقول الابن، جيد. فسأعرض شقتي للبيع، وسأنتقل من هنا. لقد ماتت زوجتي قبل سبع سنوات، ربما ستغفر لي هذا الأمر. وستظل مقبرتها هنا في المدينة..
- ولكن إلى أين ستذهب؟ ألن تعاني؟

- حسنًا، الأهم أن أذهب بعيدًا عن "يانسي". فالجبال ستحمينا من تلك المياه.. لقد اشترى "أوليج" ثلاثة هكتارات من الأرض، ولذلك من الممكن البناء عليها.

كان "ديميتري أركاديفيتش بريفاليخين" يتحدث بثقة قوية، وإيمان في البناء على تلك الأرض، لدرجة أن "أليكسي" شعر بالغيرة. ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال في قرارة نفسه: "حسنًا، إن "أوليج" يستطيع القيام بذلك، فلديه عمل لا بأس منه. أما نحن..".

ثم تنفس بصوت عالٍ، وقال:

- إممم، دعنا نرى كيف سيكون الأمر.

- بالطبع، يمكنك أن تنتظر لكي ترى ما يحدث، بل وتوقع أيضًا ما سيحدث.

لفظ "ديميتري" بتلك الكلمات الحكيمة... وكان "أليكسي" يرغب في الرد عليه. لأنه يتذكر، على سبيل المثال، أن "أوليج" لم يبدأ عمله من دون مال. وفي الثمانينيات، كان "ديميتري أركاديفيتش" يعمل في إدارة مزرعة الدولة، وعندما تم بيع المزرعة بسبب الفيضان الوشيك، كما كانوا يعتقدون آنذاك، استعد "أوليج" جيدًا لتلك اللحظة، وقام ببيع المعدات التي تم إيقاف تشغيلها، ولكنها لا تزال تعمل. وغادر "أوليج" بهذا المال إلى "كراسنويارسك" في عام 1990. الرأسمالية لم تختفِ بعد، ولم تندثر، يجب أن نعير لها اهتمامنا. والغالبية العظمى من الناس منعزلون بين الحين والآخر. ليس لدى الجميع خطط للقيام بأعمال هنا. نعم، كان هناك شيء ليقوله لـ"بريفاليخين"، ولكن ليس من اللطيف التحدث هكذا معه.

انحدر الطريق تدريجيًا إلى أسفل، وأصبحت الطبيعة أكثر حيوية، بدلًا من السهوب الجبلية على طول الطريق. وظهرت أول شجرة منفردة من البتولا والصنوبر ثم قطع أرضية كبيرة مليئة بالشجر، وأخيرًا ظهرت غابة حقيقية.

ثم سأل "أليكسي بريوخانوف":

- ألا تعرف؟ يقولون إن السد سيأخذ مساحة من المدينة تقريبًا؟

أومأ "ديميتري بريفاليخين" برأسه نحو اليمين وقال:

- نعم، ربما وسيصل إلى مدينة "ستاريتس" والآن يبحثون عن مكان آخر ليضعوا فيه الثيران، التي كانت تعيش في هذه المدينة.

في الواقع، كانت المنطقة الواقعة تحت التل التي بنيت عليها المدينة غريبة؛ فهي أرض منخفضة، وترتفع منها المنحدرات والأعمدة الحجرية. وبالتأكيد قد حدث هناك شيء ما عظيم منذ ملايين السنين. ولذلك تَكوَّن ممر ضيق للنهر في مجرى واسع، واخترق الجبال، بل وكأنه قطع أجزاء منها. ثم انحسرت الماء، وكان القاع السابق مكتظًا بالعشب والأشجار، وظلت الأجزاء الباقية من الجبال بمثابة تذكير بالماضي.

في مكان ما قريب، لم يتمكن النهر من إغراق الجبال، ولذلك أطلق النهر لنفسه طريقًا واسعًا، وقررت الدولة قبل نصف قرن بناء محطة طاقة أخرى

في هذا الممر الضيق. نعم، لقد كان المكان مناسبًا لبناء السد، ولذلك من المستحيل تجاهل استخدامه.

مرت سنوات عدة في البحث، وتجميع المعدات، وبرم عقود للبناء، وكان هناك جدار رمادي للسد، ومطاطات صفراء اللون للرافعات.. والآن يقومون بتركيب التوربينات، وتجهيز غرف للآلات. المحطة على وشك الانطلاق الآن. ويعدون لها مراسم احتفال رائعة. بالطبع ترد الحكومة على أي شخص يلقي اللوم بأنه لا يتم إنتاج أي شيء في البلاد، باستثناء البنوك والمكاتب، ولذلك تقول لهم الحكومة: "ماذا عن محطة الطاقة الكهرومائية "بوجوشانسكايا"؟! لقد تم تشييدها تقريبًا من أنقاض المباني غير المكتملة. وفي غضون أشهر قليلة، ستبدأ في توليد الكهرباء، مما يعطي دفعة قوية لتنمية المنطقة!" ربما ذلك سيحدث، وربما لا..

كانت "محطة القوارب"، كما كان يطلق عليه رسميًا، أما بين الناس فهو "مقبرة الزوارق البخارية"، في الخريف الماضي على بعد نصف كيلومتر من الساحل. وكانت المنطقة مسيجة بسلسلة متصلة، حيث كان يحميها سكان قرى "كازانكا" و"بروجرس" و"سيبيرياشكي" و"فيجا" و"يانتاري" و"يوجانكا" وكانت القوارب واليخوت مصنوعة من قطع الخشب المحلية. وهناك الكثير من القوارب على الشاطئ، وبعض العربات على الأرض، وساحة العربات مغطاة..

تذكر "أليكسي بريوخانوف" أن الفلاحين كانوا يشتمون ويتحركون بعيدًا، بعدما يتركون القوارب. أما الآن كانت المحطة على بعد حوالي مئة متر من الماء. اعتقد "أليكسي بريوخانوف" في البداية أنهم قاموا بنقل المحطة، لكنه لاحظ بعد ذلك أن هناك رصيفًا للعربات، وكان مختلفًا، بل وجديدًا، وقد تغير مكان المحطة كثيرًا..

خرج حارس المحطة من البوابة، رجل مسن رفيع البدن، ربما غير قادر على حماية القوارب إذا اقتحمها شخص فجأة، مستيقظًا من صوت محرك السيارة، ومن إنارة المصابيح الأمامية.

صرخ ذلك الحارس، قائلًا:

- ماذا تحتاجون؟

عَرَّف "أليكسي بريوخانوف" نفسه لهذا الرجل، ومن أين أتى، وأعطى له البطاقة الزرقاء الخاصة بالقارب، وقال له: - أريد القارب.

دخلوا الكوخ، وشرع الرجل يتصفح القائمة. وعثر بسهولة على اسم عائلة "بريوخانوف".

ثم أشار "أليكسي بريوخانوف" بإصبعه على الخط أدناه، قائلًا:

- لا، هذه عائلة أخرى.. ها هو اسم العائلة الخاصة بنا "بريوخانوف".

- حسنًا. خذ القارب، في الصف الخامس، بالجانب الأيمن.

كان هناك العديد من العربات، التي يمكن من خلالها حمل القوارب في المحطة. قام "أليكسي" و"ديميتري أركاديفيتش" بتحميل القارب على أحدها؛ ثم قام "أليكسي بريوخانوف" بتشغيل القارب، وحركه على الماء. وسرعان ما ترك "ديميتري أركاديفيتش" سيارته "التويوتا" هناك.

بينما كان المحرك يتم تركيبه وتزويده بالوقود، كانت العربة على الرصيف.

أومأ "أليكسي" برأسه، وقال:

- سنفوق الجميع في السرعة!

ثم نصحه الحارس، قائلًا:

- لا تكن شجاعًا! أنت لا تعرف ما يخبئه لك النهر. فهناك الكثير من القمامة. فإذا حاولت أن تقوم بحركات مفاجأة، من الممكن أن ينقلب بك القارب، إنه قارب صغير.

ثم طرح "ديميتري أركاديفيتش" سؤالًا:

- هل يمكننا أن نتحرك بحرية في النهر؟

أخرج الحارس سيجارة، وقال:

- لم يغرق أحد بعد، لكن ربما سيحدث ذلك. هناك الكثير ممن يفقدون قواربهم هناك.. وقضوا الليل كله وحدهم في جزيرة "الباسك". إنها ليست جزيرة بالفعل، فالمياه لم تكن عميقة هناك. لكنهم قضوا الليل خائفين من أن يسبحوا فيها، وأين سيسبحون؟ فالأشجار تخرج من الماء في كل مكان، ولا يمكنهم رؤية الساحل الحقيقي. وقال أحدهم إنهم كادوا أن يجنوا، بالرغم من أن الماء كانت هادئة بعض الشيء. ولكن إذا حدث ذلك في شهر سبتمبر، لكان الأمر قد اختلف..

استمع "أليكسي بريوخانوف" بانتباه، خوفًا من أن يقاطعه، وليس لأهمية حديثه. ولكن عندما توقف الحارس عن الحديث، وشرع في أن يشعل سيجارة، سأل: - هل تقصد أن "الباسك" قد غرقت بالفعل؟

- حسنًا، ما زالت أشجار البتولا عالقة هناك، لكن نعم، لقد غرقت بالفعل.

صعق "أليكسي" من هذا الخبر. فالجزيرة لم تكن بعيدة عن "بيليفو"، ودائمًا كانوا يمرون عليها عندما يعودون من النهر، وعندما كانوا يرونها، يبتهجون، ويقولون بارتياح: "ها قد اقتربنا من الوصول إلى منزلنا". وكان الفلاحون في "باسك" يقصون القش، وتختبئ الفتيات والفتيان فيه، ويستلقون تحت أشجار البتولا. أما الآن لا توجد جزيرة، وغرقت..

دفعوا القارب إلى الماء، وصعد "أليكسي" وشكره.

قال الرجل العجوز:

- ابتعد قليلًا، هناك مصانع، وفروع أشجار. وقم بتشغيل القارب، واخلع حذاءك، لكي لا يتبلل..

أومأ "أليكسي" برأسه.

تدحرج القارب في النهر، وكان من الضروري التحكم به في السير، وتحديد الطريق المناسب للوصول في أقرب وقت ممكن. في الواقع، لقد اختفى الممر المائي الذي خلقته الطبيعة، وكانت هناك بساتين وتلال، وكثير من العقبات في وسط النهر. وفقط عندما كان أمامها، تذكر "أليكسي بريوخانوف" أنه كانت هناك جزيرة هنا، وممرات في النهر، تتخذ اتجاهًا حادًا إلى اليسار أو اليمين. "نعم، كان من الممكن أن نتحرك بحرية ونلهو وقتها في النهر".

أصبح من الخطر النظر حولك في النهر؛ كان هناك الكثير من الأمواج بطريقة غير متوقعة، بل وعلى بعد عدة أمتار من "كازانكا". ألقى "أليكسي بريوخانوف" نظرة خاطفة على المناظر الطبيعية النادرة. وكانت هناك ورشة للخشب على اليمين، على حافة الماء تقريبًا، في قرية "بولشاكوف" السابقة. "هذا يعني أن عائلة ماسلياكوف لم ترحل بعد".

يحد النهر على اليسار قرية "تايجني"، وكأنها تنحدر نحو النهر. وكانت مأهولة، وتمت إعادة توطين سكانها جزئيًا، لأولئك الذين تبعد أكواخهم عن السد. ليت الجميع يعود إلى سكنهم السابق، وقد سمع "أليكسي بريوخانوف" أو قرأ أنهم قد قرروا إبقاء "تايجني" لأن الطريق إلى "إيفينيا" يمر عبرها، وأنهم بحاجة إلى عمال للطرق، ومجتمع سكني. يبدو أنهم يخططون لبناء سد جديد..

لكن هذا غير عادل أيضًا؛ إن سكان "تايجني"، وسكان "بولشاكوف"، و"بيليفو"، و"كوتاي" سواسية، فلماذا سيظل ساكنو "تايجني" في قريتهم والباقية تتم إعادة تسكينهم؟ على الرغم من أن المروج وجزء من حدائق الخضروات قد غمرت بالفعل. كيف يمكن للناس العيش هنا تحت التهديد بأنه في أي لحظة يمكن لنهر أن يطيح بهم نتيجة لصنع الإنسان؟

كان عدد الأشجار الباقية على الضفاف وفي المياه كثيرة جدًا. لقد اشتكى المواطنون لمدة خمسة أعوام بأن هناك أشجارًا كثيفة هناك، وكان من الضروري قطعها وإزالة الخشب منها. وفي الحالات القصوى، من الممكن حرقها. حتى أنهم تحدثوا عن إزالة التربة. فلا يمكنك ترك الكثير من المواد العضوية في الأسفل هنا. ولكن الآن أصبح هناك الآلاف من أشجار البتولا، والصنوبر، وأشجار التنوب، وأكوام من الحديد وبقايا الأكواخ تركد تحت الماء.. وفي بعض الأحيان، يرى "أليكسي بريوخانوف" مناطق عارية، دون أشجار، وحشائش. على الرغم من أن هناك أيضًا جذورًا صالحة للزراعة، وتربة خصبة، سوف تتعفن قريبًا. وليس بمقدرة الناس العناية بتلك الأراضي؛ حتى لا يكون هناك خطر في إفساد المياه. وقد أعدت الطبيعة كل شيء هنا بنفسها منذ آلاف السنين، وكان كل شيء على ما يرام. ثم أتى رجل ما وقال: "لا بأس، سنقوم بإعداد كل شيء من جديد". إنه لأمر مضحك حقًا!

بدا وكأن صوت محرك القارب ينذر بانتهاء الأمر. وما أكد ذلك هذا المشهد؛ كان هناك قطيع من الخيل يقف عند الشاطئ. فأفزعه صوت القارب، فاندفعت الخيل إلى الوراء، وأخذت تركض بين المياه والغابة، ثم حادت إلى ممر في الغابة. كان "أليكسي بريوخانوف" يبحث عن راعي الخيل بعينيه، ولكنه لم يرَ أحدًا، وهذا يعني أن تلك الخيول قد هُجرت وأصبحت برية.

وقبل ذلك الوقت، كان "أليكسي بريوخانوف" قد قطع الطريق من قريته إلى مرسى "كولبينو" أكثر من خمس مرات بواسطة القارب. كان يتجول قبل إعادة التوطين. ومن قبل، كان السفر أقرب بكثير إلى الجزر، ورحلات صيد الأسماك، و"كوتاي" نفسها، التي كانت تعد المكان الأبعد.

وفي منتصف الثمانينيات، لم تعد "كوتاي" منطقة مركزية، لكنها ظلت بالنسبة للسكان المحليين عاصمة العديد من القرى المجاورة. وكان هناك مستشفى ومكاتب مختلفة ومتاجر لمنتجات متعددة ومحطة بنزين وورش صيانة. لذلك، ولهذا السبب، يقطع سكان "بيليفو" و"سيرجوشكين" و"أوسوف" الطرق ويذهبون إلى هناك.

كانت "كوتاي" أكبر وأقدم قرية في المنطقة. وكانت قابعة على أرض منخفضة، وتمتد على طول النهر. وفي مكان بعيد عن الساحل، تمتد الأراضي الصالحة للزراعة، وأماكن الرعي، وما وراءها من غابات "التايجا" والجبال المظلمة.

وفي العصور القديمة، كانت غابات "التايجا" قريبة من المياه، لكن المستوطنين كانوا في حاجة إلى أماكن للزراعة، فتم قطع الأشجار، وتجريف التربة. إنه عمل ضخم، لا سيما وأن في ذلك الوقت لم تكن هناك جرارات أو حفارات. وحتى المجارف الحديدية لم تكن موجودة.

لم تكن المناظر الطبيعية الخلابة منتشرة حول "كوتاي"، فكان الأمر مملاً من دون الغابات، لكن المكان ومع ذلك كان مناسبًا تمامًا لاستقرار آلاف من الناس. فهناك مكان لصناعة الخبز، ومكان لإطعام الماشية. وكانت الحدائق في "كوتاي" واسعة، والبطاطس تُزرع على العديد من الأفدنة.

وفي الوقت الحالي، تغير الأمر في "كوتاي" والأراضي المنخفضة، التي أطعمت عشرات الأجيال. فقد أصبحت المياه ضحلة، وبرزت أجزاء من الأسوار في مكان ما، وتعفنت الشجيرات وأكوام الأخشاب وتحولت إلى اللون الأسود. وأصبح من الصعب العيش في هذا المكان. ولم ينجُ سوى تل واحد فقط، حيث لاحت أطلال كنيسة حجرية بلونها الأبيض، ومقبرة تقع في مكان بعيد عن الساحل.

كان "أليكسي بريوخانوف" يتباطأ بشدة، محاولاً التفكير بشكل أفضل فيما تبقى من القرية، والتخمين في مكان وجودها. كان لديه أقارب كُثر في "كوتاي"، وفي واقع الأمر، كان "أليكسي" نفسه من أصل تلك القرية. لقد كان والده من "كوتاي". وبعد انتهاء الكلية، انتقل الوالد إلى "بيليفو"، وتزوج

هناك واستقر. ثم أراد في بداية الأمر العودة بصحبة العائلة إلى "كوتاي"، وكان يرى أن الناس هناك، على حد تعبيره، أكثر حميمية من سكان "بيليفو".

نظر "أليكسي بريوخانوف" إلى المقبرة محدقًا إليها بشدة، حتى يرى إذا كانت هناك آثار أو أسوار، لكن ربما قد تم التنقيب عن تلك التوابيت وإخراجها، ولم يتبقَ سوى هذا.. أو لم يأخذوا الجميع من هنا؟ أراد "أليكسي بريوخانوف" السير في مكان جاف وصغير يصل به إلى المقبرة على قدميه، لكنه قد تعين عليه السير في المستنقعات. ومع ذلك، لم يشرع في ذلك الأمر؛ فساعتان تقريبًا ستكونان كافيتين لإجهاده بشدة. سيسأل "أليكسي" فيما بعد أولئك العمال القادمين على متن العبارة، ربما يكونوا على دراية إذا قد تم التنقيب عن التوابيت أم سيقومون بذلك فيما بعد. هناك الكثير من أقارب الوالد، والشقيق الودود لـ"أليكسي"، "سانيا"، الذي مات في الشيشان. لا يمكن إهماله.

كان من المريب التفكير في أن عظام آلاف من الناس قد غرقت تحت المياه. ومن المريب أيضًا التنقيب والبحث عن تلك العظام تحت الأرض. وكلا الأمرين خطأ.

يقولون إن بعض الشعوب تقوم بإخراج الهياكل العظمية بعد مرور عدة سنوات على الدفن، ثم تُغسل العظام وتُدفن في مكان آخر أو تُعاد من حيث تم إخراجها، لكنهم لم يفكروا في أنهم بهذا الشكل يزعجون الموتى. الدفن الأبدي يبعث عن السلام الأبدي. وعندما بدأ أقارب الليتوانيين المنفيين والألمان في تجميع الرفات، غضب السكان المحليون في البداية وشعروا بالسخط، ولعنوا تلك الأفعال. ثم حاولوا عدم تركهم لشأنهم، وشرعوا بأنفسهم بعد ذلك في نقلهم إلى أماكن جديدة، على الرغم من أن معظم الموجودين لم يوافقوا على هذا، وقالوا: "لن يحدث لهم شيء! لماذا القلق؟".

والآن، عندما ينتشر الفيضان في الأماكن كلها، سيتوجب إخراج الموتى، ومن ناحية أخرى، سيُطرح سؤال: "هل سيكونون سعداء لأنه سيتم نقلهم من مكان إلى آخر، ويتم دفنهم في مكان لم يكونوا فيه من قبل؟".

وفي العام الأخير، كان "أليكسي بريوخانوف" مجبرًا على عدم التفكير في هذا الأمر، وقد حاول عيش أيامه الحاضرة، أما الآن فيوبخ نفسه لأنه لم يعرف ماذا سيفعل مع موتى القرية. وكان يتخيل أن السكان يوبخونه، ويقولون: "ليشا بريوخانوف لا يفعل شيئًا، ولا يتذكر حتى أجداده. من الواضح أنه قد باعنا".

- سيبحر القادة إلى هنا، سأشرح لهم هذا.

قال "أليكسي بريوخانوف" بصوت عالٍ، كما لو أنه يقطع على نفسه وعدًا أمام الموتى والأحياء، فالآن وبعد عام من السكون، شعر بالذنب.

تبلغ المسافة بين "بيليفو" و"كوتاي" في النهر ما يقرب من أربعين كيلومترًا. وفي منتصف الطريق، تقع قرية "سيرجوشكينو". وهي قرية صغيرة، تتألف من عدة أفنية، وبجانبها توجد غابة، وهي مستعمرة، واحدة من سبع في المنطقة.

وفي وقت سابق، وخلال الإبحار بجوار قرية "سيرجوشكينا"، كان يضطر أن يقف على أصابعه ويرفع رأسه حتى يرى الأكواخ والثكنات المُستعمرة، أما الآن فقد أصبح نصف الشاطئ تحت المياه. لكن على أي حال، لا تزال القرية بعيدة عن النهر، ويقولون إنها لن تغرق. على الرغم من أن الناس تم إجلاؤهم، والمستعمرة تم دمجها مع الأراضي، التي لم تكن بعيدة عن قرية "بولشاكوف" السابقة، وظلت الغابة والمباني كما كانت. والعديد من الآلات؛ الجرارات والشاحنات والمقطورات والسيارات، ومجموعتان أو ثلاثة من ماكينات الحصاد، كما هي. يبدو أن تلك الآلات قد جاءت من "كوتاي". ستكون جزيرة "سيرجوشكينو" مهد الحضارات الإنسانية بين المياه. والحقيقة أنه من المستبعد أن يستمر هذا الأمر كثيرًا، ففي نهاية الأمر ستنتهي الغابة المنتجة، وسيتم تدميرها. وستصبح تلك المعدات عاجلًا أم آجلًا خردة. وفي النهاية إما سيموت وإما سيخرج كبار السن، الذين حصلوا على سكن في المدينة، ولن يظلوا هنا. بالتأكيد، سيأتي الصيادون لزيارة المكان، ولكنهم لن يعملوا، أو يصلحوا الأكواخ، ولن يقوموا بصيانة المواقد. ربما يقضون الليل، ويرحلون. وبعد عشرة أو عشرين عامًا تقريبًا، ستختفي هذه القرية.

كان هناك الكثير من الأماكن خلف قرية "سيرجوشكينا"، ممتلئة بالأتربة. وهنا تقبع جزيرة "باسكوف" بين النهر. في حين أن أشجار البتولا التي لا تزال على قيد الحياة، وتتمتع بأوراق خضراء وحمراء، تظهر بعيدًا عن الشجيرات الصغيرة. حاد "أليكسي" إلى اليسار، ولم يستطع أن يحيد بنظره عن أشجار البتولا.

وأخذ يفكر بألم وغضب ويتحدث في قرارة نفسه: "ليتهم قطعوها آنذاك، هؤلاء الأوغاد.

كيف يمكن رؤية هذا؟" ثم أعاد التفكير وتوصل إلى عذر: "لا، ربما تركوها عن قصد، على أنها أحد المعالم. لأنهم يخافوا من الإيذاء".

وخلف قرية "باسك"، كانت تقبع جزيرة قديمة، ليست كبيرة ولكنها مرتفعة. وقصد صغر حجمها ثلاث مرات، وتقسمت إلى عدة أجزاء. فلاحظ "أليكسي بريوخانوف" كيف يقفز البط من العشب إلى المياه، ويسبح فيه مرفرفًا بأجنحته. وكانت هناك اثنتان كبيرتان تطيران بثقة، وخمسة أو ستة أصغر في الحجم، لونهم رمادي، تحاول الطير بصعوبة، وتعرض أنفسها للسقوط.

ظل "أليكسي" يراقبها ويخشى أن يحيد بنظره عنها. وقد علم أن ذلك البط سيأخذوه بعيدًا إلى شرفة على النهر، حيث تقبع قريتهم "بيليفو".

ثم نظر إلى مقدمة القارب في المياه، وقال في قرارة نفسه: "عليك أن تتوخى الحذر، ربما تجد فجأة جذع شجرة، أو أطواق"، كانت الشباك تشبك بهم في وقت من الأوقات فتشكل عائقًا كبيرًا. "وفي واقع الأمر، ستأتي اللحظة، التي سأنظر فيها إلى الفضاء التام بالقرية".

لكنه لم يستطع محاربة نفسه لفترة طويلة. فرفع عينيه وارتعش من شدة الخوف المختلط بالفرح، فهناك منزل لا يزال موجودًا في مكانه على حافة النهر. ويستقر ثابتًا كما لو لم يحدث أي شيء. والأكثر من هذا أنه كان كوخ "جوسيز"، وقد هُجر منذ فترة طويلة. أما الآن فالنوافذ التي كانت مغطاة بالألواح أصبحت محررة من كل شيء، وتلألأت تحت أشعة الشمس.

نظر "أليكسي بريوخانوف" بذهول إلى الكوخ، وتذكر على الفور كل شيء هنا، في "بيليفو"، كما كان من قبل، بل وأصبح مريبًا. ففي سبتمبر الماضي، رأى "أليكسي بريوخانوف" وهو يغادر كيف تتحرك المجرفة الكبيرة في اتجاه القرية، وكيف ينقل الناس براميل البنزين. ماذا، ألم يفعلوا هذا وتركوا كل شيء في مكانه وشعروا بالأسف؟ وفجأة، في اللحظة الأخيرة، اتضح أن حساباتهم كانت غير صحيحة، وأن خزان المياه لن يصل إلى قريتهم؟ تركوا الأكواخ حتى تكون بيوتًا صيفية للسكان المحليين. والآن سيدخل "أليكسي" إلى بيته، ويجلس بعد يوم مرهق.

وفجأة، صدر شهيق ونشيج عالٍ من كوخ "جوسيز"، فنظر "أليكسي بريوخانوف" إلى اليمين. لم يكن هناك منزل مجاور، ولا حتى المدرسة التي كانت موجودة منذ فترة صغيرة. فأدرك أن القرية قد انتهت. ولكن لماذا تركوا كوخ "جوسيز"؟ هنا شعر "أليكسي بريوخانوف" بالراحة. لم يكن يعرف تمامًا كيف كان سيتصرف إذا وجد القرية على ما يرام كالماضي. ربما لم يكن ليملك الشجاعة الكافية لمغادرتها، أو ربما كان سيسرع في العودة إلى زوجته وأبويه، ويقول: "بيليفو موجودة! ولا ينقص منها شيء!".

أخمد "أليكسي بريوخانوف" صوت المحرك، وأخذ مجدافًا، وبدأ يقترب بالقارب إلى مكان الرصيف في الماضي. ففي الأسفل في القاع، هناك كثير من الأعمدة والتي يتحرك من خلالها السمك الصغير في المياه الصافية. هنا من السهل عليهم الاختباء من الرماح والصيد.

انتهى الرصيف، وبدأ الطريق، بدا لـ"أليكسي بريوخانوف" أنه يستطيع الآن حتى تحديد مسار اليرقات في المياه. قاس عمق المياه باستخدام المجداف، وجد أنها تبلغ مترًا. أهذا تقريبًا العمق اللازم لعمل التوربينات في محطة الطاقة الكهرومائية بشكل صحيح؟ والآن صدقت قصة "بريفاليخين" عن أنه إذا تم شرخ السد، فستندفع الأمواج إلى عدة كيلومترات. وستتراكم هذه القوة والضغط.

وفي النهاية، اصطدمت مؤخرة القارب بشيء ما في القاع. فانتعل "أليكسي بريوخانوف" حذاءه الثقيل وقفز في المياه وسحب القارب إلى الأرض خوفًا من أن يكون قد اُخترق. ثم نظر حوله وتساءل عن كيفية وقوف العبارة في ذلك المكان. فليس هناك أرصفة في الوقت الحالي.

ضحك "أليكسي بريوخانوف" قائلًا في قرارة نفسه: "ولماذا أفكر في أمورهم تلك؟".

ظل "أليكسي بريوخانوف" واقفًا ولكن في هذه المرة كان مترددًا في ترك القارب هنا. لأنه لا يوجد شيء لربطه، لا شجرة قريبة، ولا عمود.

غير "أليكسي بريوخانوف" حذاءه مرة أخرى بآخر خفيف. ثم أكل شطيرتين، وشرب الشاي من الترمس. أخذ دلوًا وسار باتجاه منزل "جوسيز"، فهناك بئر قريبة منه.

كان هناك أمر مثير للاهتمام، وهو أنه عندما كان "أليكسي بريوخانوف" يرسي بقاربه، لم يكن هناك بعوض أو براغيث في الأنحاء، ولكن عندما بدأ في تغيير حذاءه وتناول الطعام، اندفع البعوض عليه فجأة. أخذ "أليكسي" خطوة إضافية بعيدًا عن المياه، ففي القرية كانت تلك القاذورات دائمًا ما تكون أقل.

والآن لا يوجد أي شيء. فقط سحابة مرتعشة ورمادية ترافقه. ولم تكن هناك قرية من الأساس. فتوقف "أليكسي بريوخانوف" في بداية الشارع، ثم أكمل طريقه إلى اليمين ثم إلى اليسار، فإذا ببقايا الأكواخ المحترقة سوداء اللون، والحمامات. ولأنهم قاموا بحرق هذا في عجلة من أمرهم وبلا مبالاة، كانت هناك بقايا من الأسوار والأعمدة عند البوابات، وبجانبها الألواح المتفحمة على الأرض. يمتلئ المكان بقطع الصفيح وفتات من الأردواز، وشظايا من الطوب والزجاج المكسور.

بدأت النباتات في المياه في إخفاء تلك القمامة، والتي تتخلل فيها الأسماك الصغيرة أيضًا، وتمايلت نباتات القراص فوقها حتى تضع بذورها.

- إنه التنظيف الصحي.

تمتم "أليكسي بريوخانوف"، ثم التفت فجأة وذهب إلى البئر، على الرغم من أنه لم يكن يراها بوضوح.

كان هناك في مكان البئر كومة من الخشب المتحلل، وحلقات من سلسلة كبيرة. تخيل "أليكسي بريوخانوف" أن الجرافة قد وصلت إلى البئر هنا، وأزالت الغطاء الكبير بالمجرفة، وكذلك الهيكل. التفت إلى المكان، وشاهد ما دُمر في قرية "بيليفو" على مر الأجيال والذي كان يعتبره السكان الكنز الرئيسي للبلاد. وعلى الرغم من وجود البئر بجوار النهر، فإنه خلال الفيضان، وبعد الأمطار الغزيرة، كانت الماشية تمتنع عن الشرب منها، لأنها كانت متسخة بشكل بشع.

كانت هناك ثلاث آبار في القرية، ربما الاثنتان الأخريان مملوءتان أيضًا. كان "أليكسي" قد سمع أن أول شيء يجب القيام به عند التنظيف الصحي هو تدمير تلك الآبار. لكنه تجاهل تلك المعلومة في عقله: "إنهم يدمرون كل شيء، الآن اقتنعت". ربما من أجل أن يجعلوا هذا المكان غير مأهول بالسكان في النهاية، يردمون كل شيء ويوارون كل شيء في التراب بمجرفة الماكينات الثقيلة. ففي غابة "التايجا"، يتم تنظيف كل بيت، وتعليق المفتاح في كوب من خشب البتولا. أما هنا، بالتأكيد ليست هناك مياه صالحة للشرب، وهي مشكلة كبيرة إذا تم قضاء بضع ساعات في المكان نفسه.

لقد دمر كل شيء حول كوخ "جوسيز". ففي الفناء توجد أريكة، تبدو أنها لا تنتمي لكوخ "جوسيز" وأنها قد جاءت من مكان ما، وكذلك بعض الكراسي وطاولة. والمدفأة أصبحت تحتوي على رمحين، وعود متفحم متناثر في الجوار. ربما كانوا يطهون شيئًا ما. وعلى الأرجح هذه هي الشعلات. ومن الواضح أنهم قضوا الليل في الكوخ، وتركوا الأمر، واعتقدوا أن هناك فريقًا آخر سيأتي ليكمل العمل، وينظف هذا. على الأقل هؤلاء العاملون على نقل رفات الموتى.

دخن "أليكسي بريوخانوف" سيجارة ونظر إلى المقبرة، حيث توجد أشجار الصنوبر الطويلة والرفيعة. لم يدمروها بعد. أثبتوا أن أراضي المقبرة ستكون تحت المياه أيضًا. أيعني هذا أنها ستكون بجانب الغابة؟ أم سيتم تدميرها بعد نقل الموتى؟

لم يكن "أليكسي بريوخانوف" يملك إجابة على كل الأسئلة التي كانت تدور في رأسه. وكان في ذلك الوقت يرغب في الاختباء والنوم قليلًا. يجب أن يشغل نفسه بشيء ما.

على الرغم من أن البعوضة لا تعض، وقد شعرت باقتراب الخريف وستموت، فإنها شعرت بالإزعاج بسبب دخان السجائر. كان "أليكسي" عطشان، وبخ نفسه لأنه لم يأخذ معه مرهمًا ليحميه من البعوض، أو حتى مياه. كانت هناك في المطبخ زجاجة بلاستيكية سعة خمسة لترات، حتى فكرة الذهاب إلى النهر بمخزون من المياه لم تطرق إلى ذهنه. من قبل في مرحلة الطفولة، خلال السباحة أو الصيد، كانوا يشربون منها. الشيء الوحيد أنهم كانوا يخافون من شعر الخيل الذي كان يشرب من النهر، لذلك لم يلصقوا شفاههم بالمياه، وإنما كانوا يجرفونها بفروع النخيل. ولم يكن يعاني أحد منهم من ديدان أو ما شابه عندما كانوا يخضعون لتحاليل قبل بداية العام الدراسي.

أخرج "أليكسي بريوخانوف" تليفونه المحمول، وتحقق ما إذا كانت هناك شبكة اتصال. وفكر في سؤال "تكاتشكوك" عن كيفية وجود عبارة هناك إذا كانوا يخططون إلى الوصول قريبًا. فهرع سريعًا شاعرًا بالدهشة. على

الرغم من أن الشيء المدهش هنا أن قنوات المياه جميعها تلاشت، ولم يكن هناك أي تيار تقريبًا.

لم تكن هناك شبكة في التليفون، حيث كان من الصعب أن يحمل أحد هنا تليفونًا محمولًا في الماضي. ظل "أليكسي بريوخانوف" مترددًا عند الشرفة، كان يميل إلى الدخول، إلا أنه كان يشعر بالغثيان من فكرة أنه سيرى الآن ما بداخل بيت غريب مهجور منذ فترة طويلة، ثم ينفتح الآن، مثل مقبرة فرعونية في مكان ما في مصر.

لم يدخل "أليكسي بريوخانوف" إلى هذا المكان، بل توجه إلى القارب. سينتظر الناس. فالأجواء في الكوخ ليست جيدة. وسيقطع صرير البعوض الصمت المستمر، وعلى كل حال، ستكون الأجواء مريبة هناك. يبدو أن الناس سيبدؤون مغاردة الغابة الآن. سيغادرون ببطء وبخطوات مرتبكة.

سيخرجون ويشرعون في البحث حولهم عن القرية. "تبًا، لقد رأيت الكثير من اللحظات المرعبة.." واصل الخيال والوهم في إفزاعه. صاحت الحدأة بألم، و"أليكسي" يرتجف.

ما الذي يحرق فمه؟ الطقس ليس حارًا. لقد شرب "أليكسي بريوخانوف" ما يقرب من لتر ونصف من الترمس، وكان يلصق لسانه مباشرة عند الشرب. ربما من شدة الرياح التي استقبلها عندما كان يقود القارب، أو ربما من سمك "موسى" الذي أكله في الأمس، أو ربما يشعر بالعطش..

وقف "أليكسي بريوخانوف" وبحوزته الدلو على الشاطئ، ثم نظر إلى أغصان الصفصاف، التي تخرج من النهر، مثل الطحالب، والتي تسعى إلى أن تصبح أشجارًا. جلس، ووضع يديه على الماء، وحاول أن يشم الماء، ولكنه لم يشم شيئًا.

ارتدى الحذاء، وغسل الدلو، وسكبه، انتظر حتى يصبح نظيفًا تمامًا. كان الدلو من البلاستيك الأحمر، بدا الماء وكأنه يتكون من عصير التوت الشفاف. أخذ "أليكسي بريوخانوف" رشفة، وانتظر ظهور طعم مختلف. ولكن الماء كان طعمه طبيعيًا.

ابتسم وشرع يشرب دون خوف، كما في الطفولة، وقال:

- لقد كانوا مرعوبين من لا شيء.

وبعدما ابتهج، وأصبح أكثر مرحًا، قرر الذهاب للصيد. ربما ستصل عبارة "تكاتشكوك" بعد ساعة ونصف. وبينما يرسون بطريقة ما، ويفرغون من العبارة أمتعتهم، سيكون "أليكسي" قد عاد من الصيد.

قررت أن يجرب حظه عند المنبع، حيث كانت هناك أماكن مريبة. تذكر نصيحة والديه: "فلترم الصنارة وأنت تقف على قطع الأحجار في النهر". ثم هز رأسه: "لم يعد هناك أي من قطع الأحجار، فالسطح أملس".

وصلت العبارة بعد حوالي أربع ساعات. حاول "أليكسي بريوخانوف" أن يصطاد، ثم لم يصطد في نهاية المطاف سوى رمح، وعاد إلى القرية

بواسطة القارب.
سمع صوتًا ما، فأسرع إلى القرية. شاهد كيف تقترب العبارة بحذر إلى الشاطئ، وترسى على يسار الرصيف المغمور. هناك هبوط في الأرض حتى ١٠ أمتار، والمياه تغمر المكان.
تذمر الرجال:
- كان عليهم ردم تلك الأرض من قبل، عندما كان الجميع يعيش هنا.
- لقد أرادوا أن يفعلوا ذلك في الشتاء، لكن الوقت لم يسنح لهم. لقد اندفعت الماء، وغمرت كل شيء.
وصل حوالي عشرة عمال، وضابط شرطي، وأربعة رجال يرتدون سترات زرقاء جديدة، وبالطبع كان معهم "تكاتشوك". كان هناك كاهن أيضًا، يرتدي حذاء مخصصًا لحمايته من المياه. خرج من العبارة، وتمشى إلى الشاطئ، حاملًا حقيبة في يد واحدة، ويمسك بالأخرى ملابسه.
بينما قام العمال بترتيب الأدوات، والأكياس، ورش مضاد البعوض، نظر "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" إلى ما تبقى من قرية "بيليفو"، الذي كان مسؤولًا عنها في السنوات الأخيرة.
تنهد "أليكسي بريوخانوف"، حتى لا يكون صامتًا:
- هممم، سيكون من الأفضل عدم العودة.
تمايل "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" قائلًا:
- ما زال أمامنا المهمة الأخيرة هنا.. ماذا؟ هيا نذهب؟
عندما وصلوا إلى المقبرة، شعروا براحة قليلًا. لم تتغير بعد، وكانت على حالتها السابقة. وذلك يرجع إلى الظلام الأبدي الذي حل بالمكان؛ تيجان أشجار الصنوبر التي تحمي من الشمس. ولم تتلاشَ الزهور الورقية وأكاليل الزهور، بل كانت مزدهرة. بدت القبور مريحة. جلسوا، بطريقة أو بأخرى، على مقاعد الجلوس، وأخذوا استراحة من الزحام والضجيج، والحركة. لقد كان من الجيد الذهاب إلى المقابر.
قام الكاهن بفتح الحقيبة، وأضاء المبخرة، وسكب الماء المقدس من زجاجة بلاستيكية في وعاء، وأخرج فرشاة. تطوع أحد العمال للمساعدة.
سأل ممثل إدارة الفيضانات، بلطف:
- هل يمكنك أيها الأب ألا تتأخر أكثر من اللازم؟ فنحن هكذا نتصرف مثل السلاحف.
لم يجبه الكاهن، بل ألقى صلاته، ومشى على طول سياج المقبرة. صمت الرجال. البعض خلعوا قبعاتهم، ورشموا بأيديهم الصليب على جسدهم، والبعض الآخر وقف فقط في انتظار المراسم الرسمية.
عندما ابتعد الكاهن عن العامل بعيدًا، التفت رئيس آخر إلى "أليكسي تكاتشوك"، وقال:
- ماذا؟ "أليكسي م..".

عبس ممثل إدارة الفيضانات لأنه لم يتذكر اسم والد "أليكسي"، فقال له "أليكسي":
- "أليكسي ميخائيلوفيتش".
- نعم، أنا آسف.. دعنا نفحص القبور.
- لماذا؟
- لكي نحمل الموتى.
- نعم، يجب نقل كل شيء.
ثم عبس الممثل بطريقة مختلفة الآن، وانزعج:
- كيف تتصور الموقف الآن؟
ثم أومأ برأسه نحو صليب رمادي داكن من دون نقش، وقال:
- لمن هذا الصليب؟
قال "أليكسي تكاتشوك":
- لأحد سكان قرية "بيليفو".
- هل هناك تصريح دفن لتلك المرأة؟
لم يرد "تكاتشوك" على هذا السؤال، واستمر الرجل في الحديث بثقة أكبر:
- في كل منطقة، يتم تخصيص العديد من الأماكن للمقابر. وفي المنطقة هنا واحد وعشرون مقبرة قد غمرتها المياه بالفعل. ثلاثة منها على حدود أراضي الخزان. هذا هو المكان الذي تأتي فيه المياه وتذهب، ومن الممكن أن تتآكل التربة. نحن مضطرون إلى نقلهم بالكامل. أما الذين ما زال جسدهم كاملًا، ليس من المفترض أن يتم لمسهم على الإطلاق. علينا تطهير الأرض من الهياكل. لقد أوفت القيادة بالفعل بمتطلبات الحفاظ على الآثار التاريخية.
ثم نظر هذا الممثل إلى الصلبان والهياكل الجسدية، وقال:
- غير واقعي أن ننقل المقابر جميعها.
قال "أليكسي تكاتشوك":
- لقد وعدت الجميع بأنني سأنقل جثث آبائهم وأجدادهم. وطبقًا لهذه الشروط، وافقوا على مغادرة القرية.
قرر الشرطي، الذي كان يشعر هناك بالملل والإرهاق بشكل واضح أن ينهي هذا الجدال:
- وهل كان بإمكانهم ألا يوافقوا؟ كم عدد التصريحات التي لديكم لنقل الموتى؟
ثم قال "أليكسي تكاتشوك"، وهو يخرج الأوراق من الحقيبة.
- الآن. ثمانية وأربعون تصريحًا.
- حسنًا، هذا أقرب إلى الحقيقة!
أكد "أليكسي تكاتشوك" حديثه قائلًا:

- ثمانية وأربعون تصريحًا لمئة وثلاثة وستين قبرًا.
ثم قال الشخص الذي يتجادل مع "تكاتشوك"، وهو يخرج وثائق من حافظة أوراقه:
- ماذا؟ لديَّ ثمانية وأربعون تصريحًا بالضبط.
قال "أليكسي بريوخانوف":
- لكن الناس لديهم أكثر من ميت هنا. هناك عائلات بالكامل قد توفيت.
لم يلاحظ ممثل إدارة الفيضانات كلمات "أليكسي بريوخانوف"، وقال وهو منزعج:
- "أليكسي".. آه.. "ميخائيلوفيتش"، بعد كل شيء، لقد جلسنا هنا لساعات عديدة، لماذا لم تخبرني أن عدد الموتى لديكم مئة وستين من قبل؟
أجاب "أليكسي ميخائيلوفتيش تكاتشوك":
- لم تسألني، واعتقدت أنه تم حل المشكلة. لقد قبلت المديرية طلبات تصريح الدفن قبل عام، وقالوا إن كل شيء سيتم حله. ولديَّ الآن توكيلات المواطنين المتعلقة بنقل المتوفين.
- أوه، أنت تكذب يا "أليكسي ميخائيلوفيتش". لا عجب أنهم يقولون إن أهل "كوتاي" ليسوا أناسًا سهلين.
اهتز "تكاتشوك"، قائلًا:
- اسمع! دعنا لا نهين بعضنا بعضًا.
قال أحد الرجال:
- دعونا نبدأ، نحن سنحفر الأرض على أي حال، سواء كان عدد الجثث أربعين أو مئتين. فلتقرروا ماذا ستفعلون، أما نحن سنبدأ الآن.
رد عليه الرجال، قائلين:
- حسنًا، نعم، فنحن على كل حال لن نقوم بذلك في غضون أسبوع حتى.
شرع الرجال في الحفر. التقط شاب ذو شعر داكن يرتدي سترة زرقاء صورًا للنصب التذكاري، بينما قام الآخر، الذي كان يرتدي أيضًا سترة زرقاء، بكتابة بيانات المتوفى في جدول. وأخذ العمال أدواتهم.
وفي النهاية، انقسمت الأعداد إلى مثنى وثلاث. كان هناك صرير معدني وصرير لكسر أسوار خشبية، وكذلك صرير من قطع العشب بالمجارف.
تذمر الرجل الذي يجادل مع "تكاتشوك"، قائلًا:
- ليست هناك خطة للمقبرة ولا وثائق مكتملة. في الأيام الخوالي، كانوا يخرجون الجثث ببساطة بجرار.
ذهب "أليكسي بريوخانوف" بعيدًا، حتى يتمالك نفسه.
ثم طرح الرجل على "تكاتشوك" سؤالًا:
- بالمناسبة، كم من الوقت مر على الدفن الأخير؟ ليس هناك معلومات في الوثيقة المرفقة.

كان "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" يجلس، ويميل إلى جذع شجرة الصنوبر، ويمسح وجهه بمنديل، ويلوح بيديه أمام وجهه ليبعد البعوض عنه، أجاب بضجر: - منذ حوالي سبع سنوات. في الآونة الأخيرة، كان الجميع يدفن الموتى في المدينة.

- هذا جيد.

- ما الجيد في ذلك؟

- إذا تم دفن شخص ما في الخمس سنوات الأخيرة، فإن إخراج الجثة إلزامي. هذا طبقًا للمعايير الصحية.

وبعد لحظة من التردد، التقط "بريوخانوف" مجرفة احتياطية، وقال:

- هل يمكنني البدء بقبر جدتي؟

- هل تم تطعيمك؟

- لا.

ثم قال ممثل الفيضانات بضجر:

- لا يحق لك أن تكون هنا بشكل عام من دون تطعيم!

ثم اقترح الشرطي:

- دعه يحفر القبر، ويزيل الطبقة الأولى، وكل شيء سيمر سريعًا.

ذهبوا إلى قبر متواضع. كان القبر منخفضًا، وهناك نعش ذو سطح مغطى بطلاء أزرق اللون، ومغطى بفروع من أشجار محاطة بألواح مخططة. ظهرت صورة لامرأة مسنة ترتدي وشاحًا داكنًا، يرتسم على وجهها ابتسامة حزينة. لقد توفيت منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، تذكرها "أليكسي بريوخانوف" بغموض، ربما يكون على حق، أو ربما تراءى له أنه يعرفها.

قال ممثل إدارة الفيضانات بهدوء غير متوقع لـ"أليكسي بريوخانوف":

- بالطبع هذا القبر لعائلتك، لماذا تتكبد كل هذا العناء؟ في الواقع، هناك الكثير من العظام قد تفككت بالفعل. فالإنسان يذوب حرفيًا في الأرض. ربما.. هناك مثل هذه التقاليد، أن يُنصب شاهد القبر دون رماد الأموات، ويُسمى بالتابوت وحسب. ومن ثم يمكننا فقط أخذ النصب التذكاري ووضعه في مقبرة المدينة.

أدرك "أليكسي بريوخانوف"، الذي يقف وبحوزته مجرفة في يده، من ناحية قبور الأموات، الذين رحلوا منذ فترة طويلة، أنه ربما الأمر لا يستحق الحفر. ربما يتعين عليه أن يسأل الكاهن؟ لكن الكاهن لا يحب ذلك الأمر. فإذا قال: "لا تلمس شيئًا، دعه هكذا" فهل سيطيع أمره؟ على أي حال، هناك الكثير من الشكوك في ذلك الأمر.

قام "أليكسي بريوخانوف" بتفكيك الإطار الخشبي للتابوت، وقال:

- لقد وعدت والديَّ بأن أفعل ذلك.

- انتظر، نحن بحاجة إلى توثيق هذه اللحظة! "إرتيوم" هيا، التقط الصور!

حفر العمال الأرض، وارتدوا أجهزة التنفس، وغيروا قفازاتهم المصنوعة من المواد المطاطية السميكة. ثم التقط أحد العمال شيئًا ما من الأرض، وقال: - ها قد حصلت على شيء ما!

هرع الرؤساء، و"أليكسي تكاتشوك"، و"أليكسي بريوخانوف" إلى القبر المحفور، وشاهدوا بفضول مخيف، بينما كان العمال ينتشلون عظام الموتى، وقطعًا من الخشب المتحلل الذي يشبه الفحم، وقطع القماش، والأحذية الجلدية أو الأحزمة. فجأة، التقط أحدهم بالقفاز جمجمة معوجة ذات فك متدلٍ.

شعر "أليكسي ميخائيلوفيتش" بالألم، وتراجع، لكنه عاد على الفور معهم، قائلًا:

- يا إلهي!

وضعت بقايا الأموات في كيس أسود. وبعدها، صعدوا فوق الأرض، وجمعوا كل ما في القبر، أو كل ما سيتم الاحتفاظ به، ثم أخرجوا الكيس من القبر. كانت هناك قطعة ورقية لاصقة مكتوب عليها أسامي الأموات، وضعوا أحدها على هذه الحقيبة: "جورج ماكاروفيتش سيزيخ"، ثم حملوا الكيس إلى بوابة المقبرة.

إنه "جورج سيزيخ"، واحد من عائلة "سيزيخ" في "بيليفو"، كان معروفًا في القرية باسم "تيتكين"، وهذه الكلمة تعني باللغة الروسية "حلمة الثدي". وقد حصل على هذا اللقب، لأنه كان يحب أن يحرج الذين يتفاخرون بأنهم يستطيعون أن يصطادوا باحترافية، ويطرح عليهم مثل هذه الأسئلة: "هل تمكنت من إخراج حلمة ثدي دجاجة؟ هل حصلت على حلمة ثدي دجاجة؟" كان الناس يشعرون بالإهانة، ولذلك شرعوا في تسميته بـ"تيتكين"؛ انتقامًا منه. وقد تم اختصار اللقب إلى "تيتكا"، وتحول الأمر في النهاية إلى لقب. يبدو أن "جورج ماكاروفيتش" لم يكن غاضبًا إذا سمعها، لكن أحفاده كانوا يتعاركون بشراهة مع من يستدعيهم بعائلة "تيتكينز".

لقد تُوفي "جورج ماكاروفيتش" منذ فترة طويلة، مثل معظم كبار السن. وقبل أن توفيه المنية، لم يكن لديه القدرة على العمل. وكان يجلس لعدة أيام على مقعد بالقرب من البوابة، ويكشف وجهه المجعد للشمس. جاء إليه ذات مرة رجال عجائز آخرون، ورجال أصغر سنًا. تحدث لهم بعطفٍ، وقال لهم إذا كانت هناك مشكلة ما لدى أحدهم، فليقُل، وسيقدم له المشورة، ولكن بمجرد أن بدأ شخص ما أن يتفاخر بنفسه، سأله "جورج" ساخرًا: "ألم يهدوا لك حلمة ثدي دجاجة؟".

ها قد ظهرت جمجمة "جورج ماكاروفيتش" وقد نسي الناس بسرعة كل شيء عنه. فهو لم يميز نفسه بأي شيء خلال حياته. حتى ذلك اللقب الذي أطلقوه عليه، كان لبعض من الوقت، وسرعان ما توقفوا عن مناداته هكذا. والآن، بعد ربع قرن، عاد. فمه مبتسم، كما لو كان يسأل عن حلمة الدجاجة.

ظل "أليكسي" يفكر، كيف سيدفنونه هناك؟ راقب كيف يتم جمع البقايا. هل لكل حفنة من العظام نعش جديد؟ أم هل تصب بقايا العظام من الأكياس في التوابيت ويعطونها للأقارب؟ أم يتركونها في الأكياس هكذا فقط؟

حاول "أليكسي" أن يقنع نفسه أن الأمر لم يكن مهمًا جدًا، وأن من الغباء التفكير في هذا الأمر الآن، لكن الأسئلة كانت تتضاعف لديه، وتملأ رأسه، مثل ما يحدث الآن، وما سيكون في المشرحة أو في أي مكان خلال يومين أو ثلاثة أيام، ثم في مقبرة المدينة، بدا الأمر أمامه غير واقعي، غير واقعي.

عاد "أليكسي بريوخانوف" إلى قبر أقاربه، وجلس على مقعد متهالك، وأخرج السجائر. ظل يدخن وهو ينظر إلى اللوحات المكتوب عليها ألقاب الأموات، والاسم الأول، وأسماء الآباء، وكم من العمر قد عاشوه، وصورة لوجه المتوفي.

كان "أليكسي" طوال العام الماضي على يقين من أنه يجب أن يتحمل كل شيء، أما الآن، بعد رؤية الجمجمة المتهالكة، شعر بالشك، وكان خائفًا من ارتكاب خطأ ما، ويُعاقب عليه هو وأحباؤه في الآخرة. كان الناس يقولون إن هناك قانونًا ما في العصور القديمة عن الحفاظ على سلامة الموتى، خشي "أليكسي بريوخانوف" من أن ينتهك هذا القانون، أخذ المجرفة وشرع في الحفر.

بالإضافة إلى كل ذلك، ستكون هناك عدم أمانة في حديث الناس عن هؤلاء الموتى، ربما سيختلقون كذبة ما عن الدفن. سيجتمع جميع أفراد العائلات في مقبرة المدينة. وسيخبر الشيوخ أبناءهم وأحفادهم عن جداتهم وأجدادهم. وسيسأل الصغار: "هل عاشوا هنا أيضًا في "كولبينسك"؟" وسيتوتَّر الشيوخ، محاولين ألا يتحدثون عن حقيقة ذلك الأمر، ويقولون في عجلة من أمرهم: "لا، في القرية. كانت هناك قرية على النهر.. الآن غمرت المياه هذه القرية". نعم، لن تكون هناك قرية، وأولئك الذين عاشوا في المدينة طيلة حياتهم، سيرقدون وسيدفنون بها، لكنهم الآن يكذبون. واتضح أنه لا بأس إذا كانت القبور ما زالت محفوظة، وما زالت الأسماء والألقاب والصور عليها. وهناك شيء آخر ألا وهو، عندما نجيب على سؤال الأصغر سنًا، عندما يقولون أين هم أجداد أجدادهم، وأجداد أجداد أجدادهم، سنقول: "إنهم يرقدون في مقبرة قريتهم الأصلية. هذا المكان الآن تحت الماء، لقد غمرته المياه بسبب محطة توليد الكهرباء".

جاء "تكاتشوك" لـ"أليكسي بريوخانوف"، وقال:

- اسمع، لقد رأيت الأزاميل والمطارق مع الرجال. ربما يمكنك النهوض الآن، وتكتب على لوحة معدنية أننا قد تركنا القرية في هذا العام. لقد حان الوقت لفعل ذلك. من يدري متى سنأتي هنا مرة أخرى؟

نهض "أليكسي" بسرور، وقال:

- لقد حافظت القبور بالفعل على أسماء الموتى وتاريخ ميلادهم ووفاتهم. إن فكرة اللافتة رائعة! من المهم حقًا الكتابة على لوحة معدنية العام الذي اختفت فيه قرية "بيليفو". نعم بالطبع، من الضروري فعل ذلك! ولكن هل سنكتب العام الماضي أم هذا العام؟ لقد حُرقت الأكواخ بالفعل في العام الماضي.

- فلتكتب هذا العام. المقابر ما زالت قائمة حتى الآن.

- نعم، أنت على حق!

طلب "أليكسي بريوخانوف" و"أليكسي تكاتشوك" إزميلين، ومطرقة، ومفك. شرب "أليكسي بريوخانوف" بعضًا من الماء؛ فقد أحضر العمال عدة زجاجات ضخمة، ثم ذهب إلى حجر قديم، يبلغ طوله مترين تقريبًا، ووضع عليه صفائح فولاذية وكتب عليها: "هنا كانت قرية "بيليفو". تأسست عام 1667 وغرقت في عام..". الآن كان من الضروري تحديد متى غمرتها المياه، ومتى انتهى الأمر بها، لكن الأمر ما زال مجهولًا بعد.

كانت هناك تلة حجرية فريدة من نوعها في القرية يطلق عليها "حجر العشاق"، على بعد كيلومترين من القرية. كانت مرتفعة جدًا، وخلفها طريق منحدر.

كان الكبار يقولون للأطفال ولـ"أليكسي" عندما كان صغيرًا: "لا تركضوا إلى هذه التلة "حجر العشاق"!" لكن على الرغم من ذلك، لم يطع الأولاد الكبار في الغالب، وصعدوا ووقفوا في أعلى التلة، وتمسكوا بشجرة الصنوبر الملتوية التي نمت هناك، كما لو كانت عن قصد لكي يتمكنوا من التسلق عليها، وينظروا حول العالم. إنه عالم ضخم واسع وغامض. ومن الممكن أن يدفعك الهواء من فوق الهاوية، ولكن في حقيقة الأمر لن تسقط، بل ستطير مثل طائرة ورقية لفترة طويلة، دون أي مجهود. وإذا لزم الأمر، ستذهب بعيدًا، إلى أبعد الحدود، إلى أرض مجهولة.

كانت الرغبة في القفز قوية جدًا لدرجة أن الساقين بدأتا ترتجفان، وكانت الراحتان تتعرقان، والرأس تدور، والشباب يتراجعون، خوفًا من السقوط.

هناك الكثير من الأساطير الرهيبة عن أن هناك مَن ألقوا بأنفسهم بدافع الحب من هذه التلة (لهذا السبب أطلق على التلة "حجر العشاق")، والبعض الآخر ألقى بنفسه من الاستياء، والبعض من دون سبب، ويقولون: "عاش هنا رجل ما، وألقى بنفسه من فوق تلة حجر العشاق".

بينما كان "أليكسي بريوخانوف" يتسلق التلة، رأى الكثير من الفطر تحول لونه إلى اللون الأصفر مثل الزبدة، وكانت أوراق الفطر المتعفنة رمادية اللون، تشبه قطعًا من اللحم المسلوق. توقف "أليكسي" وقال لنفسه: "أين سأضعها؟".

ثم وضع اللافتة على حافة الطريق.

أصبحت الصفيحة الفولاذية الملحومة مع بعضها بعضًا، والمنقوش عليها، نصبًا تذكاريًا. كان هناك الكثير من النصب التذكارية على كثير من الطرق، مثل على ضفاف النيل، وحتى في أعماق "التايجا". وكان أقارب ورفاق المتوفين يحضرون النصب التذكاري إلى مكان وقوع حادث مثل حادث صيد، أو نتيجة أعمال جيولوجية. فهم يضعون المتوفى في المكان الذي حدثت فيه المأساة.

إذن تعد هذه التلة بمثابة نصب تذكاري لهذه القرية؛ حيث ولد فيها الآلاف من الناس وعاشوا وماتوا على مدى ثلاثمئة سنة.

شرع "أليكسي بريوخانوف"، دون أن يدخن سيجارة، ولم يسمح لنفسه بالتفكير مرة أخرى، في أخذ قطعة من الفولاذ الذي لا يزال لامعًا، ولكن الصدأ قد أصابه من الجانبين (على الرغم من أنهم كانوا يقولون إنه من الفولاذ المقاوم للصدأ) وظل ينقش: "كان هنا...". كان المسمار به صدأ أيضًا. فقام برميه. ثم وجد حجرًا ساطعًا أكثر من الآخر، بل ومناسبًا، وضع الحجر على القطعة الفولاذية وظل يطرق بالمطرقة عليها.

ضحك "أليكسي بريوخانوف"، قائلًا:

- هذا هو الغرض من الفولاذ!

ثم أشعل سيجارة بأكملها وظل يدخنها ويفحص بعناية القطعة الفولاذية، والإزميل، والمطرقة، ويستعد لعمل طويل رتيب. حاول ألا ينظر نحو المياه. فليس هناك شيء.

أخمد "أليكسي" عقب سيجارته. وصدر صوت في الجوار، وكأنه نقار الخشب يحاول النقر في القطعة الفولاذية.

لم يكن هناك وقت بالتأكيد لكي يغادر الجميع قبل حلول الظلام، فاستقروا في أماكنهم حتى تشرق الشمس.

بسط الرجال خيمة كبيرة بجانب كوخ "جوسيز"، ووُضعت المنامات والغطاء، وأُشعلت النيران، وأخذوا يطهون "القاشة" من حبوب الحنطة السوداء، بجانب لحم "التوشونكا" المعلب.

شعر أحد منهم بفرحة، وقال:

- لحم حقيقي، من بيلاروسيا!

فأثار هذا ضحكات المحيطين.

كانت الحالة المزاجية لديهم جيدة، ومليئة بالتفاؤل، تمامًا مثل تلك الحالة التي تظهر في فترات الاستراحة بعد القيام بعمل شاق. حتى هؤلاء، الذين انغمسوا خلال فترة الظهيرة في مشاحنات وعراك، ولم يتصالحوا بعد، نسوا ما حدث آنذاك. وجلسوا على شكل دائرة وظلوا يدخنون وعيونهم مصوبة نحو ألسنة اللهب القصيرة.

إن الجلوس بجانب النيران دائمًا ما يتطلب وحدة واتحاد، فلا يمكنك تمييز القادة عن العمال البسطاء.

كان "أليكسي تكاتشوك" يجلس على درجات كوخ "جوسيز" في معزل عن البقية وينتظر الليل حتى يستلقي في مكان ما ويغوص في النوم. ليت الغد يأتي سريعًا، وينتهي كل شيء، وتُترك "بيليفو" في غياهب الماضي. "ولكن ستكون هناك جنازات في المدينة. وربما صعوبات وتوتر في الأجواء".

لا، الماضي لن يتلاشى لفترة طويلة. الحمد للرب، لقد غادرت القرية "ليوبا جريشينا". كان "أليكسي تكاتشوك" يخاف كثيرًا من الاقتراب من الأرض، وكذلك من ظهور "ليوبا" أمامه، والتي كانت تمتلك متجرًا حتى نهاية الأمر في "بيليفو". وعندما حان وقت الرحيل، رفضت "ليوبا" الصعود إلى العبارة، وقد رغبت في الحصول على تعويض مقابل ما خسرته (على الرغم من أن متجرها لم يكن يحقق ربحًا في الوقت الأخير)، لكنهم لم يقدموا لها التعويض وظلت هناك بضائع تقدر بأربعمئة ألف روبل في القرية. فكيف كان سيتم نقلها بالعبارة؟ إنه أمر غير معروف.

حاول "تكاتشوك"، كونه رئيس مجلس القرية، تقديم المساعدة والحصول على تعويض وفتح المتجر الخاص بـ"ليوبا جريشينا" في "كولبينسك". فحصل على رد: "بخصوص المتجر، يُرجى إعداد الوثائق والعثور على مبنى مناسب. أما بالنسبة للتعويض، فالمشكلة سوف تُحل. ويتم الآن تعديل المشروع الخاص بمساعدة المشروعات الصغيرة في المنطقة".

كانت "ليوبا" خائفة من فتح المتجر في المدينة، ولم يكن من الواقعي بالنسبة لها أن تنافس السكان المحليين. "من المستحيل تطويره في شهر!"، فظلت فصل الشتاء بالكامل في "بيليفو" الفارغة المحروقة. وفقد "تكاتشوك" الاتصال معها تدريجيًا، وتوقف عن الاستفسار عن أمورها. أما الآن فكان يخاف من اللقاء. ولكن لا بأس، هنا لا توجد "ليوبا" ولا متجرها "سيفيريانكا". لقد تم حرقه في الربيع أو ربما في بداية الصيف.

بينما كان "أليكسي تكاتشوك" هائمًا في التفكير، سمع شخصًا ما يقول:

- أيها المدير، اذهب وتحقق. وإلا ستصبح عاجزًا تمامًا!

لسبب ما، تمت دعوة "أليكسي تكاتشوك" بالمدير، وقد ظهرت السخرية في هذا النداء. حسنًا، يبدو أن الأمر سيدوم.

نهض وأمسك حقيبة الشطائر وزجاجة الفودكا، وذهب إلى النيران. فسألوه:

- أين الرجل الآخر الذي كان معك؟

ردَّ "أليكسي تكاتشوك":

- أشعر بالقلق عليه. لقد حل الليل تقريبًا، و"أليكسي بريوخانوف" لم يعد.

قال أحد العمال:

- لقد اختفى تمامًا ومعه أدواتي!

- أين ذهب والقارب في مكانه؟

جلس "أليكسي تكاتشوك" على طوبة لبنة لا تزال دافئة بعد فترة الظهيرة، وأخرج الفودكا، وقد نظر إلى ممثل إدراة الفيضانات، الذي كان يهز كتفيه: - مهلًا وأنت تشرب.

فرد الشرطي قائلًا:

- ربما علينا البحث عنه، بدلًا من الاستراحة هنا.

دعم هذا الرأي أحد العمال، فشعر "أليكسي تكاتشوك" بالذنب، ووضع الزجاجة على الأرض.

قام أحد الشباب، الذي كان يرتدي بزة عسكرية، بإخراج البطاطس المقطعة من الإناء، ثم قام بدفع العصا تحت الجمر، وقال: - انتظروا، لقد أُعدت العصيدة. ستصبح رمادًا.

فسأل "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك"، وقد بدا أن البطاطس اُقتلعت لتوها من الأرض:

- من أين تلك البطاطس؟

فأشار الرجل بالعصا:

- من هذه الأرض الخصبة. اقتلعت اثنتين، فإذا بإناء كامل من البطاطس.

فتنهد الشرطي بألم:

- لقد زرعها أحدهم من قبل.

- بالتأكيد، لم تظهر وحدها.

فكَّر "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" قائلًا في قرارة نفسه: "على الأرجح إنها لعائلة "ميرزلياكوف"، فقد كانت أرضه هناك".

لم يقُل هذا بصوتٍ عالٍ، فماذا يعني هذا بالنسبة لهم إذا كان "ميرزلياكوف" أو أي شخص آخر قام بجمع بعض البذور خلال شهر مايو، وحفر بيديه ثم وضع ثمار البطاطس في الحفر، وقد كان ينوي الآن الذهاب من أجل الحصاد؟ الشيء الأهم أنهم لم يحددوا ذلك المكان، وإلا سيتم سحب كل الشجيرات واحدة تلو الأخرى.

أراد "أليكسي تكاتشوك" التنويه إلى أنه من غير الجيد أخذ محاصيل شخص آخر، ولكنه لم يقل هذا، لأنه أحس أنهم يتوقون إلى القيام بعمل آخر أيضًا. قال بعض العمال في الجانب الآخر: - هناك شخص قادم.

- المهم ألا يكون دبًا.

- أمر طبيعي.

كان "أليكسي بريوخانوف". رآه "تكاتشوك" فأدرك كيف كان يشعر بالقلق. وكأنه قلق على طفل.

- أين كنت كل هذا الوقت؟

جلس "أليكسي بريوخانوف" جلسة القرفصاء وقال:

- كان الأمر صعبًا.. لم يكن جيدًا على الإطلاق.

دعمه ممثل إدارة الفيضانات بشكل مفاجئ قائلًا:

- نادرًا ما تجد شيئًا جيدًا الآن. نحن نفهمك جيدًا. ونفهم كيف حدث هذا. أنا شخصيًا من مدينة "شاجونور".
سأل الشخص الذي كان يحمل البطاطس:
- وأين هذه المدينة؟
- في "توفا". كانت قرية كبيرة، أو بالأحرى مدينة. وفي الثمانينيات، انضمت لمنطقة سد "سايانو شاشينسكايا"، وأُعيد توطين السكان أيضًا.
قال "أليكسي بريوخانوف"، وهو يرتعش رعشة بسيطة:
- ماذا؟ ولماذا جئت إلى هنا على الرغم من أنك تشعر بمعاناتنا؟
فأجاب ممثل إدارة الفيضانات تارة بجدية وصرامة وتارة أخرى بسخرية:
- اعتقدت أنني سأقوم بعمل مفيد هنا.
- ماذا؟
سحب "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" "بريوخانوف" قائلًا:
- دعونا ننظف أيادينا لكي نتناول الطعام، ثم نذهب إلى النوم.
وعندما ذهبوا لتنظيف أيديهم، قال "أليكسي تكاتشوك":
- "أليكسي بريوخانوف"، لا تتحدث هكذا معهم! هناك شيء ما يضغط على صدري، ربما بسبب شيء ما لا أعلمه.
ثم همهم "أليكسي بريوخانوف"، بينما كان واضحًا أنه يفكر في شيء آخر:
- حسنًا، حسنًا.
قال "أليكسي تكاتشوك":
- ماذا بك؟ هل تسمعني؟
ردَّ "أليكسي بريوخانوف":
- أسمعك.. لن آكل معكم.. هل الكاهن هنا؟
- لقد رحل. جاء قارب مخصص له لكي يصطحبه.
تحدث "أليكسي بريوخانوف" بشكل مقزز:
- حسنًا، ماذا سنقول في حديثنا مع هؤلاء؟ يجب علينا الاغتسال جيدًا.
عادوا إلى النيران التي كانت تتوهج من كثرة الفحم الأحمر، فقال ممثل إدارة الفيضانات:
- لقد وصلنا إلى العم في "كراسناتورانسك"، وهذا بالقرب من بحر "كراسنويارسك"، فاصطحبنا للصيد. وقمنا باصطياد سمك "البربوط". كنا نسير في الزورق الصغير، وأرى أشجارًا كثيرة موجودة تحت المياه. أما الغابة الحقيقية، فتارة تكون ممتلئة بأشجار التنوب، وتارة أخرى بأشجار الصنوبر. والقمم توجد على بعد نصف متر فقط من سطح الماء. لقد أصبح الأمر مريبًا! ثم منطقة "سايانو شاشينسكايا"، وقد غرقت المنحدرات، فذهبت الأسماك الضعيفة إلى منابع نهر "ينسي". وهنا اعتقدت أن الأمر سيكون مختلفًا، من وجهة نظري.
فسأل الشرطي:

- وهل نجحتوا في اصطياد سمك "البربوط"؟
- نعم اصطدنا. واضطررنا إلى طهيه في نصف ساعة. لأن الأسماك كانت تحتوي على طفيليات. فتقريبًا جميع السمك في بحر "كراسنويارسك" أصبح مريضًا وضعيفًا، لكنه حي ويسبح ويخرج الدود من بطنه.
- نصف ساعة؟ وماذا تبقى من "البربوط" بعد هذا الطهي؟
- العصيدة.
فتذكر "أليكسي" قائلًا:
- لديَّ رمح في قاربي. يجب أن نحضر الطعام، وإلا سنهلك. كل شيء لا يزال صالحًا وصحيًا هنا. لنأكل بعض الفتات. ونتذكر بعدها القرية والنهر.
ضحك الرجال ضحكة مكتومة.
قضى "أليكسي تكاتشوك" و"أليكسي بريوخانوف" الليل في كوخ "جوسيز". وذهب معظم العمال إلى الفراش هناك. وفضل القادة النوم في الخيمة.
ظل "أليكسي بريوخانوف" يصدر شخيرًا أثناء الليل، وكان "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" سعيدًا بأنه سينام الآن، لكنه لم يتمكن من ذلك. وعندما بدأ يغفو، ارتجف صدره على الفور. وفتح عينيه، وظل يفكر مع نفسه.
كان قلبه يخفق كما لو أنه كان يركض فوق جبل، ومع كل نبضة، كان يشعر بوخزة في صدره مثل الإبرة. ثم اختفى الألم للحظة، ثم شعر بوخزة مرة أخرى. لم تكن قوية، لكنها كانت ملموسة ومخيفة. وبدا أنها ستضرب بقوة أكثر فأكثر. ثم شعر بأنه ليس لديه القدرة في السيطرة على نفسه وظل يرتعش، وعليه ألا ينام الآن.
أخذ "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" أربعة أقراص من دواء "النتروجليسرين" خلال هذه الليلة، ولكنها لم تساعده في شيء. أراد أن يضع حبة أخرى تحت لسانه، لكي يهدئ من روعه. لكن من غير المحتمل أن تساعد تلك الحبوب في شيء ما.
انتظر وقت الفجرية، ونهض من الفراش، وذهب نحو الباب، وخرج إلى الشارع، آملًا أن يكون هناك هواء نقي. ثم وقف على الشرفة، وتنفس بعمق قدر استطاعته، ولسوء الحظ لم يكن الهواء نقيًا. فقد كانت هناك رائحة مثل الرماد، أو شيء ما حامض، أو لاذع، مثل رائحة روث الخنازير.
فعلى ما يبدو، لقد انتشر قطيع العمال في مكان ما. لا، بل إنه في المكان الذي كان يعيش فيه قطيع الخنازير.
ثم شعر بتقلبات في معدته، وأخذ "تكاتشوك" يتقيأ. حاول أن يمزح، وهو يبصق، قائلًا لنفسه: "لقد شربت كثيرًا خلال تناولي الأقراص".
جلس على درجة المنزل، آملًا في أن يمر الوقت سريعًا، ويعود إلى المدينة، ويذهب إلى العيادة. والأفضل من ذلك أنه سيتصل بسيارة إسعاف

لكي تأتي له سريعًا أمام المنزل، فهو بحاجة إلى أن يتم علاجه جيدًا، لكي يبدأ حياته الجديدة الأخرى في المدينة.

عندما قد حان وقت إعادة التوطين، كان "أليكسي تكاتشوك" يرغب في اصطحاب عائلته معه؛ زوجته وابنته الصغرى، التي تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، إلى مسقط رأسه "هورليفكا" بالقرب من "دونيتسك"، فقد جاء "تكاتشوك" هنا عام 1955، وهو شاب، ويعمل أخصائي. وكان يحاول جاهدًا معرفة ظروف هذه الخطوة الجديدة، ألا وهي السفر إلى دولة مختلفة. أما الآن يحاول مرة أخرى إعادة الاتصال بأقاربه.

كانت الابنة دائمًا حالمة ومتعبة نوعًا ما، ولم تمانع التنقل، أما الزوجة كانت رافضة ذلك الأمر تمامًا، وقالت: "لن أغادر من هنا!" بالإضافة إلى ذلك، لقد منحتهم الدولة شقتين؛ شقة من غرفتين له وزوجته، وشقة أخرى من غرفة واحدة لابنته. بشكل عام، لا يسمح بمثل هذه الرفاهية لثلاثة أشخاص مسجلين في العنوان نفسه، ولكن تم إجراء استثناءات للرؤساء، على الرغم من أنهم كانوا صغارًا جدًا في السن مثل "تكاتشوك"، بالإضافة إلى المكافآت، التي كانوا يأخذونها.

لم يكن "تكاتشوك" مضطرًا إلى المطالبة بحقوق أخرى؛ فقد أعيد توطينهم، بالرغم من أنهم ليسوا من سكان "بيليفو" الأصليين. لكنه كان يعمل بإخلاص، فهو لم يترك أحدًا دون شقة، ولم يخدع أحدًا أيضًا. باستثناء "ليوبا جريشينا"، فلم يكن الأمر سلسًا لكي يطالب بحقها، فلم يتمكن من تحقيق مطالبها.

على الرغم من أن سكان "بيليفو" لم يكونوا راضين عن "تكاتشوك"، وكانوا يتهامسون ويتغامزون عنه كثيرًا، ويقولون: "لديه شقق، ونقود، وسيارة جديدة، بل وأراضي". فهم في القرية لم يكونوا بحاجة إلى سيارة شخصية، ولكنهم الآن قرروا شراءها في المدينة.

ظل "تكاتشوك" حتى الآن رئيسًا لمجلس قرية "بيليفو" (لم يكن قد تم إلغاؤه رسميًا بعد)، لكنه كان على وشك أن يتقاعد؛ فهو لا يحتاج إلى الانتظار لسن الستين عامًا هنا، فالحياة جميلة في أقصى الشمال، ويمكنه كسب أموال إضافية عندما يشتري سيارة أجرة. إنها تجارة مربحة ويمكنه من خلالها زيارة "بوجوشاني" و"كانسك"، والعديد من المدن. لقد انضم بالفعل إلى مكتب العاملين بسيارات الأجرة. فهو بحاجة دائمًا إلى كسب المال، فهو لديه القوة لكي يفعل ذلك.

تذكر "أليكسي تكاتشوك" كل هذا، ثم كرر جملة: "لديَّ القوة لكي أقوم بذلك!"، مثل التعويذة، بفمه الجاف، ثم نهض "تكاتشوك" وذهب إلى الزجاجات البلاستيكية، وأخذ كوبًا من الماء. شرب سريعًا، دون أن يشعر بابتلاعها. هكذا سقطت الماء في أحشائه، كما لو أنها سقطت في حفرة ما.

عليه أن يكون يقظًا دائمًا، سكب الماء على وجهه، وخرج من هناك. ظل يفكر في واجبه الأخير نحو القرية، وبكيفية إقناع زوجته بالترحال مرة أخرى.

عاد إلى الشرفة، أراد فقط أن يجلس، لكنه شعر أن معدته متعبة، وشعر أنه بحاجة إلى أن يسكب الماء عليه مرة أخرى.

وقف "تكاتشوك" منحنيًا، وظل يضع الماء المثلج عليه، متسائلًا عما يحدث له. فهو لم يشرب كثيرًا في حياته الفودكا، فقط كأسين أو ثلاث، هل من الممكن أنهم قاموا بتسميمه بفودكا منتهية الصلاحية؟ ربما ليس من الفودكا، لقد شرب أمس فقط مئة جرام. توجه "تكاتشوك" نحو الأريكة بالقرب من الموقد، وأخذ قرصًا آخر من الدواء، وشرع في مصه بجشع، وفركه بين لسانه وفكه.

وفي الصباح، تناول الجميع الفطور بسرعة وفي صمت، وهم يشعرون بعدم الارتياح بعد محادثاتهم الصريحة أمس. لقد تحدث الجميع كثيرًا بالأمس، وشعر الرجال في الغالب بالأسف على أنه تعين عليهم حرق القرى وتدمير معالمها من الوجود البشري. كان من السهل عليهم أمس التحدث بسهولة في الظلام، أما الآن، مع بزوغ الشمس، يشعرون بالخجل أو بشيء ما مهين، فهم سيشرعون الآن في البدء في مرحلة جديدة من عملهم المشين. ظلوا يحشون بطونهم بالخبز والحساء الدافئ، ثم أخذوا أدواتهم، وذهبوا إلى المقبرة. نادى "أليكسي تكاتشوك": - يا رفاق، أنا لا أستطيع أن أساعدكم اليوم. حتى لا أستطيع التحرك.

- حسنًا أيها المدير، لقد أصبح لونك أخضر!

ثم جاء "ليشا بريوخانوف"، قائلًا:

- ماذا حدث؟ أعتقد أنك لست على ما يرام.

- لا أعلم.. إما أن أكون قد تسممت بشيء، وإما هناك شيء ما يتعبني في قلبي مرة أخرى. ربما هناك شيء ما في ذلك العشب الذي كان بالقرب من المقابر. أعتقد أنه ليس جيدًا.

- إممم.. ربما.. حسنًا، سأذهب للحفر معهم أيضًا.

- ليس عليك ذلك يا "ليشا"، دعهم يحفرون بأنفسهم. لم يتم تطعيمنا. كيف سنتمكن من الوقوف أمام المقابر؟

فرك "أليكسي تكاتشوك" صدره وأكمل قائلًا:

- لقد رأيت ما يكفي أمس، أما الآن..

ثم وقف "أليكسي تكاتشوك" للحظة، ونظر حوله، كما لو أنه يحاول أن يختلق شيئًا ما. ولوح بيده، وقال:

- أنت على حق! سأذهب معك. نعم، يتعين علينا الوقوف معهم. سيأخذون ذلك العشب وسيرمونه في أكياس.

وأومأ برأسه مستكملًا حديثه:

- نعم، يجب أن أشاهد ما يحدث. يتعين علينا مراقبتهم. هذا أكثر ما يمكنني فعله.

جلس "أليكسي تكاتشوك" على أريكة متدلية ومتهالكة، وعيناه مغلقتان. هذا لا يعني أنه يرغب في النوم، لكنه كان يحاول أن يهون الأمر على نفسه. كان من المؤلم أن يرى المكان الذي عاش فيه لأكثر من ثلاثة عقود يتدمر أمامه. لم يعد هناك شيء عزيز، لقد كان يحاول أن يحافظ على هذه القرية بكل جهد. لقد أصبحت قرية "بيليفو"، التي كانت تضم الكثير من المباني حتى وقت قريب، مكانًا مليئًا بالقمامة.

نهض "أليكسي تكاتشوك"، وشرع يمشي لكي يتخلص من هذه الأفكار. لم يقرر إلى أين سيذهب بعد، لكنه بحاجة إلى أن يشتت انتباهه.

مشي خطوات قليلة، وهاجمته الوخزة في صدره مرة أخرى لكنها كانت حادة هذه المرة، بل وعميقة. كاد أن يسقط من حدتها.

توقف على الفور، ولم يتحرك. وسرعان ما هدأت مرة ثانية، ولكن آثارها ظلت مثل الشظية في الجلد، تترك علامة في اللحم. إذن فإن أي حركة الآن ترهقه.

أخرج زجاجة من دواء "النتروجليسرين"، وأخرج قرصًا منه، ووضعها في راحة يديه. وضعها في فمه، وسحقها بأسنانه.

عاد ببطء إلى الأريكة مرة أخرى. وجلس لفترة طويلة، مترنحًا، ومتكئًا على جانبه الأيسر.

ولذلك أصبحت الوخزة أهدأ.

تذكر "أليكسي تكاتشوك" كم من كبار السن والمعوقين، الذين يصعب نقلهم، قد رآهم "بنفسه طوال حياته. لقد كانوا يجلسون لأيام على مقاعد، وينظرون إلى العالم بشوق لا نهاية له، ويحسدون أولئك الذين يتحركون بسهولة، بل وبحرية.

كان "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" عندما يمر بجانبهم، يشعر بالأسى نحوهم، لكنه لم يفكر بجدية فيما كانوا يشعرون به في كل دقيقة.

أما الآن فهو يشعر بهم، بل وتخيل حياتهم بأكملها، فقد أصبح مريضًا مثلهم، وجسده هزيل، وكأنه مشلول من الألم، وقد تغلب عليه الخوف الآن.

لقد ذهب "أليكسي تكاتشوك" إلى المستشفى من قبل ثلاث مرات. أولها عندما كسرت قدمه. والمرتان الأخريان بسبب علة في قلبه. وكان يمرض كثيرًا، ولكن ليس لهذه الدرجة. ويظل هناك في المستشفى حتى لا تسوء حالته. وكما يقولون، الوقاية خير من العلاج. كان الوقت في المستشفى يمر ببطء أيضًا، لكنه كان قريبًا من جيرانه التعساء، الذين تربطهم مصيبة واحدة. ويوجد في المستشفى أيضًا أطباء وممرضات. وعندما تجلس هناك بمفردك، تكون غير قادر على الحركة، ولا تعرف حتى إذا كان الأطباء والممرضون سيتذكرونك ويطعمونك أم لا. تذكر "تكاتشوك" هذا الأمر، وشعر بالأسف

حيال نفسه، فتساقطت دموعه. ربما هذا هو الشعور نفسه الذي يصيب المسنين على أنفسهم، الذين يتركهم الجميع بمفردهم لمدة ساعة على الأقل.

عندما كان "أليكسي" في المستشفى، كان يظل مستيقظًا، وجفون عينيه تلتصق ببعضها بعضًا من شدة الرغبة في النوم، ورأسه تتدلى إلى الأمام؛ رغبة في غفوة، لكنه كان يخشى أن ينام. ويجاهد في رفع جفنيَّ عينيه، وسرعان ما كان يشعر بأنه يغوص في الأحلام، ويشعر كأن الأطباء يقولون له، كما لو أنهم يحذرونه: "ها هو سيفقد الوعي". ثم تمر لحظات قليلة، ويستعيد وعيه من جديد. ثم يغفو مرة أخرى، ويتدلى رأسه مجددًا. وفي النهاية، ينتصر النوم.

لم يستيقظ "تكاتشوك" من البعوض والبراغيث، والذباب المزعج قبل الخريف؛ بل لأنه سمع أحاديث العمال، كما لو كان تحت الماء. ثم فتح عينيه، ولاحظ أنهم كانوا يحزمون أمتعتهم، ويقومون بطي الخيمة. حتى إن أحدهم سأله عن شيء ما، لكنه لم يستطع فهم ما هو بالضبط.

ثم حاول أحدهم أن يحرك "تكاتشوك"، وسرعان ما قال "تكاتشوك":

- آه ..

ثم قال "أليكسي بريوخانوف" وهو خائف:

- "أليكسي ميخائيلوفيتش" ماذا بك؟ يبدو أنك لست على ما يرام؟

- نعم.

بدأ "تكاتشوك" يفوق تدريجيًّا، وقال:

- "ليشا"، أعطني بعضًا من الماء، لكي أشرب.

أخذ رشفة، وكان يخشى أن يتقيأ، ثم قال:

- كيف الحال هنا؟ هل انتهى الأمر؟

حاول "أليكسي بريوخانوف" التحدث بثقة وبحزم:

- لقد نقلوا جميع الموتى. أقصد كل مَن درج اسمه في القائمة الخاصة بك، لكنهم تركوا الجثث المجهولة تمامًا؛ أي التي ليس مكتوبًا على نعشها أسماء. كل شيء على ما يرام، لكنك ليس هكذا!

- نعم، يجب أن.. أذهب إلى المدينة.

- ستغادر قريبًا. فقد تم تحميل الموتى على متن العبارة. هل هناك ألم في ظهرك؟ ربما نتيجة الألم الذي تشعر به في صدرك.

- ربما.

غادر "أليكسي بريوخانوف"، وعاد "أليكسي ميخائيلوفيتش" على الفور ليكمل نومه.

وهنا صدر صوت غير مألوف:

- ماذا أيها المدير، هل ستذهب أم ستبقى هنا؟

- سأذهب، سأذهب. لست على ما يرام .

قام الرجال بمساعدته في النهوض، وحاولوا حمله حتى يصل إلى العبارة. تذكر "أليكسي تكاتشوك" نفسه عندما كان قد ساعد السيدة "فيدروفنا"، المرأة العجوز، في أن تصعد إلى العبَّارة، عندما غادروا القرية في الخريف الماضي.

لكنه كان قويًا في ذلك الوقت، بل وفي صحة جيدة. أما الآن، يقودونه لأنه ضعيف، وقد وهن عظمه. كان "أليكسي" مستسلمًا تمامًا، غير قادر على الإمساك بنفسه، بل جسده يضعف أكثر فأكثر. قال: - وأين "ليشا"؟ "ليشا بريوخانوف" .

فقال أحد العمال:

- الرجل الذي يصطحبك دائمًا؟ إنه يشغل القارب الآن.

بينما كان "تكاتشوك" يبحث عنه بنظرة مضللة وبضعف، كان "بريوخانوف" يركض نحوه. عبس "بريوخانوف"، وكأنه يتألم مثل "تكاتشوك"، وقال في قرارة نفسه: "ماذا؟ هل سيذهب الآن؟".

وضع الرجال "تكاتشوك" عند سطح العبارة. ثم تذكر "أليكسي تكاتشوك" حقيبته، وقال:

- الحقيبة.. لقد نسيت حقيبتي.. "ليشا"، لقد نسيت حقيبتي في الكوخ.

- حسنًا، سأحضرها الآن!

- لا، لا تفعل. ليس هناك شيء مهم بها.. لا تتركني، دعها.

أومأ "بريوخانوف" رأسه. وأوقف قاربه، ثم نادى على ممثل إدارة الفيضانات:

- هل ستذهب مباشرة إلى المدينة؟

- بالتأكيد. نحن بحاجة لإنهاء هذا الأمر قبل حلول الليل .

- وماذا عن مقابر "كوتاي"؟ هل ستبقى كما هي أم سيتم نقلها أيضًا؟

- لقد نقل جزء من المقابر في فصل الربيع، والآن ما زلنا ندرج قائمة للبقية، هل هناك أحد ما تعرفه هناك؟

- نعم، لديَّ أقارب هناك. لا أعرف، عليَّ متابعة الأمر هناك.

تجاهل الممثل حديثه، وقال:

- حسنًا، فلتتابع الأمر.

ثم قال "أليكسي بريوخانوف":

- ابن عمي هناك. لقد مات في الشيشان. من السيئ أن يظل هناك في المقابر التي ستغمر بالمياه.

- إذا تم دفنه قبل أقل من خمس سنوات، فينبغي إخراج الجثة، وذلك طبقًا للمعايير الصحية.

شعر "أليكسي بريوخانوف" لأول مرة بالإهانة من هذه النبرة الرسمية. وكأن الممثل الذي كان يشكو أمس، الذي عانى من الشيء نفسه، أصبح رجلًا آخر. يجب أن يرد "أليكسي بريوخانوف" ردًّا قاسيًا عليه. ولكن، على

ما يبدو، هناك حاجة إلى مثل هذه النبرة؛ إنها بمثابة حماية لأفعالهم. ليته يستطيع أن يقول لهذا الممثل الحكومي: "كن رجلًا في مثل هذه الظروف، فهذا العمل لن يدوم لك، أما الإنسانية، فهي شيء أبدي".

بدأ محرك العبارة بالتشغيل، وتحركوا..

صاح "بريوخانوف":

- "أليكسي ميخائيلوفيتش"!

كان "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" في ذلك الوقت مستندًا إلى السور، ينظر إلى الأكياس السوداء التي يوجد بداخلها بقايا الأموات، المنتشرة على سطح العبارة. كانت هناك عشرات الحقائب. وهناك الكثير من الصلبان ولم يؤخذ كل شيء من بقايا الأموات، فقط الأكثر تحملًا والأكثر قيمة. لقد دُفن هنا أهل "بيليفو" منذ ما يقرب من قرن تقريبًا .

ثم قال "بريوخانوف" مرة أخرى:

- "أليكسي ميخائيلوفيتش"!

حاول "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" النظر إلى "بريوخانوف". فقال "أليكسي بريوخانوف":

-- سأذهب إلى "كوتاي" الآن. سألقي نظرة على المقابر هناك. سألتقيك عند مرفأ المدينة.

أومأ "تكاتشوك" برأسه. وحاول التحرك نحو صندوق إطفاء الحرائق في العبارة. وجلس عليه، ثم انحنى على جدار غرفة القيادة، وأغلق عينيه تعبًا. سيصل إلى المدينة، وسيحتاج إلى استدعاء سيارة إسعاف على الفور. تحسس في جيبه، لكي يتأكد من وجود التليفون معه. كان يود أن يصلوا سريعًا إلى المدينة، لكن العبارة تحركت ببطء.

كان من المعتاد أن تصدر العبارات صوت "صافرة الوداع"، لكنها غادرت هذه المرة في صمت. فليس هناك أحد لكي يعلنوا أنه سيتركهم، لم يعد هناك أحد يعيش هنا، حتى الموتى ها هم يرحلون.

أما "أليكسي بريوخانوف" تذكر صديقه المتوفى "فيتكا لوجينوف"، الذين درس معه، وعملوا معًا، وتركه وحيدًا.

استدار "أليكسي" بعد ذلك وحدق في جذع من شجرة الصنوبر باهتمام شديد. لقد تُوفي صديقه هنا منذ عشرين عامًا. ماذا تبقى من جسده بعد كل هذه السنين؟ من الأفضل ألا يتخيل، ليس عليه أن يتخيل..

عاد إلى كوخ "جوسينا"، الذي كان يمكث فيه مع "أليكسي تكاتشوك". وأخذ حقيبة "تكاتشوك"،

على الرغم من أنه قال إنه ليس بحاجة لها، ولكن لماذا سيتركها هنا؟

وقف "أليكسي" في مكان المخيم. كان المكان مليئًا بالقمامة. هل سيصبح كل ما هو موجود هنا تحت المياه؟

ذهب بعد ذلك إلى القارب. وقد شعر بصعوبة من السير في حذائه الثقيل، بعدما أخذت قدميه تضرب في بعضها، فظهر الألم في جسده وشعر بالدوار. فابتعد سريعًا عن هذه الأرض.

دفع القارب الصغير وقفز فيه، وبينما كان يحاول إخراجه ببطء من الممر الصغير، وضع أمتعته في الحقيبة، ودخن سيجارة، وهو ينظر إلى الشاطئ، ثم فكر فجأة في تلك السيجارة التي في يده، كيف سيتخلص منها، ألقاها في المياه، وحرك المحرك إلى الأسفل، وشغله ثم جلس وقاد القارب.

لم يستطع "أليكسي" الوصول إلى مقبرة "كوتاي". فالوداي بأكمله، حيث كانت تلك القرية في الماضي، تحول إلى منطقة مليئة بالحفر والمياه. خنادق مائية وحفر. فكان من الصعب السير في تلك المنطقة بواسطة هذا القارب الصغير.

قام "أليكسي" بربط القارب بقطعة من السياج ملتصقة بالعمود الوحيد الموجود، وكان يفعل هذا سيرًا على الأقدام، لكنه سرعان من سقط في حفرة مغطاة بالأغصان والفروع. فغرق حذاؤه في المياه وتبللت ملابسه بالكامل.

وبينما كان "أليكسي" يخرج من تلك الحفرة، وقعت عيناه على قطعة من الفراء المحروق تتمايل بالقرب من نبات المشمش. فاعتقد أن هذه ربما تكون قطة قد وقعت في ورطة. فاقترب سريعًا ووضع أصابعه على الفراء. فارتعشت الكتلة، فإذا فأر المسك يحدق إليه بوجهه الصغير وأسنانه الصفراء القذرة. وبدا في عينيه الشر والسكون.

فتراجع "بريوخانوف" قائلًا:

- هش، هش. لماذا لا تختبئ؟

وهنا طرقت فكرة في رأسه لضرب الفأر بالعصا، وأخذه من هذا المكان. سيكلف هذا الفرو الكثير من المال، ومن الممكن طهو لحمه للكلب، ولكنَّ هناك شيئًا ما مريبًا إلى حد ما. أو ربما شعر الفأر بالحيرة، وتفاجأ من تلك التغيرات، أو ربما يشعر بالمرض.

عاد "أليكسي" إلى القارب، وشد سُترته الثقيلة وقميصه، ثم أخرج الماء والطين من حذائه، وتحقق من تليفونه المحمول. كان التليفون في جيبه العلوي، فلم يكن مُبتلًّا.

كانت الشمس على وشك الوصول إلى حافة السماء. ربما ساعة أو ساعتين وسيحل الظلام. يجب العودة سريعًا.

- حسنًا، سأحصل على المعلومات في المدينة.

ارتدى "أليكسي" ملابسه مجددًا، وأغلق الأزرار، وأخذ يسير في اتجاه مجرى النهر. وبين الحين والآخر، كان القارب يصطدم بالشجيرات والأعمدة والأسلاك المعلقة.

- سيكون مقلبًا للقمامة، وليس قاعًا للنهر.

كانت العبارة التي على متنها "أليكسي تكاتشوك" قد ابتعدت قليلًا عن "بولشاكوف". والناس على سطحها يلوحون له، فيلوح لهم بيده.
وصل "أليكسي بريوخانوف" إلى المرفأ مع حلول الغسق. في الوقت الذي رفع فيه المحرك، وبحث عن مقطورة لجر قاربه حتى الموقف، كانت العبارة قد وصلت هي الأخرى.
وصل "أليكسي" إلى الرصيف حاملًا محرك القارب على كتفه وحقيبة الظهر على كتفه الآخر. لقد قرر الذهاب إلى المدينة مع العمال في حافلتهم، أو مع "تكاتشوك" الذي يذهب في سيارة مع الرؤساء.
كان المحرك الذي يحمله على كتفه ثقيلًا، فتوقف مرة أو مرتين كي يأخذ نفسه. كان المحرك من نوع "نيبتون"، الذي يزن أربعين كيلو جرامًا، يضغط على كتفه بقوة، فكان "أليكسي" يتنفس بعمق. ألقى نظرة على العبارة من بعيد، التي بها "تكاتشوك"، بدا كل شيء ساكنًا، فلم يكن يرى أي شخص، كما لو أنهم لم يبدؤوا في نقل الرفات بعد.
صعد "أليكسي" إلى الأرضية الخشبية ورأى العمال يجلسون جلسة القرفصاء. حتى الرؤساء كانوا هناك، ولكنهم لم يكونوا يجلسون هذه الجلسة، وإنما كانوا يجلسون على المقعد الوحيد. حتى فريق العبارة كان يقف عند السياج. وكثيرون يدخنون، ولا يتفوهون بكلمة واحدة.
وضع "أليكسي" حقيبته، ثم سندها بيده اليسرى، ووضع المحرك على اللوح. وأخذ يبحث بعينيه عن "تكاتشوك". لم يجده في أي مكان. فأخذ يسأل: - أين "أليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك"؟
كان العمال والقادة ينظرون إليه، ولم يرد أحد أن يجيبه ويتحمل هذا العبء الكبير.
طرح "بريوخانوف" سؤالًا جديدًا:
- ماذا حدث؟
فأجاب الشرطي قائلًا:
- إنه هناك على الجسر، جاءته حشرجة الموت، بعدما مررنا بـ"كوتاي" مباشرة.
فأخذ "أليكسي" خطوة في اتجاه العبارة، فسقط المحرك على جانبه. فأضاف ممثل إدارة الفيضانات قائلًا:
- لقد اتصلنا بالإسعاف والشرطة، لكنهم لم يأتوا حتى هذه اللحظة.. يجب أن يكونوا ذوي خبرة جيدة.
- حسنًا، من الممكن أن يجرونا للمحاكمة.
ثم قال "بريوخانوف":
- كفى!
دخل "بريوخانوف" إلى حجرة مضاءة بمصباح صغير في العبارة، فلم يلاحظ أن "تكاتشوك" كان مُلقى بين الكثير من الأكياس السوداء التي

تحمل بقايا الأموات. لقد كان وجهه مغطى بالكيس الأسود نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
لا شيء شخصيٌّ

تم الاحتفاظ ببقايا قرية "بولشاكوف"؛ منزل "مارينا زورافليفا"، وورشة النجارة الخاصة بـ"ماسلياكوف"، حتى شهر يوليو من عام 2002. وكان أول مَن استسلم من منزل "ماسلياكوف" زوجة "ألكسندر جورجيفيتش ماسلياكوف"، فلم تتخيل أن تعيش شتاء آخر في هذا المكان، فجمعت أمتعتها المهمة ورحلت إلى ابنها الكبير في مدينة "ليسوسيبيرسك". غادرت دون أن تخبر أحدًا، وفي ذلك الوقت، كان الزوج و"ديميتري" في "كولبينسك" لديهم جلسة قضائية أخرى. ثم عادوا ليجدوا خطابًا على الطاولة: "لن أستطيع التحمل. سأكون خلال هذا الوقت عند أوليج".

كان "ألكسندر جورجيفيتش ماسلياكوف" كسابق عهده خلال العامين الماضيين، مستسلمًا بشكل ملحوظ، ولا يزال حتى هذه اللحظة يعيش كل يوم في حالة من التوتر، ثم وبعد رحيل زوجته، تأثر بشدة وانهار تمامًا. وكان يجلس أيامًا كاملة على الطاولة الكبيرة في المطبخ، ويفكر في كل شيء، ويستمر في التفكير. ثم يرفع وجهه المليء بنظرات الحيرة ويطلب من "ديميتري" إعادة الأسئلة التي طرحها. وحتى لو كان الابن يسأل عن شيء ما غير مهم: "هل ستأكل؟"، يجيب بتنهيدة مريرة: "لا أعرف، لا أعرف".

شرع "ديميتري" يشعر بالخوف من تركه بمفرده، ولكن كيف لا يتركه؟ يجب متابعة ورشة الخشب، والذهاب إلى المتجر القريب من القرية، أي مستعمرة العقاب؛ حتى يشتري المنتجات الضرورية.

لم تكن العين لترى هذه المستعمرة، هؤلاء مساجين مستعمرة العقاب، ولكن إلى أين يمكن الذهاب؟ لقد تدمر كل شيء في الجوار وحُرق تمامًا. كان يهرع هنا وهناك مثل المجنون، قام بهذه المشاوير في وقت قياسي من السرعة، مع هذه الفكرة في رأسه: "لا تجعل أي شيء سيئ يحدث".

وفقط بعد مرور شهر ونصف الشهر، قرر "ديميتري" التخلي عن الكوخ والحصول على شقة. وعلق على البوابة قطعة من الخشب وعليها العبارة الآتية: "لا تحرقوه! لقد ذهبنا للحصول على طلب شقة"، واصطحب والده إلى المدينة، وأخذا يعدان الوثائق. واتصلا بالأم.

فصاحت الأم قائلة:

- لا أريد العيش في "كولبينسك" الملعونة! لقد اقترحوا مكانًا في "سوسنوفوبورسك"، لعلهم يمنحوننا إياه!

أعاد "ديميتري" كلمات الأم على مسامع موظفي إدارة الفيضانات. فكانوا يحركون أكتافهم في علامة على السخرية: - لقد نفدت الأماكن السكنية في

“سوسنوفوبورسك”. ولم يتبقَ سوى في “كولبينسك”، ولا يزال كذلك نصف منزل احتياطي في “بوجوتشان”.
- لماذا نحتاج إلى مكان في “بوجوتشان”؟ ستغرق تلك المنطقة تحت الماء قريبًا.
- لكن هذا لم يُحسم بعد.
- كان أمرنا لم يحسم أيضًا من بضع سنوات.
فقاطعوا “ديميتري” قائلين:
- هكذا الأمر، هيَّا من دون جدال أو مناقشة. نحن لسنا المصممين. هل ستأخذون شقة من غرفتين هنا؟ الغرف واسعة، ومعزولة جيدًا. والنوافذ من الزجاج. تخطيط جديد تمامًا.
اتصل “ديميتري” بأمه مرة أخرى، وحاول إقناعها بالموافقة على “كولبينسك”:
- لقد نفدت الأماكن جميعها يا أمي.
- لا أريد! الجميع هناك يُذكرني بالقرية.. بل وكل الأشياء. سنكون مثل الحمقى.
- ولماذا؟
تعجبت الأم قائلة:
- ماذا؟ لقد بذلنا الكثير من الجهد، في النهاية وصلنا إلى النتيجة نفسها.
وهنا ابتعد “ديميتري” إلى زاوية المكتب، وقال:
- ولكن ما العمل؟ أبي.. أبي لا يشعر بالحياة مطلقًا.
- حسنًا، هو مَن فعل هذا! وكاد أن يفعل هذا معي أيضًا، لكنني هربت.. وقد أدركت أن العمر لم يتبقَ فيه الكثير.
- بالتأكيد، ولكن ما العمل الآن؟ علينا أن نقرر بسرعة. لدينا في “بولشاكوف” منزل من دون مراقبة، وورشة للخشب.
فبكت الأم قائلًا:
- فلتحترق هذه الورشة!
- اهدئي يا أمي، نحن نعيش حياة بدون مشكلات منذ عشرين عامًا بفضل هذه الورشة.
- بدون مشكلات؟! ها أنا أقيم في غير بيتي.
سمع “ديميتري” صوت بكاء الأم، ونظر إلى والده المنحني على نفسه في كرسيه، كان يرتجف من الخوف. إنه أمر مفزع عندما يفقد الأبوان في الوقت نفسه ليس فقط القوة، بل العقل أيضًا، لا سيما في أصعب اللحظات، عندما يتطلب الأمر الاتحاد معًا لصنع قرار مناسب.
- ماما، فلتتصلي بـ”أوليج” لكي أتحدث معه.
- “أوليج” في العمل. إنه يعمل.
ففكر “ديميتري” في قرارة نفسه: “إنه مختلف عنِّي”.

التحق "أوليج" بعد انتهاء المدرسة بمعهد النهر، وخدم في الجيش، ثم حصل على وظيفة في ميناء "لينوسيبيرسكي". وفي عمر الثمانية والثلاثين، أصبح مسؤولًا عن الملاحة النهرية. في البداية، كانت زوجته تطلب قائلة: "لا تدخلوا أوليج في شئونكم! إنه يملك وظيفة مهمة للغاية"، فبدأ أقاربه يشعرون بالخوف من إعاقته عن العمل. وبالفعل، لو لم يركز في عمله، سيخطئ، وحينها سيتعرض للمساءلة.

وفي ذلك اليوم، لم يتم اتخاذ القرار، حيث اصطحب "ديميتري" والده وذهبا إلى "يوري"، قريبه، الذي كان يعيش منذ وقت طويل مع زوجته المطلقة في شقة واحدة. فمنذ فترة، كانا يتشاجران ويرفعان دعاوى قضائية على بعضهما بعضًا، ولكن في نهاية الأمر، ولأنهما كانا خائفين من أن يصبحا بلا مأوي، وافقا على الاستقرار معًا.

سأل "ديميتري" قائلًا:

- عم "يوري"، هل يمكن أن يقضي أبي الليل عندك؟

وبدا العم كأنه هو أيضًا قد تعرض لصدمة.

- بالتأكيد، هيا.. هيا.. لكنني أملك سريرًا واحدًا فقط، ولكن لا بأس. سيتسع لنا. "ساشا"، ماذا بك؟

ثم نظر إلى "ديميتري"، وقال له:

- هل هو مصاب بسكته دماغية؟

- لا. لا أعتقد هذا.

وأضاف في قرارة نفسه: "هذا احتمال صحيح، لقد تغير سريعًا..".

بدأ "ديميتري" يحكي بتوتر أن أمه لم تتحمل الأمر، ورحلت إلى ابنها الكبير، وأن أمر ورشة النجارة ما زال غير واضح. هل سيحافظون عليها أم سيحصلون على تعويض؟

أومأ العم "يوري" برأسه:

- هذا يعني أنكم ستنتقلون إلى مكان آخر؟

- وما عساي أن أفعل؟ سنضطر إلى هذا. أنت ترى الوضع هنا..

وفجأة قال الأب:

- ولكنني لا أريد هذا. تحت أي حق! هل سأل أي أحد عن رأيي؟

ثم خرج من الشقة.

لم يمنعه "ديميتري" وكذلك العم "يوري"، فخرج إلى الشارع. وكرر:

- عليَّ الذهاب إلى المنزل! المنزل!

فاضطر "ديميتري" إلى الذهاب معه.

قاد "ديميتري" سيارة "نيفا" على الطريق الممتلئ بالحصى، وأحيانًا نصف مستنقعات، فلم يحافظ عليه أحد لفترة طويلة. كان يدعو طوال الطريق أن يجدوا المنزل سليمًا.

لا يفكر الآن في الورشة. الشيء الرئيسي الآن هو استلام هذه الشقة البائسة ذات الحجرتين في "كولبينسك"، حتى يتمكن من لم شمل والديه. الأهم فالمهم، وبعد ذلك سوف يدبرون الأمر. نعم سيدبرون الأمر. لن يبقى سوى هذا.

كان المنزل سليمًا، وكذلك الورشة.

نام "ديميتري" في تلك الليلة، عيناه لم تكونا مغلقتين تمامًا، يستمع إلى والده، الذي يرقد خلف جدار الحائط. وكان يتقلب في فراشه فيخرج صرير من قاعدة الفراش الحديدة. جلس يدخن. في السابق، كان يدخن في الشرفة، وإذا كان المناخ قارس البرودة، كان يدخن بجانب الموقد، أما الآن فهو يدخن في الغرفة. حسنًا.

في الصباح الباكر، اتصل بأخيه "أوليج". لم يتبقَ سوى ماكينتين أو ثلاث في القرية تصل إليها شبكة التليفون؛ حيث يمكنه التقاط التليفون. كان يرغب أن يحاول أخوه أن يقنع والدته بالموافقة على شقة في "كولبينسك".

قاطعه "أوليج" في الحديث، وقال:

- نعم، نحن ذاهبون بالفعل. نحن في طريقنا الآن بالسيارة، ونقترب إلى "ينسيسك"، عندما علمت ما حدث أمس، أدركت أننا علينا أن نقرر سريعًا.

- نعم، بالطبع.

- إذا كان كل شيء على ما يرام، سنصل هناك في الرابعة.

هناك طريق طويل ومستقيم بين "ليسوسيبيرسك" و"كولبينسك"، ويبلغ طوله خمسمئة كيلو متر، ولكن لا يمكنك الوصول بسهولة بالسيارة إلى هناك؛ حيث يوجد في الطريق مستنقعات "يانسيسك"، و"التايجا". ليس هناك رحلات طيران مباشرة إلى هناك، ولذلك غالبًا ما يصلون إلى هناك هكذا؛ يصلون بالسيارة من "ليسوسيبيرسك"، ويصلون إلى "يانيسيسك" (هكذا يقطعون ثلاثين كيلو مترًا). ويوجد هناك مطار، يسافرون من خلاله إلى "كراسنويارسك"، ومن "كراسنويارسك" إلى "كولبينسك"، يكملون الرحلة بسيارة على الطريق البري. هذه المسافة تزيد على ألف كيلو متر.

ثم قال "ديميتري":

- سنلتقي في المدينة. في إدارة الفيضانات. أمي تعرف أين تقع.

- حسنًا.

أما الآن، كان عليه أن يقنع والده بارتداء بذلة رسمية مرة أخرى، وركوب السيارة.

تناولا وجبة الإفطار، وتمشى "ديميتري" حول الفناء، محاولًا التفكير في حيلة ما ليقولها لأبيه، لكنه قرر أن يتحدث معه بشكل مباشر، ثم عاد إلى الكوخ، وقال إن الوقت قد حان للذهاب.

قال له الأب بمعاناة، يبدو أنه تفاجأ:

- لماذا؟ لقد عدنا للتو.

- سيحرقوننا هنا، أو يغرقوننا. ستزحف المياه كل يوم إلينا. علينا أن نذهب. لقد غادر الجميع بالفعل.

أخذ "ديميتري" والده في سيارة "نيفا". أغلق بوابة المنزل. وصلوا إلى المدينة، ورتب كل ما يتعلق بالشقة. وحاولوا الإصرار على أخذ شقة تتكون من ثلاث غرف؛ فقد وعدهم أحدهم ذات مرة بهذا. لكن، لسوء الحظ، لم يعد الذين وعدوهم بذلك يعملون في "كولبينسك" منذ فترة طويلة. وقال العاملون الحاليون إنهم يتصرفون بدقة وفقًا للوائح.

في اليوم التالي، جاءت شاحنة "كاماز". شرعوا في تحميل الأثاث، وأمتعتهم، والصناديق التي كانت تحتوي على الأطباق. فقد تمت تعبئة الكثير من هذه الأشياء منذ فترة طويلة.

سأل الأب:

- وماذا عن عملنا؟ هل سنرمي أدواتنا؟

- علينا أن ننقل أمتعتنا الآن، وسنقرر فيما بعد ما سيحدث للورشة.

ثم ابتسم الأب، وهو يشعر بالأسى:

- هكذا سيسري الأمر؟ حسنًا..

قال "أوليج" بعطفٍ لأبيه:

- يبدو أنك مرهق كثيرًا يا أبي. أنت بحاجة إلى الراحة والاستلقاء.. بالمناسبة، الورشة مسجلة باسم مَن؟

قال "ديميتري":

- بالطبع، أبي.

ثم قال "أوليج":

- ربما يجب أن يكتب أبي لك توكيلًا؟ إن أبي ليس بصحة جيدة لكي يتابع الأمر بنفسه، ما سيحدث إذا طلبوا أحدًا يأتي إليهم كثيرًا؟

ثم قال الأب:

- بالطبع، سأذهب أنا. وسيقلني "ديما" إذا لزم الأمر.

ثم جاءت "مارينا زورافليفا"، بعدما قاموا بتحميل كل شيء. كانت نحيفة، بدت هيئتها وكأنها امرأة مسنة، ترتدي ملابس رمادية اللون. قالت لهم: - ستنتقلون؟

أومأ "ماسلياكوف" برأسه بأسفٍ.

- أنا أيضًا، ربما سأرحل، لم أستطع تحمل ما يحدث، أصبحت مثل الجدار الذي ينهار مرة واحدة. بالإضافة إلى ذلك، لقد أفاق زوجي السابق، ويريد أن يسلب ابنتي منِّي. وقد هددني رئيس الوصاية بحرماني من حقوقي كأم لابنتي؛ لأنني الآن مثل المرأة المشردة. وبشكل عام، لقد فعلت كل ما بوسعي.

ثم قالت زوجة "ألكسندر ماسلياكوف":

- سيديرون هذه القرية بالأجهزة الآلية، بدلًا من الناس.

أعجب "ديميتري" بهذه المقارنة. وتخيل أن جهازًا من الفولاذ به مئات من التروس، ومنشار، ومكابس، ومفكات، ومطرقة، يقوم بتدمير القرية، بل ويهلك السكان الذين لا يريدون الرحيل، ناهيك بالمطارق الكبيرة، والمناشير، والمطارق.

انتقل الآباء إلى الشقة الجديدة، أما "ديميتري" بقي في القرية لمدة نصف شهر.

كان الكوخ هادئًا وضخمًا، ليس به حياة. حاول أن يفكر في الأشياء المهمة التي يمكن أن يصطحبها معه (فقد كانت هناك كثير من الأشياء بالمنزل). حاول "ديميتري" أن يفهم ما يحدث، وتذكر حادثة من طفولته. عندما كان يبلغ من العمر خمس أو ست سنوات، ذهبت العائلة بأكملها إلى "كراسنويارسك". وقرر الأب أن يري أبناءه وبناته عاصمة المقاطعة. وقاموا بزيارة المتحف. ثم قال الأب بحماسة: - هناك هيكل عظمي ضخم للماموث!

كان الهيكل العظمي للماموث مثبتًا بالأسلاك، لم يخشاه "ديميتري". أما حيوان وحيد القرن الأشعث، الذي يقف بجانبه، أفزعه كثيرًا لدرجة أنه صرخ وركض خلف والده، فقال له والده: - ماذا بك؟ إنه ليس على قيد الحياة!

ثم رفعه إلى حيوان وحيد القرن وقال:

- انظر، عيناه قطعتان من الزجاج. وحيد القرن الحقيقي سيكون له عينان تشعان بالحياة! كما أن جلده باهت، ما هو إلا وحيد قرن محنط!

أما الآن، شعر "ديميتري"، وهو ينظر إلى منزله، أنه يشبه تمثال وحيد القرن المُحنَّط. هيكل منزل، وليس منزل حقيقيًا. بل وكل ما يحيط به.

أراد "ديميتري" أن يشعر بعودة الحياة مرة أخرى على الأقل في المنزل، لذلك قرر تسخين غرفة البخار الخاصة به.

لم يقم بتسخين المياه في الحمام منذ فترة طويلة، وقد ذهبوا في فصل الشتاء لأقاربهم في المدينة، ولم يأخذ السخان وقتًا كثيرًا لكي تسخن المياه. أما هنا، لم تكن هناك كهرباء لكي يقوم الموتور بتوصيل المياه إلى الأكواخ، ولذلك كانت المياه ضعيفة. فقد امتلأت الآبار بعد انتقال معظم السكان، وتمت إزالة الموتور، الذي يضخ المياه من النهر. لقد فعلوا كل شيء لجعل الحياة هنا لا تطاق للسكان.

أخذ "ديميتري" صفيحتين، وعبوات بلاستيكية نظيفة وضعها في المقعد الخلفي لسيارته الـ"نيفا"، ثم ذهب إلى النهر. ملأ "ديميتري" الصفيحتين بسرعة، واضطر أن يروح ذهابًا وإيابًا؛ أي من السيارة إلى النهر، ومن النهر إلى السيارة، لكي يضع الصفيحتين في السيارة بعد ملئهما. بعدها ذهب إلى الكوخ وصب الصفائح في إناء كبير، ووضع الإناء على الموقد وأشعله. ذهب مرة أخرى إلى النهر. قال لنفسه: "كم عدد الصفائح التي يجب أن أملأها؟". ثم تذكر أنه وحده الآن فقال: "لست بحاجة إلى الكثير". قام بغسل الأحواض والأرفف بدقة، وأبقى باب غرفة الملابس مفتوحًا لينير له المكان.

وضع خشب البتولا في الدفاية، ثم خرج إلى الفناء. كانت الحظيرة مفتوحة على مصراعيها، كما لو أنها منتظرة مجيء حيوانات لتربيتها. كانت هناك حديقة خضروات ضخمة خلف الحظيرة. في الماضي، لم يُزرع بها في فصل الربيع سوى خمسة فدادين من البطاطس، وفدانين لزراعة الثوم، وفدان للجزر. كانت هناك بعض المحاصيل الأخرى مثل البصل الأخضر، والبقدونس، والشبت. لكنهم لم يجرؤوا على زراعة أي شيء في هذا العام، فما الفائدة من زراعة محاصيل إذا قام مساجين مستعمرة العقاب بسحقها في أي وقت بواسطة الجرافة؟

بالطبع، إذا أصرت أمه أن تزرع، لكانت هناك حديقة خضروات، كما في السنوات السابقة. ولم تزرع أيضًا الطماطم والفلفل والكرنب في شهر مارس، فهم لم يلاحظوا ذلك. في أبريل، لم يتحدثوا عن أنه كان من الضروري حرث الأرض. وفي شهر مايو، كانوا ينظفون الأرض، وضعوا حبوب البطاطس سريعًا، ونثروها بصمت على الأرض، ولم يتابعوا الأرض بعد ذلك. والآن أصبحت الحديقة مظلمة، وغامضة وممتلئة بالحشائش والأشجار الكثيفة الباهتة، يبدو أن غذاء الناس ينبت هنا، على الرغم من كل شيء.

نظر "ديميتري" حوله، وكأنه رجل عجوز قد فقد ذاكرته:

- ماذا حدث؟ لقد حلت بنا اللعنة حقًّا!

صعد إلى العلية. في الأعلى، تحت عوارض السقف، علقت عناقيد من أغصان البتولا المجففة، إنها قديمة إلى حد ما، فقد كانت هنا لمدة ثلاث سنوات، ولكن إذا قمت بإشعالها بالنيران، ستشتعل.

بينما كان ينتظر الماء لكي يصبح ساخنًا، ملأ موقدين بالكيروسين. تجول بعد ذلك حول الساحة ووضع صندوقًا، به علب تبلغ سعتها ثلاثة لترات، تحت المظلة. لقد أراد والده أن يأخذ الصندوق معهم إلى المدينة، لكنهم تركوه في آخر لحظة، حيث قالوا: "أين سنضعه هناك؟".

خرج من البوابة، والتفت بنظره نحو الورشة كعادته. لم يرَ أي دخان.. حسنًا، كان يخشى كل يوم وفي كل دقيقة بأن يقوم أحد ما بحرق الورشة، ولذلك فوجئ بأنهم لم يحرقوها بعد.

وفي زاوية من زوايا ورشة الخشب، كان يعيش رجل بلا مأوى يقال له "أوبسلا". وكان "ديميتري" يقدم له البطاطس والخبز، وفي المقابل يقوم الرجل بدور رجل الحراسة، ولكن أي حارس سيصبح هو؟ ربما سيقوم باصطحاب هؤلاء، الذين سيأمرونه بالوقوف في مكانه ليشاهدهم وهم يقومون بسكب البنزين في الورشة، ثم إلقاء أعواد الثقاب.

أدار وجهه إلى الجانب الآخر. وهناك، في الشارع المجاور، كان يقبع منزل "مارينا زورافليفا". كان الكوخ محميًّا بسياج من الناحية الأمامية ملحق به جراج وحظيرة. ومن الخلف، كانت أجزاء من السياج قد سقطت من أماكن متعددة.

توجد بين هذين المنزلين الخاصين بـ"ديميتري" و"مارينا" قطعة من الأرض جرفت تمامًا بآلات الجرافات والبلدوزر منذ فترة وينمو فيها نبات الرغل والقراص، ويستطيع المرء أن يرى أغصان الكرز، والتوت، والعنب الأسود قد نجت من الدمار العام.

ولم تكن جبال القمامة تؤذي العين بهذا الشكل قبل نشوب هذه الحرائق، حيث تم نقل الحديد، وتغطية الفروع المحترقة بالعشب.

توجه "ديميتري" بشكل غير متوقع بالنسبة إليه إلى منزل "مارينا"، ثم دعاها لغرفة البخار. في البداية، شعرت "مارينا" بالخوف من هذا الطلب. تلعثمت قائلة: - نعم، لا. أنا هنا.. لديَّ..

كانت أكبر من "ديميتري" بخمس سنوات، يتذكرها بصعوبة قبل كل هذه الأحداث، حيث رحلت "مارينا" عندما كان يدرس في المدرسة. ومن حين لآخر، كانت تأتي لزيارة والديها، اللذين كانا يرحبان بها كما يرحبان بأي شخص في القرية عدا الأعداء والغرباء المشبوهين. وخلال الثلاث سنوات السابقة، عندما أصبحوا من بين العدد القليل للسكان، لم يدعموا علاقتهم ببعضهم بعضًا. كان "ديميتري" يأتي إلى "مارينا" بالمنتجات، التي أخذها من أقاربها. وأكثر من هذا، عندما كان هناك مساجين يحاولون الاستيلاء على منزل "زورافليفا"، تدخل "ديميتري" في الأمر وطالب بالوثائق، ومرسوم تدمير المباني. هرعت "مارينا" كذلك إلى ورشة الخشب، بعدما رأت حركة بجانبها، فصاحت وهددت بأمر غير مفهوم.

وفي واقع الأمر، لقد كانا يعيشان في انفصال خلف الأبواب. لاحظ "ديميتري" أن "مارينا" تحمل دلوًا من المياه عند النهر، فرغب في مساعدتها، ولكنه توقف. فكان من غير الجيد هنا أن يقدم المرء المساعدة في الأمور التافهة.

شعر "ديميتري" بالحرج، فابتسم قائلًا:

- ها؟ ما رأيك؟ لقد أحضرت المياه. من الممكن أن تستعمليها في غسيل الملابس.

- أيجب أن تغسل ملابسك؟

- لا، لا. لا يجب عليَّ فعل هذا. أغسلها وقت الرحيل.. لقد قررت تسخين غرفة البخار حتى أستطيع أن أتعرق قليلًا وأجلو جلدي بأغصان البتولا. ربما، أصبحت الأيام الأخيرة لكِ ولي هنا..

فقالت "مارينا":

- سأرحل بعد غد. سيأتي طليقي بخصوص أمر "بافليك".

- كان يريد أخذه دائمًا.

- نعم.. لكنني أعتقد أنه لا يريد هذا.. ربما تمت رشوته حتى يجبرني على ترك المكان..

فأومأ "ديميتري" برأسه بتنهد غير مصدق هذه الخطة الماكرة. وعلى الرغم من هذا يمكن لأي شيء أن يحدث.
حاول "ديميتري" التخفيف من هول الأمر:
- لقد وضعونا في مأزق. هل ستستحمين؟ أنا لا أصر على هذا.
كبح "ديميتري" جماح نفسه، حتى لا تعتقد "مارينا" أنه أيضًا يخطط لشيء ما، ثم قال:
- أنا أقترح الأمر، ليس إلا. إن جاز التعبير، ليكون وداعًا لحياتنا في القرية.
فقالت "مارينا" بثقة غير متوقعة:
- نعم، سآتي..
كان الجو حارًّا في غرفة البخار، والهواء الجاف يدخل إلى الصدر، ويحرق الرئتين. وفي أشد الحرارة، كان يتم الشعور برائحة البتولا اللذيذة، وكان هناك قطع من أوراق الأشجار الناضرة الجميلة متناثرة بين المياه.
حمل "ديميتري" المدفأة النفطية فوق رأسه ونظر جانبًا. فإذا بالمياه تتحرك وتتدفق. ليس هناك حاجة إلى تسخينها أكثر من هذا. يكفي.
وضع "ديميتري" المصباح على المقعد بالقرب من الباب، فالهواء ليس ساخنًا هناك. ويجب ألا ينفجر المصباح. خرج ليستنشق بعض الهواء في الوقت المناسب، وكانت "مارينا" تنظر من البوابة المواربة.
- هل يمكنني الدخول؟
فشعر "ديميتري" بالتأثر، ليس بسبب أنها جاءت، بل لأنها فعلت هذا بسرعة:
- نعم، ادخلي، ادخلي!
كانت "مارينا" تمسك في يدها بعض الملابس الضرورية، وفي يدها الأخرى علبة لشيء ما وردي اللون.
- لقد صنعت عصيرًا من نبات عنب الثور.
فأخذ "ديميتري" العلبة واصطحب الضيفة.
شعرت "مارينا" بالدهشة عندما فتحت باب غرفة البخار، فقالت:
- أووه! حتى الشعر يضطرب!
- كان هناك غطاء للشعر في مكان ما.. لم يكن يجب عليهم أخذه..
رفع "ديميتري" غطاء الصندوق، حيث كان يوجد الأشياء القديمة غير المستخدمة: وعاء شرب قديم، ومنشفتان، ومكانس بالية. عثر على بعض من أغطية الشعر، فأخرج اثنين، وخرج إلى الفناء، ونفضهما في العمود حتى ينظفهما من الغبار.
قدم واحدة منهما إلى "مارينا"، وقد قرر أن يسألها:
- أمسكي، هل سنتناوب في الدخول أم ماذا؟
فنظرت إليه، فخمن "ديميتري" أنها تختار الإجابة الثانية، لبرهة قصيرة لم تقرر. ثم اختارت:

- كل في دوره.
- عندئذ، سأطلب منكِ، وأنتِ فكري في الأمر، ألا تدخرِي في استخدام المياه.
- فلتراقب منزلي.. إنهم ينتهزون أي فرصة.
- موافق.
خرج "ديميتري" من غرفة البخار. وسار في الفناء مرة أخرى، وصعد إلى الكوخ. فكانت هناك قطعة من لحم البقر في الإناء بصحبة البطاطس المطبوخة من الأمس، وإناء آخر يحتوي على زجاجة من مشروب الفودكا الباردة. هل يدعو "مارينا" لتناول العشاء؟ أم هذا سيكون مبالغًا فيه؟ ويكون علامة على التحرش والمضايقة..؟
أشعل "ديميتري" الموقد في المطبخ، وأخذ يُسخن الطعام. وفي رأسه، صورة المرأة تجلي جسدها بأفرع البتولا عند ظهرها وساقيها. ويرتفع صدرها وينخفض مع التنفس الشديد. لقد عاش "ديميتري" عامين بمفرده. كانت هناك صديقة، لكنها رحلت مع أبويها إلى مكان بعيد في مدينة "شاريبوفو" في الجنوب. وكانت تنتظر في الأسابيع الأخيرة قبل رحيلها أي كلمة من "ديميتري". كان يمكنه أن يقول: "ابقي معي!"، أو يدعوها للزواج، أو حتى أن يذهب معها، لكن "ديميتري" كان صامتًا، فرحلت. ثم كانت تطرق عليه ذكراها فجأة، فيتصل بها، لكنها لم تكن تجيب. جرس طويل متقطع، أو أن "الذي تحاول الاتصال به غير متاح الآن". فيوبخ نفسه كثيرًا ويلعنها لأنه تصرف بهذا الشكل آنذاك. وخلال لحظات رحيلها، كانت هناك بعض آيات الغضب تعتلي الأوجه بسبب فراقهم القرية الأصلية وأمورهم مع الوالد. وكان "ديميتري" غاضبًا أيضًا من هؤلاء الذين استسلموا ورحلوا. ربما انتشر هذا وامتد إلى الصديقة، ولا سيما أنها، على العكس، كانت غالبًا ما تتغلب على مشاعر اليأس والإحباط وتسترجع نشاطها وحيويتها، كانت على وشك العيش في شقة مريحة للغاية، فقد عرضوا على أبيها عملًا جيدًا، لقد استقروا في مكان يبعد عن "كراسنويارسك" بثلاث ساعات بالسيارة.
كان "ديميتري" يطلب منها في عقله أن تذهب، وبدأ في تجنب لقائها. وفجأة لم تعد هناك حاجة لتجنب هذا، لقد اختفت.
أما الآن فقد حَن واشتاق. وكلما يدرك أن عليه الرحيل من هنا أيضًا، ازداد شوقه وحنينه لها. كل شيء كان بلا فائدة، غضبه وصراعه للحفاظ على بيتهم والورشة. ضاعت سنتان من العمر في توتر بلا نفع. فحص منزل "مارينا". لا دخان ولا ناس. فذهب إلى غرفة البخار. وصاح: - كيف الحال؟ هل كل شيء على ما يرام؟
فأجابت "مارينا" من وراء الباب:
- جيد، ادخل.

كانت "مارينا" تجلس في غرفة الملابس، وتلف نفسها في قطعة من القماش الأزرق. فابتسمت بلطف، ووجهها، الذي عادة ما يبدو عليه العجز المبكر، تحول ثانية إلى وجه فتاة شابة. وقالت: - حمام رائع. شكرًا لأنك دعوتني.

كان "ديميتري" ينظر إلى كتفيها الورديتين الخاليتين من النمش والشامات. كتفاها المستديرتان القويتان. فتوالى الشعور بالإثارة, تباعًا.

فأجاب بطريقة تلقائية، بعدما جلس جوار المرأة واستدار:

- عفوًا.

وهنا صدر صوت "مارينا" كعادته، مرهفًا وحزينًا:

- من المؤسف ترك مثل هذا الحمام. وكل شيء آخر. لديَّ دراجة نارية من طراز "يج" في مرأبي. إنها خاصة بجدي، مصنوعة من المعادن القديمة، كنت أفكر أنها ستُدمر أيضًا. كنت أقودها بصحبة جدي!

- هل الدراجة ذات المقدمة البارزة؟

- أها..

- نعم، أتذكرها!

وتذكر "ديميتري" بالفعل هذه الدراجة النارية، وقال:

- كان يقودها رجل مُلتحٍ يرتدي سُترة رياضية واحدة في أغلب الأوقات، ووراء زجاج عربة الأطفال الباهت، كانت تجلس فتاة مبتسمة، كنا نُحسدك أنا والأولاد بشدة. وكنا كذلك نثقب عجلة العربة كثيرًا. ضحكت: - حقًّا؟

- نعم. كنتم تذهبون إلى المتاجر بها!

- كنا نصعد إلى الغابة بواسطتها! بينما من الصعب الصعود إليها بواسطة سيارة من طراز "أوز". ففي مرة من المرات، كدنا ننقلب، أنزلني جدي بعد هذا وجعلني أركض وراءه، كنت أرى أعمدة من الدخان الأسود أمامي. وأنام في العربة أحيانًا. وفي فترة الظهيرة، كنت أدخل إلى المرأب وأنام، وكأنني ذهبت في رحلة.. حسنًا، حسنًا، سأرحل الآن. تحدثنا كثيرًا، ستقل درجة الحرارة ولن تستطيع أن تستخدم غرفة البخار.

أراد "ديميتري" أن يتحدث أكثر، فوجد عذرًا مناسبًا:

- حسنًا، إذا حدث هذا، سأعيد تدفئة الغرفة. يجب أن نحفر للبطاطس، ومع مرور الأيام، سيأتي هؤلاء مساجين مستعمرة العقاب المدمرون.

- وهل زرعتم شيئًا ما؟

- نعم، القليل.. اسمعي، هل يمكننا الجلوس بعد حمام البخار؟ لديَّ لحم وبطاطس. دعينا نتعشى ونشرب معًا..

نظر "ديميتري" إلى "مارينا" فلاحظ حيرتها مجددًا. وقد بدت له هذه الثانية الطويلة كأنه يقفز من مكان مرتفع.

فطلبت "مارينا" بهدوء:

- لا يمكنني يا "ديميتري".. لا يمكن ذلك.. الآن كل شيء جيد، شكرًا لك..

- إممم، لقد شكرتِني بالفعل.
- أنا لا أتحدث عن حمام البخار الآن..
وغادرت "مارينا" بشكل يختلف عن الشهور الأخيرة. نهضت. وكأنها أزالت قشرة الحزن من عليها وغسلت نفسها، وتغلبت على التوتر، والتوقعات المشينة.
كانت تسير بسهولة في الشارع السابق، بدا لـ"ديميتري" أنها تقفز وهي تسير، كما كانت الفتيات يحببن أن يفعلن في مرحلة الطفولة.
كان ديميتري ينظف جلده بضربات كثيرة ولفترة طويلة بأفرع البتولا. فطارت الأوراق في اتجاهات مختلفة. وعندما خارت القوى، خرج إلى غرفة الملابس، واستنشق الهواء النقي، وبصق في الدلو القذر ذلك المخاط المتراكم في رئتيه. ثم شرب عصير عنب الثور ثم عاد مرة أخرى إلى الحمام. وألقى على الحجر مياهًا مغلية، ودعك ظهره وجانبه وصدره وقدميه.
وفي المرة الأخيرة، غسل رأسه بالشامبو وشطف نفسه جيدًا، ثم قلب حوض الاستحمام المتحرك على ظهره ووضعه على الرف، ثم وضع الوعاء عليه. وأخرج المصباح، وأطفأه.
- لقد انتهى الأمر.
قرر "ديميتري" الاستلقاء لمدة نصف ساعة، لكنه غاص في النوم ومن دون تناول العشاء، وحتى لم يشرب كأسًا واحدة، فنام حتى وقت متأخر من الصباح.
استيقظ بعد فترة طويلة من النوم، وظل على السرير دون تحرك، مستلقيًا على ظهره، وكأنه يشعر أنه في منزل غريب، وظل ينظر حول الغرفة.
شق الضوء الساطع لشمس الصيف المكان، وقطع الغسق باللون الأبيض، مثل خطوط الطلاء الجديدة.
تذكر "ديميتري" أنه كان هناك الكثير من الخردة المنزلية مخبأة في زوايا المنزل، وقد تراكمت هذه الخردة على مر السنين، وكانت تحت خزانة الأدراج، وفي الخزانة، وتحت السرير أيضًا. وتعين على "ديميتري" الآن أن يفرزها؛ لكي يعرف ما الذي عليه أخذه معه، وما الذي يجب أن يتركه، ولكي يملي أوقات فراغه أيضًا.
كانت الجدران عارية، وهناك آثار بقع شاحبة هنا وهناك نتيجة لرفع الأثاث واللوحات من عليها. ولم يتبقَ سوى خريطة للعالم كان بها دول الاتحاد السوفيتي، وألمانيا الاتحادية، ويوغوسلافيا.
وتعلم من خلالها الأخ الأكبر والأخوات الجغرافيا، ثم "ديميتري". وفي حقيقة الأمر، لم تجمع هذه الخريطة الأماكن جميعها. وقد أراد الأبناء تغييرها

إلى خريطة العالم الحديث، لكنهم لم يفعلوا ذلك أبدًا. كانت الأم تمسح أحيانًا اللوحةالفيلم بقطعة قماش مبللة.

حول "ديميتري" عينيه عن الخريطة ونظر للسقف فوجده غير مستوٍ، ومقعرًا، وبه خطوط بارزة. بدا صلبًا. حاول "ديميتري" أن يتخيل أي نوع من الخشب قد صنعت منه هذه القطعة الخشبية. إنها ضخمة، وقديمة، لكنها جيدة. على الأرجح، قد صنعت من أشجار الصنوبر. وقد عثر عليها أحد الأسلاف في "التايجا"، وقطعوها منذ فترة طويلة. ربما قطعوا فروعها بمنشار يدوي. وسحبوها بالحبال إلى الطريق، ثم نقلوها بطريقة ما إلى القرية. ربما بعربة بالحصان أو شاحنة، لكن المهمة لم تكن سهلة أبدًا. وضعوها على السقف، وثبتوها جيدًا، ربما ستظل موجودة حتى الأبد.

كان هناك سلك به ثلاث لمبات صغيرة موضوعة على اللوحة، لكي تنيرها. وعندما كانت الكهرباء متوفرة في القرية، كانوا يشعلونها، كانت تنير بألوان قوس قزح. أما الآن فالغرفة مظلمة للغاية.

ثم قال "ديميتري" لنفسه، وهو مستلقٍ على الفراش: "لذا، فلتنهض!".

ثم قفز "ديميتري"، وقام ببعض التمارين الصباحية، وسرعان ما ارتدى ملابسه. وحاول أن يقنع نفسه بأن هناك الكثير من الأمور الملحة والمهمة في المستقبل، ماذا حل بـ"مارينا"، ربما رحلت وهو في الورشة، أو ربما عندما كان يشتري بعض لوازم الطعام، أو ربما وهو يجني البطاطس من الأرض فهو يكون غير منتبه لأي شيء سوى ما يقوم به، أو ربما بالأخير كان في بيته ببساطة. أدرك أنها لم تعد موجودة عندما سمع صرخات الرجال، وضربات الجرافة على كوخها.

خرج "ديميتري" من البوابة. كان هناك بعض الرجال يرتدون سُترات رمادية، يتجولون بالقرب من منزل "مارينا"، ويرمون أشياء من الجزء الخلفي للشاحنة، لم يتمكن من تحديد نوعها. ربما سيخرجون الدراجة النارية الآن.

عاد بعد ذلك إلى الفناء وأغلق البوابة. بدأ في جمع الأشياء المهمة المتبقية، وحمَّلها في سيارته الـ"نيفا". وطوى لحافه. سيأتون هنا في أي دقيقة أيضًا. فرسميًا لم يعد لمنزلهم وجود، والآن لديه هو ووالداه في جوازي سفرهما عنوان إقامة جديد.

ثم صدر صوت أجش، ويطرق إما بمطرقة، وإما بفأس:

- هل هناك أحد؟ أيها المالكون!

ذهب "ديميتري" برجليه اللتين ضعفتا فجأة إلى البوابة. لقد كان يعرف هؤلاء الرجال؛ إنهم مساجين مستعمرة العقاب.

لقد ظل يناضل ضدهم لمدة عامين، والآن فازوا، وقفوا وارتسمت الابتسامة على شفاههم. بدا الآن أنهم سيبصقون على حذائه وسيسألون: "حسنًا، ماذا؟ هل ستغادر؟".

ثم قال رئيس العمال، الذي من الواضح أنه رجل كبير في السن، ولكن ذا هيئة وصحة قوية، وضخمة:
- لقد حان وقت الرحيل، أنت مستعد، أليس كذلك؟
لا يستطيع "ديميتري" أن يقول للعميد: "لا". لا يمكن إزعاج هذا الرجل، ربما سيقاتله.
ثم قال "ديميتري":
- نعم، أنا مستعد. سأقود السيارة الآن.
جلس "ديميتري" في سيارته الـ"نيفا" وقام بتشغيلها. ورأى في مرآة الرؤية الخلفية مساجين مستعمرة العقاب واقفين خلف السيارة. شرع في القيادة ببطء. وتفرقوا وساروا ببطء في الفناء، ثم قفز "ديميتري" إلى الخارج، وقال: - يا رفاق! سأفعلها بنفسي!
- ماذا ستفعل بنفسك؟
- سأشعل النيران في المنزل بنفسي.
- لن نقوم بإشعال المنزل الآن. نحن بحاجة لفحص المكان من الداخل.
- ماذا هناك للتحقق؟ ليس هناك أحد بالداخل.
عبس رئيس العمال، وقال:
- ربما هناك أسطوانة غاز بالداخل، أو برميل من البنزين.
- لا يوجد برميل هنا. كل شيء على ما يرام.
شرع رئيس العمال أن يبحث عن حجج جديدة:
- يجب إزالة الإطارات من المنزل. يتعين علينا إزالة أي شيء معدني. وكل شيء غير قابل للاشتعال، طبقًا للوائح..
شعر "ديميتري" بالأسى. لقد كان على استعداد للسماح لهم بالتحكم في منزله، لكنه نظر إلى منزل "مارينا"، الذي كان يفتش فيه بقية الفريق، وتخيل أن هؤلاء الغرباء سيفتشون في أمتعته الخاصة، وداخل منزله، ولذلك شرع في إغلاق البوابات، وقال: - لا، سأحرق المنزل بنفسي. أحضروا البنزين.
- اسمع، لا تضع لنا قوانين! لقد قمنا بتطهير المنطقة بأكملها، وليس فقط منزلك.. اذهب يا رجل. لم يعد لك مكان هنا..
- لكن بعض منازل السكان هنا قد احترقت بكل شيء!
لا شيء.. ثم أدرك "ديميتري" بعد ذلك أنهم لن يعطوه البنزين، وأن الرجال لم يكن معهم بنزين، أخذ "ديميتري" علبة من سيارته الـ"نيفا".
ثم سد رئيس العمال طريقه، وقال بنبرة جفاء، وبتهديد:
- لقد أمرنا أن نخرج كل ما لن يحترق. زجاج النوافذ مثلًا..
شرع "ديميتري" يتحدث بحنكة ومرافعة، بطريقة مفاجئة، قائلًا:
- أيها الرجال، دعوني أقم بذلك بنفسي. هذا منزلي، لقد كنت هنا طوال حياتي. لا يمكنني أن أسمح لكم..

ثم تلعثم في حديثه، وصمت.
نظر رئيس العمال إلى رجاله. الذين كانوا ينتظرونه دون اهتمام، ثم أجاب أحدهم:
- أنت تعرف منزلك، وأنا لا أهتم بأن أعرفه. اللعنة.
- ماذا تعرف بحق السماء؟! أنت ستحفر المنزل عندما يصبح رمادًا، وستقطع الزجاج والحديد. اللعنة..
ثم قال "ديميتري" بتوسل:
- نعم، ستحرق الألواح الخشبية.
ثم قال رئيس العمال وهو يلوح بيده:
- من المفترض إزالتها وإخراجها. فلتنقلها، وغادر المكان، وانسَ الأمر. سنفعل كل شيء بعناية.
تراجع "ديميتري". وأعاد العلبة التي بحوزته مكانها.
- حسنًا. سأبقى في الكوخ فقط لمدة دقيقة.
لم يكن "ديميتري" يدخن، لكنه الآن يريد ذلك، فقال:
- مَن لديه سيجارة؟
تردد رئيس العمال خوفًا من أن يقوم "ديميتري" بحيلة ما. ثم فتح علبة سجائر "يافا"، وقام "ديميتري" بسحب سيجارة، وقال: - وعود كبريت.
- إممم.. وكيف كنت ستحرق المنزل وأنت لست معك عود من الكبريت؟
- نعم، لديَّ في مكان ما.. الآن أنا لا أعرف أين بالضبط..
ثم رمى رئيس العمال قداحته. وأشعل "ديميتري" سيجارته، ودفع الدخان إلى صدره بصعوبة.
- انتظرني، سأنتهي بسرعة..
ثم جلس على المقعد عند الباب. ونظر حول المطبخ، كانت عيناه تسبحان في دخان التبغ. تبدو النافذتان المغلقتان وكأنهما عينان منتفختان، تحاولان رؤية شيء ما. وتشبه الطاولة الضخمة الهيكل العظمي لحيوان بلا رأس؛ فارغ بشكل غير عادي، عارٍ تمامًا. بدا الموقد منكمشًا ملتويًا ومثيرًا للشفقة.
حاول "ديميتري" أن يتذكر كيف كان المطبخ عندما كانوا يعيشون هنا، دون أن يفكروا في الانتقال. وتذكر لسبب ما جدته، وهي تعجن عجينة الزلابية. والجد يصلح نعل الأحذية ذات الفرو القيم. وكان "ديميتري"، صغيرًا، لا يزال غير قادر على القيام بأي شيء، يراقب عملهم، ويدرس.
ثم ألقى بعقب سيجارته في الفرن وغادر المطبخ.
توجه نحو غرفة المرافق في الورشة الخشبية؛ التي يقطن بها "أوبسلا"، وكان يعيش هنا. وعلاوة على ذلك، يوجد موقد من الفولاذ صغير، بالطبع لن تحصل على الدفء من خلاله، ولكن على الأقل يمكنك طهو البطاطس.
ثم ذهب "ديميتري"، وكان يتطلع بين الحين والآخر نحو منزله، الذي لم يكن مرئيًّا فوق التل. ينتظر ظهور دخان من احتراق المنزل، لكن لم يظهر

دخان بعد، وأصبح قلقًا أكثر فأكثر. كانت السماء صافية، زرقاء زاهية، لكن الشمس لم تشرق بعد، ودرجة الحرارة ترتفع ببطء، والهواء رطب. إنه طقس جميل جدًّا لزراعة المحاصيل، مثل الخيار، والطماطم، وباقي المحاصيل التي تُزرع واحدة تلو الأخرى.

وبعد أن استقر في غرفة المرافق، قام بوضع الفراش على السرير، ثم ذهب إلى ورشة العمل.

مشى على طول الطريق، حيث كان يتم دفع الأخشاب المستديرة إلى المنشار. ثم وقف بجانب قاطعة الخشب الآلية، وتذكر كيف كاد أن يقطع إصبعه. فكان يحاول في ذلك الوقت أن يقطع لوحًا ما، وأمسك "ديميتري" في ذلك الوقت جانبًا من ذلك اللوح غير المستوي. ودفع اللوح بقوة، وجرحت إصبعه. ما زال "ديميتري" يشعر حتى الآن بالقطع الفولاذية في قاطعة الخشب الآلية التي خدشت جلده. بالكاد خدشت، نعم، لم ينزف، ولكنها تركت فقط أثرًا في يديه. وقام "ديميتري" في ذلك الوقت بإغلاق قاطعة الخشب الآلية، وجلس على كومة من الألواح الخشبية. وشعر "ديميتري" بأنه على حافة الهاوية، وأن حياته تُدَمَّر الآن أمامه، بعد ما كان يديرها بيديه.

أتبعت هذه الذكرى أخرى. كان "ديميتري" قد ذهب في سن العاشرة مع والده إلى "كولبينسك"، وهناك التقى والده صديقًا. كان صديق والده قد فقد أصابعه. فصاح والد "ديميتري": - إلى أين ذهبت أصابعك؟

ثم قال الرجل بابتسامة ساخرة:

- نعم، لقد أرسلتهما إلى "يلتسين"؛ فهي بحاجة إليهما لقيادة البلاد.

صدمت هذه الابتسامة واللهجة المرحة "ديميتري". وعندما كانوا عائدين إلى القرية، قرر "ديميتري" أن يسأل والده فقال: - هل هو سعيد أنه أصبح دون أصابع؟

هزَّ الأب رأسه، قائلًا:

- وما الذي يجعله سعيدًا هكذا؟ لماذا تعتقد ذلك؟

- حسنًا، إنه يبتسم، ويمزح.

ثم هزَّ الأب رأسه مرة أخرى:

- وماذا بقي له؟ بالطبع هو حزين لأنه أصبح معاقًا في سن الأربعين. هو يمزح ليهون على نفسه فقط.

لم يصدق "ديميتري" هذا التفسير، أو بالأحرى لم يفهم. أراد أن يشرح له والده الموضوع أكثر فأكثر، لكنه كان يخشى أن يقول له والده شيئًا فظًّا حقًّا، وربما ستتحول فكرة الحياة بالنسبة له رأسًا على عقب.

نعم، لم يسأله، ثم نسي تدريجيًّا ما حدث له أيضًا في إصبعه الإبهام. ها قد تذكر الآن ما حدث له من قاطعة الخشب الآلية، وشعر "ديميتري"، الرياضي ذو الصحة الجيدة، بأنه عاجز مِن دون إصبعه. أصبحت يداه عاجزتين عن أي

شيء، بل وعديمة الفائدة. وأصبح يمزح فقط مثل صديق والده، حتى لا يدخل في حبل المشنقة. ومهما حاول أن يمزح، لكي ينسى، ما زال عقله متذكرًا كل شيء.

قام "ديميتري" بسحب الخيش الذي كان يغطي المنشار الآلي، ثم شغل المحرك، ودحرج الغطاء من على المنشار حتى وصل إلى الفيشة، وتجمد في مكانه، ثم ضحك؛ لم تكن هناك كهرباء. هناك، على بعد ثلاثين كيلو مترًا، على وشك أن تدخل محطة توليد الطاقة الكهرومائية حيز التنفيذ، وستحترق هذه الورشة، ربما ستغرق أيضًا.

ثم صدر صوت مفاجئ ومبتهج:

- أوه.. ظننتك غريبًا.

كان هذا الصوت لـ"أوبسلا"، وخرج من وراء كومة من الخردة. إنه قصير، هزيل، يرتدي سُترة قديمة، لكنها لائقة للغاية، وبنطال جينز مقطع، لكنه نظيف. ويمسك بيديه عصا، والأخرى حبل الصيد.

ثم أومأ برأسه، قائلًا:

- هل تشعر بالحنين للورشة؟

ونظر "أوبسلا" نحو المنشار، وقال:

- نعم، أنا أيضًا أشتاق لصوت تشغيل قاطعة الخشب الآلية.

شعر "ديميتري" بارتياح من تشابه أفكاره وأفكار هذا الرجل المشرد.

لقد جاء "أوبسلا" إلى "بولشاكوف" قبل خمس سنوات، ليس من قرى "التايجا" البرية، ولكن من مكان ما، كما قالوا هنا. وعاش في أكواخ مهجورة، وطرد من أحدها، وانتقل إلى آخر. وفي بعض الأحيان، كان يختفي، ثم يظهر مرة أخرى. كان يعمل هنا من وقت لآخر، مع "ماسلياكوف"، وعندما توقفت الورشة عن العمل، أصبح حارسًا متطوعًا لها.

ثم قال "أوبسلا":

- كنت أصطاد، هل تشرب معي شيئًا؟ أم سترجع لمنزلك؟

ثم قال "ديميتري":

- سأظل هنا الآن.

ظهر الخوف في صوت الحارس "أوبسلا"، قائلًا:

- هل أخذوا منزلك؟

- أها.. انتظرت تصاعد الدخان منه. لكن للعجب لم يحرقوه حتى الآن.

- سيدمرونه. هذا كل شيء بالنسبة إليهم في هذا.

شعر "ديميتري" بالاستياء:

- يجب ألا يحدث هذا.

- فهمت، فهمت.. هل تريد الطعام؟

- لا أريد. أعد لنفسك.. لقد رتبت لنفسي الغرفة الخليفة، سأعيش هناك في تلك الفترة.

ظل "ديميتري" يفكر في أمر "أوبسلا"، وكان يتعجب ويقول في قرارة نفسه: "أنا لديَّ مكان أذهب إليه بعد هذا، أما أنت، إلى أين ستذهب؟".
لكنه لم يسأل، بالتأكيد. وغادر إلى الغرفة الخلفية، واستلقى على سرير قديم فوق الغطاء، ولم يخلع ملابسه، فقط وضع سُترة على نفسه. فأخذ الذباب يضايقه، وكذلك البعوض، فسحب السُّترة فوق رأسه، واختبأ.
ظل "ديميتري" يقيم في الورشة لمدة شهرين تقريبًا. وكان خلال هذا الوقت يذهب إلى المدينة عدة مرات لزيارة والديه، ويؤكد لهما بكل طريقة ممكنة أن الأمور تسير على ما يرام. وكان يشتري احتياجاته من متجر بالقرب من مستعمرة العقاب، والبنزين لسيارة الـ"نيفا" من المساجين.
كانوا يأخذون المال منه على مضض، يقايضونه بالفودكا، التي لم تكن موجودة في المتجر، لكن "ديميتري" لم يكن لديه فودكا. أوضح لهم موقفه قائلًا: - لن أذهب إلى المدينة، أنا في انتظار اللجنة بشأن التعويض عن الورشة.
في الوقت الذي أوضح فيه أن قضية الورشة في طور اتخاذ قرار بشأنها ولا يمكن حرقها.
ولكن الواقع كان مختلفًا. لقد توقفت الإجراءات في المحكمة، وأعيدت الطلبات إلى مختلف الهيئات الإقليمية إلى المنطقة. عادة ما يشرح عائلة "ماسلياكوف" الأمر لأنفسهم أن الأمر ليس مفهومًا.
حصل الآباء على معاش، وساعدهم "أوليج"، وبدا "ديميتري"، على الرغم من أنه كان يحمل زمام أمور العائلة، وكأنه طفيلي. على الأقل شعر هو بذلك. فكر في البدء بإزالة معدات الورشة، وبيع المحركات وآلات قطع الخشب، لكنه لم يجرؤ على ذلك.
اعتمد بشكل رئيسي في غذائه على اصطياد السمك، كان يقليه أو يشويه بطريقة ما على الموقد. يصطاد في أغلب الأحيان سمكًا من نوع "يلتس" و"الهامور" و"سوروكا" و"البسكاري" و"جودجيونز"، الذي أطلق عليه فيما بعد "ماكسيني". وكانت هناك أنواع أخرى من الأسماك.
النهر يتغير أمام الأعيُن تقريبًا، ويتفرق نحو الجانبين. وكان التيار دائريًّا إلى حد ما. وأحيانًا، يخاف "ديميتري" من الشجيرات المتقطعة، أو التي تطفو على النهر نتيجة لتحركها الغريب إثر التيار المتداخل، ويخشى أن يكون قد أصيب بالجنون.
كانت القوارب والعبَّارات والمراكب تتردد كثيرًا، وازدهرت حركة السفن. وفي نهاية أغسطس، تلقى "ديميتري" أخبارًا مهمة ومثيرة للقلق. كان يصطاد على مقربة من الورشة وظهر في النهر زورق على متنه شخصان وحقائب. وانحرف القارب، فجأة، ثم توقف. وظل الرجلان يقتربان من "ديميتري".
كان "ديميتري" غاضبًا:

- اللعنة، ستخاف الأسماك جميعها الآن!
قال أحدهم يبلغ تقريبًا من العمر ستين عامًا، وهو لم يرسُ القارب، بل اتكأ على القاع بمجداف:
- مرحبًا! هل أنت ابن "ماسلياكوف"؟
- نعم. ماذا تريد؟
- نحن من عائلة "ماسلياكوف". ألقاب مماثلة..
- ألهذا السبب أتيتم من أجلي وأبحرتم؟
تابع العم حديثه:
- نحن من "بيليفو". لقد اشترينا من والدك ذات مرة ألواح خشبية، وعلمنا أنهم سيأخذون منك الورشة الخشبية.
- نعم، الورشة لا تعمل الآن.
- نعم، هذا مفهوم. ستعمل محطة الطاقة الكهرومائية في شهر أكتوبر. وسيرتفع منسوب المياه ثمانية سنتيمترات يوميًّا. يجب حفر الأرض لجني البطاطس على وجه السرعة.
ثم أومأ "ديميتري" برأسه، رغبة في أن يذهبوا من هنا، ويختفوا. لم يرغب في التحدث. لقد وصل للتو إلى نوع من التوازن الروحي، وتعلم أن يعيش حياة بدائية تقريبًا، واعتاد أيضًا على انتظار غارات الأعداء، وكان على استعداد لصدهم. ها قد جاء آخرون ويهددونه.
ثم تابع العم حديثه:
- لقد سمعنا أنه صدر أمر بتدمير الورشة. وهناك الكثير من القمامة في كل مكان، ولا ينبغي أن تكون هناك مبانٍ كاملة في المنطقة؛ أردت أن أطلعك على الأمر.
ثم سأل "ديميتري":
- ومِمن سمعت؟
- يعمل أحد معارفي في المديرية. قال إنهما كانا يعقدان اجتماعًا، لقد تلقوا لومًا من أجل هذه الورشة، وقد تأتي لجنة من موسكو وستحل أمرها.
- مفهوم.
ذهب الرجلان في القارب. حاول "ديميتري" الذهاب لكي يستكمل عملية الصيد، لكنه لم يتمكن من ذلك، ولم يقف ساكنًا أيضًا. يبدو أن الرجال قد جعلوه يقلق وتتحول حالته إلى ذعر.
ثم جاء مساجين مستعمرة العقاب خلال هذه الأشهر، مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. من الواضح أنهم كانوا يحاولون أن يستكشفوا المكان، على الرغم من أنهم أخفوا ذلك لأسباب مجهولة. وكانوا يأتون إما لبيع البنزين أو وقود للديزل أو الحديد.
وفي بعض الأحيان، كان "ديميتري" يشتري منهم البنزين، وفي كثير من الأحيان، يرفض بأدب وحذر، دون كلمات قاسية. لم يكن الأمر يستحق أن

يغضبهم. على ما يبدو، كانوا ينتظرون فقط أن يجروه للعراك. لكنه كان يتمالك نفسه فيرحلون. لكنه توقف، وغادر المساجين.

لم تعلن السلطات الرسمية أي شيء. وكانت المحكمة صامتة. كان "ديميتري" قبل كلمات هؤلاء "الميرزلياكوف"، مقتنعًا بأن الورشة، تم التخلي عنها ببساطة. يقولون إنها ستغرق من تلقاء نفسها. وبالمعنى الحرفي، سينتهي أمرها في الماء، ولكن تبين أن السلطات غير مفهوم أمرها، وأن هناك الكثير من المسؤولين، وأن هناك مَن يمثل السلطة، ملياردير باسم "بانياسكو"، يحتاج حقًّا إلى التخلص من الورشة قبل الفيضان.

كان "ديميتري" يتجول لفترة طويلة حول الآلات، ومناشر القطع الآلي، والسلاسل. وفي النهاية قرر؛ سيأخذ شيئًا على الأقل، لكي يحتفظ به، ثم خلع الصندوق الخشبي من القارب، الذي يقوده دائمًا في أنحاء "التايجا"، وشرع بفك البراغي. وتذكر كيف قاموا بتركيب هذا القارب بفرحة وحذر قبل سبع سنوات. والآن لم يعد له أهمية، لذلك تتعين إزالته.

جاء في تلك اللحظة "أوبسلا"، قائلًا:

- هل ترغب في أي مساعدة؟

- ليس بعد. أفضل أن أفعل ذلك وحدي.

لم يتواصل "ديميتري" مع "أوبسلا" تقريبًا طوال حياتهم. بالطبع كانوا يرون بعضهم بعضًا طوال الوقت، وكانوا يعيشون على بعد أمتار، لكنهم كانوا يتجنبون التحدث معًا. كان "ديميتري" منزعجًا وغاضبًا دائمًا من طريقة كلام "أوبسلا" المنتقاة بعناية، الموزون رغم كل ظروف الحياة، ومن مرحه وهزله، ومن الأغاني التي يغنيها بصوت خفيض.

يبدو أن الرجل الذي كان يتجول في جميع أنحاء العالم لفترة طويلة وجد لنفسه مكانًا أخيرًا، وعرف من خلاله معنى الحياة. كان العمل الرئيسي لـ"أوبسلا" هو إعداد الحطب. لقد قام بقطع الخشب بالمنشار. وصنع منه قطعًا، ورماها قطعة تلو الأخرى. وقد تكدست أكوام الخشب حول الكوخ، كما لو نصب جدرانًا أخرى، قائلًا: - سيكون المنزل أكثر دفئًا هكذا، وسيحمينا من الرياح.

تجاهل "ديميتري" حديثه، وفوجئ بثقته بأنه سيمضي الشتاء هنا، ثم أدرك: "لا، ليس الثقة، بل لديه أمل. نحن نأمل في أن نثق بذلك. هكذا سيكون الأمر".

ستأتي الماء إلى هنا. ما الذي سنأمله أيضًا؟ إذا ضغطوا على "ديميتري" أكثر، سيذهب إلى والديه، أما "أوبسلا"، لن يسمحوا له بالدخول إلى دار رعاية المسنين؛ فهو ما زال صغيرًا جدًّا على الدار.

ولعل هذا هو السبب في أن "ديميتري" لم يقترب منه، ولم يجرِ محادثات صريحة حول الحطب، ولم يأكل ما يطهوه "أوبسلا"، وعندما اضطر

“أوبسلا” في وقت لاحق مغادرة هذا المكان، لم يشعر “ديميتري” بالذنب أمام هذا الفلاح الذي فقد ملجأه مرة أخرى. وطمأن “ديميتري” نفسه قائلًا: “وهكذا سيعيش، فهو يعيش في كوخ صغير بجانب الورشة، ولديه سقيفة، تحميه من الهواء المتجمد”.

وبعد يومين من المحادثة التي جرت مع مع آل “ميرزلياكوف”، حاول “ديميتري” معرفة معنى هذه الزيارة، هل ستكون هذه الزيارة الأخيرة؟ أم التحذير النهائي له، أم هناك مناورة مشتتة ومربكة له؟

جاءت سيارة دفع رباعي سوداء اللون، وتوقفت عند البوابة، على الرغم من عدم وجود سياج حول هذا الكوخ. وخرج منها ثلاثة رجال في منتصف العمر. من الواضح أنهم ليسوا عمالًا. ومن بينهم اثنان يرتدي كل منهما بذلة، وآخر يرتدي معطفًا واقيًا من المطر. عندما رأى السائق أن “ديميتري” كان يسير نحو البوابة ببطء، أشار له لكي يسرع.

ثم سأل رجل من بينهم ذو شعر رمادي اللون، ومظهر شرقي، ويبدو أن أسلوبه شرقي أيضًا:

- هل أنت المالك؟

توقف “ديميتري” بعد خطوة عند البوابة الفولاذية، وقال:

- نعم. ومَن أنتم؟ إذا لم يكن هذا بالطبع سرًّا.

ابتسم الشرقي، وقال:

- ليس سرًّا. أنا مدير مديرية إعداد الخزان والسد. اسمي “راشد رفعتوف”.

ثم قال اسمه بالكامل:

- “راشد رجبوفيتش رفعتوف”.

- المدير؟ لقد كان هناك مدير آخر.

- “كوتلنيكوف”؟ لقد غادر.

كان “ديميتري” مستمتعًا بهذا الحديث، وقال:

- إممم، لم يظل كثيرًا في ذلك المنصب.

أخذ “راشد رجبوفيتش” خطوات إلى الأمام نحو “ديميتري”، قائلًا:

- نعم، ليس لوقت طويل. هل تسمح لنا بالدخول؟ ليس من الجيد أن نتحدث هكذا عند البوابة.

فتح “ديميتري” البوابة. وتحرك الرؤساء الثلاث، وهم يحاولون المشي على العشب، ليس على الطريق الممهد نحو الورشة.

ثم قال المدير:

- كما فهمت، المشروع قد دخل حيز التنفيذ، وأن المعدات أصبحت جاهزة.

- نعم.

حرص “ديميتري” جيدًا على عدم القول إنه بدأ في تفكيك المناشير.

توقف “راشد رجبوفيتش” قليلًا:

- ولماذا أنت هنا؟ قاع خزان المياه جاهز، ولم يتبقَ سواكم. لا يزال هناك شهر على إطلاقه. وتمت الموافقة على مشاركة الرئيس نفسه. هل تفهم؟ سيأتي الرئيس إلى هنا. أتريد أن تفسد هذا الحدث؟ ألا تخجل يا محترم؟

كلمة "محترم" من دون اسم يتبعها وبهذه النبرة لم يسمعها "ديميتري" سوى من أفواه الشرطة.

توقف "راشد رجبوفيتش" ونظر بحزن إلى "ديميتري"، وبشفقة كذلك، كأنه ينظر إلى رجل فقد عقله بلا منطق، لكن يجب في الوقت نفسه معاقبته.

شعر "ديميتري" بالذنب على الرغم من أن هذا تعارض مع إرادته، لكنه أدار عينيه ونظر بعيدًا. ولم يتوجب عليه في تلك اللحظة إلا أن يصرف نظره عن عيني المدير، وقد انتهت حالة التنويم المغناطيسي.

- كنا سننتقل منذ فترة بعيدة عندما أعطونا مكانًا. رفعنا دعويين قضائيتين في المحكمة، وقاموا بتقدير التعويض، الذي من المفترض أن نحصل عليه.

فسأل شخص يرتدي معطفًا فضفاضًا والابتسامة على وجهه:

- وكم بلغ هذا التعويض؟

- أربعة ملايين.

رفع "راشد رجبوفيتش" حاجبيه الرماديين، وكأنه يسخر مما قيل أيضًا:

- نعم؟ هذا كثير. كثير للغاية. ولماذا حكموا بهذا المبلغ؟

كان "ديميتري" سيبدأ في إحصاء التكلفة التي تتكلفها المعدات، والآلات، وعدد ورش تقطيع الأخشاب، التي فقدها في فترة التوقف القسري عن العمل. وبدلًا من هذا، شعر بالغضب الشديد، وقال بعدما رأى تلك الابتسامات: - جميع الحسابات موجودة لديكم في المديرية. انظروا إليها.

- لكنني أريد أن أسمع منك. من المصدر، إن جاز التعبير. ها نحن بإمكاننا تبرير كل روبل. ونتعامل مع الماليين بكل جدية.

وبدأ "راشد رجبوفيتش" من شخصه الطيب يتحول مع كلمة يقولها إلى شخص غاضب جاهز للمعاقبة، قائلًا:

- لأول مرة خلال عشرين عامًا تطلق الدولة مشروعًا إستراتيجيًا كبيرًا. المعدات والآلات جميعها تعمل بشكل مكثف من أجل تحقيق هدف واحد يتمناه آلاف الأشخاص. الآلاف! ويوجد هنا ليس فقط مَن يقدمون المساعدة، بل وهؤلاء الذين يعارضون تنفيذ أي شيء!

كان "ديميتري" قد سمع مثل تلك الكلمات من قبل في أحد الأفلام. يبدو أن هذه العبارة قيلت آنذاك بلهجة غير روسية أيضًا. "عندما يكون الجميع في حالة حماس واحدة!".

أصبح الأمر ممتعًا، كما كان الحال قبل المشاجرات. والآن يقال لهذا المتحدث السخيف واثنين من اللطفاء أن يصطحبوا الضيوف خارج البوابة. فمن غير المحتمل أنهم سيعترضون على الأمر. وتعليق القفل على المنازل.

وإذا لم يريدوا الرحيل، فهناك مسدس في الغرفة الخلفية. يعد الهجوم على الممتلكات الخاصة جريمة جنائية.

فهم المدير، على ما يبدو، الحالة المزاجية لذلك الشخص، الذي يرتدي السُّترة المموَّهة، فغيَّر نبرة الصوت: - هناك عرض لكم؛ سنمنحكم سيارتين من طراز "زيل". فمن الممنوع تخصيص عبارة لمثل هذه المهمة. لن تتمكن العبارة من الإبحار، ولهذا السبب ستأتي سيارتان بعد غد، وعندئذ يمكنكم تحميل معداتكم.

شعر "ديميتري" بغضب يطبق على صدره:

- وماذا بعد؟

أشار المدير إلى الرجل، الذي يرتدي المعطف الفضفاض قائلًا:

- "سيرجي أندرييفيتش".. أعتقد أنه سيعثر على مكان للتخزين المؤقت لكم. أليس كذلك، يا "سيرجي أندرييفيتش"؟

- سأحاول.

ابتسم "ديميتري" ساخرًا:

- لا، هذا لن ينفع. نحن نحتاج إلى أرض، على الأقل نصف هكتار. لم نشترِ كل هذه الآلات لنجعلها تصدي في المستودع.

- لكنني قلت "للتخزين المؤقت". إن إدارة المنطقة تنظر في مسألة توفير موقع لعملك.

- لقد نظروا في المسألة لمدة عامين.

بدأ "راشد رجبوفيتش" يفقد صبره:

- أيها الشاب، هذه الأرض تم توثيقها بالفعل لتلبية احتياجات الدولة. وأصبحت مملوكة للدولة!

- للدولة؟ مثل محطة الطاقة الكهرومائية، التي يمتلكها الملياردير "بانياسكو".

- أوه، لا يبدو أنك تفهم خصوصيات الوقت على الإطلاق. إن محطة الطاقة الكهرومائية مشروع يشارك فيه كل من رجال الأعمال والدولة، وهذا مقبول في جميع أنحاء العالم. وفي العالم المتحضر بأسره!

توقف "راشد رجبوفيتش" وقفة قصيرة ليهدأ، ثم قال:

- هناك مديرية متخصصة في إعداد الخزان والسد، وأنا مسؤول عنها، وهناك أيضًا إدارة المقاطعة المسؤول عنها "رومان بوريسوفيتش"، ونحن مستعدون لمقابلتك. وأنت لا تريد أن تفهم أن إصرارك يبطئ من سير العملية بأكملها. الأمر معقد وكبير وصعب. هل تعلم، على سبيل المثال، أن الناس في مستعمرة العقاب مهددون بالجوع؟

- كيف؟

- المستعمرة لم تستوفِ شروط اتفاقية التنظيف الصحي للإقليم. ولم يتم إعطاؤهم اِلمال لشراء الطعام. مستعمرات العقاب، كما تعلم على الأرجح،

مكتفية ذاتيًّا. والآن لا نعرف ماذا نتوقع من مساجين مستعمرة العقاب، لقد أبدوا بالفعل استياءهم من ذلك.
قال "ديميتري"، وهو ينتظر ما سيقوله المدير والمرافقون له:
- لقد لاحظت استياءهم.
أصبح صوت "راشد رجبوفيتش" رقيقًا مرة أخرى، قائلًا:
- لذا، نطلب منك أن تقابلنا. نحن ذهبنا، وأنت ستذهب أيضًا. سنقوم بتخصيص شاحنتين، وعمال لكم، إذا لزم الأمر، ومستودع مؤقت لكم. وننظر في إمكانية تخصيص أرض لكم. أليس هذا صحيحًا، يا "رومان بوريسوفيتش"؟
قال مسؤول في الإدارة باستياء واضح:
- هذا متروك للتفاوض.
- إذن يا عزيزي، سنرسل لك السيارتين؟
شكَّ "ديميتري" لمدة ثانية أو اثنتين. ثم قال:
- لن أنقل أي شيء من دون مستندات تؤكد منحنا أرضًا بدلًا من الورشة.
- لماذا لا يمكن حل كل هذا في خمس دقائق؟!
- لقد كان لديكم عامان. هل ترغبون أكثر من ذلك لحل القضية؟ يمكنكم فقط طرد الناس من الأرض التي عاشوا فيها.
أصبح "ديميتري" يتحدث بصعوبة، كما لو كان شخصًا ما يمسك به من حلقه، قائلًا:
- هل يمكنك ترك منزلك، وبعد ذلك يقولون لك سيعطونك المقابل؟ هذا أمر مثير للإعجاب!
تحدث "رومان بوريسوفيتش" بقسوة:
- أنت لا تبشر بالفوضى هنا. هذه ليست الأيام الخوالي، عندما يأخذ أي شخص أي شيء، ويفعل ما يريد. إذا كنت تريد شيئًا ما فلتشتريه. يسمح الآن بملكية الأرض الخاصة في بلادنا. فلتشترِ وانهِ الأمر!
- أي مال يمكنني الشراء به؟
- فلتأخذ قرضًا أو تؤجر مكانًا ما. بشكل عام، في جميع السنوات السابقة، لقد قمت باستئجار الأراضي مع وجود انتهاكات صارخة، وطبقًا للقانون، يجب تقديمك أنت وإدارة المجلس القروي إلى العدالة.
- نعم، لقد كان هذا المكان قذرًا!
لوح "رومان بوريسوفيتش" بيديه:
- مناطق النفايات الصناعية والمنزلية موجودة في كل مكان.
شعر "ديميتري" أنه على وشك أن يرتكب جريمة مع هذا الرجل، فقال:
- هذا يكفي! أنت لا ترغب في أن نكون هنا، لكننا سنظل هنا! لقد انتهيت من حديثي معكم، وداعًا.
ظهرت لهجة "راشد رجبوفيتش" الآسيوية بشكل أوضح:

- أنت تتحدث بطريقة سيئة. هذه ليست طريقة جيدة. لقد جئنا إليك، لكنك لا ترغب في مقابلتنا، لكنني أطلب منك أن تفكر في الأمر.

هدأ "ديميتري" من روعه قليلًا، وقرر أن يشرح الأمر مرة أخرى:

- لقد فكرت في كل شيء لفترة طويلة. لقد كان لعائلتي هذه الورشة الصغيرة. لقد طلبوا من والدي أن يفعل شيئًا في موقع النفايات. وقعد فعلنا ذلك، وعمل الكثير من الناس معنا، واشتروا منَّا ألواحًا، وعوارض خشبية، وحطبًا. ثم جاؤوا مرة أخرى وقالوا: "لقد انتهى الأمر، فلتغادروا المكان!". فقلنا: "إلى أين؟" ثم قالوا: "إلى أين تريدون؟!" هل هذا أمر مقبول من وجهة نظرك؟

ثم قال "رومان بوريسوفيتش":

- إذا حدث هذا الأمر لك وحدك، فكنت سأقول لك إنه أمر غير مقبول، لكننا نقلنا آلاف السكان، المئات منهم من رجال الأعمال. هذا لم يحدث قط في التاريخ الحديث لروسيا، فهناك الكثير من الناس الذين تم نقلهم من مكان إلى آخر. الآن ليس هناك إمكانية لكي نعطيك قطعة أرض بدلًا منها. وحتى في القانون لا يوجد شيء من هذا القبيل، لكننا سنحاول حل مشكلتك. في غضون ذلك، نحن نقدم لك وسيلة للنقل ومستودعًا للتخزين.

وبعدما سمع "ديميتري" مرة أخرى عن مستودع التخزين، صاح بغضبٍ:

- لسنا بحاجة لمستودع التخزين الخاص بك! نريد أن نعمل! عندما تعطيني فرصة للعمل، سنتحدث.

ثم قال المدير، وهو يحدق له بغضبٍ:

- إذن، أنت ترفض بشكل قاطع مقترحاتنا؟

- نعم، أرفض هذه الاقتراحات!

بدا لـ"ديميتري" أنه يستحق أكثر من ذلك، ولم يجد المدير وسيلة أخرى للتفاوض، لذلك اندفعوا.

ثم قال المدير:

- حسنًا، هذا ليس جيدًا. لقد جئنا إليك بكل حب، وأنت تتصرف هكذا بشكل سيئ للغاية.

استدار "راشد رجبوفيتش" واتجه إلى البوابة، وتبعه الاثنان الآخران. سمع "ديميتري" "سيرجي أندرييفيتش"، الرجل الذي يرتدي معطفًا واقيًا من المطر، يتذمر قائلًا: - حسنًا، لقد قلت لك إنه لن يعطينا أي شيء. نحن نضيع وقتنا عبثًا مع هؤلاء الناس.

لم يتمكن "ديميتري" من إيجاد نفسه في مكان آخر، بعد هذه المحادثة. لقد غمره الغضب ممزوجًا بفرحة طفولية من الانتصار عليهم والثقة تقريبًا، سيقبل الرؤساء شروطه. لقد تحملت، وانتظرت، وضغطت عليهم! لقد خافوا، عندما ضغطت عليهم، ولذلك ذهبوا.

ومن المفهوم أن الرئيس سيقرر إلقاء نظرة بنفسه على الخزان قبل إطلاق محطة الطاقة الكهرومائية، وسيرى الورشة و"ديميتري" أيضًا. وسيقول مَن هذا؟ ولماذا لم يذهب بعد؟ وستتم إقالة هؤلاء الرؤساء. كما حدث مع "كوتيلنيكوف" المدير السابق لإدارة الفيضانات. وقبله "ناجوفيتسين"، الذي طرد من الحكم بعد فضيحة. ربما سيحدث الأمر نفسه مع "راشد"، ثم فرك "ديميتري" يديه، وقال: "كل شيء سيتضح فيما بعد".

اتصل "ديميتري" بـ"أوبسلا" لكي يشرب زجاجة من الفودكا العزيزة، وشرع في إخباره بما حدث خلال اليوم. كان يضحك بصوت عالٍ، أما "أوبسلا" كان عكس ذلك وحزينًا ويشعر بالحنين إلى وطنه، وظل يفكر.

لقد أراد "ديميتري" أن يسعد "أوبسلا" بطريقة ما، لكنه فعل عكس ذلك، وقال في قرارة نفسه: "في الواقع، هو لديه حق في أن يحزن، فأين سيذهب هو، عندما أخرج كل شيء من هنا؟".

ثم شربوا في صمت. وظل "ديميتري" يفكر في حياته المستقبلية.

خيل له أنه في الصباح يعيش في شقة بها غرفة مشرقة وواسعة، وحوض استحمام أبيض ودافئ. يتناول الإفطار، ولكن لسبب ما يعيش وحده دون أباه، ويذهب إلى العمل. لديه مصنع خشب صغير ومشرق أيضًا، ويغطي أسطح المصنع، والبوابة، وغرفة الخدمات، والمستودع بلاط معدني أخضر، والمنطقة مسيجة بسلسلة. وهناك عمال يعملون بذلك المصنع. كانوا العمال نفسهم الذين يعملون هنا في القرية، مثل "ليشا بريوخانوف"، والعم "يوري". ويأتي الأب وينظر لهم بسعادة مبتهجًا وقويًّا. ويقول لهم "ديميتري": "نحن بحاجة إلى ألواح خشبية كثيرة وبشكل عاجل".

لقد حلم بذلك "ديميتري" أيضًا في الصغر.

تنهد "ديميتري"، ونهض فجأة، كما لو أن شخصًا ما ضربه. ونظر حوله.

فتح عينيه ولم يستطع فهم أين هو لبرهة من الوقت، ولماذا الجو بارد جدًّا وفيه نوع من الغبار. ثم تذكر كل شيء تدريجيًّا، وأدرك أنه ليس في الغرفة الجديدة، بل إنه ما زال في القرية. ولا يوجد حتى الآن مصنع سيذهب إليه بعد تناول وجبة الإفطار، إنه يحلم فقط بذلك حلم يتنبأ به.

"ربما كان هذا مجرد حلم".. ظل "ديميتري" يكرر هذه الجملة بسرور الآن، لكي يتمكن من العيش هنا مرة أخرى.

قام طوال اليوم بتفكيك المعدات، وترتيب الأجزاء بعناية حتى لا يتم الخلط بينها لاحقًا، ويجمعها مرة أخرى بسهولة وبشكل صحيح. ظل يتنصت إذا كانت سيارة المدير ستأتي مرة أخرى إلى هنا ومعها موافقة السلطات على شروطه أم لا. أو أنهم يرسلون أحدًا لكي يأخذ أمتعته. وسرعان ما رتب "ديميتري" حاجته، ووضع أمتعته في سيارته الـ"نيفا"، ولكنه فكر لدقيقة وشعر أنه يحلم فقط.

فلم يكن هناك سيارة، والصمت يهيم في المكان، حتى العصافير لم تزقزق بعد. واختفى أيضًا صوت أوراق الأشجار.

طمأن "ديميتري" نفسه، قائلًا:

- لا شيء بعد سيحدث اليوم، بل غدًا. لقد قالوا أمس بعد غد. ها قد مر اليوم، لذلك غدًا. سيكون لديَّ الوقت للاستعداد.

وفي المساء، قام بتسخين الموقد الحديدي حتى صار لون الحديد أحمر، مدركًا أنه سيبرد بعد فترة. كانت درجة الحرارة تحت الصفر بالفعل، ولذلك يمكنه الآن أن يغفو على الأقل في الدفء. استلقى دون خلع سرواله، والسترة المموهة، ووضع الغطاء فوقه.

لقد نام سريعًا، مثل شخص عمل بكد وجهد.

ثم سمع "ديميتري" خطوات أقدام. في البداية، لم يبدِ أي اهتمام، ربما يكون "أوبسلا". وبعد ذلك، سمع طرقًا على الباب.

قفز "ديميتري" وأزال الغطاء من البطانية، ثم ضُرب فجأة بعمود. وتلقى بعد ذلك ضربة لعظم الوجنة. فهز رأسه، وسقط. ثم تلقى ضربة تلو الأخرى.

ظل يتلقى الضربات كل واحدة تلو الأخرى، وكان يرغب في أن يستمد قواه لكي يتمكن من رد هذه الضربات، لكنه لم يتمكن من ذلك. كان يتمنى أن ينهض ويقاوم. ولكنه ظل يتلقى الضربات. سقط "ديميتري" على الأرض، وسرعان ما فقد وعيه.

استعاد "ديميتري" وعيه، وهو في الشارع. كان مستلقيًا على بطنه بجانب سيارته الـ"نيفا". اندفع وهج حول الظلال. كان "أوبسلا" يصرخ بشكل محسوس، وصدر صوت ما فوق رأسه: - لديه سلاح. وحزام كامل من الخراطيش.

- أها، وسيطلق النار!

حاول "ديميتري" أن ينهض، قام رجل ما بوضع قدمه عليه، وقال:

- ما زلت على قيد الحياة؟

كان وجه الرجل مألوفًا، وعابسًا بغضب، وكانت عيناه هادئتين.

ثم أمسك الرجل "ديميتري" من صدره بيد واحدة، وظل يفتشه بيديه الأخرى. لم يتمكن "ديميتري" من رؤية ذلك الرجل، لكنه شعر أنه يأخذ تليفونه المحمول، ومحفظته، بجواز السفر والمال، ومفاتيح السيارة.

ثم قال "ديميتري"، وهو ينتحب، ويحاول أن يتنفس، ولعابه يسيل:

- ماذا تفعل؟ لماذا تأخذ أشيائي؟

عينا الرجل قابلتا عين "ديميتري" للحظة، وقال له:

- لا شيء شخصيٌّ. لقد قيل لنا أن نفعل ذلك فقط.

أراد "ديميتري" أن يسأله مَن الذي قال لهم ذلك، لكنه أدرك أنه من المستحيل أن يسأل عن هذا؛ فهو لم يسترد قوته بعد، كان يرغب في أن

يهرب، لكن كان هناك اثنان أو ثلاثة آخرين مع ذلك الرجل الذي يفتشه. سيضربونه.

وكرر الرجل هذه الجملة:

- لا شيء شخصيٌّ. أنت المذنب في كل هذا. كان عليك التفكير مع مَن تتشاجر. الناس يعانون الآن العديد من المشاكل بسببك.

وبعد أن قال هذه الكلمات القليلة، بدا أن ذلك الرجل يعرف أن "ديميتري" هو المذنب حقًّا، ودون أن يفلت قبضته بيده اليسرى، لكم "ديميتري" بيديه اليمنى في رأسه. ولذلك فقد "ديميتري" الوعي مرة أخرى.

وجد "ديميتري" نفسه في صندوق السيارة الخلفي من سيارة الـ"نيفا"، وظل يتأوَّه من آلام طعن في صدغه، في عظم الوجنة.

ثم صدر صوت ما مختلف عن الذي كان يتحدث معه، قال لـ"ديميتري":

- انتظر، لم يتبقَ الكثير.

وأضاف الرجل الثالث:

- سرعان ما ستموت. وسيشعر الجميع على نحو أفضل!

لم يكن "ديميتري" بحاجة للتحدث معهم؛ إنه أمر غير مُجدٍ، على الأقل حتى الآن. من الأفضل عمومًا التظاهر بأنه عاجز. فليدعهم يسترخوا. وسيحاول الهرب.

حاول أن يدفع باب صندوق السيارة، لكنه كان مغلقًا. هل يحطم النافذة ويهرب؟ لا، لن يتمكن من الهروب الآن. عليه أن ينتظر اللحظة المناسبة لذلك. أو ربما سيغيرون رأيهم. انبعث الأمل فيه مرة أخرى.

شعر "ديميتري" بأن السيارة الـ"نيفا"، تمشي في طريق متعرج.

ثم قال أحدهم:

- فلتتوقف هنا يا سمين!

- تبًّا لك!

- ماذا؟!

- نادني باسمي طوال وجودك هنا!

- حسنًا، أنا آسف.

ظل "ديميتري" يفكر: "هل سيقتلونني أم سيلعبون؟".

توقفت السيارة. شرع الرجال يلهثون بشدة. وقاموا بفتح صندوق السيارة الخلفي، وأمسك أحدهم بيد "ديميتري" بقوة وألقاه على الأرض. كانت هناك مجرفة بالجوار. أراد "ديميتري" النهوض، لكنه سرعان ما تلقى ركلتين. واحدة في ذراعه، والأخرى في ضلعه. وشعر بألم شديد، لدرجة أنه لم يتمكن من التنفس جيدًا. وصاح "ديميتري" في تلك اللحظة بصوت منبوح: - ضلعي!

قال الشخص الذي ضربه:

- إذا تحركت، سأحطم حلقك. ستموت ببطء، وستصعد روحك بصعوبة هكذا. فهمت، أليس كذلك؟

ثم ركله ركلة صغيرة فوق رُكبته.

أراد "ديميتري" أن يقول: "فهمت"، لكنه لم يتمكن، ظل يتمتم بطريقة غير واضحة. فلم يصلح فكُّه للحديث بعد.

سأل الرجل السمين:

- ماذا، أحفر؟

- نعم، احفر، احفر! سيحل الصباح قريبًا، بينما نواصل عملنا. الطقس بارد.

أخذ الرجل يحفر بالمجرفة في الأرض العشبية، ويبصق. والثاني كان صامتًا. والثالث أشعل سيجارة. كان "ديميتري" يرقد على جانبه، محاولًا رؤية وجوههم، وكذلك معرفة المكان. بدا الشخص الذي ضربه قد ضجر، فساعد "ديميتري" دون أن يقصد. وحمله من ياقته، ووضعه على رُكبتيه. وقال له: - حسنًا، أيها المواطن، لقد كنت أحاربك من قبل. كان بإمكانك أن تعيش.

لم يكن الرجال يرتدون المعاطف الخاصة بالمساجين، بل سترات مدنية ومبطنة. بدا وجه أحدهم مألوفًا بالنسبة لـ"ديميتري". لقد جاء ذات مرة إلى القرية من أجل عملية التطهير. أو ربما يبدو له فقط أنه يعرفه. وماذا يطلق على هؤلاء؟ أي نوع هم من الناس؟ هل هم مساجين مستعمرة العقاب، أم بناة محطة الطاقة الكهرومائية، أو مستأجرون القرية لفترة من الوقت، وسيغادرون..؟

لقد كانوا بالقرب من النهر. وقد حفروا حفرة بالقرب منه أيضًا. لم يتمكن "ديميتري" من تمييز المكان بشيء آخر، فالليل في شهر أغسطس كاحل اللون. وربما، لهذا السبب لم يكن الأمر مخيفًا بالنسبة لـ"ديميتري"، أو بالأحرى، لم يستطع أن يصدق إن كان هذا أمرًا حقيقيًّا. وأنه "ديميتري ماسلياكوف"، الصبي البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، سينتهي به الأمر هكذا. وأن آخر شيء يراه هو الأعمدة البيضاء لمصباح يدوي يمسكه رجال ذوو رائحة عرق نفاذة، وظلام قاتم.

طرق إلى ذهن "ديميتري" برنامج تليفزيوني قديم، حيث كانوا يعرضون مشهدًا لإطلاق النار على شخص. ويقولون إنهم عثروا على هذا التسجيل مع الرجال. وكانوا أشخاصًا قوقازيين عاديين يصطحبون رجلًا يرتدي قميصًا ذا خطوط عرضية إما إلى مخزن فارغ، أو متجر مهجور. ويسألون مستخدمين كلمة "أنتم"، لماذا وصل إلى مدينتهم، هل هو جاسوس أم لا، أم شخص عسكري؟ كان الرجال يتحدثون الروسية بشكل جيد، والرجل يشعر بالتوتر، لكنه لا يريد الرحيل، ولا يرفع صوته. وعندما أعلنوا أنهم سيقتلونه. أخرج أحدهم المسدس وأمره، قائلًا: "اخلع حذاءك". ثم يجلس الرجل، ويفك حذاءه، ويخلعه. وينهض. ثم يسأل: "هل يمكنني التدخين؟"، فيجيبونه: "لا".

ثم يرفع الرجل يده بالمسدس، والرجل الآخر يقف وينظر. ولمدة ثانية أو ثانيتين، كلاهما يتجمد في مكانه. ثم يطلق النار. فيسقط الرجل، الذي يرتدي القميص.

الأمر ليس معقدًا.

قال الشخص المُهاجم السمين، وقد قرر "ديميتري" أنهم كانوا يطلقون عليه بالتحديد "سمين":

- حسنًا، وهل سيظل هناك طويلًا؟

- تبًّا. الأرض صلبة.

فأخرج "السمين" البندقية من السيارة، وفتحها، ثم وضع فيها الطلقات. ووضع يده على الزناد وصوبها نحو رأس "ديميتري".

وكرر الكلمات، التي، على ما يبدو، تحوز على إعجابه:

- ها أنا الآن، عليك أن تُصلي.

فقال "ديميتري" بشكل غامض:

- ابعدها عنِّي. ماذا تفعل؟!

صدرت ضوضاء كبيرة. وصوت يزعج الأذن. وفي منتصفه صياح واضح:

- سأقتلك، أيها الوغد! سأقتلك وأدفنك! وغدًا ستأتي المياه. وستغطي كل شيء. ولن يعثر عليك أحد. هل فهمت؟ هل فهمت؟!

وقرب البندقية من رأسه، بالتحديد بين مؤخرة الرأس والأذن.

صدر صوت في داخله: "هذا مخيف.. هذا مخيف".

- كل شيء بخير.. سيستلقي هنا.

أمسكوه وسحبوه.. وبتعبير أدق، قاموا بنقله، مثل القطة الصغيرة، من رقبتها، ورموه.

- كيف، هل الأمر مريح؟

كانت الحفرة صغيرة للغاية. ومليئة بالأمل مجددًا، وظل يقول لنفسه: "لن يفعلوا شيئًا". سيطفو على السطح، إذا فعلوا هذا.

تحدث بألم في فكَّيه:

- أيها الرجال، لماذا القتل؟ كله سدى.

- كان عليك أن تفكر كيف تتصرف. كان التفكير ضروريًّا في الماضي.. أما الآن..

وهنا وجه "السمين" بندقيته مجددًا.

أمعن "ديميتري" التفكير بجدية فيما وضعه "السمين" في بندقيته. وكان يعرف أن الحزام فيه طلقتان ببلي كبير، وعشر طلقات ببلي صغير. "هل يمكنه أن يقتلني بالبلي الصغير؟" إذا أطلق من مكان قريب، فربما يحدث هذا.

قال "السمين" بلهجة تشكك متعمدة:

- اسمع يا صديقي، ولكن إذا توصلنا إلى اتفاق؟ هل يمكننا أن نتفق؟ ما رأيك؟
وهنا تدخل أحد الحاضرين قائلًا:
- لا تتحدث معه! اقتل هذا المعتوه. انهِ الأمر!
خفض "السمين" بندقيته وجلس على المقعد:
- اصمت.. هل سنتفق؟
- نعم، سنتفق..
- جيد. هذا يعني أنه يجب عليك في البداية أن تحرق هذا القرف؛ أي القرية الخاص بك اليوم. وسيتم غلق القضية. نعم؟ أم لا؟
أراد "ديميتري" أن يقول إن القيادة جاءت أول أمس وتم حل قضية الانتقال تقريبًا. وحاول أن يفعل هذا، لكن كلماته الأولى تحولت إلى هراء، ولم يكن هناك طاقة لديه حتى يشرح ما يقوله. فسكت تمامًا ونظر إلى حذاء "السمين" وتوقع أن يضربه.
- ماذا، أيها السكير، أنا لا أفهم. ماذا قررت..؟
فقال "ديميتري":
- فكي يؤلمني.
فلم يفهم "السمين" إجابته أيضًا:
- لم أفهم. نعم أم لا؟
فأومأ "ديميتري" برأسه. فقال الرجل:
- حسنًا، جيد جدًّا. والأمر الثاني، علينا التفكير في سبب للضربات. يمكنك أن تقول إنه مثلًا بسبب سقوط من السطح، وإنه أمر مجهول.
فقال أحدهم:
- ربما يقول إن السيارة قد انقلبت به.
تحدث "السمين" كأنه زميل قديم، فشعر "ديميتري" بالتعاطف معه مختلط بالدهشة والخجل:
- نحن في حاجة إلى سبب لعين، لكنه الشخص الأهم. علينا أن نُعلمه بعض الأشياء، حتى لا نكون مذنبين بحق. لماذا تنكمش في نفسك طوال الوقت هكذا؟ أنت تفعل أشياء سيئة للجميع. دعونا نغير هذا الأمر.
ساعد الرجل "ديميتري" على النهوض، وسأل:
- اسمك "ديما"؟ صحيح؟
فأومأ "ديميتري" برأسه. كاد يبكي من شدة السعادة. كان غاضبًا من نفسه داخليًا؛ لم يكن الأمر يتطلب كل هذا.
ثم قال "السمين":
- حسنًا، هل اتفقنا، أيها المواطن؟
- نعم.

عاد معهم في هذه المرة ليس في صندوق السيارة الخلفي، وإنما في المقعد الخلفي. وبهذا تم تبديل الانتظار القاتل للموت الوشيك بالألم الجسدي. وعند كل شهيق وزفير، يشتد الألم في صدره وجنبه وكذلك وجهه المورم، فبدا وكأن الفك السفلي قد كُسر تمامًا تحت جلده. ناهيك عن الشعور بالدُّوَار والغثيان والألم في داخل عينيه، لكن ليس الألم الجسدي نفسه، وإنما إدراك أنهم قد تسببوا في كسره؛ جسديًّا ومعنويًّا، لم يعطِ له الفرصة للتفكير فيما سيحدث لاحقًا.

ثم صاح، قائلًا:

- يجب الذهاب إلى المستشفى. يجب الذهاب إلى هناك في أسرع وقت.

كان الرجال، وعددهم ثلاثة، صامتين تمامًا، وذلك الشخص، الذي يجلس بجوار "ديميتري"، وبدا مألوفًا له، يدير وجهه إلى الجانب الآخر. أما اللذان يجلسان في الأمام كانا ينظران بتوتر في زجاج السيارة. بينما كان الغسق يهتز بهدوء خارج النوافذ، فظهر على حافة السماء خط رمادي مختلط باللون الأحمر لشروق الشمس.

وصلوا، وخرجوا من السيارة الـ"نيفا". ففتح "السمين" صندوق السيارة.

- ما هذا الوعاء؟ بنزين؟

أومأ "ديميتري" برأسه، لكن "السمين" لم يرَ هذا، فأصبح شرسًا مجددًا:

- ها؟ لا أسمع! هل قررت ارتكاب الحماقة مرة أخرى؟

فقال "ديميتري":

- إنه بنزين.

- خذه وتصرف. ليس لدينا وقت للانتظار. هيَّا، هيَّا. تحرك.

قال أحدهم، وكان قصيرًا ونحيفًا، لكنه على ما يبدو قوي أيضًا:

- قلت إن علينا أن نقتله. لن يكون مفيدًا.

أخرج "ديميتري" الوعاء، وأخذه إلى ورشة الخشب.

نصح "السمين" قائلًا:

- ستفهم لاحقًا أن هذا كان صائبًا. حان الوقت لوضع حد. نحن ليس لنا أمر شخصي في هذا، لكنَّ هناك آخرين كثيرين يجلسون في حمامات البخار سيقتلون بسبب هذه الحماقات، التي ما زالت موجودة حتى الآن. صب.

لم تستجب اليد اليمنى بشكل جيد. ففتح "ديميتري" الوعاء ورفعه، ثم أخذ يصب البنزين على الأعمدة وجدران البوابة. وقد تذكر "أوبسلا". فقال بصوت متقطع: - والرجــل؟ أين الرجل هنا؟

- ماذا؟

فأعاد "ديميتري" بشكل أكثر وضوحًا:

- هل لا يزال هناك رجل هنا؟

- أها، لقد رحل. انسَ أمره. هل معك عيدان ثقاب؟ امسك.

كان يجب التحدث عن ورش الخشب أو الأشياء الموجودة في الغرفة الخلفية، وعن أكياس البطاطس الخمسة، وعن اليوم بالتحديد، حيث سيأتي، على الأرجح، سيارات لتنقل الأمتعة، لكن "ديميتري" لم يستطع. كان يشعر بالألم عند التحدث، وقد خارت قواه بشكل كامل. لن يستطيع إقناعهم.

كان رأسه يدور به، فبدا وكأن الأرض تهتز من تحت قدميه وتكاد تنفصل عن بعضها. هل يتظاهر بأنه فقد الوعي؟ ربما ينقذه هذا، وربما، سيخافون ويلقونه في النار.

تحدث "السمين" قائلًا:

- سنأخذ السيارة. ثم ستعثر على كل شيء. لقد أصبت نفسك. أليس كذلك؟ سنعيد إليك جواز السفر والتليفون الآن. نحن لسنا عصابة.. لقد فعلنا ما أخبرنا به. الأمر ليس معقدًا.

اشتعل عود الثقاب بسهولة. كان "ديميتري" يمسكه بإصبعه، وهو ينظر إلى الشعلة البرتقالية الزرقاء الضعيفة والجميلة، ثم ألقاها على الحائط. فاشتعل البنزين سريعًا. وافترست النيران كل ما يقابلها.

ثم قال أحدهم:

- فليأخذ كل واحد منا طريقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
معلومات سرية

لم تذهب "أولجا" إلى مجلة "فيرنيساج". وظلت في جريدة "صوت العامل"، التي كانت تحتضر ببطء ولكن بشكل لا رجعة فيه. وبعد المحادثة، التي جرت بينها وبين زوجها في المطبخ من قبل، لمَّح الزوج عدة مرات لها إلى أنه سيكون من الضروري تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بعد ذلك. وكانت "أولجا" ترد على هذه التلميحات بقصص حول ما كان يحدث، وكم كان هناك ظلم وانتهاكات وسرقة صريحة في كل مكان، لذلك يومئ زوجها برأسه، ويصمت.

توقفت "أولجا" عن الذهاب في رحلات العمل، وبدأت في قضاء المزيد من الوقت مع ابنتها، وفي كثير من الأحيان، كانت تعمل من المنزل. علاوة على ذلك، كان من المستحيل الكتابة عن شيء خطير في مكتب ضيق؛ حيث يجلس فيه أربعة موظفين متتاليين. وقد فهم رئيس التحرير هذا الأمر ولم يمانع.

بعد أن قامت "أولجا" بتوصيل ابنتها إلى المدرسة، فتحت الكمبيوتر، وانغمست في مشاكل وأحزان الآخرين، التي شغلت وسائل التواصل الاجتماعي، وبريدها الشخصي والتحريري: تم طرد الناس من شققهم بسبب ديون الإسكان والمرافق، ويعيشون الآن في النزل، لقد خدعوا عند شراء وبيع أكواخهم، وتم طردهم من وظائفهم وفقًا لرغبة رؤسائهم. ولم يتمكن الآباء من اصطحاب أطفالهم إلى رياض الأطفال؛ فقد انهارت الأرصفة، وانفجرت أنابيب الغاز، واحترقت المنازل، وانهارت الجدران. وبدا أن مدينتهم بأكملها التي يبلغ عدد سكانها نحو مليون نسمة تتكون بالكامل من أناس تعساء.

وبمجرد أن تخرج "أولجا" إلى الشارع، وتنظر حولها، تجد عكس ذلك؛ فقد رأت كثيرًا من رجال الأعمال يبتسمون. البيوت آمنة، والأسفلت على الأرصفة ثابت، والأطفال يلعبون بمرح. وبدت صرخات اليأس، التي تجدها في الكمبيوتر، مزيفة ومخترعة، وأنهم يروجونها على هذه الشبكات لإثارة الذعر.

كتبت "أولجا" لأولئك الذين كانت لديهم مشكلة ما - وكانت ترغب في أن تجتمع بهم لكي تطرح عليهم أسئلة - لتراهم بأم عينيها، وللتأكد مما يقولونه. كان هناك مئات ومئات من الأشخاص في مأزق من بين عشرات الآلاف من الأشخاص الذين كانوا يتمتعون بقدر أكبر أو أقل من الرفاهية، كان هناك أناس غير واضحين.

أصبحت المدينة أكثر إشراقًا وأكثر حداثة مع كل عام. ومن الصعب تصديق أن الجدران المزخرفة بداخلها حوائط فاسدة، وأن هناك أنابيب صدئة تحت الأسفلت. وفي هذا الزقاق، كان هناك نزل حيث يعيش أولئك الذين لا يستطيعون دفع ثمن الخدمات الحكومية، مثل الكهرباء، والماء، وخلف هذه النوافذ والد الأسرة، غارق في مستنقع من الديون والقروض.

نعم، لقد تم حل هذه المشاكل مع الكثير من الناس، لكنها ما زالت موجودة عند الآخرين، وأصبحت تتزايد أكثر فأكثر. ولذلك كتبت "أولجا" مقالاتها حول هذا الموضوع، وحقيقة أن ليس هناك أحد مؤمن عليه حقًا، أو محمي.

على الرغم من أن صحيفة "صوت العامل" كانت تحتضر في هذا الوقت، ولم يكن هناك ما فيه أمل في أن تنتعش مرة أخرى، فإن "أندريه إيفانوفيتش"، رئيس التحرير، كان يرى أن مقالات "أولجا" لديها تأثير مهم في القضية دون جدال أو شك. وكثيرًا ما يكرر هذه الجملة: "دعونا نضرب الباب بقوة أكبر".

حاولت "أولجا" ألا تتطرق إلى الأحداث خارج المدينة لعدة أسباب. أولًا، لأنها لم تكن على يقين بما يحدث هناك، وكان من الخطر الكتابة عن هذا الأمر، فمن الممكن أن يأخذوها إلى المحاكم بعد ذلك. وثانيًا، من المستحيل النضال من أجل العدالة في جميع أنحاء البلاد؛ فمن الأفضل التركيز على المدينة فقط. عندما يتحسن الوضع في المدينة، ربما سيتغير الوضع في المناطق الأخرى. وقد أمضت "أولجا" ساعات عديدة في قراءة الرسائل، ومواقع الصحف الإقليمية، والمواد الصحفية لزملائها، والوثائق، وتوجيهات الإدارة. كما تابعت ما كان يحدث في منطقة "كوتاي".

كانت معظم الأخبار التي جاءت من هناك مخيبة للآمال، وأحيانًا فظة. لن يريد الكثيرون تصديق ذلك، وقد بدا أن هذه الأخبار كثرثرة من الناس أو قصص مخيفة تتحدث عن نشاطات تخريبية، كان الحديث قد دار عنها في الوقت الأخير، لكن تم تأكيد الكثير من الأخبار.

"أنا على يقين من أن مقابر "أوسوفو" قد غمرتها المياه. وقام الأقارب بإخراج الجثث من هناك، ولكن بقي العديد من القبور المجهولة، وهم الآن تحت الماء. كما غمرت أيضًا مدافن الحيوانات في المياه، وربما تكون هذه الحيوانات مصابة بأمراض خطيرة مثل الإنثراكس. فالمياه قد وصلت على بعد ٥٠٠ - 600 متر جنوب مدافنها. لماذا أقول ربما؟ لأنني لم أفحص الأبقار الميتة، لكنني أتذكر جيدًا كيف تم دفن القطيع هناك".

"هنا مدافن الماشية تغطي بالخرسانة. وكل شيء أصبح تابعًا للتكنولوجيا. ثم شرعوا بعد ذلك في التأكد من المكان، وتبين أنهم أخطؤوا في حساب الكيلو مترات!".

“وفقًا لعلماء الزلازل، هناك طبقة مشبعة بالملح في منطقة المحطة الكهرومائية. وقد حاول مركز الديناميكا الجيوديسية وهندسة الزلازل منذ عامين إقناع المقاولين بحفر بئر للتحقق من هذه المعلومات باستخدام الأساليب الجيوفيزيائية، بدلًا من الطرق غير المباشرة، لكن المقاولين كانوا يتجنبون ذلك بذرائع مختلفة. وإذا كان الملح على عمق ثلاثمئة إلى خمسمئة متر، فهو آمن نسبيًّا؛ ستتآكل الطبقة بعد فترة طويلة. أما إذا كانت الطبقة على بعد نحو مئة متر، فإن المياه ستصل سريعًا إلى تلك الطبقة، وستظهر شقوق طبيعية؛ مما يؤدي إلى تآكل طبقة الملح، وسيغرق السد في غضون من خمس إلى عشر سنوات”.

“في عام ١٩٧٥، حددت اللجنة التنفيذية الإقليمية ٣٧ مبنى في منطقة كوتاي كان من المقرر نقلها إلى كولبينسك، حيث أرادوا إنشاء متحف تاريخي وإثنوغرافي في الهواء الطلق. وبينما كان المشروع قيد التطوير، توقف العمل فيه فجأة. وفي عام ٢٠٠٥، تم إجراء فحص للمنطقة، تبين أنه نجا منها خمسة مباني فقط. وبينما كانوا ينتظرون التحرك، تبقي اثنان فقط من الخمسة. كم عدد الآثار المعمارية الخشبية التي سيتم نقلها من منطقة الفيضان؟”.

“توجد أيضًا عدة قبور لم تُنقل بعد. بعضهم ممن توفيوا حديثًا جدًا، كتبنا خطابات إلى شركة روس جيدرا الروسية للطاقة، وأشرنا إلى أنه وفقًا للقانون الفيدرالي بشأن أعمال الدفن والجنازات، لا يمكن استخدام الأرض التي توجد بها مقابر لمدة عشرين عامًا بعد الدفنة. وقد تلقينا ردًّا مؤخرًا. وطبقًا لما قاله محامي الشركة، فإن الخزان لم يبنَ على هذه الأراضي. ربما يكون هذا أمرًا مكتوبًا فقط، ولكن بالتأكيد لم ينص القانون بذلك. إنه أمر مهين للغاية لأولئك الذين أحبوا هذه الأرض كثيرًا ورقدوا بها، من الممكن أن يصبحوا الآن مصدرًا للعديد من المصائب. وبعد كل شيء، فإن أي دفن للموتى خلال حدوث الفيضان سيحمل مخاطر بيئية خطيرة: مثل الفيروسات المختلفة، التي يعيش منها البعض لأعوام كثيرة، نهاية بالسموم التي تخرج من الجثث”.

“لقد حصل زوجان من عائلة ديمر على شقتين كل واحدة تتكون من غرفة واحدة، منهم واحدة في أباكان، والأخرى في سايانوجورسك! سألونا: هل أنتما مطلقان؟ فقلنا بأسى: لا، لكننا وافقنا على الشقتين لأن اليأس قد تغلب علينا. وقيل لنا إن هذا أفضل سكن يمكنكما الحصول عليه”.

“لقد ظهرت بقعة بيضاء يبلغ قُطرها نحو عشرين مترًا في قرية بروكلوفو. كما لو أن أحدهم أسقط الكربيد في الماء. وطرح الخبراء وثائق مفادها أن هذا نتيجة دفن الأسمدة الكيماوية. وربما من الصودا الكاوية، حيث كان هنا الكثير من المدابغ في القرية قبل عدة عقود”.

“يتبقى أقل من شهرين قبل إطلاق محطة الطاقة الكهرومائية، وشرعوا الآن فقط في البحث عن طرق لإخراج المساهمين بحصص كبيرة من محطة الطاقة الكهرومائية بوجوتشاني. يُذكر أن وفقًا لقائمة الشركات الواقعة في منطقة نيقوسيا، فإن الشركة القبرصية بوجيس المحدودة، تتمتع بنسبة ٩٣.٧٢٪ من ربح الشركة المساهمة لمحطة الطاقة الكهرومائية، وهي المسؤولة عن بناء وتشغيل المحطة، والتي تم إنشاؤها في عام ١٩٧٦ من صندوق الاستثمار.

وقد تم استئناف بناء المحطة في عام ٢٠٠٥. وتم تمويل المشروع على أساس من قبل شركة خاصة، مثل روسال، وأخرى حكومية إيه إس روسيا، وبعد انهيار هذا الاتحاد في عام ٢٠٠٨، تولت إحدى الشركات المساهمة لهذا الاتحاد روس جيدرا تمويل المشروع. وواجه على الفور كلتا الشركتين السابقتين أزمة في الأموال.

وفي الآونة الأخيرة، كان يدلي كل من الرئيس فلاديمير بوتين وإيجور سيتشين، وكل مَن يشغل المناصب الحكومية العليا في الحكومة الفيدرالية، بتصريحات صاخبة تطالب بإنهاء ممارسة تمويل بناء محطة بوجوتشاني لتوليد الطاقة الكهرومائية من خلال الشركات القبرصية. ووفقًا لنتائج هذه التصريحات، لم تتغير حصة الشركة القبرصية بوجيس المحدودة بنسبة واحد في المئة.

كما قالت إيلينا فيشناروفا، المتحدثة الإعلامية لشركة روس جيدرا، فيما يتعلق بمحطة الطاقة الكهرومائية بوجتشاني: عندما بدأنا المفاوضات عن استئناف بناء المحطة، لم يكن هناك في الصناعة استثمارات حرة حتى نقوم بهذا على نفقتنا الخاصة. ولذلك كان من الضروري جذب مستثمر، ولكن كان لدى هذا المستثمر متطلبات كبيرة. ومن بين شروط التعاون، تسجيل الشركة الأم للمحطة ومصنع ألومنيوم بوجتشاني أيضًا على منطقة مالية حرة.

وتبين فيما بعد أن هذا المستثمر، السيد بانياسكو وشركته روسال، عنيد. ثم اندلعت الأزمة المالية، وتم تقليص أرصدة مصنع الألومنيوم، ولكن كان لا بد من استكمال بناء محطة توليد الطاقة الكهرومائية بطريقة أو بأخرى. لذا تحولت شركة بانياسكو بالفعل من مستثمر إلى وسيط بين شركات بناء السدود وخزينة الدولة.

ويمول البنك الاقتصادي الحكومي، الذي يتولى الإشراف عليه رئيس الوزراء ديميتري ميدفيديف، بما في ذلك أموال الميزانية، مشروعًا خارجيًّا. ليس من السهل السؤال عما إذا كان بانياسكو سيتمكن من إعادة القرض بالدولار المأخوذ من الدولة أم لا.

إن فترة سداد الأموال المقترضة طويلة جدًّا؛ 14 عامًا. وسيتدفق الكثير من الماء خلال هذا الوقت”.

“لقد تم محو عشرات القرى والبلدات في المنطقة من على وجه الأرض، وتمت إعادة توطين السكان على الأقل، لكن قرية تايجني تقع حقًّا بين السماء والماء.

ووفقًا لقانون إقليم كراسنويارسك بتاريخ ٢٥.١٠.٢٠٠٧ رقم ٣-٦٢٤، تم إدراج عناوين محددة للمنازل والشقق المتضررة من الفيضان. في وقت لاحق، وبناءً على إصرار من سكان القرية وبعد إجراء مسوحات جديدة لحدود منطقة الفيضان، تمت الموافقة على قائمة إضافية للمنازل المتضررة.

ولكن عندما بدأ الفيضان، اتضح أن مبنى المدفأة المركزية، الذي يوفر التدفئة لجميع المرافق المهمة في القرية (مثل المدرسة، وروضة الأطفال، ومكتب البريد، والنادي، والإدارة)، يمكن أن يغرق أيضًا تحت الماء. ويقع المبنى الآن على بعد أقل من ٢٠٠ متر من مياه الفيضان.

بالإضافة إلى ذلك، تعرضت الشواطئ للتآكل، وبعض العقارات، التي تقع الآن على حافة الخزان، أصبحت معرضة للخطر. وقد تدهورت مياه الشرب، وغرقت الأقبية.

لقد وعدت السلطات بدراسة هذه المشكلة، ولكن لماذا ما زال هناك سكان بطريقة نسبية في تايجني، التي تقع تقريبًا على مستوى الخطر نفسه لقرية بولشاكوف وكوتاي وبيليفو؟ اتضح، وفقًا لكلمات محافظ المنطقة، أن القرية لها أهمية إستراتيجية بالغة من حيث لوجستيات النقل. والحقيقة هي أن الطريق السريع ياركينو قيد الإنشاء، وهو يقع في منطقة كوتايسكي - فانافارا (إيفينكيا)، وسيمر عبر قرية تايجني. وسيتيح تشغيل خط إنتاج ٢.٧ مليون متر مكعب من الأخشاب سنويًّا”.

لم تهتز “أولجا” منذ فترة طويلة لأبشع حوادث الظلم والسرقة الصريحة. ربما جمُدت روحها، أو شعرت باليأس في إصلاح الوضع أو تغيير شيء ما. كما حاربت في العام الماضي من أجل معرفة النيات الحقيقية لهؤلاء، الذين عملوا أو سمحوا بالعمل لوضع خطة عامة لتدمير القرى. وتكلفت الخطة عشرة ملايين روبل. عشرة ملايين روبل ذهبت أدراج الريح!

حاولت “أولجا” بإصرار معرفة متى ومَن ولماذا وُضعت هذه الخطة العامة. فكانوا يجيبونها بابتسامة غير كاملة: - لقد أمروا بوضعها منذ أعوام.

فتتساءل مجددًا:

- متى بالتحديد؟ وما الفائدة التي ستأتي بها هذه الخطة؟

فتشعر “أولجا” بالدهشة:

- فائدة ضخمة! تم اتخاذ قرار استئناف البناء في عام 2005. ونشرت الخطة في عام 2011. لم يستطيعوا صياغتها لمدة ست أو سبع سنوات.

فيجيبوا مجددًا بنصف ابتسامة:

- لماذا لم يستطيعوا؟ الخطة العامة أمر في منتهى الخطورة. لذلك يتطلب وقتًا كبيرًا.

كانت الخطة العامة سيئة، وبدا هذا بوضوح. الشيء نفسه مكتوب على القرى جميعها، وكان المستقبل المشرق نفسه أيضًا ينتظرهم جميعًا. ونشرها في ذلك الوقت، عندما كانت القرى تحترق، أي من آيات السخرية والاستهزاء.

شرحوا لـ"أولجا" قائلين:

- كان من الضروري نشرها، لأن هذه بمثابة معلومات عامة.

فتفقد "أولجا" أعصابها:

- أي معلومات؟! هل ستكون هناك في الأسفل حدائق ونوافير وبيوت مريحة؟

- حسنًا، لقد حدث هذا بالفعل. لقد قرروا الانتهاء من بناء المحطة بشكل غير متوقع.. ولماذا لم يتم إلغاء تطوير الخطة العامة؟

بدا وأن "أولجا" تريد معرفة كل شيء:

- كيف تُلغى؟ لقد تم الفوز بالمناقصة، وتحمس المتخصصون. كان فسخ هذه العقود سيؤدي إلى الغرامة والعقوبة! وهذا لا يمكن أن يحدث.. وهل يمكن رؤية هذه الوثائق، مَن وضع هذه الخطة العامة، ومَن شارك في المناقصة؟

وكانت الإجابة من الثلاثة:

- لا يمكنني أن أكشف لكم عن هذه الوثائق. هذه معلومات سرية.

وتحولت قصة الخطة العامة بعد ذلك إلى سر تحت ستار الظلام ولا يمكن كشفه. كان كل شيء في كل مكان غامضًا ومحفوظًا، ومخفيًّا في وسط متاهة من الوسطاء، الوسطاء الفرعيين، والمقاولين الفرعيين، وتحت أقفال محكمة، وأنظمة داخلية، وأخلاقيات العمل، وعدم التمكن من الوصول إلى القيادات، وعبارة "معلومات سرية".

كانت "أولجا" تفهم جيدًا كيف استطاع حتى أصغر رئيس في نهاية الحقبة السوفيتية أن يأخذ على نفسه وعدًا: "نعم، سأتصرف، سأحاول أن أفعل". وبالفعل تصرف وحاول فعل ما قاله. كما كان النواب يساعدون ناخبيهم، حتى كانوا يظهرون أنهم خائفون على مصالح الشعب. ووجدت ذلك الوقت، عندما كان الإنسان يخاف من الصحفيين، ويحاول القضاء على الفساد، حتى لا يظهر اسمه في مقال غير جيد في الجريدة، وهناك آخرون يهرعون إلى الصحفيين وكأنهم آخر مَن يمكنهم حمايتهم.

أما الآن فمن الصعب الوصول إلى القيادات والنواب، أو ربما يتخوفون من المقابلة، حتى لا يضطرون لإخفاء الملل والازدراء عند سماعهم إلى الشكاوى، والمعاناة البشرية، وتحمل دموع الغرباء وتوسلهم، وغالبًا ما يجيبون في النهاية: "هذا ليس في مقدرتي. مَن يستطيع المساعدة؟"،

عندئذ يكون هناك العديد من الخيارات للإجابة: نائب السلطة التنفيذية يشير إلى السلطة التشريعية، ونائب السلطة التشريعية يشير إلى السلطة التنفيذية، والموظف الإقليمي يشير إلى الهيئة الاتحادية، والهيئة الاتحادية تشير إلى الموظف الإقليمي.

وفي إحدى المرات، تمكنت "أولجا" من الوصول إلى نائب وزير الاقتصاد والتنمية الإقليمية في المنطقة. ولم تفعل هذا بمفردها، لأنه كان من الصعب السماح لها بالوصول إليه بمفردها، ففعلت هذا بصحبة صحفيين من موسكو.

تحدث نائب الوزير طويلًا وبسلاسة عن خطط تطوير المنطقة. وقبل نهاية الحديث، أو بتعبير أدق، قبل نهاية المونولوج، نجحت "أولجا" في طرح السؤال، الذي بدا لها مهمًّا للغاية، والذي يتضمن جوهر مشكلة المستوطنين من منطقة الفيضان: - لماذا يتم منح الناس مساحة للعيش فقط، ثمانية عشر مترًا للشخص الواحد، على الرغم من أنهم يفقدون أراضيهم ومنازلهم، ويضطرون إلى التخلي عن معداتهم وأعمالهم؟

فنظر نائب الوزير إلى "أولجا"، وكأنه ينظر إلى فتاة غبية، وأخذ يشرح قائلًا:

- هناك حد معين للتمويل. وانطلاقًا من الحد المحدد للتمويل، يتم تحديد مستوى المتر المربع السكني. كل هذا يعتمد على الأموال. إذا كانت هناك أموال أكثر، كانت المعايير ستتحسن.

ثم أوضح أن قضية التمويل ليست في نطاق الحكومة الإقليمية.

فأصرت "أولجا" قائلة:

- وفي نطاق مَن؟

- خزان المياه يعد ملكًا اتحاديًّا، وإعداد منطقة الفيضان، التي ستشمل توطين السكان، مموَّلة بشكل رئيسي من الميزانية الاتحادية.

- ولكنك المسؤول عن التحضير لمنطقة الفيضان.

- الإشراف والتمويل، كما تفهمون، ليس الأمر نفسه.

ولم يعطِ الفرصة لـ"أولجا" حتى تسأل عن مكان تلك المنظمة وذلك الشخص، وكمية الأموال التي يجب تخصيصها لتسوية حياة كريمة للمستوطنين في مكان جديد. وتحدث نائب الوزير مجددًا عن الأفاق: - هذه المنطقة، حيث تُنفذ المشاريع واسعة النطاق، ستكون مستقبل روسيا. بشكل عملي ومنطقي ستكون بالفعل مستقبل روسيا! ستكون مدينة "تيومين الثانية". ويعد بناء المحطة الكهرومائية الخطوة الأولى. وسيكون هناك أقوى مخزون عالمي من البوكسيت والحديد الخام والفحم والمغنيسيوم. وهذا ما سيعيش عليه أحفادنا.

فغضبت "أولجا":

- وعلى حساب ماذا سيعيش المهاجرون؟

اتجه عظام وجه الوزير، الذي لا يزال شابًّا، إلى الجانب، وومضت عيناه، لكنه تحكم في نفسه وابتسم قائلًا: - صدقوني، لن ندع أي شخص يموت من الجوع أو البرد.

ونتيجة لهذه المحادثة، كتبت "أولجا" ملاحظة، ونشرتها، وبعد مرور بعض الأيام، اصطدمت بزميلة من صحيفة أخرى تُدعى "ريتا".

- ها أنت سالمة!

بدا وكأن هذه مزحة، لكنها لم تندهش.

- عمَّ تتحدثين؟

- لقد قرأت عن لقائكِ مع النائب. لقد أجريت معه حوارًا منذ شهرين أيضًا، لكنه كان مختلفًا تمامًا. لا أعرف كيف بقيتُ على قيد الحياة.

ضحكت "ريتا" بحزن دفين، وحكت القصة التالية:

- لقد علمت أنهم خلال جلسة لجنة الوفاق في وزارة التنمية الإقليمية سيتحدثون عن المهاجرين الذين لا يملكون سكنًا. فشققت طريقي، بشكل عام، وعلى الرغم من كل شيء، عثرت على مكتب. وعندما دخلت، لم أجد سوى أربعة أو خمسة أفراد، وهو أقل من العدد القانوني لنصاب اللجنة. ولم يكن هناك نواب أو وكلاء نيابة. وباختصار، لم يكُن هذا اللقاء ناجحًا. قدمت نفسي، فتم الرد عليَّ هكذا: "اخرجي من هنا! هذا ليس مجرد نائب الوزير". فلتسألِي: "لماذا؟ ولماذا هذه النبرة".. "سأكرر مرة أخرى؛ اخرجي! لن أكررها للمرة الثالثة!". وهنا شعر بالغضب الشديد. أما أنا فعلى العكس تمامًا، وقد أصبح الأمر بسيطًا أمامي.. "لماذا يجب أن أخرج؟ أنا صحفية". فقفز وعبر كل الصالة الكبيرة في اتجاهي. كنت أخاف بالتأكيد. إنه مثل الثور الهائج!

ثم تنهدت "ريتا"، وقالت:

- واقترب مني أكثر، كانت يداه ترتجفان، وبطنه يدفعني إلى الباب، وقال: "ارحلي!". قلت: "لن أخرج! لماذا تتصرف بهذا الشكل؟". وفي ذلك الوقت، كان يصرخ في حراسه: "اطلبوا الأمن!". ويصرخ في وجهي: "لن تبقي هنا!"، فركض عائدًا إلى مكانه وجلس على الطاولة. لقد اقتبست من قانون الإعلام، حيث توجد حقوق الصحفي. فرد هو: "لست في حاجة إلى هذه الغوغائية. أنتِ لا شيء". قلت: "على أقل تقدير، أنا مواطنة!". فقال: "لن تكوني موجودة هنا!". سألت: "هل لديك اجتماع مغلق؟". أجاب: "لست لديَّ النية لإعطائكِ أي تعليقات. ستأتي الشرطة الآن، وستتحدث معكِ". قلت: "الشرطة". قال: "لا تثيري حنقي! وكيف من الأساس وصلتِ إلى هنا؟". قلت: "لديَّ تصريح لمرة واحدة". أجاب: "سنتصرف، ونكتشف كيف حصلتِ عليه، وكيف دخلتِ إلى أحد مباني الحكومة!"، بينما كان البقية يجلسون مثل الدُّمى صامتين تمامًا. وكان المهاجرون أيضًا صامتين، ويخافون البوح بأية كلمة. يؤمنون بشيء ما. والشرطة، على العموم، ليست

موجودة. فشرب نائب الوزير بعض الماء وعاد إلى غضبه: "أين شارتكِ الصحفية؟" فقررت قائلة: "بالتأكيد لن تراها"، واقتبست من القانون أنه مكفول للمواطن حرية البحث، وكذلك الحصول ونشر المعلومات. فأجاب: "اخرجي من هنا! لا تعيقيني عن العمل!" وهنا جاء رجال الشرطة، فهرع إليهم سريعًا: "إنها تمتلك جهاز تسجيل!". أخرجوني في صمت. وفي الشارع، كان هناك رجل يبلغ الثلاثين من عمره يقف تحت أشعة الشمس ومعه لافتات: "لقد أصبحنا في القاع!"، و"أوقفوا الإبادة الجماعية!". وفقط بعد خمس دقائق، تفرق الجميع. وهذا يعني أنهم أخذوا اللافتات، وهددوا بالسجن عشرة أيام إذا حدث هتاف أو ما شابه. ولم يحقق هؤلاء، الذين تم قبولهم في اللجنة، أي شيء. وهذا كل ما في الأمر.

كانت "ريتا" صحفية شجاعة، وكتبت أكثر من مرة عن عمل لجنة الوفاق وعن التصرفات القاسية. لذلك، على ما يبدو، كان رد فعل نائب الوزير بهذا الشكل.

يتصرف القليل من الرؤساء مثلما يفعل هذا النائب، لأن المعظم لا يلاحظون الصحفيين والناس العاديين. وقال أحدهم: "سأكتب لبوتين!". كانت "أولجا" تسمع بمرور الوقت هذه العبارة من هؤلاء، الذين تعبوا من كثرة الفشل والشعور باليأس. ثم وخلال الجلسة التالية يُسأل: "هل كتبت لبوتين؟". فيندهش: "ها؟".. "لقد قلت إنك ستكتب لبوتين". يندهش مرة أخرى: "ها؟ بالتأكيد لن يتم توصيل رسالتي الصغيرة إليه، وسيرمونها.. وماذا سأكتب؟ لا أستطيع، أما أولئك، الذين يستطيعون الدفع، فيجب عليهم فعل هذا الأمر..".

اعتبرت "أولجا" نفسها ذكية ومتعلمة وتستطيع أن تكتب ما تشاء، لكنها لم تفهم كيفية صياغة مثل هذه الرسالة.

كان هناك المئات من حالات الظلم والسرقة، لكن الظلم قد سحقها، وأخفاها، وقد حدث انتهاك عالمي لحقوق الإنسان، عندما غمرت الأراضي المأهولة بالماء بسبب بناء منشأة، والتي، بسبب العولمة، بدت في بعض الأحيان قاعدة لكل البلاد. وكان هناك شك لديها؛ ربما، يجب أن يكون الأمر كذلك، فلا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك، ولكن هل كل هذه الادعاءات من الأفراد، وشكاواهم، شيء لا مفر منه في مثل هذا العمل الضخم، الذي يتم هناك على النهر؟ سرعان ما أبعدت هذا الفكر المجنون عن نفسها، ووبخت نفسها، لكنها لم تتفاجأ بها بأن الرؤساء كانوا متمسكين للغاية برأيهم، وأثبتوا ذلك بثقة، قائلين: "بشكل عام، كل شيء يحدث طبقًا للقانون، وأن ما يحدث ما هو إلا أمر طبيعي. فهناك دائمًا أشخاص غير راضين عما يحدث؛ بدؤوا يؤمنون بهذا بشكل لا إرادي".

ثم فجأة، حتى البارحة، بدا نائب الوزير أنه مستعد للتضحية بحياته من أجل القضية التي خدمها بأمانة، أو يقدم استقالته بإرادته الحرة، أو سيتم فصله،

أو طرده، أو حتى سيتم رفع قضية جنائية ضده، أو سيحتجز. نعم، حتى أمس كان الرجل طويل القامة، ذا أكتاف عريضة، ووجه جاد، يجادل قائلًا: "هذه مسألة ذات أهمية وطنية! هناك الآلاف من الناس حريصون على أن يتم بناء وإطلاق المحطة، وتحويل المنطقة إلى عدد من المراكز الصناعية، أما أنت! إنه لأمر مُخزٍ، بل إجرامي أن تساعد في ذلك!". بالأمس، كان يحذر المواطنين بأن يفضحهم، وسيعرضهم للمسؤولية الجنائية، أما اليوم فهو خلف القضبان، مشتبه في قضية اختلاس على نطاق واسع بشكل خاص، وتنظر المحكمة في الأمر. إن الشخص الذي استقال قبل شهر، قد وضع بشكل غير متوقع على قائمة المطلوبين دوليًّا، كما نقلوا في الأخبار أنه كان يسحب الأموال من الخارج.

أما مناصب هؤلاء الذين استقالوا، أو فصلوا، أو طردوا، أو اعتقلوا، شغلها أشخاص آخرون لديهم صفات الشخصية نفسها، أو جادون، قادرون على التحدث بطلاقة وحماسة، معلنين بوضوح نصوص القوانين واللوائح. ويعاملون هؤلاء الناس العاديين بالطريقة نفسها، وكأنهم غير مهمين. ويقفون في طريقهم، ويمنعونهم من المضي قدمًا نحو أشياء مهمة.

في بعض المناصب، تم تغيير ثلاثة أو أربعة قادة على مدى السنوات السبع الماضية. وعندما انتهى الأمر بإلقاء العديد من أسلافهم إلى السجن، لم يكونوا خائفين من الذهاب إلى هناك.

ستجلس في مكتب عملك، وترأس المكان، وتظل توقع على المستندات، ثم تذهب في نهاية المطاف إلى السجن.

لم تستطع "أولجا" أن تفهم في السابق كيف لم يكن هناك أي وظائف فارغة في "المفوضية الشعبية للشئون الداخلية"، وكذلك "المديرية السياسية المشتركة للدولة" التي كان يكمُن نشاطها في الشرطة السرية في فترة حكم "ستالين"؛ لأنهم كانوا يعرفون أن هناك عدة أشخاص قد تم إطلاق النار عليهم، وهناك الكثير ممن عملوا، ثم تم إعدامهم. أم ربما أنهم فهموا أنه من دون هذا لن تقوم الدولة، أم أنهم كانوا يأملون ألا يلمسهم أحد، أو أن يظلوا في مناصبهم حتى ينتهي الأمر؟ والأمل الحالي، ربما، يأملون الآن أيضًا ألا يطلقوا النار.

تزداد الشكوك في رأس "أولجا"، مثلما يتمدد العجين، ويتصاعد الضباب مرة أخرى. فإذا كان هؤلاء الأشخاص المدانون أو المشتبه فيهم في قضية اختلاس، أو احتيال، أو إساءة استخدام الملايين، قد وبخوا وشعروا بالخزي أمام الآخرين، فما هو ضمان أن الآخرين لا يسرقون بطريقة أو بأخرى؟ ألم يأخذ الشخص الذي ترك مثل هذا المنصب العالي بإرادته الحرة، معه الملايين؟ أو ربما ليس كل مَن يرأس المناصب العليا نظيف وصادق. فالجميع بحاجة إلى المال.

أرادت ألا تفكر، أو تنتبه نحو الأشياء السيئة، أو على الأقل ألا تأخذ الأمر بعين الاعتبار. وحاولت "أولجا" أن تقنع نفسها، قائلة: "عملك يحتم عليكِ أن تري كل شيء حولكِ مخيفًا. ومن المحتمل أيضًا أن يكون عمال النظافة على يقين من أن كل شخص حولهم لا يفعل شيئًا سوى أن يلقي القمامة في الشارع، ويعتقد الأطباء أن الجميع مرضى، وتعتقد الشرطة أن كل شخص يخالف القانون، وأن كل شخص مجرم، والسباك يرى أن الجميع لديه حنفيات تسرب الماء. أنتِ فقط بحاجة إلى أداء واجباتكِ، ولا تخوضي الأمر نحو علم النفس وتحليل الشخصية. ولا تغمري نفسكِ في الفلسفة، وفي نهاية الأمر، ستصابين بالجنون. عليكِ أن تستسلمي لما يحدث قليلًا".

حاولت "أولجا" مرارًا وتكرارًا إقناع نفسها بأخذ الأمور بطريقة مبسطة، وأكثر هدوءًا، والواقع، كما يحالفها الحظ دائمًا، لقد علمت خبرين جديدين مؤذيين. ولذلك لم تهدأ "أولجا" من روعها مرة أخرى، بل وذهبت جميع محاولتها في الإقناع هباءً. فقد علمت "أولجا" بما حدث لـ"ديميتري ماسلياكوف"، و"أليكسي بريوخانوف". الأول تعرض للضرب المبرح، وهو الآن في مستشفى "كولبينسك"، والآخر، أيضًا في مستشفى "كانسك"، للاشتباه فيه بمرض الجمرة الخبيثة. يجب عليها أن تخبر زوجها أنها بحاجة إلى الذهاب.

قال لها "مكسيم"، وقد بدا لها أنه يهرم أمام عينيها، ومتعبًا:

- لقد وعدتِني بأنكِ لن تذهبي إلى رحلات العمل مرة أخرى. كما أن "ناستيا" ستذهب إلى المدرسة في يوم الإثنين.

شعرت "أولجا" أنها لم تفِ بوعدها لزوجها، وقالت له:

- حسنًا، سأسافر فقط لمدة يومين.. "مكسيم"، من واجبي أن أخبر الناس بما يحدث هناك. أحدهما قد تعرض للضرب، والآخر قد أصيب بـ"الجمرة الخبيثة"..

- لكن يمكنكِ أن تفعلي ذلك عن طريق التليفون، ربما لديهما "سكايب" هناك.. ويمكنكِ التواصل مع أقاربهما عبر الإيميل..

فقالت له "أولجا"، وهي على عجلة من أمرها:

- لا الأمر ليس كذلك. من الضروري أن آراهما بعينيَّ. بالطبع، لن أقابل "أليكسي بريوخانوف"، الذي لديه مرض "الجمرة الخبيثة"، فلن يسمحوا لي بالدخول. سأتحدث إلى الأطباء، ربما سأتمكن من رؤية التاريخ الطبي.. أعدك بألا أتواصل مع "بريوخانوف"!

ابتسم الزوج نصف ابتسامة عندما وعدته "أولجا". نظر إليها، وهز كتفيه، وقال وهو متذمر: - فلتقرري بنفسك، أنا لا أستطيع أن أمنعك.

قبلته "أولجا"، وذهبت لتحضير أمتعتها. ثم قال لها "مكسيم":

- كيف ستذهبين؟ وإلى أين؟ "كانسك" أم "كولبينسك"؟

- أعتقد سأذهب أولًا إلى "كانسك"..

- دعيني أتصل بالرجال، بالتأكيد هناك شخص ما سيذهب في هذا الاتجاه اليوم، أو غدًا.
- لكنني أفضل أن أذهب بالحافلة. سأتحدث مع الناس في الطريق وأنصت لهم.
- كما ترغبين..
تقع محطة الحافلات تقريبًا في وسط المدينة. وقد تحول المبنى الرئيسي، المرتفع، الحجري، منذ فترة طويلة إلى مركز للتسوق. يوجد به صفوف أكشاك من الزجاج، ومحلات تجارية. يبيعون فيها كل شيء، مثل قطع غيار السيارات، والحلويات، وطعام الأطفال.
في بعض الأحيان، تأتي امرأة عجوز إلى هذا المبنى، وتصعد السلام بصعوبة، وتتجول على طول الممرات الضيقة بين المتاجر، وتحدق في حيرة على الفساتين، والعارضات من دون رأس، والألعاب في نوافذ العرض، وحمالات الصدر، وأدوات الصيد، والمكانس الكهربائية، وفي النهاية، تسأل إحدى البائعات بصوت وهن: - وأين خزانة النقود؟
فتقول البائعة:
- عندي.
- لا، أنا أرغب في أن أذهب إلى خزانة النقود الخاصة ببيع تذكرة الحافلة. أنا بحاجة إلى العودة إلى المنزل.
وفي معظم الأحيان، يتم إخبار المرأة العجوز بمكان شراء تذكرة الحافلة، ويحدث أن تصادف العجوز بائعة ما شريرة، أو لا تعرف حقًّا أين تقع محطة الحافلات، وتبدأ في خداع العجوز بالفعل، وتقول: - لا توجد حافلات هنا. هنا يوجد محلات فقط.
فترد العجوز:
- ولكن كيف؟! قيل لي إنها هنا. كيف أذهب إليها الآن؟
تقع أكشاك التذاكر، وقاعة الانتظار خلف هذا المبنى الكبير. يوجد بالقرب من هناك منصة للحافلات. كانت المنصة ضيقة، مزدحمة من جميع الجهات بالمتاجر والأكشاك..
اشترت "أولجا" تذكرة إلى "كانسك". نظرت إلى ساعتها، ما زال أمامها أربعون دقيقة. جلست في مقعد فارغ، وتحدثت مع امرأتين مسنتين في الحي.
- .. كان يركض طوال الليل ببندقية مزدوجة القطر، ظلت القرية بأكملها في خوف وهلع. ولا أحد يستطيع فعل أي شيء. وقال هذا الرجل بصوت أجش: "سنأخذ إيجور رهينة"، كما يحدث في بعض الحروب.. ثم جلسنا طوال الليل، وانتظرنا أن ينام هذا الرجل، وقام الرجال بتقييده، وأخذوا البندقية منه. وظلوا يضربونه لفترة طويلة.. ثم أخذنا "إيجور" إلى المنطقة. كان ينزف، وفقد الوعي ولم يعد إلى طبيعته حتى الآن.. وطوال الليل يحتاج

إلى مساعدة طبية. فإذا كان ضابط شرطة المنطقة هنا وقت هجوم ذلك الرجل على "إيجور"، لكان "إيجور" بصحة جيدة الآن..

تنهدت المرأة الثانية بتعاطف، وصمتت لبرهة من الوقت، وقالت بعد ذلك:

- نعم، لكنكِ لا تعرفين متى يكون من الأفضل أن يكون ضابط شرطة المنطقة موجودًا ومتى لا. لم يكن لدينا ضابط شرطة في المنطقة لمدة عامين، وكنا بحاجة في كثير من الأحيان إلى أن يكون لدينا ضابط، ثم طلبنا أن يأتي ضابط شرطي للقرية، أو ربما جاء من تلقاء نفسه. في البداية، كان رجلًا جيدًا، ومعه زوجته، وابنته طالبة في المدرسة. لقد جاؤوا من كازاخستان بحقيبتين. ساعدناهم، وقمنا بإعطائهم البطاطس، والحليب، والجبن.. كان رجلًا لطيفًا، مبتسمًا، وتعرف على الجميع، وكان محبًّا للحديث. وأطلقوا عليه لقب "زايكا"، التي تعني بالروسية "الأرنب"، وذلك نسبة إلى لقب عائلة "زايكوف".. وبعد مرور شهر أو شهرين، لاحظنا بعض التغييرات. وتحولت ابتسامته إلى عبس، وكل شيء تغير بعد ذلك، وتبين أنه شخص فظ. لقد اكتشف كل شيء عن الجميع وما يتاجرون فيه هنا، وممن يعيشون في منازل غير مرخصة، ومَن ينتهك القانون.. وأصبحت القرية في قبضة يده! ودفع له التجار، لكيلا يفصح عن ذلك للحكومة.. حصل على الكثير من الأموال من وراء هذا. ذات مرة، حطم الشباب بطارية سيارة قديمة حتى يحصلوا على معدن الرصاص، وعندما علم بالأمر، أخذهم إلى مكتبه، وحبسهم، وقال لآبائهم: "احتُجزوا للاشتباه في قضية الاختلاس!". قال الآباء: "ممن سرقوها؟". فقال لهم: "لا يهم. سأكتب أن بطاريتي قد سرقت وقاموا بتدميرها. أو دعونا نتفاوض، وإلا سأتصل بفريق التحقيق لكي يأتي من المدينة". وقام الآباء بدفع عشرة آلاف مقابل خروج أبنائهم من السجن! وقام ذلك الشرطي بشراء سيارة "جيب" ضخمة خلال عام من هذه الأموال المختلسة. وبعد عام آخر، قام بشراء منزل. كان يقود سيارة الجيب بجنون ويقتل الدجاج والخنازير في طريقه.. أي ضابط هذا؟!

كانت المرأة ساخطة، ثم تذكرت معلمة المدرسة، وقالت:

- لقد أصيبت معلمة المدرسة بالشلل بسببه، وما زالت تعرج حتى الآن. لا أعرف هل أعطى لها رشوة أم حاول إخافتها، لكيلا تحرر محضرًا ضده. وبسببه أصبح "ميشا بوبوف" متوفيًا..

صححت "أولجا" حديث المرأة في عقلها، وقالت: "متوفى، فالذي يتوفي هو الرب".

ثم شعرت بالخزي لأنها تُدْخِل نفسها فيما لا يعنيها. استكملت العجوز حديثها:

- كان الشاب في ريعان شبابه. حسنًا، لقد شرب مع أصدقائه، وذهب بعد ذلك إلى المنزل، وقابل في هذا الوقت هذا الضابط "زايكا"، فقال له: "أوه، أنت في حالة سُكِر الآن! فلتأتِ معي إلى المكتب". فقال له "ميشا"، وهو

يفرك يده: "لن أذهب!". ثم دفعه بعيدًا. تراجع الشرطي، وفي الليل، جاءت مجموعة كاملة من الرجال من المدينة. وأخذوا "ميشا" من المنزل. بحث الآباء لعدة أيام عنه. لم يعثر عليه في المدينة، ولا في أي مكان. ثم ظهر فجأة، دون آثار للضرب، لكنه كان مبتورًا. بدأت شائعة تتسلل بأنهم احتجزوه. وبعد أيام قليلة، شنق نفسه. عاشت زوجته وابنه بمفردهما. على ما يبدو، لقد تأذى لدرجة أنه لم يستطع أن يعيش أكثر من ذلك.

فقالت المرأة الأخرى، وهي تضع يدها اليمنى على رأسها:

- يا لها من فظاعة! إنها مصيبة!

ثم قالت العجوز، التي كانت تروي الحكاية:

- لم يعطِ الضابط أي فرصة لأحد لكي يشرب حتى السكر. كان يجلس في العطلات في أماكن قريبة، لكي يذهب إليهم سريعًا. ويكتب في المحضر: "هذا الرجل في حالة سُكر! وتنص المادة كذا وكذا.. ومن خلاله عليه أن يدفع غرامة". ولا يزعجه أن يعيش رجل ما في السجن وبعيد عن زوجته وأطفاله. ويكتب في المحضر أيضًا: "حالة سُكر في مكان عام!"، ونادرًا ما أخذ المال من هؤلاء السكارى، كان يحب أن يصلح هذه الانتهاكات فقط. ولذلك حصل على لقب أفضل ضابط شرطي في المنطقة، وحصل على كثير من المكافآت والاحترام من السلطات.

ثم سألت العجوز الأخرى؛ بينما كانت "أولجا" متشوقة لنهاية القصة:

- إذن، ألم يُقدَّم هذا الضابط للعدالة؟ هل ما زال يحكم القرية؟

- لا.. عندما فعل مع "ديمكا ياكوشكين" مثل ما حدث مع "ميشا"، تغير الأمر، فهو ابن صحفي، يعمل في المنطقة.. مراسل، لكن "ديمكا" كان أكثر ذكاءً، وشرع الرجال في أن يضربوه هنا، وأخذوه. ذهب وراءه عشرون رجلًا إلى المدينة لمعرفة مكانه، وذهبوا بعد ذلك إلى الإدارة، إلى المدعي العام.. حسنًا، ومن هنا بدأت نهاية الضابط. في البداية، كاد "ديمكا" يُدان بمهاجمته شرطي، ثم حوكم "زايكا" بتهمة التجاوز في حق المواطنين؛ فقد وجدوا إصابات لدى "ديمكا"، وتليفًا في الكبد، وارتجاجًا في المخ نتيجة الضرب. تصعَّد الأمر إلى أن أصبح قضية، وأرسلوا قائد شرطة جديدًا. بشكل عام، ترك "زايكا" المنطقة، وذهب للعمل في منطقة أخرى، لكنه هرب بسرعة من هناك. والآن أصبح مساعدًا لأحد رواد الأعمال لدينا، واحدًا من أكبر اللصوص عندنا، لقد أشفق عليه ووظفه عنده.

ضحكت العجوز بصوت عالٍ، وقالت:

- طبعًا يجب أن نشفق، ونسامح. بمجرد أن يتوقف الرجل الشرير عن فعل الأشياء السيئة، نغفر له على الفور. بل ونشكره أيضًا عن التوقف عن ذلك العمل.

ردت العجوز الأخرى، بلا أدنى تردد:

- وماذا نفعل؟! لن نرد الإساءةِ بإساءة.

ابتسمت العجوز الأولى مرة أخرى، ونظرت بعيدًا، كما لو ذكرتها القصة بشيء ما، وقالت: - نعم، لديكِ حق!

وعندما وصلت "أولجا" إلى "كانسك"، ذهبت، كما هو الحال دائمًا في رحلة عمل، أولًا إلى الفندق. كان هناك بالطبع غرف متاحة. وبدا لها أن التفاصيل المتكررة في الأفلام السوفيتية في الفنادق، عندما يقولون: "لا توجد غرف متاحة الآن!"، مبتكرة. أو ربما لم يكن هناك ما يكفي من الفنادق. أما الآن، هناك عشرات منهم في "كانسك"، وهو أمر غير مثير للاهتمام. فلتتوجه بمحفظتك وذوقك في أي فندق ترغب: "كاني"، "سيبيريا"، "الدب"، "الجنوب"، "أتلانتس".. اختارت "أولجا" فندق "الجنوب"، بالطبع كان باهظ الثمن، لكنه يقع بالقرب من مستشفى قسم الأمراض المعدية.

وبعد أن حجزت غرفة، وضعت أمتعتها هناك، وذهبت إلى المستشفى. كان مبنى ضخمًا مكونًا من أربعة طوابق. وقد استغرق بناؤه وقتًا طويلًا، إنه شاق للغاية.

بحثت "أولجا" في غرفة الطوارئ عن جدول زيارات مع الأقارب، لكنها لم تجده. فسألتها الفتاة التي كانت تجلس خلف الزجاج، وهي عابسة وفي حالة من التشكك: - عمَّن تسألين؟

فكرت "أولجا" إذا حدثتها عن "أليكسي بريوخانوف"، فهو أمر محفوف بالمخاطر. فأجابت بشكل غامض: - أبحث عن مريض هنا..

- هذا مستشفى الأمراض المعدية، والزيارات تتم بشكل فردي.

- مفهوم.

كان المساء قد حل آنذاك، ومن غير المحتمل أن يتمكن الأطباء من معرفة المزيد عن حالة "بريوخانوف". فقررت "أولجا" أن تذهب في اليوم التالي.

- متى سيأتي كبير الأطباء؟

نظرت الممرضة المناوبة إلى "أولجا" باهتمام، قائلة:

- ماذا تريدين أيتها المرأة؟ ماذا تريدين بالتحديد؟

- أريد معرفة طريقة عمل المستشفى.

ثم قررت أن تكذب قليلًا:

- يجب إحضار أحد الأقارب إلى هنا.. ونحن نشعر بالقلق.

- ليست هناك حاجة إلى القلق.. المعاملة جيدة هنا، والمعدات متطورة، والأطباء محترفون.

- حسنًا، شكرًا.

رحلت "أولجا"، وقد شعرت بنظرة الممرضة المناوبة المليئة بالحيرة وهي تحاول معرفة أمر الزائرة وما الذي تحتاج إليه بالتحديد.

طرق إلى ذهنها حادثة ما. ففي إحدى المرات في بداية التسعينيات، جاء إليهم فِي المدينة كاتب من منطقة قريبة للعاصمة موسكو. وقد صنع دليلًا

إرشاديًّا "الخاتم الذهبي في سيبيريا". وكان قبل هذا، زار "توبولسك"، و"أومسك"، و"تومسك"، و"مينوسينسك". وذهب إلى المتاحف ورأى الكنائس المتبقية والتقط العديد من الصور. وفعل الأمر نفسه في مركز المقاطعة، زار الأماكن وفحصها. وبمناسبة هذا، كان قد التقط صورًا لمبنى أمن الدولة "كي جي بي". وقد قام بتصويره بجدية، ومن زاوية مناسبة.

وهنا هرع إليه رجال الشرطة: "تعالَ معنا". كانت "أولجا" عندئذ قريبة من هذا الحادث وتابعته، وقد اندهشت مما رأته؛ يسير الرجل طويل القامة النحيف، وكما لو كان متعمدًا، كان يرتدي قبعة ذات مربعات وتغطي أذنيه تشبه ما يرتديه "شارلوك هولمز" في الأفلام، ومعه حامل الكاميرا الثلاثي على كتفه. وبجواره يركض الصغار ويصيحون: "لقد قبضوا على جاسوس! لقد قبضوا على جاسوس!".

سارت "أولجا"، الصحفية الطموحة، وراء المسيرة. ولم تكن تعرف بالتأكيد لم تكن تعرف مَن هذا الرجل وماذا يحدث، لكنها شعرت بأنها تستطيع أن تحصل من هذا الحدث على محتوى.

لم يتم اصطحاب الرجل إلى مبنى "الكي جي بي"، وإنما إلى مكان منعزل، ووصلت "أولجا" إلى هناك من دون صعوبة تُذكر، ووقفت عند الحائط وأخذت تراقب ما يحدث. كانوا يستجوبون الشخص، قائلين: "مَن أنت؟ ولماذا؟"، فيشرح الرجل أنه كان يقوم بجمع مواد لدليله الإرشادي. وحاز المبنى على إعجابه، فقرر التقاط صورة له. ضحك الشرطيون وأومؤوا برؤوسهم. كان واضحًا أنهم لا يصدقونه. وكذلك "أولجا" لم تكن تصدق ما يقوله، حيث نشأت على أن مدينتهم واحدة من المراكز الصناعية، وبها العديد من المؤسسات السرية التي يجب على الأجانب عدم معرفتها. وهنا هذا الشخص، الذي يشبه الروس قليلًا. حتى كلامه غريب، وكأنه يسحب الكلمات أو يختار الكلمات الصحيحة.

أخرج الرجل جواز سفره ودفتر ملاحظاته. فلم يترك هذا عند الشرطيين أي انطباع، فهم لا يزالون يضحكون ويهزون رؤوسهم. عندئذ، شعر الرجل باليأس وأخذ يبحث في حقيبته، فعثر على دفتر أحمر اللون. فصاح: "أنا عضو في اتحاد كتاب الاتحاد السوفيتي!" وكان هذا مفيدًا. أمر مدهش، لكن رجال الشرطة توقفوا فجأة، وأخذوا الدفتر ونظروا فيما هو مكتوب بداخله، ودققوا في الصورة والختم، وأخذوا يعتذرون. وبعد مرور دقيقة واحدة، تم الإفراج عن المشتبه به في التجسس، وقد طلبوا منه ألا يطبع صور مبنى "الكي جي بي"، وكذلك المصانع. وكذلك المتاحف هناك ومنزل "لينين"، و"سوريكوف". فأخذ الرجل وعدًا على نفسه، فصدقوه وأخذوا كلامه على محمل الجد.

كان عند "أولجا" الانطباع أن فتاة الاستقبال ستصيح بدورها: "أمسكوها. إنها جاسوسة". وأن الأمن سيركضون نحوها ويمسكونها من يدها، لكنها

لحسن الحظ شعرت بوجود الشهادة الصحفية ووثائق السفر في جيبي السُّترة الداخليين.

وفي اليوم التالي، وصلت إلى المستشفى بصفتها صحفية. وطلبت مقابلة كبير الأطباء.

كانت كبيرة الأطباء في جولة، فجلست "أولجا" تنتظرها بالقرب من قاعة الاستقبال، حيث لم يُسمح لها بالدخول.

انتظرت "أولجا"، ولكن ليس لفترة طويلة، فبعد عشرين دقيقة تقريبًا، اقتربت منها امرأة مسنة ذكية الهيئة، بعينين متعبتين.

- هل تنتظرينني؟

فنهضت "أولجا" من مقعدها:

- نعم. أنا مراسلة لصحيفة "صوت العامل"، "أولجا سيمينيخينا".

فهزت المرأة رأسها، وقدمت نفسها:

- "ناتاليا أليكساندروفنا تونينا"، كبيرة الأطباء بقسم الأمراض المعدية في المستشفى المدني المركزي. هل لديكِ أي أسئلة؟

- نعم، أريد التحدث معكِ قليلًا..

لم تحدد "أولجا" الموضوع الذي ستتحدث فيه، وقد عرفت لسابق خبرتها أن المحاور إذا عرف عمَّ تريد الحديث معه، ربما ينسحب من الحديث أو لا يرد أو حتى لا يقول شيئًا مهمًا.

وهذا ما حدث. سمعت كبيرة الأطباء اسم "بريوخانوف"، فامتعضت وأخذت تنتظر الأسئلة.

أظهرت "أولجا" جهاز التسجيل، وطلبت من كبيرة الأطباء قائلة:

- هل يمكنني التسجيل؟

- تفضلي.

- هل تأكدت الشكوك حول إصابة "بريوخانوف" ببكتيريا "الجمرة الخبيثة"؟

- لقد أُرسلت التحاليل إلى معهد "إيركوتسك" لمكافحة الطاعون، ونحن في انتظار النتائج.

- وما هو رأيك، "ناتاليا أليكساندروفنا"، هل يمكن أن يكون هذا مرض "الجمرة الخبيثة" أم لا؟

- رأيي لا يعني شيئًا هنا. نحن في حاجة إلى معلومات دقيقة. لقد وضعنا مسارًا للعلاج. والقروح تختفي. ننتظر النتائج من المعهد.

- وماذا عن مسار العلاج؟

- أدوية الشفاء.

وأصرت "أولجا" قائلة:

- وهل يمكنكِ أن تخبرينا بأسماء هذه الأدوية؟

- هذه أسرار طبية.

- لكن الناس قلقون، ولا يعرفون ما ينتظرهم!
- ما المقلق؟ فقط يجب اتباع قواعد النظافة الأساسية. أما "بريوخانوف"، فكما شرحنا من قبل، شرب مياه غير مغلية من البحيرة، وشارك في حفر المدافن، ولمس حيوانًا نافقًا؛ فأر المسك، على الرغم من أن التجارب تظهر أن "الجمرة الخبيثة" تأتي عند التواصل مع الحيوانات الكبيرة، لذلك لا يزال التشخيص غير واضح.
- ثمة العديد من مدافن الماشية على أرض خزان المياه، وأغلبهم يذهب تحت المياه دون أي عزل. هل يمكن أن يكون هذا سبب العدوى؟
عبست كبيرة الأطباء قليلًا، وكأنها سمعت هراءً كبيرًا.
- يجب ألا توجهي لي هذا السؤال!
- ولمَن يمكنني أن أتوجه بهذا السؤال؟
- أنتِ بنفسكِ تعرفين المكان المناسب.. ربما الخدمة الفيدرالية لمراقبة حماية حقوق المستهلك ورفاهية الإنسان. نحن أطباء.. نحن نعالج فقط.
وافقت "أولجا" بشكل مفاجئ وصادق: "بالفعل.. لماذا أتطفل عليها؟ عملها هو العلاج"، ثم شعرت بالخجل أمام هذه المرأة الكبيرة المتعبة منذ الصباح، وبدا أنها جاءت إلى هنا عبثًا.. فقررت أن تجرب حظها للمرة الأخيرة: - وهل يمكنني زيارة "بريوخانوف"؟
فاتسعت عينا كبيرة الأطباء:
- لماذا؟
- حتى أرى بأم عينيَّ أن كل شيء يسير على ما يرام.
- لا. هذا مستحيل. إنه موجود في رعاية مركزة مشددة. ولا يسمح للغرباء بالدخول إلى هناك.
- ولكنكِ قلتِ إنه على الأرجح لا يعاني من "الجمرة الخبيثة".
- لا تستبقي الأحداث، من فضلك! لقد أخبرتكِ أن النتائج لا تزال مجهولة. وعلى أي حال، هو لا يعاني من أمراض رئوية أو معوية، ربما يقتصر الأمر على مرض جلدي. لن أكرر حديثي مرة أخرى، الجميع سيخبرونكِ بنتائج التحاليل. ربما تكون هذه مجرد حساسية. أو شيء أقل من هذا.
غادرت "أولجا" المستشفى خاوية اليدين. وفي الفندق، عذبتها شبكة تليفونها المحمول كثيرًا، إذ كانت تحاول الاتصال بمكتب الخدمة الفيدرالية لمراقبة حماية حقوق المستهلك ورفاهية الإنسان. وفي النهاية، أجابت المتحدثة الصحفية، التي تُدعى "إيرينا"، على أسئلة "أولجا" بسخط: - توقفي عن إثارة الذعر! هذه عقوبة جنائية! مفهوم؟
- اسمعي، اسمعي.. يجب على الناس معرفة الحقيقة.
- أي حقيقة؟ أي حقيقة؟
- هل هناك خطر الإصابة بعدوى "الجمرة الخبيثة" في المنطقة؟
- يا إلهي، ليست هناك أي "جمرة خبيثة"!

- هذا يعني أن تشخيص حالة "بريوخانوف" لم يتم تأكيدها بعد؟
فترددت المتحدثة الصحفية قليلًا. ثم صاحت بعاطفة كبيرة:
- بالطبع، ما زال التشخيص غير واضح. ولم يكن هناك أي تشخيص لـ"الجمرة الخبيثة". إنهم يعملون على هذا. دعونا ننتظر قليلًا!
- وماذا عن مرض "بريوخانوف"؟ لأنه موجود في مستشفى الأمراض المعدية منذ أسبوع. هل هناك سبب لهذا؟
- هذه معلومات سرية.
- واضح! ولهذا السبب يشعر الشعب بالقلق.
- ولماذا يقلق الشعب؟
- لأن كل شيء مخفيًا وغير واضح.
- لا يُخفي أحد شيئًا! عندما يرى المسؤولون ضرورة إخبار الشعب، سيفعلون ذلك دون أدنى شك. وأنا ليس لديَّ الوقت للعبث. إلى اللقاء.
ووضعت المتحدثة الصحفية سماعة التليفون.
جلست "أولجا" على السرير، وأخذت تهز التليفون في يدها. وطمأنت نفسها بما سمعته:
- النتيجة السلبية هي نتيجة في حد ذاتها.
ربما كانت النتيجة عبارة عن مقابلتين وانطباعات عن المستشفى. نهضت "أولجا" وأخذت تستعد. لقد حان الوقت للذهاب إلى "كولبينسك".
لم تخبر أحد بوصولها. نزلت في الفندق، وتجولت في المدينة لتسمع أحاديث الناس، وتراقب المارَّة. بدا كل شيء هادئًا ومستقرًا، حيث كانوا يتبادلون الشكوك المألوفة: هل هناك بالفعل مشاكل يجب الكتابة عنها، والتوجه إلى آلاف الناس.. بالتأكيد ليس كل شيء مثاليًّا، ولكن أين هو؟
بدا الأمر يتحسن أكثر فأكثر. ويتم حل المشكلات هنا، لكن ربما تسير الأمور ببطء شديد .
ها هي الأسئلة تدور في ذهنها. وتحاول أن تفكر في كل صغيرة وكبيرة، ثم قالت وهي ساخطة من أفكارها: - تبًّا لأفكاري! أحدهما يعاني من تشخيص مرضي غير مفهوم، وعليه حراسة أمنية مشددة، والآخر قد تعرض للضرب المبرح وذهب إلى المستشفى.
عثرت "أولجا" على عنوان "أليكسي بريوخانوف" في دفتر ملاحظاتها، لكنها لم تجد رقم تليفون زوجة "أليكسي"، وكان "أليكسي" صامتًا دائمًا.
ذهبت "أولجا" إلى المنزل، وطلبت رقم الشقة على "التكتافون".
رد صوت أنثوي، مُرتعد:
- نعم؟ مَن هناك؟
عرَّفتها "أولجا" بنفسها، فرد الصوت:
- لا أستطيع أن أقول أي شيء. لا أعرف شيئًا.

- فلتسمعي، أنا أعرف "أليكسي" جيدًا. أريد أن أفهم ماذا حدث له. سأساعدكم. لقد كنت في المستشفى في "كانسك"، لم يسمحوا لي برؤيته.. من فضلك فلتسمحي لي بالتحدث معكِ.

ردت الزوجة وهي تنتحب:

- أنا لا أعرف شيئًا. آسفة!

انتظرت "أولجا" دقيقة أو دقيقتين عند الباب. كانت تأمل أن تعود زوجة "أليكسي" إلى رشدها، وتفصح عما يحدث، وتخبرها بكل شيء.

لكنها لم تفعل ذلك..

اتصلت "أولجا" بالعجوز "ماسلياكوف"، لكي تحدد معه موعدًا. فهم يعيشون في مكان قريب من هنا، في الشارع التالي، فقال العجوز: - تعالَي، تعالَي.

بدا "ألكسندر جورجيفيتش ماسلياكوف" وزوجته "ليودميلا" أمام "أولجا" عاجزين تمامًا، مرهقين. ينظرون بتوسل وحزن، لدرجة أن "أولجا" توقعت أن "ديميتري" قد فارق الحياة، قالت: - أين "ديميتري"؟ إنه في المستشفى، أليس كذلك؟

تمتم "ألكسندر":

- إنه في المنزل. لقد أحضروه أمس.

فأضافت زوجته:

- المستشفى أخطر من المنزل. لقد حدث له هناك..

لم تستكمل الأم حديثها، واصطحبوا "أولجا" إلى الغرفة، حيث كان "ديميتري" يرقد.

وجه شاحب اللون، وبه بقع رمادية أو بنية اللون، وهناك كدمات أرجوانية اللون تغطي شفتيه، وعيناه متورمتان. نظر "ديميتري" إلى المدخل، تعرَّف على "أولجا"، وتمتم، وحاول النهوض.

صاحت الأم:

- استرح! لديك ثلاثة أضلاع مكسورة، وفكك..

فقالت "أولجا" بصوت خافت:

- مرحبًا، "ديما"، مرحبًا! فلتستلقِ بالطبع، لا حاجة للنهوض.

أرادت "أولجا" أن تسأله: "كيف حالك؟"، لكنها أدركت أنه من السخف أن تسأل عن هذا، فكل شيء مرئي أمامها. وإذا انتظرت أن يرد عليها، فمن غير المحتمل أن يكون قادرًا على الرد، نظرًا للكدمات التي في فكِّه.

ثم واصلت الأم حديثها:

- وعظام الخد ليست قابلت للحركة بعد، دعنا يا "ديميتري" ننتظر حتى تشفى، وتتحدث مرة أخرى على نحو أفضل.

سحب والد "ديميتري" كرسيًّا، وقال لـ"أولجا":

- "أولجا بوريسوفنا"، اجلسي هنا.

جلست "أولجا"، وظلت تحدق إلى "ديميتري"، ليس لأن الكدمات والخدوش كانت مخيفة. لم يكن الأمر مخيفًا، لقد رأت من قبل وجوهًا تحولت إلى لحم مفروم! لكنها تذكرت "ديميتري" الشاب الذي كان يعمل في الورشة.. ذلك الشاب، القوي، الغاضب.

المالك الذي أخذ منه ملكه، لكنه كان على استعداد للوقوف حتى النهاية.. ومع هذا، أخذوا صحته، مثلما أخذوا ملكه.

قالت الأم، وهي تنتحب:

- وبعد كل شيء.. وبعد كل شيء أجبروه على إشعال النار! هذه هي السادية الحقيقية..

ثم صاحت الأم مرة أخرى، وقالت لـ"ديميتري":

- هيا، استلق! لكي تقول كل شيء بنفسك فيما بعد، فلتسترح..

ثم سألت "أولجا":

- لماذا خرجت من المستشفى؟

بدأ "ألكسندر جورجيفيتش" التحدث ببطء شديد، لدرجة أن زوجته قاطعته، على الفور:

- حسنًا، فـ..

- هذه ليست فكرة جيدة على الإطلاق! لقد كتب "ديما"، بشكل عام، بيانًا، وأدلى بشهادته.

أرادت "أولجا" أن تتأكد، فقالت:

- كيف؟ كتابيًّا أم شفهيًّا؟

لكنها ضبطت نفسها، قائلة:

- لنتحدث عن ذلك في وقت لاحق.

- قال "ديما" إنه يعرف أحد الذين قاموا بحرق المنزل. كان معه في اللواء، وقد أرسل رئيس مستعمرة العقاب على الفور طلبًا، وكتب فيه: "في تلك الليلة، قام ديميتري بمهاجمتهم!" وأن جميعهم كانوا على أراضي مستعمرة العقاب، ولم يتم تسجيل أي غياب لأحدهم. وبعد يوم واحد من دخول "ديميتري" المستشفى، جاء هؤلاء الرؤساء بأنفسهم إلى المستشفى. وانتظروا حتى كان "ديما" وحده في العنبر، وقالوا له: "إذا قلت الحقيقة، لن تسلم!". وأعطوا له هذا الطلب قبل فوات الأوان. حسنًا، ولذلك قررنا أن نأخذه إلى هنا بدلًا من المستشفى. كنا نخشى من أن يحقنوه بشيء ما، فهذا لا يحدث فقط في الأفلام .

تنهد "ألكسندر جورجيفيتش"، قائلًا:

- نعم، لقد كسروا لنا عمودنا الفقري! ليتني كنت شابًّا الآن، ولم يهن عظمي.

قاطعته الزوجة مرة أخرى، قائلة:

- كُف عن قول هذا! فلتريا إصابتكما أنتما الاثنين. واحد منتهٍ تقريبًا والآخر تلقى ضربة..
لم تفهم "أولجا"، فقالت لها:
- كيف؟
- حسنًا، لقد أصيب بالسكتة الدماغية. ليست قوية، كما يقولون، لكنه أصيب على أي حال. أما بالنسبة لـ"ديما"، لا يزال الأمر غير واضح، ربما سيصبح عاجزًا. كما أنه لديه إصابات داخلية أيضًا.
ثم قال "ألكسندر":
- كنت آمل أن يساعدنا الرجال الذين عادوا من الشيشان.
قال جملته ببطء، لكن دون لين كما فهمت "أولجا" الآن ولكن بصعوبة، ثم أكمل:
- اعتقدت أنهم سيتفاعلون مع الأمر. فلديَّ معارف كثيرة في الشيشان، كما أن ابن أخي يعمل هناك "أندريوخا". سيتجمعون معًا لسحق أولئك الأوباش.
جهمت زوجته "ليودميلا"، وهزت رأسها، قائلة:
- وماذا سيحدث لهم؟ كانوا سيقولون إنهم إرهابيون ويطلقون النار عليهم. سيلفقون شيئًا ما لهم، هذا كل ما يحتاجونه للحصول على مكافآت. لن ينهض هذا الشعب دفاعًا عن الحق أبدًا.
كرر "ألكسندر جورجيفيتش" الجملة مرة أخرى، وهو يؤكد حديثها:
- لن ينهض هذا الشعب دفاعًا عن الحق أبدًا!
استغلت "أولجا" أنهما صمتا، وسألتهما:
- هل سمعتما عن مرض "الجمرة الخبيثة"؟ كنت في "كانسك" أمس، وأردت مقابلة "أليكسي بريوخانوف". على الأقل أراه ..
قاطعتها "ليودميلا":
- نعم سمعنا، لكننا لا نعرف شيئًا. هل نحن من الأهمية أن يشرح لنا مسؤول شيئًا عن أي شيء؟
- أردت أن أذهب إلى زوجة "بريوخانوف"، لكنها لم تسمح لي بالدخول. وصاحت في "الإنتركم"، قائلة: "لا أعرف شيئًا".
- زوجته البائعة؟
- ربما..
- حسنًا، يقولون إنهم عذبوها، هي وابنتها أيضًا.
قامت "أولجا" بتشغيل المسجل في هدوء:
- ماذا حدث؟
- نعم، يقولون إن الرجال قاموا برش الشقة بأكملها بشيء ما، وأحرقوا ملابس زوجها. وأخذوا منها تعهدًا على ألا يتواصلوا مع أي شخص لعدة أيام، مثل الحجر الصحي.

أومأت "أولجا" برأسها:
- إممم، ربما لهذا السبب لم تسمح لي بالدخول.
- ربما لهذا السبب. بشكل عام، هم الآن مثل المصابين بمرض الجذام. لا أعرف كيف يشترون الطعام. كما تم وضع كبار عائلة "بريوخانوف" في الحجر الصحي، لكنهم على الأقل في المنزل، وليس في شقة مثل السجن هذه.
قالت "ليودميلا"، هذه الجملة، ونظرت حول الغرفة، كما لو كانت هنا لأول مرة، ثم قالت لـ"أولجا": - هل سمعتِ أن "اليكسي ميخائيلوفيتش تكاتشوك" قد مات؟ إنه رئيس مجلس قرية "بيليفو"، لقد مات ميتة غير حسنة.
قاطعها "ألكسندر جورجيفيتش"، قائلًا:
- لماذا غير حسنة؟ علينا جميعًا أن نحسده .
- حسنًا، إذا أردتم أن تموتوا الآن، فلتموتوا! أما أنا أرى أنه يجب أن نعيش. يجب أن نواصل العيش!
لقد قرأت "أولجا" عن وفاة "تكاتشوك" على الإنترنت، لكنها لم تعرف التفاصيل بعد، ولذلك استمعت إلى "ليودميلا"، وقالت "ليودميلا": - لقد ذهب مع الرجال لحفر القبور في "بيليفو" .
صحح لها "ديميتري" حديثها، وقال:
- لاستخراج الجثث، ونقلها.
قالت الزوجة:
- اصمت، لا تتحدث! لقد قال لي المحقق ذلك. وعلى العموم، أصيب في طريق العودة بنوبة قلبية، أو سكتة دماغية، لا أعرف. وجاؤوا به محمولًا، أيضًا جنبًا إلى جنب مع هؤلاء الموتى الذين استخرجوهم من القبور. وكان معه "أليكسي بريوخانوف". وبعد وصوله، أصيب بحمى، وبدأ يفقد وعيه، وظهرت القرح. ثم قالوا فجأة إنه أصيب بـ"الجمرة الخبيثة"! والآن ننتظر أن نعرف ما سيحدث لـ"أليكسي بريوخانوف".
ابتسم "ألكسندر جورجيفيتش"، بضعف:
- كما يقولون؛ حتى "شكسبير" نفسه لم يكن ليستطيع أن يؤلف حكاية مثل هذه..
اهتزت "ليودميلا"، كما لو أنها تحاول أن تخلص نفسها من العبء، وقالت:
- بالتأكيد. دعونا على الأقل نتناول كوبًا من الشاي، وإلا.. علينا أن نعيش هذه الحياة. سأذهب لكي أضع الماء.
عندما عادت "أولجا" إلى الفندق، سمعت كلمات من أحد المارَّة، أضافت لرأسها المزيد من الأسئلة. كان هناك رجلان يمشيان ببطء، قال أحدهما: - يا له من راتب سخيف! نحن نعمل لكي نحصل على مال، لكنهم يعطوننا بدلًا منه سمكًا مخزنًا. سأغير عملي في هذا المتجر. ليتني آخذ ثلاثة آلاف.

وقال الرجل الثاني بدهشة وخوف:
- ماذا؟ ألم يدفعوا لك على الإطلاق مرتبًا جيدًا؟
- لم يعطوني كوبيك واحدًا في الأشهر الأخيرة!
- لقد وعدوني بإعطائي ستين ألفًا.
- آه، الكلام سهل. نحن نعيش في حالة من العبث.
توقفت "أولجا" عن الحراك، وظلت تحدق لهما وهما يذهبان. أرادت أن تلحق بهما، وتسألهما عن مزيد من التفاصيل. وماذا سيفعلان؟
ظلت هذه المرأة تركض في الشارع الهادئ وراء رجلين. أرادت أن تقدم لهما نفسها كصحفية، وتطرح أسئلة، لكنه أمر لا يخصها، لكنها من ناحية أخرى، لا تعرف أبدًا ما الذي يثيرها لكي تطرح الأسئلة على هؤلاء الغرباء، شعرت "أولجا" بالخوف.
أو ربما هذا الشخص الأول، الذي يقول مدى سوء الوضع هنا، يعبث؟ لنفترض أن كلًّا منهما عمال لحام، والأول لا يعمل بشكل جيد، وعلى وشك أن يُطرد، والآخر عامل جديد وسيحصل على وظيفة. وأن العامل الأول يحاول أن يخيفه لكي يغادر هذا العمل، ولا يتعرض العامل الأول للطرد بعد.
طمأنت "أولجا" نفسها قائلة: "سأحاول غدًا معرفة ماهية الرواتب هنا، والحياة اليومية".
وفي المساء، كتبت "أولجا" في مفكرتها ذلك الجزء من المحادثة مع والديَّ "ديميتري"، الذي كانت قد سجلته بالفعل بالمسجل، ومحادثة الفلاحين، وما حدث عند مدخل منزل عائلة "بريوخانوف".
اتصلت بعد ذلك بزوجها، وقال لها في نبرة عتاب صريح:
- كل شيء على ما يرام معنا.
لم يسألها عن أحوالها.
وفي اليوم التالي، ذهبت إلى مركز الشرطة. وبفضل هويتها كونها صحفية، سُمح لها برؤية العقيد دون تأخير تقريبًا، لكن نظرة واحدة منه إليها كانت كافية لكي تدرك "أولجا" أنها لن تخرج بمعلومة منه. قالت له "أولجا": - أنا هنا بشأن ما يحدث لـ"ديميتري ماسلياكوف".
- نعم، يمكنني تخمين هذا بالطبع. حسنًا، اجلسِي.
كان العقيد مسنًا، سمينًا، ومن الواضح أنه غير رياضي. لسبب ما، شرعت "أولجا" تتساءل عن عدد المرات التي يمكنه فيها أن ينهض، وإذا كان بإمكانه الركض ثلاثة كيلومترات أم لا. بدأت حديثها قائلة: - أود أن أعرف ما الموقف مع "ديميتري ماسلياكوف". هل تمكنتم من معرفة مَن ضربوه؟
رفع العقيد كتفيه العريضتين، واختفى عنقه تمامًا للحظة، قائلًا:
- يتم الآن التحقيق في الأمر. على ما يبدو، سيتم فتح قضية جنائية .
- على ما يبدو؟ لذا أنت لست متأكدًا حتى الآن، أليس كذلك؟

- إممم، لا تسير الأمور على هذا النحو. هناك تصريح من الضحية. صحيح مَن في هذه الظروف لا يتحدث عن الأمور بوضوح تمامًا. حيث إنه يتحدث بالأمور غير المهمة، ويعبر عن أفكاره بالكتابة بشكل أسوأ.
- هذا لأن الفك مكسور، ويعاني من ارتجاج في المخ..
فقاطعها العقيد قائلًا:
- لم أتمكن حتى الآن من رؤية التقارير الطبية. وعلى العموم، لست أملك الحق في التدخل في الحالة الطبية.
حاولت "أولجا" بكل ما أتوتيت من قوة أن تقنع نفسها لتكون هادئة ومتوازنة، ولكنها كانت متحمسة: - لكن الناس في حاجة إلى معرفة شيء ما. وإلا سيتكون شعور بالإفلات من العقاب. يتعرض الرجل للضرب المبرح، ويمكنه أن يصبح معاقًا إلى الأبد، والذين ضربوه أحرار، ولا سيما أنهم المُدانون. وبشكل عام، يتجولون بحرية خارج حدود مستعمرة العقاب.
- إذا كنت في مكانك لم أكن لأصرح بهذا بشكل واضح. ربما يكون هناك مشتبهون بهم، لكن على أي حال لن يخبرك أحد الآن مَن يكونون.
ثم توقف العقيد قليلًا، وأكمل قائلًا:
- لكنهم موجودون في واقع الأمر.
- ولكن لماذا لم تفصح عنهم؟
- لأن هذه معلومات سرية!
فرفعت "أولجا" يدها:
- يا إلهي.. هناك معلومات سرية في كل مكان!
فابتسم العقيد ببراعة:
- ماذا تريدين؟ سياسة الانفتاح والشفافية هذه لم تؤدِ إلى شيء جيد. لقد دُمِّرت الدولة بسببها! الخدمات ذات الصلة، باختصار، تُجدي، وسيتم الإبلاغ عن النتائج.
وهنا أصبح صوت العقيد حازمًا:
- وأنا لن أكن لأدافع بتهور عن "ماسلياكوف". الرجل ليس بسيطًا، بل ماكر. وقد أجرى بعض الصفقات التجارية مع المُدانين، حيث اشترى منهم الوقود، وأحيانًا كان يقايضهم بالفودكا، ويبيعون المعادن غير الحديدية.
- جمع هذه المعادن يعد أمرًا غير مستحب الآن؟
- حسنًا، على الرغم من الطريقة والمادة، كان الأمر يتم بطريقة القرصنة بلا أدنى شك. وكان هناك حادث منذ وقت طويل؛ عندما تم التخلص من شاشات التليفزيون السوفيتية، ذهب أحد الحرفيين إلى مقالب القمامة وأخرج منها الأجزاء التي تحتوي على الذهب، وعندما جمع ما يعادل سبيكة كاملة منه، كانت النتيجة أنه دخل السجن، على الرغم من أن المادة مجرد ألمونيوم ونحاس، وليست ذهبًا، ولكن الأمر كان هكذا. الأحجام مهمة للغاية.
- حسنًا، كل ما كان عليكم هو رفع الألومنيوم الذي يوجد عنده و..

فصاح العقيد مجددًا:
- هذا عمل هيئات أخرى. وما علينا إلا أن نتأكد من عدم انتهاك القانون. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن القانون يُنتهك بشكل علني. وهناك مكتب المدعي العام للحالات الأكبر من ذلك، ولجنة التحقيقات.
فقالت "أولجا" بنبرة صارمة:
- وهل سيغرقون الغابة بالقانون؟ ومقابر الماشية؟ عمومًا، هل يتم هذا التوطين بشكل قانوني؟
- حسنًا، لقد أجبنا عن التصريحات. علاوة على ذلك، كانوا يذهبون إلى "ماسلياكوف" عندما يقترب منه بضع الأشخاص للقيام بأحد المشاريع.
- بعض الأشخاص.. أنت تعرف أي نوع من الأشخاص.
- كان يمكن اعتقاله في بعض الأحيان ووضعه أمام لجنة التحقيق الإدارية، وأحيانًا لا. ومع ذلك يتم تحديد مستوى الذنب، كما تعلمون، من قبل المحكمة. أخبرنا بمجرم بنسبة مئة بالمئة. وسنلقي القبض عليه.
فتنهدت "أولجا":
- أنا أتحدث عن الأشخاص الآخرين. عن شيء آخر عامة.
فسخر العقيد بوضوح:
- أنا لا أفهمكِ. إذا كان لديكِ وقائع لانتهاك القانون، فاكتبي بيانًا بهذا. وسننظر في الأمر.
ثم أشار إلى رزمة من الورق وعليها قلم.
فنظرت "أولجا" إليه في عينيه؛ كان العقيد هادئًا، ويبتسم نصف ابتسامة، فنهضت "أولجا": - حسنًا، مفهوم. على أقل تقدير، سنتعامل مع قضية "ديميتري ماسلياكوف" بأنفسنا.
- لا تقلقي، سننظر في الأمر. مع السلطات المختصة.
- إلى اللقاء.
وذكر العقيد في ظهرها:
- حسنًا، توجهي إلينا إذا ظهر شيء ما. فإن إخفاء الحقائق الضرورية للتحقيق يعاقب عليه القانون.
- حسنًا، لا توجد تحقيقات من الأساس.
- ستظهر، ستظهر. كل شيء سيظهر.
كان يتبقى على أقرب حافلة متجهة إلى "كراسنويارسك" ما يقرب من ساعتين. لذا كان هناك وقت لدى "أولجا" لتذهب إلى مكتب الصحيفة المحلية، التي احتفظت باسمها القديم المضحك بعض الشيء؛ "كوتاي السوفيتية". فلا توجد سلطة سوفيتية منذ وقت طويل، وليس هناك "كوتاي"، لكنهما موجودتان في اسم الجريدة.
كان من الضروري الذهاب إلى مكتب التحرير من أجل الإشارة إلى رحلة العمل والاحتفال بها.

كان مكتب التحرير مكتظًا بالنساء وكبار السن، فتركت الجريدة شعورًا بقدم نمطها. وكان المكتب يتكون من قطع عديمة اللون، وتبادل النخب، وكذلك بعض الإعلانات والمقتطفات المطبوعة من الصحافة المركزية. إذا كانت هناك مقالات، وبالأحرى، ملاحظات أو معلومات عن المشاكل، فإن تلك المشاكل تظهر على أنها افتراضات خاطئة، أو أوجه قصور منفصلة.

والآن، وبعد أن انتهت المحادثات مع كبيرة الأطباء، وكذلك العقيد بالفشل، وكانت تلك المحادثات تدور حول مشهد ضرب "ديميتري" وعجز والديه، وترهيب زوجة "أليكسي بريوخانوف"، طرحت "أولجا" على رئيس التحرير في جريدة "كوتاي السوفيتية" سؤالًا غير صحيح سياسيًا، بل ومهنيًّا: - "جانا أوليجوفنا"، هل يحدث هذا لديكن في المنطقة؟ تلك المعاناة، والجريدة راضية بكل هذا. لقد قرأت كل عدد على موقعكم فشعرت بالدهشة. هل تخافون كتابة الحقيقة؟

قالت هذا وخشيت أن تصرخ "جانا أوليجوفنا" في وجهها وتقول: "ارحلي من هنا!" أو تبكي مثلًا. ولوح تفكيرها الجبان: "لم أستطع أن أوثق أي شيء في رحلة العمل هذه".

لكن رئيسة التحرير أجابت بشكل مدهش، لا يمكن الاعتماد عليه لكنه بشجاعة:

- نعم، أنتم على صواب، نحن نخاف نشر الحقيقة. بالإضافة إلى ذلك لا يسمح لنا أحد بفعل هذا.

وتوقفت قليلًا، وعلى ما يبدو كانت تتوقع سؤال عن "السبب"، لكن "أولجا" لم تسأل، فأخذت "جانا أوليجوفنا" تشرح: - الصحيفة جزء من اتحاد إنتاج المطبوعات. لقد قاموا بتشغيلها رغمًا عن إرادتنا، وطاقم العمل لا يحق لهم تقرير أي أمر، وتعد الجريدة هيئة لإدارة المنطقة. ومنذ سبع سنوات تقريبًا، عندما تم إنشاء هذا الهيكل الهرمي، تم إدخال الجريدة في نطاق الاتحاد. رسميًّا من أجل تجنب المخاطر المالية، وتبسيط الهيكل، لكن في الواقع، نحن لا ننشر هنا، وليس حتى في "كانسك"، وإنما في "كراسنويارسك" بشكل مباشر! ورسميًّا أيضًا من أجل تحسين جودة الطباعة، وهذا ما يحدث. نرسل نموذجًا واحدًا، ثم يُطبع ويُنشر. وأحيانًا يتم استبدال ثلث المحتوى! وفي كل أسبوع يتصلون ويطلبون: "شيئًا أكثر إيجابية! شيئًا أكثر إيجابية" فتمر التقارير الخاصة بمقابلة مواطني القرى المختفية، وكذلك مقال عن كيفية وصول "فالانتين جريجوريفيتش راسبوتين" إلينا وماذا كان يقول، وما بكي بسببه وما لا نعرفه. فنُجرب، ونحاول. وعلى الرغم من أننا نخشى من طردهم للجميع، فإننا نحاول ونحاول. صحيح لا فائدة من هذا، إذا كان هناك انطباع معين.

رأت "أولجا" الجدار الذي كان يحيط بهؤلاء الصحفيين. جدار طويل، قوي ولا يمكن اختراقه. ولأول مرة من فترة طويلة، شعرت بالخجل من نفسها.

وقالت: - معذرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر
الماء يغمر

كانوا يطلقون على "إجناتي أندريفيتش أوليف" لقب المطرقة في قريته الأم. كان يسمع في هذا اللقب سخرية من شغفه بإعادة البناء وصيانة كل شيء؛ إذ يُجدد السياج مرتين في العام، وفي الخريف والربيع يقوم بصيانة الأسقف، وكذلك الحجرة الخشبية، ويمهد أرضية الفناء مع ظهور أول علامات فساد جزء ما أو فقط لأن القطع لا تتلاءم مع بعضها بعضًا، بعدما يقوم بفرزها. حتى بيوت الدجاج وبيت الكلب لم يدعها وشأنها دون استخدام المطرقة.

أما زوجته، كانت لا تزال على قيد الحياة، تصيح:

- اهدأ! أيها المطرقة! مساميرك تدخل في رأسي!

والجيران كذلك ينزعجون من الطرق في الصباح والمساء.

الآن، لم تكن هناك مطرقة لدى "إجناتي أندريفيتش أوليف". والشقة تكاد تكون فارغة تمامًا، فقط هناك الأشياء الضرورية التي تساعدهم على الأكل والنوم والجلوس أمام التليفزيون.

لقد أحضر "إجناتي أندريفيتش" الكثير من الأمتعة من القرية، وقد ملأ الشقة بأكملها، لدرجة أن التحرك في الشقة كان بصعوبة. فمن مدخل الشقة، توجد ممرات ضيقة بين الأشياء تؤدي إلى الغرفة أو المطبخ أو الحمام. وبطول الحوائط، كانت توجد تلال من الحقائب والصناديق وأجزاء من الأثاث المُفكك والسجاد والألواح المسطحة لمعظم الأغراض.

جاءت الابنة من "آخينسك"، وحاولت ترتيب الأمور وتنظيمها. ولوح "إجناتي أندريفيتش" بيده قائلًا: - لاحقًا سنقوم بذلك.

عاش هكذا لأكثر من عام، ثم قام بحمل الأشياء إلى الشارع. وفوجئ أنه أخرج أشياء كثيرة، وكأنها جبل من الصناديق والخرق والأرفف وقطع الحديد من الحاويات. وحاول كعادته أن يفحصها مرة أخرى، ثم عاد إلى رشده، وتركها وشأنها.

بعد ذلك بيومين، قابل مواطنًا من بلدته يُدعى "فيكتور بلوتوف"، وهو معلم عمله السابق في المتجر، وأخبره أنه تخلص من الكثير مما أحضره.

أجاب "فيكتور" بحزن:

- لقد تخلصنا من الكثير أيضًا. ماذا سنفعل بهم هنا؟ لقد اختنقت زوجتي من هذه الأشياء.

- وأنا لم أستطع النوم. لماذا أحتاج إلى هذه الأشياء الآن؟

عاش "إجناتي أندريفيتش" بمفرده. كان يخشى أن يذهب بعيدًا عن موطنه، ويعيش عند أبنائه، فقال: - أنا في نهاية العقد السابع من عمري. سأشيب هنا. وما النفع الذي سيعود عليَّ إذا ذهبت للعيش في "آخينسك" أو "بيرديسكي"؟

سرعان ما شعر "إجناتي" بالندم لأنه كان يقوم بهذا العمل، ويزحم المكان. في الشتاء، كان الرجال يأتون إليه كثيرًا من القرية، ولم يكن هناك مكان يجلسون فيه. واضطر في ذلك الوقت الذهاب إلى متجر أثاث لشراء بعض المقاعد.

نادرًا ما كانوا يشربون الخمور، لكنهم كانوا يشربون الشاي والسجائر، ويتذكرون الماضي، ويتبادلون الأخبار والشائعات، خاصة أخبار قريتهم "بيليفو". قال العجوز "ميرزلياكوف": - لقد وصلت المياه إلى المدرسة.

تخيل أولئك، الذين تجمعوا، بصمت لعدة دقائق المكان الذي توجد فيه المدرسة والمسافة وارتفاع مياه الشاطئ قديمًا. لعدة دقائق، تخيلوا بصمت المكان الذي كانت فيه المدرسة، والمسافة والارتفاع عن الشاطئ السابق. وقال أحدهم، متنهدًا: - لقد أصبح منسوب المياه مرتفعًا.

تذكر أحدهم قائلًا:

- لقد كان هناك نصب تذكاري لقدامى المحاربين، ألم ينقلوه؟

- نقلوه بعيدًا. الآن كل هذه التماثيل موجودة في مقبرة جنبًا إلى جنب.

- حسنًا.

لكن بالطبع كان هناك مَن يعارض مَن قال "حسنًا"، وقال:

- لكن هذا المكان لا يليق بقدامى المحاربين، من المفترض أن يضعوا مثل هذه الآثار في الساحات المركزية التي تقع بالقرب من المدارس، لكي يراه الأطفال، ويتذكروه.

- الوضع هنا مختلف عن القرية.

- نعم.

ثم قاموا بتدخين بعض السجائر، وتنهدوا، وقال أحدهم:

- وكم عدد القرى التي غمرتها المياه، هل اتضح الأمر؟

- حسنًا، دعنا نحسب.

ذكروا أسماء القرى التي لم تعد موجودة الآن بنوع من السرور المرير:

- "كوتاي"، قريتنا "بيليفو"، "سيرجوشينكو".

- ما علاقة" سيرجوشكينو" بالأمر؟ لا يوجد فيضان يمكنه أن يجتاح تلك المسافة.

- ما زالت الأكواخ موجودة، لكنهم قاموا بإعادة توطين الناس مرة أخرى. وهناك عشرات من القوارب لحمل أمتعة السكان!

- حسنًا، نحن لا نتحدث عن هذا الآن. بشكل عام، "سيرجوشكينو" ستغمرها المياه أيضًا.

- و"بروكلوفو"، و"بولشاكوف".
- و"أوسوفو".
- كانت قرية جميلة.
- نعم، كانت صغيرة، مثل لعبة.
- لقد بنى الألمان بها شيئًا ما.
- ليس الألمان، بل الليتوانيون.
- وهل يوجد فرق..؟
ثم قاطعهم الشخص الذي كان يعد القرى:
- في "كوسوي بيك"، في "سيلجينو"..
قاطعه أحدهم:
- لطالما كانت "سيلجينو" فارغة.
- هذا مكتوب فقط، لكن هناك الكثير من المنازل لم تُدمر بعد.
- لقد عاشت هناك "كوستشيخا". كانت ترأسهم هذه العجوز.
- لقد ماتت.
- ماذا تقول؟ لم أسمع عن هذا.
- لقد نقلوها من هناك إلى مكان آخر، وماتت بعد شهر. الآن يتفاوض أقاربها مع المحكمة.
- عن ماذا؟
- حسنًا، الشقة لم تكن ملكها، لذا، لن يعطوا الأقارب هذه الشقة، التي تقع في المدينة. في النهاية، هذا أمر يشتت العقل.
- كلنا في الوضع نفسه.
- ماذا؟
- كلنا ستشتت عقولنا.
- هناك الكثير من المشاكل التي نفكر بها، وتؤدي بنا إلى الجحيم.
- صحيح.
- نعم.
- وماذا عن قرية "تايجني"؟ هل سيتركونها حقًّا؟
- تمت إعادة توطين البعض، لكنها ما زالت موجودة بعد..
- ما زال هناك أكواخ على الأرض وحدائق، لكن مبنى التدفئة على بعد عشرة أمتار من الماء.
- أعتقد أنني سمعت أنهم سيبنون سدًّا قويًّا هناك. ويقولون إنهم لن يتركوا هذه القرية تغرق منهم.
- نعم، هناك طريق سريع سيمر عبره.
- لماذا؟ ولماذا سيبقي الناس هناك؟ إنهم عمومًا في حالة ذعر هناك، وينتظرون كل يوم الفيضان يغمر مبنى التدفئة، خاصة أنهم الآن في موسم الشتاء.

- ربما ليس لديهم ما يكفي من المال كي يرحلوا السكان إلى مكان آخر. لقد دمرناهم.
- دمار.
- فمثلًا "بوتين" نفسه سيتابع المشروع من موسكو، لن يأتي إلى هنا. وهذا للتوفير نظرًا للحالة الاقتصادية.
- ليته يأتي إلى هنا، ويصطاد معنا.
- نعم، ماذا لديه هنا معنا؟ أيصطحبه "شويجو" للصيد إلى مثل هذه الأماكن؟! لقد حولوا النهر إلى قذارة.
ذهب "أليكسي بريوخانوف" أيضًا إلى "إجناتي أندريفيتش" بعد وعكته الصحية، التي ظل فيها لفترة طويلة لا يمكن فهمها، وفقد وزنه، وأصبح نحيفًا. في البداية، بعد خروجه من المستشفى، حاول كشف حقيقة مرضه؛ أي نوع من القرحات التي كان يعاني منها على ذراعيه؟ (لقد كانت بقع سوداء اللون، ثم اختفت، وظهرت مرة أخرى على هيئة قرح)، لكنه لاحظ، كلما زادت، تجنبه من حوله أكثر فأكثر، فأنت لا تعرف أبدًا، حقًّا، ما الذي أصيب به ومرضه. لقد تناول الأدوية الموصى بها، وبدا أنها تساعد.
ظل في أغلب الأوقات هادئًا، مبتسمًا للنكات المريرة والكلمات الحادة لأبناء بلده. ثم بدأ بإحضار الأوراق، وقال: - اشتريت كمبيوتر لابنتي وبدأت أفتح الإنترنت من خلاله. هناك الكثير من كل شيء. والمعلومة التي تأخذ الكثير من الوقت لكي نبحث عنها في المكتبة بأكملها، يمكنك الآن العثور عليها في خمس دقائق. هناك الكثير عن أماكننا. يمكنني قراءتها الآن، لقد كتبت بعضًا منها.
- هيَّا، هيَّا، يا "ليشا" لنعرف على الأقل.
سعل "أليكسي بريوخانوف"، وأوضح:
- هذا الرحال، الذي جاء حتى قبل "بطرس الأكبر"، في القرن السابع عشر، لم يكن مسافرًا، بل كان سفيرًا. كان ذاهبًا إلى الصين ومر على بلدتنا. لقد كتبت ذلك في المفكرة..
وهكذا كتب باختصار: "على الجانب الأيسر، توجد قرية كوتاي، على بعد ميلين من جزيرة فاراتاييف. على الجانب نفسه، يوجد نهر كوتاي. وعلى هذا النهر تم إنشاء طاحونة، ويملكها الملك العظيم..".
أوقفه "إجناتي"، سائق الجرار سابقًا، والآن حامل للأشياء في مركز تسوق: - انتظر، انتظر، كيف على الجانب الأيسر؟ كانت "كوتاي" على اليمين.
ثم تلعثم "إجناتي أندريفيتش"، قائلًا:
- ربما في وقت سابق كانت على اليسار. منذ ثلاثة قرون..
- حسنًا، هل غَيَّر النهر مكانه أيضًا؟
- "ليشا" على حق.

ثم ابتسموا بحزن.
ثم قال "ليشا بريوخانوف":
- أعتقد أنه حدد هذا المكان بنفسه، لقد كان يبحر إلى أعلى كثيرًا، ربما اليمين لديه هو اليسار لدينا.
- إممم.. ربما.. ماذا بعد؟
- بينما أنت تذهب من قرية "كوتاي"، ستقابلك جميع الجزر، ولن تستطيع رؤية الشاطئ الآخر.
- آه، هذا يعني أنه كان يصعد. هناك الكثير من الجزر فوق "كوتاي".
"على الجانب نفسه، توجد قرية أوجورودنيكوفا، على بعد خمسة أميال من نهر كوتاي. على الجانب نفسه، توجد قرية كروميلوفا، ويوجد نهر ماماير في ضواحي القرية، على بعد أربعة أميال من قرية أوجورودنايا. وعلى الجانب الأيمن، توجد قرية سوفرونوفا..".
ثم عبس "إجناتي أندريفيتش"، وقال:
- وما نهر "ماماير" هذا؟ بالقرب من "براتسك"؟ أعرف أن هناك قرية تسمى "ماماير". هل أبحر بالفعل في منطقة "إيركوتسك"، أم ماذا؟
- نعم، بالكاد، لكنك لا تعرف حقًّا نهر "ماماير"؟ يوجد في "إيركوتسك" أيضًا قرية تسمى "كوتاي". أيضًا ليست بعيدة عن "براتسك".
- نعم؟ هذا هو السبب في أنهم لم يحتفلوا معنا في مراسم الاحتفال، لأن هناك اثنين "كوتاي"، واحدة كبيرة، والأخرى صغيرة. موسكو لن تغرق.
- هاهاها، أنت تتحدث عن موسكو.
ثم صمتوا لمدة دقيقة، تخيلوا أن هناك فكرة لسد نهر موسكو، لبناء محطة طاقة كهرومائية عليه. وبدأت إعادة توطين سكان موسكو في مدن وقرى روسيا، ثم قال "فيكتور بلوتوف": - و"بيليفو"؟ هل ذكر أي شيء عنها؟
هز "ليشا بريوخانوف" رأسه، قائلًا:
- ليس الآن، لكن سيكون هناك المزيد. وإليكم ما هو مثير للاهتمام؛ اتضح أنه كان هناك العديد من القرى بين "كوتاي" و"أوست - إليمسك". كان هناك عشرون قرية بينهما.
ثم نظر إلى المفكرة، قائلًا:
- مثل "سوفرونوفا"، "سوفوروف"، "سمورودنيكوفا". وبالمناسبة، كانوا يبحثون عن اللؤلؤ في قرية "سمورودنيكوفا". ووجدوا في تلك الأماكن لآلئ صغيرة وطباشير ملون. تم العثور على خشب الجوز.
أثار هذا الحديث نقاشًا طويلًا. وتفاجأ البعض ولم يصدقوا أن محار اللؤلؤ يمكن أن يعيش في نهرهم، وأكد آخرون، تقريبًا، أنهم لم يروا هذه الأصداف فحسب، بل أيضًا لآلئ صغيرة فيها. ثم قال "جينكا جلوخيخ": - حسنًا، لم أكن أعتقد حتى أنها كانت لؤلؤة. اعتقدت أنها حبة رمل كبيرة جدًّا. لم أتعرف عليها.

لم يصدقوه تمامًا، لكنهم كانوا يخشون إعلان أنه يكذب. لقد كان "جينكا" سكيرًا ومخادعًا، نذل لا قيمة له، هو الذي أحضر ٤٠ كيلوجرامًا من سمك الحفش إلى القرية قبل بضع سنوات.

تابع "أليكسي بريوخانوف" حديثه:

- وهنا عن "بيليفو" الذي ربما أنشأها على الأرجح أيضًا، أو ابنه، كان هناك فوق النهر قرية "كوتاي"، وفيها الفلاحون يحرثون وهم "ديمكا بريفاليخين"، "فاسكا بيليف"، "إيفاشكو دا لوشكو دا كليمكو سافيني".

تنهد "فيكتور":

- "بريفاليخين"؟ كم من الأحداث قد تغيرت في أكثر من ثلاثمئة عام، ولكن تم الحفاظ على هذا اللقب. ليس اللقب فقط، بل نسل العائلة!

- حسنًا، تحتوي المستندات على مجموعة من أسماء الأصدقاء. "زابورتسيفا"، "روكوسويفا"، "سيشي"، "فيرخوتوروفا"، "سافاتيفا"، وأجدادي آل "بريوخانوف".

- نعم، لقد عاشت هذه السلالات لقرون، لكنهم أخذونا الآن.. وجرفونا بعيدًا.

هكذا أمضى سكان "بيليفو" السابقة العديد من أمسياتهم وعطلات نهاية الأسبوع في مناقشة ملاحظات "بريوخانوف". كانوا يتذمرون في بعض الأحيان، ويبتلعون الدموع عندما يستمعون إلى شيء مثل مقال المدرسة هذا: "بين أحضان الطبيعة الجميلة، في مكان خلاب بين التلال المشجرة، كانت هناك قرية جميلة تدعى بيليفو؛ موطني. وقد تم اختيارها في وقت مبكر من القرن السابع عشر. لا بد أن أسلافنا قد اندهشوا من ثراء وجمال هذه المنطقة. حول التايجا؛ حيث هناك الفطر والتوت، وبحر من الزهور، هنا قام السكان بزراعة الحبوب، التي نعد بها الخبز الطازج. وكانت الحقول المحيطة صغيرة، مثل البقع، وتحمي من الرياح، زرع في هذه الحقول محاصيل جيدة. وكان هناك دائمًا الكثير من الأسماك في النهر، وحيوانات في الغابة.

كان الناس هنا يعرفون واجب الضيافة حق المعرفة، وكانوا يطعمون المسافر بكل ما لديهم، ويعدون له حساء السمك أو يطهون اللحم مع البطاطس المفتتة.

تقع بيليفو في مكان بارز؛ على ضفة عالية، محاطة بأشجار التايجا من أحد جوانبها. وفي فصل الصيف، كانت الوديان على طول الساحل مزينة بالزهور. أما في فصل الشتاء، عندما كان النهر مغطى بالجليد والثلج، يصبح لدينا حقل ذو لون أبيض واسع بين التلال والانحناءات لدرجة أن نفسك ينقطع قبل أن تصل إلى نهايتها. وآسفاه أن أيًّا من هذا قد اختفى الآن".

ثم جاء "جينادي" بورقة. وقال:

- لقد كتبت قصيدة صغيرة. تريدون الاستماع لها؟

لقد كتب الكثير من الناس القصائد والأغاني عن "بيليفو"، لذلك لم يتفاجؤوا بشكل خاص. على الرغم من أن هذا لم يكن متوقعًا من "جينكا"؛ لطالما كره الكلمات والقصائد. قال أحدهم: - هيا، هيَّا يا "جينكا"!

- حسنًا.

صمت الجميع، وظلوا ينظرون إلى الجانبين أو على الأرض؛ حتى لا يشعر بالحرج، ثم ضبط "جينادي" حلقه بعناية وبدأ في قول القصيدة: - "بوجاتشاني"، "بوجاتشاني"

المياه الفاسدة غمرت الأرض

صنع الحكام محيطات جديدة

أصبح العمال كالعبيد.

كرمش "جينادي" الورقة، وقال:

- لا، هذا ليس بيت القصيدة. ليس عن ذلك..

- ماذا بك يا "جينادي"؟ الكلمات طبيعية..

- لا، ليس عن ذلك، الأمر لا يتعلق بالحكام، ولا يتعلق بالسد والألومنيوم. ولا يتعلق حتى بحقيقة أننا فقدنا وطننا. ليس عن هذا.

ثم سأل العجوز "ميرزلياكوف" بسرعة:

- إذًا عن ماذا؟

- حسنًا، الأمر شخصي، كما تعلمون، أنا لم أستمتع حقًّا بحياتي في هذه القرية. كانت زوجتي تجرُّني إلى الحديقة لتنظيفها، وهذا أمر أسوأ من شنق النفس. كان من الأسهل بالنسبة لي صناعة جرار بدلًا من قطف البطاطس. حسنًا، ليس لأنني كسول، أنا لست كسولًا منذ الطفولة. والآن أنا أعمل بكد، لكنني أحلم بهذه الحديقة اللعينة، وفنائي الخاص، على الرغم من أنه يبدو من الخطيئة أن أتذمر؛ لقد أعطوا لنا شقة عادية، ولا يدفعون فلسًا واحدًا هباءً في العمل، لكنهم لا يجعلوني أحمل الحقائب على ظهري، بل هناك عربة حضارية.

سأم "فيكتور" من حديثه، فقال:

- ولماذا تقول كل هذا؟

- لأننا لا نشعر بالأسف على القرية نفسها.

حدق إليه الرجال، فصحح "جينكا" حديثه، قائلًا:

- أنا أتحدث عن نفسي، وليس القرية نفسها والحياة هناك، لكنني.. قد عشت هناك، وكنت أتوق أن أعيش حياة مختلفة، وقد كان، لكنني أشعر الآن بأنني قد فقدت حمايتي، ليس لأن الأرض قد غرقت، ولكن.، ولكن بطريقة أخرى.. كيف أشرح الأمر؟

ثم ابتسم "إجناتي أندريفيتش":

- لقد فعلت شيئًا ما خاطئًا، لدرجة أنك قد خلطت الأمر بداخلك. فلتقل بصراحة؛ إنك اشتقت للقرية، إنه لأمر مؤسف.

ثم استكمل "إجناتي" حديثه وهو يضحك وقال:
- أفتقدك، أفتقد وطني، لكن ليس لأنني كنت سعيدًا هناك. البعض يشتاق لحياة السجن هناك.
- حسنًا!
- أم الجيش. هل تفتقد الجيش؟ وبتعبير أدق، أعتقد أن الأمر يشبه، كما لو أن الدير مغلق والرهبان مشتتون، أين سيعيشون في هذا العالم؟ لكنهم سيعيشون وسيعانون ويبكون على ديرهم.
ضحك "جينكا جلوخيخ"، قائلًا:
- يا له من دير! كان لدينا كثير من المسنين مثل أهل الدير في "بيليفو"!
- أنا لا أقصد هذا المعنى.
ثم قال "بريوخانوف":
- حسنًا يا "جينكا"، لقد فهمتك. لقد قرأت قصة؛ في الثلاثينيات، بنيت محطة على نهر "الفولجا"، وغمرت المياه مناطق شاسعة هناك، وأعيد توطين مئات الآلاف. وعثرت على وثيقة على الإنترنت تفيد بأن مئتين من السكان رفضوا الذهاب، وغرقوا.
- اللعنة!
- كانت هناك تعليقات كثيرة تحت هذه الوثيقة: البعض يقول إن هذا لا يمكن أن يكون قد حدث، وإنها قصة وهمية. وإن الماء كان يرتفع ببطء لعدة أشهر، وإن الأرض قد أخذت منهم عنوة. وآخرون يقولون إنه لا يمكن أن يكونوا قد غرقوا، لكنهم حُشروا تحت الأرض، في حفرة.
قال العجوز "ميرزلياكوف" بتمعن:
- في الثلاثينيات، كان بإمكانهم ذلك. لقد كان هناك شعب آخر. الآن هم يطاردوننا مثل الخرفان ونحن نطيع.
فتح "جينكا" ورقة مطوية قائلًا:
- إممم! لقد كتبت شيئًا عن الخرفان. استمعوا..
حاول "جينكا" أن يقول القصيدة:
- سيتدفق تيار "سيبيريا"
والألومنيوم الرخيص
سيملأ أي خزائن؟
آه يا الله! نحن جميعًا مثل الخرفان
كلنا جبناء وأغبياء!
هكذا كانت تجرى تجمعاتهم. يتجمعون كعادتهم، ويتحدثون. وتذكروا ذات مرة، عندما كانوا يقودون الدراجات. وظلوا يضحكون، ثم رن جرس الباب.
قام "إجناتي أندريفيتش" من على كرسيه، وهو يقول:
- ربما هذا "فيكتور"، لقد وعدني بأنه سيأتي اليوم.

كان هناك شُرطي يقف وراء الباب. وعلى كتفيه نجمتان، أي أنه ملازم أول.
- مرحبًا، أنا مفوض منطقتكم، هل تسمحوا لي؟
شعر "إجناتي أندريفيتش" بالارتباك، وتحرك جانبًا ليجعله يدخل.
سأل الشرطي ولم ينتظر الإجابة داخلًا إلى الغرفة:
- "إجناتي أندريفيتش"؟ مرحبًا بك. هناك بعض الدخان هنا.
لم يُثبت الشرطي هذا، وكأنه يُدلي ملاحظة ليس إلا.
كان الرجال صامتين وينظرون إلى الشرطي. وقد بدا لكل منهم أنه سيُقبض عليه لإجراء أو فعل غير قانوني، أو على أقل تقدير، سيئ ومذموم.
وبعد لحظات قليلة، سأل "أليكسي بريوخانوف": - وما هذا؟
- نعم، هذه بلاغات قادمة. ويجب عليَّ التحقق. يقولون إن هناك اجتماعات تُعقد في هذا المكان بانتظام.
فقال "إجناتي أندريفيتش"، لأنه كان صاحب المكان:
- نجتمع، كمواطنين، ونتذكر ما مضى. ما المشكلة في هذا؟
فأومأ الشرطي برأسه وكأنه لم يصدق هذا:
- حسنًا، أنا أفهم.. أفهم، لكن في الوقت نفسه يجب أن أتحقق، ولا سيما أن الموقف في البلاد غير عادي، وهناك قوى مختلفة تظهر. هل سمعتم عن المؤامرة التي تم اكتشافها في موسكو؟ لا؟ يتحدثون عنها باستمرار على شاشات التليفزيون؛ مجموعة من الأشخاص كانوا يخططون لإغلاق السكة الحديدية في "سيبيريا" لتهريب المساجين في "أنجارسك" حتى ينشروا الفوضى وأعمال الشغب في البلاد. وكانوا قد التقوا العديد من الشخصيات الأجنبية، فتم القبض عليهم، واستجوابهم. ويتم الآن البحث عن الشركاء، وقد نشط المدونون، وكل أنواع الانفصاليين.
سأل "إجناتي أندريفيتش" بسخرية، وقد تذكر كلمة "انفصالي":
- ومَنِ الانفصاليون؟
- مَن يريدون الانفصال، حتى تكون "سيبيريا" منفصلة، على سبيل المثال.
قال "جينكا جلوخيخ" بمزاح:
- كان ذلك سيكون جيدًا.
قفز الشرطي وكأن أحدًا قد لدغه:
- حسنًا! لا حاجة لمثل هذه التصريحات. هذا أمر من الممكن أن يعتبركم أعداء للبلد في هذه الأوقات.
ثم نظر إلى كبار السن الجالسين، الذين تظهر على وجوههم التجاعيد، في الغرفة: - لذلك أطلب منكم، أيها المواطنون، أن تتوخوا الحذر. متفقون؟
فهز الجميع رؤوسهم من دون حماس.
فالتفت الشرطي إلى "إجناتي أندريفيتش":
- وأنت صاحب الشقة، لو كنت فهمتُ جيدًا.

- نعم..
- إذا سمحت لي، سأزورك من الحين إلى الآخر. أنت شخص وحيد، وكبير في السن.
وعندما رحل الشرطي، غضب الجميع ثم ضحكوا. يبدو أنهم فهموا هذه الزيارة على أنها سوء فهم أو مزاح، لكن منذ ذلك اليوم، بدؤوا يأتون إلى "إجناتي أندريفيتش أوليف" بصورة أقل وبأعداد أقل. وبعد مرور شهر واحد، توقفت تلك التجمعات نهائيًا. ليس لأن الرجال كانوا يخافون من الشرطي وتحذيراته، ولكن المناخ أصبح غير مريح، حيث قتل دخوله المفاجئ الحالة المزاجية الجيدة، وكسر الدفء المنتشر آنذاك. حتى حزن الذكريات أصبح مزيفًا.
قضى "إجناتي أندريفيتش" أيامًا أمام التليفزيون. وكان يشاهد كل أنواع الهراء، ويقلب القنوات بمجرد سماعه للأخبار. لكنه ومع ذلك، تمكن من سماع معارك ضارية في سوريا، وسقوط مئات القتلى والمصابين، وحُكم على العقيد السابق "كفاتشكوف" بالحبس ثلاثة عشر عامًا لمحاولاته على التمرد، وتم تحطيم طائرة في "ليبيريا"، وانفجار غاز المناجم في جمهورية كومي، وتحطم طائرة أخرى في أوكرانيا، أما في أوروبا فتم اكتشاف مطاعم تقدم لحم الخيل بدلًا من لحم البقر، وأثار هذا فضيحة كبيرة.
كل خبر منفصل، وكل برنامج كان يميل إلى تفكير معين، لكنهم كانوا كثيرين للغاية، لدرجة أنهم يتدفقون عليك مثل أمواج البحر، فتغرق فيهم.
لم يكن "إجناتي أندريفيتش" يحب القراءة، ولم يكن يفهم كيف يمكن للمرء أن يقضي ساعات كاملة في قراءة سطور. كان طوال حياته يقضي وقته في الأعمال البدنية؛ يحفر في الأرض، يقلب التربة، يسمر الألواح، يصب الأعمدة، أما الآن، ولأنه لا يفعل شيئًا لمدة عامين، فيشعر بالضعف والتدهور.
وبعد مرور عدة أشهر من التنقل بين القنوات، شعر بألم في عظم يده. وأخذ الجلد المتحجر المتورم في التقشر في بداية الأمر، ثم أخذت طبقات كاملة تتقشر. وسقطت كذلك الأجزاء الصفراء في راحة اليدين وفي أسفل الأصابع، لكنها لم تسقط على الفور، وإنما بشكل تدريجي. فحاول "إجناتي أندريفيتش" أن يزيلها، لكنه لم ينجح، كان الأمر مؤلمًا. وكأنه يزيل جلده غير الناضج.
وتحت هذه القشرة، كان هناك جلد أحمر اللون كما لو كان قد حُرق. فكانت تؤلمه عندما يغسل الصحون، وعندما كان يستحم. وأصبحت الأصابع مرنة وحساسة للغاية، لدرجة أنها تشعر وتتعرف على حبة السكر الصغيرة.
- هاهاها، سأبدأ العزف على البيانو قريبًا..
حرك " إجناتي أندريفيتش" أصابعه ونظر إليها، كان منزعجًا وفي الوقت نفسه يشعر بأنها جديدة، كما لو أنها تغيرت تمامًا.

وفي نهاية الأمر، كانت دبلة الزواج تسقط من تلقاء نفسها، ومن دون أي مجهود، بعدما كان قد استقر في مكانه لأكثر من أربعين عامًا. فبعد موت الزوجة، أخذ "إجناتي أندريفيتش" يفكر في خلعه. ويغضب من نفسه بسبب هذه الفكرة: "اللعنة! لا للزواج مرة أخرى!" أما الآن فيخاف؛ هذه الدبلة تُعد علامة ما في اليد. إما أن تجعلك تأخذ امرأة وتذهب بها إلى البيت، أو.. عادة ما يتم دفن الموتى من دون ذهب، حتى أطقم الأسنان تتم إزالتها.

وضع الدبلة في درج الخزانة، وحاول أن ينسى أمرها.

ولكن لم ينسَها، حيث إن الوحدة كانت تضغط عليه، ولم يتبقَ له سوى الشيخوخة وتدهور الحال. كان "إجناتي أندريفيتش" يخرج إلى الشارع كل يوم ويقضي وقتًا طويلًا، ويسير بخطوات بطيئة، ويهيم على وجهه في المدينة متجنبًا الأماكن المزدحمة والطرق السريعة. وقد أقنع نفسه أنه يتجول من أجل الحفاظ على صحته واستنشاق الهواء النقي، لكنه في واقع الأمر كان يبحث عن شيء ما، وينتظر أمور أخرى. وكان يلاحظ أن كبار السن من الرجال والنساء يتجولون بمفردهم ويبحثون عن أشياء أيضًا.

كان يقابل بعض المعارف أيضًا، لكنه كان يتبادل التحيات وفقط حتى مع أولاد منطقته. فلم يكن هناك شيء يُقال. حتى الأخبار القليلة، التي تخص مدينتهم وموطنهم، لم يكونوا يتطرقون إليها. على سبيل المثال، إلقاء القبض على رئيس مديرية إعداد خزان المياه، "رشيد رفعتوف"، لأنه سرق، ويقولون إنه فعل هذا علانية. في النهاية، تم تعويض خسائر "ليوبا جريشينا" صاحبة متجر "سيفيريانكا"، ولكن ماذا؟ ما الفائدة؟ لن يتغير أي شيء. هذا لن يُعيد "بيليفو" والقرى الأخرى، ولن يختفي خزان المياه والسد بسبب هذا. يضطر "إجناتي أندريفيتش" ومئات كبار السن من الرجال والنساء إلى العيش في شقق غريبة غير مريحة، وليست على أرضهم، وفي هواء غير هوائهم. ويبدو أن المستقبل بالنسبة إلى الشباب ليس أكثر إشراقًا. على العكس، سيعانون أكثر من كبار السن. وهو لم يلتقِ السعداء بعد.

وفي منتصف شهر أبريل، اتصلت به ابنته. سألته عن صحته، ثم قالت بنبرة صارمة وخجولة: - أبي..

أدرك "إجناتي أندريفيتش" أنها ستبدأ مجددًا في إقناعه بالانتقال إليها في "آخينسك"، وتقول: - إذا كنت لا تريد شقة، فهناك كوخ جيد.. يمكننا أن نشتريه..

فشعر الأب بالغضب ورغب في مقاطعتها، لكنه سمع كلمات غير متوقعة فاستعاد قوته سريعًا: - أبي.. هل تمانع أن يعيش "نيكيتا" معك لمدة ثلاثة أسابيع؟ نحن نريد إجراء بعض الإصلاحات هنا، وتزيين الشرفة، ثم سنذهب مع "يورا" - زوج الابنة - إلى البحر. سيكون الطقس دافئًا في قبرص، والرحلات رخيصة. لقد شعرنا بالملل في الفترة الأخيرة، ونريد أن نكون معًا. ماذا، هل تعارض؟

سمع "إجناتي أندريفيتش" نبرة خفيفة في صوته:
- حسنًا، موافق. أحضريه!
- شكرًا. وسيكون الأمر مفيدًا بالنسبة إلى "نيكيتا"، إنه في الصف الأول هذا العام. ويريد معرفة المزيد عن بلدته.
- حسنًا، حسنًا! متى ستأتي؟
- عطلة الأسبوع المقبل. يجب عليَّ أنا و"يورا" أن نخطط للعطلة. لم نفعل هذا بعد، وأردنا معرفة رأيك أولًا.
فامتعض "إجناتي أندريفيتش":
- وهل كنت سأرفض؟
- لا، بالتأكيد! لكننا رأينا أن صحتك لم تكن لتسمح لك..
مر نصف الأسبوع، الذي كان ينتظر فيه الحفيد، ببطء شديد. وخلال أول يومين، أعد "إجناتي أندريفيتش" ركنًا في الغرفة من أجل "نيكيتا" وجهز سريرًا، واشترى كتب الأطفال، وكتبًا أخرى للتلوين، بعدما عرف أن الحفيد يحب الرسم.
كانت آخر مرة يأتي فيها الحفيد في الصيف الماضي، جاء بصحبة أمه ولم يظل وقتًا طويلًا. عندئذ، كان عمره خمس سنوات، وهذا يعني أنه الآن يبلغ ست سنوات من العمر. السن الأفضل لقول أشياء مثيرة والعثور على نشاطات مشتركة. كما يقولون؛ كبير وصغير. أبناء الابن قد كبروا، ولديهم الآن مصالحهم الخاصة، أما الابنة فعندها "نيكيتا" فقط. والأقرب أنهما سيذهبان للصيد؛ حيث يقال إن الأسماك تكثر جدًا في البحيرة الصناعية.
أخذ "إجناتي أندريفيتش" يشعر بالضيق من الانتظار، ولم يكن يستطيع النوم في نهاية اليوم. فيدور في الشقة مثل الذئب في الفخ.
ظل الجد ينتظر حتى وصلوا. قضت الابنة الليل، ورتبت كل شيء، على الرغم من "إجناتي أندريفيتش" كان قد رتب الغرفة من قبل، لكن المرأة تعرف أكثر، فوضعت أغراض "نيكيتا" في الخزانة، وتهمس في أذن ابنها بشيء ما وتقنعه وتعود مجددًا.
كبر "نيكيتا" بشكل ملحوظ خلال ذلك العام غير المكتمل، وأصبح أكثر خطورة. فبدا مثل الرجال. فجلس على السرير وأخذ يلعب بقطعة بلاستيكية صغيرة.
فأشار "إجناتي أندريفيتش" قائلًا:
- ماذا لديك؟
فأجاب "نيكيتا" وهو ينظر بجدية إلى شاشة التليفون ويحرك عليها أصابعه:
- "آيفون".. إنه مثل التليفون. وهناك أشياء كثيرة أخرى.
- اختراع جديد؟ هل يمكننا البحث من خلاله؟
- عن ماذا؟
- حسنًا، هناك حدائق للأطفال. يمكنك أن تلعب هناك.

صمت الحفيد. ففكر "إجناتي أندريفيتش" في شيء آخر:
- أم نذهب إلى الصيد. ها؟ لديَّ صنارة جيدة. هيَّا نُجهز أغراضنا ونذهب.
لم يرفع "نيكيتا" عينيه عن الشاشة، وسأل:
- وهل يستغرق الوصول إلى هناك وقتًا طويلًا؟
- عشرون دقيقة تقريبًا.
قال "إجناتي أندريفيتش" هذا وظل ينتظر رد فعل الحفيد لمدة دقيقة كاملة، أما "لنذهب" أو "لا، إنه بعيد". لكنه كان صامتًا تمامًا، وبدا أنه لم يسمع كلمات الجد الأخيرة. لا، لقد سمع.. شعر "إجناتي أندريفيتش" بالاستياء، وكان ينوي إخبار "نيكيتا" بأنه ممنوع أن يتصرف بهذا الشكل.
- أقترح عليك.. أجبني..!
وهنا فاجأه "نيكيتا" بسؤال غير متوقع:
- جدي، هل لديك حديقة؟
- ها؟ لا، ليس الآن. كان هناك واحدة في القرية. هل تتذكر القرية؟
فرفع الحفيد عينيه عن الشاشة ونظر إلى "إجناتي أندريفيتش".
- لا، لا أتذكر.
- حسنًا، كان عمرك حينئذ ثلاثة أعوام فقط. كيف ستتذكر..؟ كانت هناك حديقة كبيرة، ينمو فيها أشجار البطيخ. لقد كنت تأكل منه كثيرًا.
وحاول "إجناتي أندريفيتش" أن ينهي كلامه، لكنه لم يفعل:
- توت ومشمش.. كانت هناك العديد من الفاكهة.
ساد الصمت مرة أخرى، لكنه الآن ليس مؤلمًا، حيث كان "إجناتي أندريفيتش" يسير في ذهنه في أرجاء الحديقة.
نادى الحفيد:
- جدو!
- ها؟
- جدو، وهل القرية لا تزال موجودة؟
كان الحديث عن القرية أمرًا شاقًّا:
- من الأفضل أن تناديني "بيبيه". كنا دائمًا ما ننادي جدودنا هكذا في القرية.
- لكن كلمة "بيبيه" للبنات فقط.
- ماذا؟ كلمة للبنات فقط؟ "بيبيه" تعني الجد بلهجتنا.
ومجددًا، ظهرت فجوة في الحديث. فطرح سؤالًا صعبًا آخر:
- جدي، لماذا نعيش بهذه الصورة المملة؟ لماذا بيوتنا مملة بهذا الشكل؟
- مملة كيف؟
ترك "نيكيتا" "الآيفون" بالجوار وبدأ يتحدث بصوت متأثر وسريع بعض الشيء: - ليس مثل أهل الريف، عندما سأصبح رئيسًا، سأحرص على أن يعيش الجميع في منازل منفصلة. لعل يمتلك الجميع ماشيتهم ودجاجهم

الخاص. فيقوم النساء بالعمل النسائي، أما الرجال فيقتصر نشاطهم على الأعمال الذكورية.
أومأ "إجناتي أندريفيتش" برأسه في حيرة:
- إممم. بالتأكيد سيكون الأمر جيدًا. أنت تفكر بشكل جيد.
- أما الآن فالحياة غير صحيحة. وكل شيء يذهب في العبث. النساء يشبهون الرجال، والرجال يشبهون النساء. ولا يوجد ما تفعله عندما لا تكون في العمل أو في روضة الأطفال. نجلس في المنزل ولا نفعل شيئًا.
قرر "إجناتي أندريفيتش" أن يوضح السبب وراء أن الكثيرين يعيشون في المدن: - نعم، "نيكيتا"، لم نكن نشعر بالملل في القرية. كان الأمر يبدأ منذ الصباح. الدولة في حاجة إلى المدن حتى يتمكن العديد من الناس من العيش معًا. المصانع، والمصانع الصغيرة. يجب أن يكون العمال في الجوار. فمن أجلهم شرعوا في بناء العمارات والشقق. فأخذ الكثيرون يعيشون فيها.
- لكنهم في الأفلام الأجنبية يعيشون في منازل منفصلة. فلديهم حدائق ونباتات.
- نعم، كنت أرى هذا، لكن الأمر ليس هكذا. هذه المناطق والمساحات يجب أن تكون مسكنًا لمليون مواطن. ولكن، بالتأكيد، هذا هو الأصح. وأنتم كذلك لديكم في "آخينسك" العديد من الأكواخ ذات الحدائق.
- إنهم يهدمونها، ليبنوا عنارات ضخمة.
فابتسم "إجناتي أندريفيتش" من كلمة "عنارات". ولم يصححها له، وهز رأسه قائلًا: - حسنًا، نعم..
- طلبت من أمي وأبي شراء بيت، لكنهما لا يريدان.
- لماذا؟
- ليس لديهما وقت. وأبي يحصل على مرتب جيد. ونستطيع شراء ما نراه ضروريًّا، ولكن الآراء مختلفة.
- نعم، ولكن لا يمكن الاعتماد على هذا كله. المرتبات، والمدينة. في أي لحظة يمكن أن يحدث أن يندفع الجميع إلى الأرض مرة أخرى. يتم الآن بناء قلاع كبيرة حول موسكو. ويتم شراء هكتارات من الأرض. ويحضرون أنفسهم.
سأل "نيكيتا" بقلق كبار السن:
- وما الذي يستعدون له؟
- ضرورة العيش على الأرض. سنزرع كل شيء، كما تأمر، عندما تكون رئيسًا. ويحرثون حدائقهم ويزرعون البطاطس، أما هؤلاء، الذين يعيشون في الشقق، فسيذهبون حول العالم.
تنهد "نيكيتا" بصعوبة وأخذ "الآيفون" في يده مجددًا.
فسأل "إجناتي أندريفيتش":

- ماذا، هل نذهب للصيد؟
فأجاب الحفيد:
- لا، لا أريد.
تذكر "إجناتي أندريفيتش" من بين جميع أعياد الكنيسة التي كانوا يحتفلون بها عيد الفصح. حتى في سنوات الاضطهاد، كانوا يرسمون على البيض، ويخبزون كعكة العيد، وفي يوم الأحد، كانوا يحيون بعضهم بعضًا ليس بكلمة "أهلًا" المعتادة، أو "مرحبًا"، ولكن بـ"المسيح قام". وحتى أعضاء الحزب كانوا يجيبون في ذلك اليوم: "حقًّا قام!".
أغلقت الكنيسة الخشبية في قريتهم، ثم هدمت، وبني مكانها نادٍ. لم يكن هناك شارات حمراء متبقية في الأكواخ، وإن وجدت، كان الناس يخبئونها في الغرف الخلفية أو في الخزائن، خلف المرآة. وكانوا يخرجونها في عيد الفصح، ويضعونها أمامهم، ويضيئون الشموع.
كان "إجناتي أندريفيتش" يصوم ويأكل البيض فقط، خاصة قبل أسبوع من عيد الفصح، حتى الأطفال كانوا ممنوعين من الأكل، وكان البيض أحد المنتجات الرئيسية لهم؛ لم يكن اللحم متاحًا دائمًا، لكنهم كانوا يأكلون بيضة أو اثنتين.
وبحلول نهاية الثمانينيات، أصبح الدين أكثر تحررًا، على الرغم من أن هذا لم يظهر في قريتهم وفي المقاطعة بأي شكل من الأشكال؛ لم يتم بناء أي كنائس ولم يتم اتباع أي طقوس. ويتعمدون فقط، عندما يذهبون إلى "كراسنويارسك" أو غيرها من المدن الكبيرة.
في "كوتاي"، أرجعوا المبنى مرة أخرى إلى كنيسة، لكنه سرعان ما تحول إلى أطلال. قبل ذلك، كان هناك مستودع تحت السقف، به نوافذ زجاجية ذات قضبان، وبعد ستة أشهر، أصبحت الجدران العارية مهجورة، ثم بدأت الجدران تنهار.
أطلق بعض السكان المحليين، ومعظمهم من المتخصصين الزائرين، ناقوس الخطر، لكنه لم ينجح: "المنطقة ستغرق بالمياه. فما هو الهدف من استعادة الكنيسة؟"، وقد ظهرت فكرة نقل الجدران ذات الزخارف الفريدة من نوعها إلى "كولبينسك" أو "يانسك"، وسرعان ما تلاشت على الفور، قائلين: "لا توجد أموال لمثل هذه العملية المعقدة. فهذه الكنيسة، بالنسبة لـ"سيبيريا"، بناء فريد من نوعه، أما في الجزء الأوروبي من روسيا، هناك وفرة من هذه الكنائس". ونتيجة لذلك، غمرت جدران الكنيسة بالمياه، ولم تنفق مديرية إعداد السدود والخزانات المال لحمايتها.
أما في المركز الإقليمي الجديد - "كولبينسك" - تم بناء كاتدرائية كبيرة، سميت "بريوبراجينسكي". لم يكن هناك الكثير من أبناء الأبرشية، لكنهم كانوا دائمًا يصلون، أو ربما يحاولون الصلاة. ويدعون الله. لم يعتبر "إجناتي أندريفيتش" نفسه مؤمنًا. وكان في ريعان شبابه، يسخر على النساء اللاتي

يتعمدن في الكنيسة السوداء المغلقة. وبمجرد أن علمت والدته بالأمر، ركضت إليه ودفعته في صدره: "لا تجرؤ! لا تسخر! لقد كان من حسن حظنا أن الجميع على قيد الحياة، فقد عاد والدي من الحرب حيًّا. أما بالنسبة لهن، فكل ما عليهن فعله هو رشم الصليب على صدورهن!".

منذ ذلك الحين، لم يحترم "إجناتي أندريفيتش" هؤلاء الأشخاص ويفهمهم فحسب، بل أعرب عن أسفه لهم. حقًا، الشخص الذي كان كل شيء على ما يرام بالنسبة له لم يكن في الحقيقة في خطر الوقوع في الدين، ولكن التعساء الذين يحتاجون إلى الأمل والدعم. ولقد كان "إجناتي" يعتمد على قوته الشخصية، وتصور حياة قوية وكريمة وعادلة. فقط خلال السنوات الأخيرة، وما فيها من وفاة الزوجة والابتعاد عن الوطن طواعيةً، أصبح أسير الوحدة. ومن ناحية أخرى، لم يكن المعاش، الذي يحصل عليه، صغيرًا، وكذلك الشقة، التي كانت تتميز بغرفة كبيرة، والشرفة الزجاجية الأنيقة. فيمكنك أن تضع فيها طاولة للعمل أو ما شابه. الحقيقة، هناك مغزى ما.

أما في شبابه، كان يحب الأعياد، وكان يسعد عندما تتم دعوته للزيارة، وفي بعض الأحيان، كان نصف سكان القرية يتجمعون حتى الصباح، لكن رغبته في الاحتفال قد اختفت على مر تدريجيًّا، حتى ليلة رأس السنة الجديدة، ينتظر بطريقة ما أن تدق الأجراس، وينام. ولم يذهب أبدًا إلى منازل الآخرين، ولم يدعُ أحدًا عنده أبدًا.

العطلة الوحيدة التي كان ينتظرها، وكان يستعد لها، عطلة عيد الفصح.

كان هناك العديد من إجراءات الإصلاح في "بيليفو" قبل عيد الفصح، مثل تبييض وطلاء الجدران، وغسل وبسط السجاد، وفي أواخر عيد الفصح، يلتقطون العديد من الصور، كما قاموا بتنظيف قبور الأقارب، ويزينون المقاعد والأسوار بالورد الورقي.

عادة ما يتجمع الناس لإحياء ذكرى الموتى يوم السبت الأول بعد عيد الفصح، ويضعون قبر فارغ في الكنيسة. ويضعون البيض والحلويات وقطع الكعك قد أعدوها منذ فترة. ويضع البعض الفودكا في الكؤوس أمام النصب، وآخرون يدخنون، ويضعون اثنتين من السجائر أمامهم.

قام "إجناتي أندريفيتش" حتى بعد وفاة زوجته، كل ربيع تقريبًا، بتبييض الكوخ بفرشاة من الريش وتنظيف السجاد والستائر، والمراتب، والحديقة، وتصليح الأشياء بالمسامير. ويقوم بتنظيف المقبرة. ويرسم على البيض بنفسه بقشر البصل، لكنه يشتري الآن كعكة عيد الفصح من المتجر – كانوا يبيعون تلك الكعكة في مخبز "كوتاي" هناك.

لم يحتفل "إجناتي" بعيد الفصح الأخير، فقد خارت قواه. ولم يرسم على البيض، لم يكن هناك قشر للبصل، وبدا من الغباء والإهانة البحث عنه أو السؤال عنه. لم يذهب إلى المقبرة أيضًا. فقد ذهب إلى هناك مرة واحدة

فقط، عندما كانوا يدفنون أولئك الذين تم نقلهم من "بيليفو"، لكي يرى مكان قبور الوالدين والزوجة والأعمام والأصدقاء.

لم يعد بإمكانه القيام بكل هذا بعد الآن، كما كان المبنى السكني الجديد الخاص به مختلفًا تمامًا عما يُعرف باسم عادة القبور. وكان يأمل أن يسامحه الموتى.

ربما لم يكن "إجناتي أندريفيتش" قد استعد هذا العام لعيد الفصح، لكن حفيده كان قريبًا منه، وفكر "إجناتي" قائلًا: "دعه يعتد على الاحتفال بمراسم عيد الفصح، على الأقل سيبقى في ذاكرته إلى الأبد..".

ساعد "نيكيتا" في بداية الأمر على مضض، ساخرًا من هذه الترتيبات، وأحيانًا يفعل ذلك بيد واحدة، ويمسك بالأخرى جهاز "الآيفون"، لكنه سرعان ما انجذب إلى هذه الترتيبات.

بالطبع، لم يجروا جميع الترتيبات، ولم تكن هناك حاجة لطلاء الشقة، فهي ما زالت جديدة، وورق الحائط لم يتسخ بعد. أما في الكوخ، كانوا يشعلون الأخشاب خلال فصل الشتاء، للحصول على تدفئة، وتتحول الجدران إلى اللون الرمادي، ويكون الموقد أسود بشكل عام، ولكن هنا، بالطبع، ليس الأمر كذلك. واكتفوا فقط بتنظيف الموقد وغسل النوافذ، وحملوها إلى الفناء، ونظفوا الممرات والسجاد (كانت هناك سجادة معلقة على الحائط، لم يجرؤ "إجناتي أندريفيتش" أن يزيلها وينظفها). وقام "نيكيتا" بالضرب بالمنفضة على السجاد لكي تخرج الأتربة منها. خرجت الأتربة من السجاد، وكأنها هالة صغيرة أفقية تتطاير في الهواء، وكان "إجناتي أندريفيتش" سعيدًا بذلك، فهذا من وجهة نظره يعني أن العادة لم تمت بعد.

ثم قاموا بعد ذلك بغسل الأرضيات، ووضعوا السجاد، الذي تفوح منه رائحة النسيم المنعش، على الأرض من الردهة إلى الغرفة.

ثم قال "إجناتي أندريفيتش":

- سنبدأ غدًا في غسيل أشياء أخرى. يجب أن نكون نظيفين في عيد الفصح.

كان لديه هو وحفيده الكثير من الملابس، وبياضات والأغطية المتسخة. ولم يرغب "إجناتي" في تركها متسخة في العطلة، وأن يشغل حفيده بشيء ما.

وضعت الأغطية في الغسالة ماركة "أوكا"، وفركت القمصان والجوارب على لوح الغسيل.

وهذه هي المرة الأولى التي يرى فيها "نيكيتا" هذا اللوح، وكان مندهشًا.

أوضح "إجناتي أندريفيتش" مهمة هذا اللوح:

- هكذا كان الناس يجعلون غسيلهم نظيفًا.

وظل يمدح نفسه، لأنه لم يرم هذا اللوح.

- جدي، هل يمكنني أن أجربها؟

- بالطبع، هيَّا. سآخذ استراحة.
وبدأ الحفيد يحرك جواربه على هذا اللوح المموج.
وقال له الجد:
- أحسنت. انظر إلى الطين الذي يقع منها. لا توجد آلة للغسيل تستطيع فعل ذلك.
ثم قاموا بعد ذلك بشراء فرش باللون الأبيض والأزرق وطلاء بني وزهور اصطناعية. وفي صباح يوم السبت، قبل أسبوع من عيد الفصح، ذهبوا إلى المقبرة. ثم قال "أجناتي أندريفيتش": - عليك أن تعتني بالقبور. لقد نقلنا موتانا من القرية، كما ترى، وتأكدنا من أنهم قريبون لنا. كانوا سيغرقون إذا تركناهم هناك.
قاطعه "نيكيتا"، قائلًا:
- كيف سيغرقون؟
- حسنًا، لقد حدث فيضان في قريتنا. نتيجة محطة الطاقة الكهرومائية، فهم يعملون الآن على استخراج الكهرباء من المياه.
- نعم أعرف ذلك. ليس فقط من الماء، ولكن من الطاقة. تمر الطاقة عبر التوربينات، ويولد التيار الكهربائي.. هل غمرت المياه القبور؟
- كيف ستغمرها؟ لقد نقلنا بالفعل موتانا إلى هنا. ولم يبقَ سوى القبور المهجورة.. قليلًا منها. لذلك، من الضروري أن نذهب بين كل حين وآخر إلى المقابر، حتى نتمكن من رؤية مَن يرقد هنا، من العائلة.
ثم ركبوا بعد ذلك الحافلة، متجهين نحو المقبرة. التقوا على الفور السيدة "فالنتينا لوجينوفا". وقال "إجناتي أندريفيتش": - سأذهب أنا وحفيدي إلى القبور لكي نضع عليها الورد ونزينها.
أشرق وجه "فالنتينا" القلق بابتسامة:
- هل هذا حفيدك؟
- بلى، "نيكيتا". سيذهب في فصل الخريف إلى المدرسة.
- حسنًا. أنا أيضًا قررت أن أزور المقابر، لكن أصبح المكان هناك يبعث الكآبة، حزين جدًّا يا إلهي! لقد كانت المقابر في قريتنا جميلة جدًّا، وما أجملها!
ثم بكت "فالنتينا" كالمعتاد. وانهالت الدموع من عينيها وأصبح صوتها مرهقًا.
وصلوا بعد ذلك إلى المحطة الأخيرة، التي تقع بالقرب من مقبرة المدينة. في الآونة الأخيرة، بدؤوا في تقسيم المقابر، إلى مقابر المدينة، ومقابر مواطني إعادة التوطين.
كان هناك الكثير من الشجيرات والأشجار، بين القبور، والصلبان، والتوابيت، وهناك أيضًا العديد من التلال المغطاة بالعشب. وكانت هذه المنطقة مخصصة لأول ساكني "كولبينسك"؛ أولئك الذين جاؤوا إلى هنا في

السبعينيات لإغلاق النهر بالحجارة، وحفروا أساسات السد، وبنوا أكواخًا وثكنات مؤقتة. كانوا في الغالب أُناسًا منعزلين، مهاجرين من أماكن بعيدة، ولم يكن هناك أحد يهتم بذكراهم. كما تعفنت اللوحة الجدارية الصغيرة ذات النجمة الحمراء التقليدية التي توجد في هذه المقابر، وتلاشت أسماء الموتى وألقابهم من لافتة المقابر، كما لو لم يكن هناك أحد ما ميت هنا. فبالكاد يمكنك تحدد أن هذه الأرض بها مقابر.

وكانت هناك أيضًا قبور جيدة العناية بها، مع أسوار مفتوحة، ومقاعد وطاولات إحياء ذكرى، محاطة بأشجار عيد الميلاد، وأشجار الكرز، ونبات الـ"مسيلتو". بدا أنه كان من الجيد والهادئ أن يرقد الموتى هناك، وكأن حياتهم من قبل كانت عادلة ومليئة بالخير ولم يمضوها عبثًا. ثم سأل "نيكيتا"، على ما يبدو بدأ يتعب: - هل اقتربنا؟

كان الطريق الريفي على طول المقابر منحدرًا بشكل ملحوظ. ولكن المشي فيه أمرًا مرهقًا حقًّا.

وكان عيد الفصح في هذا العام - ٥ مايو - وهما الآن في الأيام الأخيرة من شهر أبريل. الشمس حارة، والغبار الخانق يرتفع مع كل خطوة يخطوها على الأرض. ها قد نفدت الصلبان الرمادية الباهتة، والأشجار، وتوجهوا الآن إلى مقابر الدفن الأخيرة.

ثم قالت "فالنتينا لوجينوفا"، وهي تسير في المقدمة:

- ها هي مقبرة "ناتاليا سيرجيفنا". توقفوا!

وقفوا. وتذكر "إجناتي أندريفيتش" كيف حفروا قبرها في القرية منذ خمس سنوات. وقام "إجناتي" بحفر القبر في هذا الوقت مع الرجال الصغار سنًّا، فلم يكن "إجناتي" عجوزًا في ذلك الوقت. وصنعوا لها نعشًا، وغطته النساء المسنات بقطعة قماش حمراء، واستعدت النساء لتأدية مراسم العزاء، لكن ابنة "ناتاليا سيرجيفنا" دفنتها هنا، وهذا أمر صحيح، لو كانت قد دفنت هناك، لكانوا سينقلونها إلى هنا. إنه أمر ليس جيدًا.

ردت "فالنتينا" على هذه الأفكار:

- على الأقل، هي الآن في مكان جيد. جاف، ليس مثلنا.

نعم، تم دفن الذين تم نقلهم من القرى في أراضٍ رطبة؛ الأراضي المنخفضة، حيث كانت هناك غابة. تم قطع شجر الحور بالجرافة، وحفروا الخنادق، ووضعوا عظام الموتى من "بيليفو"، و"كوتاي"، و"أوبليك بيك"، و"بولشاكوف".

كانت هناك صفوف من الصلبان الرتيبة. وتذكر "إجناتي أندريفيتش"، بهذه الصفوف، صور مقابر الألمان، الذين ماتوا في روسيا خلال الحرب. هذا النظام الرتيب دون روح.

كان ترتيب وضع المقابر في القرية مختلفًا؛ حيث كانوا يدفنون الأقارب جنبًا إلى جنب، على شكل دائِرة، وكان هناك الكثير من النصب التذكارية

على القبور، فيقوم الناس بأخذها، ثم يقولون إنها جزء من قبر عائلة "بريفاليخين"، أو من عائلة "زوبورتسيفز"، و"روكوسويفز"، و"برياخانوف"، و"سيزيخوف". أو هنا من عائلة "إيسكيرتس"، و"جامبورجز". أما المقابر القديمة، فكان لها صلبان تابعة للاتحاد السوفيتي، وليست روسية في شيء. أما صلبان المقابر التي دفنت مؤخرًا فهي لنا..

والآن كل شيء متشابه. فقلما ترى علامة مميزة على القبر. ويعني هذا أن أحد الأقارب قد أخذ نصبًا تذكاريًّا من ساحة الكنائس أو القرى، أو أنهم أحضروا بأنفسهم، ثم مسك "نيكيتا" يد "إجناتي"، وقال له: - جدي، هناك نهر صغير، أليس كذلك؟

قال له "إجناتي":

- أين؟

ثم رأى "إجناتي أندريفيتش" قطعة من الثلج على مسافة على اليمين، فقال: - أوه، نعم. ليس نهرًا، ولكن هذا.. خزان.

- هناك أيضًا ماء.

لهثت "فالنتينا لوجينوفا"، قائلة:

- ماء!

لقد زحفت الماء بين التلال، مثل مخالب الأخطبوط. ومن الصعب إضاعة الوقت والطاقة لامتصاص وتغذية التربة الجافة. يبدو أن نهايات هذه المخالب ستغرق الأرض، مما جعلها بنية ورمادية اللون، أو ربما سوداء تقريبًا، ولكن بعد بضع ثوانٍ، ازدادت مخالب المياه هذه مرة أخرى سريعًا، وسرعان ما ابتلعتها هذه التربة الجافة، واختفت مرة أخرى.

أصبحت خطوط المياه هذه تزداد أكثر فأكثر، ويتسللون على طول الممرات، حتى وصلت إلى المقبرة. ظلوا يركضون بين الصلبان على الطريق.

صرخت "فالنتينا"، قائلة:

- يا إلهي! ما هذا..؟

نظر "إجناتي أندريفيتش" إلى يديه، وكأنه يتوقع أن بحوزته مجرفة، لكنه كان يحمل حقيبة بها طلاء وفرش وماء. وماذا يمكنه أن يفعل بمجرفة الآن؟ الشيء الرئيسي هو ألا يفقد حفيده في هذه الضجة. وقف "نيكيتا" بجانبه، محدقًا إلى خطوط المياه التي تزداد بذهول.

قالت "فالنتينا":

- آلو آلو! الماء ستصل إلى المقبرة! لا أدري ماذا أفعل..؟ سأبلغ الجميع أن الماء قادم.

قفز رجل مألوف يرتدي السترة المموهة إلى "إجناتي أندريفيتش"، وقال:

- خذ الطفل بعيدًا! هناك مشكلة في مياه النهر، كما ترى. لذلك يمكن أن يتدفق أكثر فأكثر!

لكنه لم يركض أبعد من ذلك، ونظر حوله، وأشعل سيجارة، وقال:
- يا له من مصير! لقد وصلت المياه إلى هنا أيضًا.
ثم أخذ بضع نفخات سريعة، وأسقط سيجارته، وقال لهم:
- عليكم المغادرة. اركضوا!
اتجه صاعدًا في اتجاه الطريق، وأتبعه "إجناتي أندريفيتش" مع "نيكيتا" خلفه. في حين كانت "فالنتينا لوجينوفا" تبكي وتركض خلفهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت بحمد الله وتوفيقه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

..

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول

مكالمة تليفونية

الفصل الثاني

إلى الأرض الغريبة

الفصل الثالث

أمام المحاكم

الفصل الرابع

"تشيرنوشكا"

الفصل الخامس

سراب تحت الماء

الفصل السادس

في مكان جديد

الفصل السابع

إخراج الموتى من القبور

الفصل الثامن

لا شيء شخصيٌّ

الفصل التاسع

معلومات سرية

الفصل العاشر

الماء يغمر